كلمة الوزارة

أ. الدكتورة لبانة مشوّح
وزيرة الثقافة

الإبداع في التكريم

لا شكّ في أنّ حماية الأوطان وبناءها وضمان تقدّمها يقع على عاتق كلّ فرد فيها أيّاً كان موقعه.

لكنّ مسؤولية البناء لا تتوزّع بالتساوي على الناس جميعاً بل تتعاظم كلّما ازداد المرء علماً، وتعمّق معرفة، وارتقى فكراً وعملاً إلى مراتب أسمى. لذا كان لأهل العلم والفكر الحظ الأوفر من أعباء النهوض بالمجتمعات الإنسانية وقيادتها، وكان للمبدعين شرف كسر قوقعة الخمول الذهني وإشعال جذوة الفضول لإنقاذ العقول من الانغلاق والنمطية والتحليق بها في فضاءات رحبة. هؤلاء لهم فضل منح العقل نشوة الترحال، وتسليحه بأدوات التفكّر والبحث والاكتشاف قبل أن يرسو على موانئ الحضارة والنور.

وكما تقع على العلماء والمبدعين مهام جسام تجاه أوطانهم والإنسانية جمعاء، تقع على الأوطان مسؤولية كبيرة، ألا وهي تأمين التربة الخصبة لإنبات بذور الإبداع وتفتّح براعمه، وتهيئة البيئة الحاضنة ليطرح ثماره ويعمّ خيره.

ومـن هـذا المنطلق، وإيماناً بأهميـة المبدعين في بناء العقـول والأوطان أصدر السيـد رئيسُ الجمهورية المرسـوم التشريعي رقم ١١ لعـام ٢٠١٢ القاضي بإحداث جائزتين في مجال الأدب والفنون، الأولى تسمى جائزةَ الدولة التقديرية، والثانية هـي جائـزةَ الدولـة التشجيعية، ترسيخاً لضرورة رعايـة الفنون والآداب في وطن لطالما كان منـارة للإبداع بشتـى صوره، وتأكيـداً أنَّ للثقافة والمثقفـين في سورية الحضـارة مكانـةً مميـزة الأمر الذي اقتضـى التنويه بهم ورعايتهـم لأنَّهم أحدُ الدعائـم الأساسيـة في بناء الوطن وضمان تقدّمه وإعـلاء كلمته، والحفاظِ على المكانة التي تبوّأها عن جدارة بين شعوب العالم.

ولا تقـارن القيمـة المادية لهذه الجوائـز، وإن كانت مجزيـة، بقيمتها المعنوية. فهـي وسـام على صدر مستحقيهـا، وشهادة تميّز أعمالهم وتيسّر لها سبل الشهرة والانتشـار. والدولـة إذ تمنـح هـذه الجوائـز إنّما تـردّ لأصحاب الحـق بعضاً من حقهـم في التنويه والرعايـة، وتؤسس لمفاهيم جديدة يفترض أن تنعكس إيجاباً علـى الحياة الثقافيـة والإبداعية فتكون أحد حوافز التميّز والابتكار في الإنتاج الأدبي والفكري والفني.

لكنَّ الدولـة ليست بالضرورة الجهة الوحيدة التي يفترض أن يعوّل عليها في دعـم الإبـداع والمبدعين، فهناك مؤسسات غير حكوميـة دخلت هذا الميدان المشرّف وأخـذت تعمـل في هذا الاتجـاه لأغراض مختلفـة ليس هنا مجـال بحثها. وثمة جوائـز ذاع صيتهـا في العـالم لا تمنح مـن جهة رسمية بل ينفَـق عليها من أموال منظمـات أو أمـوال خاصة إمّا تعظيمـاً لمآثر من تحمل اسمه كجائـزة سنغور، أو تكفيراً عن ذنب اقترفه كجائزة نوبل، أو نيلاً لشهرة لم يدركها كجائزة غونكور.

وجائـزة غونكور الأدبيـة تمنحها كل عام أكاديمية غونكور، في السابع من شهر تشرين الثاني، في باريس عاصمة الأنوار. وهي رمزية بقيمتها المادية التي لا تتجاوز عشرة يـورو!!! لكنّها عظيمـة بقيمتها المعنويـة التي لا تقدّر بثمـن، فهي محط أنظـار الكتّاب والقرّاء على حد سواء، فمـن يتوّج بها يدخل تاريخ الأدب والشهرة من أوسع أبوابه وتدرج روايته على قائمة أهم الكتب وأكثرها رواجاً، تتلقفها أيادي

القرّاء وتشبعها أقلام النقّاد درساً وتحليلاً. وهو اليوم حال جيروم فيرّاري آخر الفائزين بالجائزة لعام ٢٠١٢ عن روايته عظة حول سقوط روما.

ولجائزة غونكور الأدبية قصة تروى. هي جائزة تمنحها كل عام أكاديمية غونكور الفرنسية التي هي كناية عن نادٍ أدبي أسس عام ١٩٠٠ تنفيذاً لوصية خطّها إدمون دو غونكور (١٨٢٢-١٨٩٦) وأودعها الكاتب بالعدل قبل ستة أعوام من وفاته، أعرب فيها عن رغبته ورغبة أخيه الأصغر جول دو غونكور (١٨٣٠-١٨٧٠) أن يخلّد ذكرهما بتأسيس المجمع وبمنح جائزة سنوية لعمل روائي ينشر في العام نفسه.

لم يكن الأخوان دو غونكور من الأدباء ذائعي الصيت في زمانهما، ولا وصلت مؤلفاتهما إلى القرّاء في عصرنا. لكنهما حلما بشهرة جافتهما، وما كان لهما أن ينالاها لولا تأسيس الأكاديمية وتخصيصها لتلك الجائزة الأدبية التي كنّيت تيمناً بهما فخلّدت اسمهما.

ولد إدمون دو غونكور في مدينة نانسي الفرنسية عام ١٨٢٢، ورأى أخوه جول النور بعده بثمان سنوات أثناء الاضطرابات السياسية التي اندلعت عام ١٨٣٠. ما لبث الطفلان أن أصبحا يتيمي الأب، وسرعان ما خطف الموت أختهما، فعاشا وحيدين في كنف أمهما التي أغدقت عليهما من حنانها وحرصت على أن يتسلحا بالعلم، على الرغم من ثروة طائلة ورثاها. لكن الموت عاجل أمهما عام ١٨٤٨ فوقعا فريسة حزن لا يوصف على فراقها، وبدا العالم وكأنه ينهار من حولهما. تملّك الأخ الأكبر عندئذ شعور راسخ بأنّه مسؤول عن أخيه، فكتب مخاطباً أمه وهي في الدار الآخرة: «أمي، عندما كنت مستلقية على سرير الموت، وضعتِ يدَ ابنك الحبيب المفضل في يدي و تركتيه في عهدتي، و رمقتني عيناك بنظرة لا يمكن أن تنسى».

هجر إدمون مهنة المحاسبة التي برع فيها ليتفرّغ للعناية بأخيه جول. نعُم الشقيقان بفضل ميراثهما بحياة ميسورة، وانصرفا للأدب والفن في مجتمع

باريسي نشطت فيه الحركة الأدبية والفكرية حتى بلغت أوجها، وبات ارتياد الصالونات الأدبية إحدى سماته المميزة.

تنقّل الشقيقان بين مهن عدة فكانا مؤرخين وصحفيين، ومارسا الرسم المائي والنقش، ثم أصبحا روائيين. لكن شغفهما بجمع التحف والأواني المزخرفة طبع أسلوبهما الأدبي، فانصرف جلّ اهتمامهما إلى وصف البيئة المادية المحيطة أكثر من عنايتهما بالإنسان والغوص إلى عوالم النفس البشرية. عِيبَ عليهما إفراطهما بتصوير التفاصيل الدقيقة للموجودات، فتراهما ينفقان صفحات طوالاً من كتابهما تاريخ الثورة الفرنسية في وصف مفروشات عصر الثورة وأوانيه ومجوهراته من قلادات وخواتم مرصّعة بأحجار كريمة، بدل التفصيل في سرد الأحداث التاريخية التي لا يأتيان على ذكرها إلا نادراً. هذا الميل الشديد لوصف الأشياء بدقة متناهية أنتج ما أسمياه بـ «الكتابة الفنانة» **l'écriture artiste** حيث تحتل التفاصيل الحيز الأكبر وتتغلب على ما عداها، ويشكل الواقع الملموس بكل دقائقه مادة الأديب الفنية من دون منازع. لكن المبالغة في النزعة الواقعية جعلت عشرات الروايات التي نشراها لا تلقى أي رواج.

لم يثنهما فشلهما في نيل تقدير الأوساط الأدبية عن السعي للشهرة بشتى الوسائل، فبدأا بارتياد صالون الأميرة ماتيلد دو بونابرت الأدبي، ثم صار لهما صالونهما الأدبي الخاص، ولما فشلا في نيل مجد مستحق ذهب إدمون إلى حد اتهام الروائي الكبير إميل زولا بأنه سرق منه ريادة تيار النزعة الطبيعية في الأدب ونسبها إلى نفسه!!

انصرف الأخوان دو غونكور في أوقات فراغهما لكتابة يوميات تعدّ أهم ما أنجزاه. فقد اتخذا منها ملاذاً للهرب من ضجيج الحياة الباريسية الصاخبة، بما فيها كل ما اعتمل في نفسيهما من ألم وأمل ومتعة، وكل ما خرجا به من انطباعات متطابقة عن الناس والأشياء من حولهما، فكانت بمثابة صوت واحد لروحين توءمين. خطّا بيد واحدة وثيقة تاريخية اجتماعية تعد مرجعاً للباحثين. لكنّها جلبت عليهما حنق الوسط الأدبي والفكري إذ فضحت عجرفتهما وسلاطة

لسانيهما وميلهما للتجريح. فقد هجيا فيها بقسوة منْ عاصرَهما من الأدباء، فوصفا الأديب بلزاك بـ «الجاهل المقزز»، والكاتب والمؤرخ والفقيه جوزيف إرنست رونان بـأن «له وجهاً أحمر خشناً كقفا القرد»!! ولم يجدا ما يدفعان به عنهما تهمة التمرّس بالنميمة والتجريح إلاّ التذرّع بـ «الحرص الشديد على الصدق في التعبير والنفور من القبح»!!! وأيّاً كانت حقيقة الأمر، فإنَّ الاقتصار في تلك اليوميات على الملاحظة والتدوين والتعليق بدل خلق عالم يعج بالحياة بناسه وأشيائه وأحداثه جعل منها عملاً لا يرقى لمصاف الإبداع الأدبي.

عاش إدمون دو غونكور أواخر أيامه وحيداً حانقاً لعدم نيله الشهرة التي طالما تاق إليها. لكنه وجد السبيل إلى الخلود بذكاء قلّ نظيره حين أوصى بتأسيس أكاديمية تحمل اسمه وتؤول إليها كل ثروته.

واليوم غدت جائزة غونكور مفخرة لمن يفوز بها ولمن يمنحها على حدٍّ سواء. ولعلَّ للأسماء الكبيرة التي تتألف منها لجنة التحكيم بعض الفضل في ذلك. فهي تتكون من أعضاء الأكاديمية أنفسهم وعددهم عشرة، انتخبوا لسمعتهم ولعلو شأنهم في ميادين الأدب والنقد. منهم الصحفي والأكاديمي ريجي دوبري رفيق نضال تشي غفارا وبابلو نيرودا وسلفادور أللندي، والكاتب والسينمائي الشهير فيليب كلوديل، والصحفي والناقد الأدبي برنار بيفو الحاصل على عشرات الجوائز الأدبية والنقدية والإعلامية، والكاتب والصحفي بيير أسّولين. ومنهم روائيون فازوا بالجائزة ثم كرّموا ثانية إذ انتخبوا أعضاء في الأكاديمية، ومن هؤلاء الأديبة إدموند شارل رو الفائزة بالجائزة عام ١٩٦٦ عن روايتها انسوا باليرمو وهي ترأس الأكاديمية منذ عام ٢٠٠٢، وقد ترجمتْ كتبُها إلى ثماني عشرة لغة، والأديب مغربي الأصل الطاهر بن جلون الحائزَ على الجائزة عام ١٩٨٧ عن روايته الليلة المقدّسة، و الروائي السينمائي ديديه دوكوان الفائز بالجائزة عام ١٩٧٧ عن روايته جون الجحيم، وباتريك رامبو الحائز على الجائزة عام ١٩٩٧ عن روايته المعركة التي نال عليها أيضاً الجائزة الكبرى للرواية من مجمع اللغة الفرنسية.

الشرط الوحيد لترشّح عمل للجائزة أن يكون عملاً روائياً مكتوباً باللغة الفرنسية وأن يكون الناشر فرنسياً، وللناشر وحده الحق بتسليم أعضاء لجنة التحكيم نسخاً عن الرواية المرشّحة. أمّا المعايير التي تمنح على أساسها الجائزة فيترك أمرها لذائقة الحكام وتقييم كل منهم للعمل الروائي.

تجربة كهذه يزيد عمرها على قرن ونيف تستحق التأمل في أسباب نجاحها وربما الاستئناس بها وبسواها من التجارب العريقة وصولاً إلى أفضل صيغة ملائمة لتطوير آليات ومعايير منح الجوائز الوطنية.

فإذا كان تكريم الإبداع واجباً وطنيّاً، فإنّ الإبداع في التكريم هو أحد الأسس التي تضمن تحقيق هذا التكريم لأهدافه على المدى المباشر والبعيد، وعلى الصعيدين الشخصي والوطني؛ بل إن أثر التكريم قد يمتد ليشمل الحركة الإبداعية الإنسانية، إذا ما أخذنا بالحسبان أن الأعمال المكرمة مرشّحة لأن تترجم فتجوب أصقاع الأرض وتصبح رسل فكر وحضارة... وملهمة إبداع.

كلمة العدد

د. علي القيم
رئيس التحرير

مفهوم الثقافة.. وصل إلى أين؟!

عملي المتواصل منذ أكثر من أربعين عاماً، في حقول الآثار والتراث والمتاحف والثقافة بشكل عام، جعلني أحرص على متابعة مفهوم الثقافة من عصر إلى آخر، ومن مجتمع متقدم إلى مجتمع متخلف، ومن مفهوم فئة من الناس إلى مفهوم فئة أخرى، ومن عالم إلى عالم آخر، فوجدت أنَّ هناك عدم اتفاق كامل في الرأي حول هذا المفهوم كمصطلح، حيث يراه العامة، وكذلك العلماء من زوايا وعناصر متعددة، فتختلف تعاريفه في تباين كبير، بل وقد يراه البعض سهلاً ميسوراً، ولكن يظل تعريفه مهما اتسع قاصراً عن الإحاطة بكل الجوانب المكوِّنة للثقافة، ومثيراً للجدل، بل ولاحتمالات اللبس، واختلافات التأويل..

مفهوم الثقافة اختلف باختلاف الوطن، وباختلاف التيار الفكري والسياسي والأيديولوجي الذي ينتمي إليه المثقف، وباختلاف الحقبة التاريخية، واختلاف أحلامها وأهدافها، وهذا أمر طبيعي، لأنَّ الثقافة إن لم تكن نتاجاً للتفاعل الاجتماعي، فهي أحد عناصره، وبالتالي فهي ابنة التاريخ، وقد تكون تلك الابنة التي تأخذ بيده لترشده في شيخوخته، وعندما نتعامل معها لابد وأن نضع في اعتبارنا أننا نتعامل مع التاريخ ومع

الواقع، أي مع أمر له ثقله الضاغط، ولذا من الصعب تغييرها بقرارات، لأنها هي نتاج جهود الإنسان لتحقيق الأنسنة، أي لتحقيق استمرارية الحياة، وللتخفيف من حدة الصراع من أجل البقاء، ولتنمية القدرات الفكرية للإنسان، وللتقليل إلى أقصى حد من العنف والعدوان، فالعنف والعدوان والوحشية والتعصب مما يتنافى مع الأنسنة، وبالتالي أي ثقافة تحتوي على هذه الجوانب لا تكون ثقافة حقيقية.

في تاريخنا العربي، ارتبط مفهوم الثقافة بشدة بوظيفتها وعند ابن خلدون، الفيلسوف الاجتماعي التاريخي، انحصرت الثقافة في وظيفة الكتابة، وذهب إلى أنّ هذه الوظيفة غير ضرورية، وأن قدر الحاجة إليها هو الذي يحدد علاقتها بالسلطة، وإن كانت في كل الحالات شأنها شأن السيف: «آلة لصاحب الدولة يستعين بها على أمره» ففي بداية الدولة لا يحتاج صاحب السلطة للتعلم أي (الثقافة بلغتنا) إنما يحتاج للسيف فحسب، ليعمّد الملك، وليوفر له الاستقرار، فإذا ما تحقق ذلك في «وسط الدولة» يتحول إلى الاهتمام بـ«أرباب الأقلام».

في القرن الخامس الهجري، يرى اللغوي حفص بن عمر بن مكي الصقلي في افتتاحية كتابه «تثقيف اللسان وتلقيح الجنان»، أنّ الثقافة تلعب دور الأصول والمعايير التي تضبط بها اللغة والتي تثري الجنان.

في العصر الحديث كان عميد الأدب العربي، الدكتور طه حسين أوّل من طرح إشكالية الثقافة، وكتب عن رؤيته لها ولدورها المنتظر في مستقبل مصر العربية، ومن الملاحظ أن المفهوم لم يكن واضحاً في ذهنه، فلم يميّز بوضوح بين الثقافة والحضارة، بل خلط بينهما، ونظر للثقافة نظرة الحالم «اليوتوبي» صاحب المشروع الإصلاحي، وظهرت بعد ذلك آراء ومفاهيم عديدة تعرّف الثقافة حسب الظروف والأحوال التي مرّت بها أمتنا العربية مثل: «الثقافة الموجهة»، «الثقافة ومسايرة التطوّر» و«الثقافة بطبيعتها تقدميّة»..

وبعد حرب عام ١٩٧٣م تطورت نظرة العرب للثقافة كثيراً، وأصبح ينظر إليها على أنّها نتاج للعملية الاجتماعية في المجتمع، وهي بطبيعتها تنزع للتجاوز والاختلاف حتى مع ذاتها.. الثقافة أساسها الحوار وليس الصدام، واللافت أن مفهوم الحوار، شديد التعقيد،

ولكنه في الوقت نفسه آلية خطيرة لتحقيق التواصل، ولو أحسن استخدامها يمكن تحقيق كل ما عجزت عنه آليات السلطة والسيطرة والقوة المادية، ولابد من الاعتراف بأن الحوار مفهوم جديد ليس على ثقافتنا فحسب بل على الثقافات الأخرى كذلك، وفي الحوار يكون كل طرف مقيداً بالطرف الآخر أو بالأطراف الأخرى، وأول هذه القيود، القيد المعرفي، بمعنى أنَّ الحوار لا يمكن أن يستمر إلا إذا كانت كل العناصر تعرف بعضها معرفة جيدة، ولابد لكل طرف أن يعرف عن الآخر قيمه ومعاييره وتوجّهاته وأهدافه وعقيدته وعاداته وتقاليده وتاريخه.. أي ثقافته..

❁ ❁ ❁

في السنوات القليلة الماضية، اتسع مفهوم الثقافة ليشمل كل الأشكال والصيغ الإبداعية (تقانة- فنون- آداب..) التي تعبّر عن الذات الجماعية، وبالتالي تميّزها، فهي دالة على كل أنماط وأساليب الفكر والفعل والإحساس (النشاط الفكري والمعرفي- الإنتاج التقني- سبل السلوك والتصرف- سبل التعبير الفني والجمالي) المستندة كلها إلى جملة من القيم والمثل والالتزامات السلوكية والأخلاقية، والكل يؤكد خصوصية المجموعة، يعني هويتها، حيث تمثّل نسيجاً معقداً لوحدة تكوين هذه الذات الجماعية، وفي الوقت نفسه هي وسيلة تأكيد وتجديد لهذه الذات من حيث التمايز مع الآخرين..

إذا كانت الثقافة، كما قلنا، تعبيراً، وتأكيداً وتجديداً للذات الجماعية فهي في الوقت نفسه تمثّل كل أشكال وصيغ التفاعل والتبادل والاتصال، ويتم هذا الاتصال بوساطة دلالات ورموز ماديّة معنوية سواء كانت كلمات أو حركات أو مخطوطات أو آثاراً فنية.. في الحقيقة إنّ كل أشكال وصيغ الإبداع الفكري والجمالي والتقني، ليست فقط تأكيداً وتجديداً للذات الجماعية بل هي الوسيلة المثلى للالتقاء والاتصال..

أمّا غاية الثقافة فتكمن في إعداد الإنسان المدرك لحقيقة وجوده والواثق بقدراته على التغيير نحو الأفضل، والثقافة تمثّل خيارات في سلم لها أبعادها الاجتماعية، الاقتصادية، الإعلامية، البيئية، السياسية، فعلى الصعيد السياسي، مثلاً، لايمكن الحديث عن الديمقراطية،من دون مثقفين ديمقراطيين، أو خارج الإطار الثقافي، ومن الملاحظ اليوم

أنّ الديمقراطية الشعبية هي صمام الاستقرار، لابل إنها مصدر القوة للدولة السائرة على طريق النمو..

ولعلّ من تعريفات الثقافة الأكثر شيوعاً في الغرب، ذلك التعريف الدارج الذي يرى: إنّها جماع القيم المادية واللامادية، التي يخلقها الإنسان في سياق تطوره الاجتماعي وتجربته التاريخية، وهي تعبّر عن مستوى التقدّم التكنولوجي والإنتاج الفكري والمادي والتعليم والعلم والأدب والفن الذي وصل إليه المجتمع في مرحلة معينة من مراحل نموه الاجتماعي والاقتصادي.. وعلى هذا يستخدم اصطلاح الثقافة ليشمل مجموع الإنجازات التي حققها الإنسان ابتداء من الأدوات البدائية التي قام بوضعها ليؤمن طعامه ومسكنه وأمنه وحركته ابتداء من العصر الجليدي مروراً بالعصر الحجري وانتهاءً بإنجازات العصر الحديث الذي أفاد فيه الإنسان في تطويع البيئة المحيطة، وتحقيق الرفاهية والنماء المتواصل..

والثقافة تضم إلى جانب المصنوعات اليدوية والإنتاج الصناعي المتطور والتكنولوجيا المعاصرة، عناصر متعددة من طبيعة مختلفة غير مادية أطلق عليها اسم «المبتكرات العقلية» تضم اللغة، التي هي من أهم المبتكرات العقلية، حيث إنها مجموعة من الرموز والمفاهيم العقلية، التي تعد العنصر الأساسي في الثقافة التي مكّنت الإنسان من الاتصال ببيئته الاجتماعية، ونقل التراث من جيل إلى آخر، وتسجيل ما يستجد فيه من تطوير وتنقيته من الشوائب والإضافة إليها ومن دونها يستحيل التخاطب العقلي والتفاهم وتبادل المعلومات.

وتتضمن المبتكرات العقلية الكم الهائل من المعلومات والإنتاج الأدبي والنظريات العلميّة والعلوم الإنسانية التي تكدّست في سجل التراث الإنساني خلال قرون طويلة من حياة الإنسان على الأرض، كما تضم طرق الفكر المختلفة والقيم الروحية والأيديولوجيات السياسية والفلسفية والدساتير الأخلاقية والأساطير المختلفة..

❁ ❁ ❁

التعريفات الثقافية لم تتوقف، وفي الوطن العربي، شاع وانتشر تعريف الدكتور حامد عمّار، الذي اقتصر على الجانب المعرفي والوجداني للحضارة: «الثقافة هي جملة الأفكار والمعاني والقيم والرموز والانفعالات والوجدانات التي تحكم حياة المجتمع في علاقاته مع الطبيعة والمادة، وفي علاقات أفراده ببعضهم وبغيرهم من المجتمعات، وبهذه الألوان من الفكر والمعاني والتعبير يتميز المجتمع الإنساني باعتباره صانعاً وناقلاً للسير في مسالك حياته، وتدفعه أضواؤها الخضراء إلى الانطلاق والاندفاع على الطريق المنشود، وتوقفه أضواؤها الحمراء عن الاتجاه في طريق لا طائل من ورائه، وتدعوه أضواؤها الصفراء إلى اتخاذ مواقف التدبر والتريث، حين تستلزم حياة المجتمع هذا النوع من السلوك.. ولهذا كله تمثل الثقافة محركات العمل ومثيراته ودوافعه التي تحفز الإنسان للنشاط والسعي، وتدعوه للخوف والقلق، أو تبعث فيه الطمأنينة والرضى، أو السخط والتذمر، كما أنها تشيع في النفس إحساساً عاماً بمعنى الحياة وقيمتها في جزئياتها وتفاصيلها اليومية، وبمعنى العلاقات القائمة بين الأشياء وطرق تنظيمها وتوازنها».

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «أليكسو» بدورها لم تقصّر في وضع التعاريف للثقافة، وقد أفردت لها صفحات مطولة في «الخطة الشاملة للثقافة العربية» ووضعت لها أكثر من معنى قيمي واجتماعي وأنثروبولوجي شمل فعاليات الإنسان كافة، وقد ركّزت التعاريف على اعتبار الثقافة ظاهرة إنسانية، ومحور الحياة الاجتماعية وظيفياً وسلوكياً، بمعنى أنها نشاط إنساني بالغ التعقيد والعمق والتشعّب، أو إنجاز تراكمي مستمر النمو، فيه الإبداع والعطاء والإضافة الجديدة، وفي الوقت نفسه المحافظة على التراث السابق مع التجديد في كل ما يتضمنه من قيم روحية وفكرية ومعنوية، والعمل على التحديث من أجل طموحات مستقبلية..

مشكلتي مع مفهوم الثقافة، أنني كلما اطلعت على تعريف جديد، كان عليّ أن أعيد ترتيب معلوماتي.. قد لا تختلف المفاهيم والتعاريف كثيراً لأنها في المجمل تركز على الفعل والنشاط الإنساني، وهذا السبب المهم الذي دفع العلماء وأصحاب الاختصاص إلى القول بأن الثقافة أصبحت تمثّل ميداناً مستقلاً، حيث لم يقتصر مفهوم الثقافة على تعدد تعريفاتها وتتابع الدراسات عنها، بل ظهرت تخصصات عديدة تعنى بدراستها مثل «علم

الثقافة» الذي يرى الثقافة مسألة قائمة بذاتها، وأن دراستها تشكل مجالاً له استقلاليته، و«علم الأنثروبولوجيا الثقافية» الذي يركز على دراسة الثقافة وعناصرها وسماتها، إضافة إلى ظهور كثير من المفاهيم ذات العلاقة بالثقافة كالتراكم الثقافي، والتغيير الثقافي، والصراع الثقافي، والاتصال الثقافي، والتطور الثقافي، والتكامل الثقافي..

باختصار شديد لقد وجدت أن الثقافة أسلوب حياة، يكتسبها الفرد من مجتمعه، لكنه لا يحمل كل ما في ذلك المجتمع، لذلك تقسم الثقافة إلى عموميات وخصوصيات وبدائل، فهناك عناصر ثقافية عامة يشترك فيها جميع أعضاء المجتمع كبعض الأفكار العامة والعادات والقيم واللغة، وهي ماتسمى بالعموميات الثقافية أو النمط العام للثقافة، وإلى جانبه تختص بعض الجماعات بسمات أخرى وهي مايطلق عليها «الخصوصية الثقافية» أمَّا عناصر البدائل فهي دخيلة على ثقافة المجتمع، تتسرب إلى الثقافة بسبب اتصالها بثقافات أخرى، وتظل لفترة موضع التجريب حتى يتقبلها المجتمع ويضمها إلى ثقافته أو يرفضها..

ختاماً، لابدَّ من القول بأنه قد أُعطي للثقافة -حتى الآن- أكثر من مئة وخمسين تعريفاً، ويبدو أنه من الواجب الإشارة إلى ما جاء في إعلان «مكسيكو» أثناء انعقاد مؤتمر المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» عام ١٩٨٢م، الذي عرّف الثقافة بأنها: «هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذاته، وهي التي تجعل منه كائناً يتميّز بالإنسانية المتمثلة، والقدرة على النقد والالتزام الأخلاقي وعن طريق الثقافة نهتدي إلى القيم، ونمارس الاختيار، وهي وسيلة الإنسان للتعبير عن نفسه، والتعرّف على ذاته، والبحث من دون ملل عن مدلولات جديدة وحالات إبداع».

اليوم، وأكثر من أي ظرف تاريخي مضى، نحن بحاجة إلى ثقافتنا الوطنية التي تحمي قيمنا الإنسانية التي نؤمن بها، وتبعدنا عن النزاعات والأزمات التي تحيط بنا، وليس بغير الثقافة الواعية المتسامحة المحبة، المنفتحة، نجد المخارج والحلول..

القصة القصيرة عند قمر كيلاني

د. خليل الموسى ✿



قمر كيلاني (١٩٢٨- ٢٠١٢م) أديبةٌ دمشقيةٌ متميزة، وهي روائيةٌ قاصّةٌ دارسةٌ وكاتبةٌ مقالة متميّزة، ولكنّها لم تأخذ حقّها في الدراسات النقدية عن القصة القصيرة في سورية، على الرغم من أنّه صدر لها ستُّ مجموعات عن دور نشر معروفة، وهي كالآتي:

- عالم بلا حدود، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٢م.

٢- الصيّادون ولعبة الموت، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ١٩٧٨م.

٣- اعترافات امرأة صغيرة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٠م.

✿ أديب وناقد وأستاذ جامعي.

٤- امرأة من خزف، دار الأنوار، دمشق، ١٩٨٠م.

٥- حلم على جدران السجون، الدار العربية للكتاب، طرابلس- تونس، ١٩٨٥م.

٦- المحطة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٧م.(١)

وإذا عدنا إلى دراسات القصة القصيرة في سورية- وهي قليلة بالقياس إلى دراسات الشعر والرواية- وجدنا- فعلاً- أنَّ حظَّ قمر قليل بالقياس إلى زميلاتها وزملائها.

وربما عاد ذلك، من وجهة نظري- إلى سببين: الأول أنَّ هذه الكاتبة لم تفتعل المشكلات في قصصها ، خاصةً للوصول إلى الشهرة، كما هي الحال في بعض الكتابات الروائية والقصصية، فهي لا تهتمُّ بالجنس، ولا تقف طويلاً عند قضايا تهميش المرأة في المجتمع العربي، وربّما تكون قد أخّرت هذه الأمور لمواجهة العدو الصهيوني الواقف على الأبواب، ولذلك كانت يداً بيد مع الكاتب الرجل إزاء هذه القضية المصيرية، وهذا ما يلمحه القارئ بعد الانتهاء من قراءة مجموعاتها القصصية، فإذا حذفنا اسم المؤلفة من الغلاف، فلا يبقى هناك دليل قاطع على أنَّ كاتب هذه القصص امرأة أو رجل.

ومن هنا فإنَّ قصص قمر لا تندرجُ تحتَ ما يُسمَّى بـ ((الأدب النِّسْوي))، وإنَّما هو أدب واقعي قومي بامتياز.

أمَّا السببُ الثاني فهي لم تذهب قصداً ومباشرة إلى الفنتازيا لاستجلابها قسراً إلى بنية القصة إذا لم تكن ضرورية وموظفة، كما يفعل كثيرون وكثيرات، وهي لا تُغرق قصتها بالشاعرية غير الموظفة أيضاً بحيث يختلطُ الجنسُ الأدبي على القارئ، ولا تذهب إلى استدراج الصور العجائبية والغرائبية.

إذن، هي لم تأتِ عفواً، ومن هنا كانت القصة القصيرة لدى قمر كيلاني رصينة، وذات بنية طبيعية، وهي تهتمُّ بالفكرة أكثر من اهتمامها بسواها من عناصر القصة، فهدفُها الأول نشر الوعي القومي، خاصة في المرحلة التي أنجزت فيها هذه المجموعات، وهي مرحلة انتشار المدّ القومي بامتياز في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، واختصاراً للدراسة وموضوعها سيقتصر كلامي هنا على المجموعتين الأولى والأخيرة لتحديد موضوعاتها وتقنيّاتها وأساليبها.

-١-

في المجموعة الأولى ((عالم بلا حدود)) اثنتا عشرة قصة مكتوبة بين عامي ١٩٦٥م و١٩٧٠م، وهي فترة انتشار المدّ القومي من

جهـة، وذروة النضـال الفلسطيني والعمل الفدائـي من جهة أخرى، ولذلك كانت هذه المجموعة تشعّ بالأمـل، وهذا ما يتجلّى في الإهداء:

إلى فلسطينـي صغـير.. صغير.. قضت عليه الحرب قبل أن يولد..

وإلى فلسطينيين آخرين صغار.. يولدون رغم الدم والنار والعذاب(٢)

لموضـوع فلسطـين الحضـور الأوّل في هذه المجموعة، ولمشاركـة المرأة العربية في الصراع العربـي الإسرائيلي الحضورُ الثاني الموازي لذلك، ففي القصة الأولى ((عالم بلا حـدود)) ١٩٦٥م حكايةُ قرية صغيرة تدعى ((ديـر القمـر))، وهي تقع علـى الحدود الفاصلة بين ضفتـين: ضفة عربية وأخرى سليبـة، وقد مات أهلُها يـومَ المذبحة، وفي أحـد أكواخها رجلٌ وامرأة بـزيّ عسكري، وقطّة حامل تموء في الخارج، فأحبّت المرأة هــذا المناضل وأحبّـت أن تنجبَ منه طفلاً يشبهه، لكنّ الرجل يرفض هذه الفكرة قبل أن يهيّئ لطفله مكاناً يعيش فيه، خاصةً أنّه تذكّـر المعاناة التي عاشها مـع أسرته حين طُـرد من بيته إلى لبنان قسـراً، في حين أنّ المـرأة كانت تقول: ((المهمُّ أن يعيشَ.. سوف يدافـعُ يوماً عن عالمه. بل هـو يستطيع أن يخلقه))(٣).

إنَّ هـذه القصة هـي الأساس، وهي تمثّـل القصص الأخـرى في المجموعة، بل تتقاطع معها وتمدّهــا بأفكارها، فهي أولاً احتلّت عنوان المجموعة، وهي ثانياً طرحت مشكلـة القرية التي كانـت هادئة ومسالمة، ثمّ جاء الغرباء، فذبحوا أهلها وحوّلوها إلى ركام، وهـي ثالثاً تطرح بقوّة قضية النضال الفلسطيني العربي لاسترجاع الحقّ المسلوب، بمـا فيه الأرض، وهـي رابعاً تقـدّم المرأة العربية على أنّها قادرة على أن تأخذ دورها كالرجل تمامـاً في النضال المسلح، وهذا ما يطالعنـا في القصص الأخرى، ففي القصة الثانية ((يوم احترقت الغابة)) ١٩٦٧م امرأة تروي حكاية رجل جُـنّ بعد مقتل طفله في قريـة حدودية مهجـورة، فأخذ يحفر قبره في الصخر، ولكنّها تكتشف أنّه ضمن رجال آخرين يحفرون قبورهم، وهم ثوّار يخزنون فيها السلاح والمتفجّرات للثأر، وهكذا، فلما فاجأهم العدو أحرقـوا قبورهم، فتفجّرت قبور الغابة بمـن فيها، وكانت المرأة شاهدة على هذا العمل البطولي النادر.

وفي القصـة الثالثة ((قبلـة على أرض غريبة)) ١٩٦٥م الراويةُ ثريا تسأل في مدينة الرذاذ (لندن) عن حـازم الذي وهب نفسه لقضية بلاده، وتتذكّـر عباراته لمجموعته: ((نحـنُ يا إخوة نكرّس أنفسَنا للقضية.. أن نقع فريسة الظلم فذاك ليس خطأنا.

أمَّا أن (نريـد) أن نرفع عنَّا هذا الظلم فهـذه أصعب تجربة يمكـن أن نمرَّ بها. لن يكون لنا فرح حقيقي قبل أن تتحوَّل الجموع المجهولة إلى تصميم.. إلى عزم.. إلى إرادة.. إلى عمل))[٤].

والمهمّ في هـذه القصة أنَّ ثريا دمشقية وحازم فلسطيني، ممّا يُعزِّز الفكرة القومية في المجموعة، ثـمَّ إنَّ برتقال يافا غريب في لندن في أرض غريبة، ولا يقتصر الأمر على ذلـك، ولكن ثريًا تعتزّ أيضاً بالرجل الأسمر العربـي الممتلئ حياةً وحيويـة على نقيض الرجل الإنكليـزي البارد، فتقـول: ((وجهٌ إنكليزيّ تافه يبدو شمعياً بارد البياض.

نظرتـي مصلوبة فـوق عينين فاتحتين بلون الخـرز. أيّـةُ أشباح ميّتـة تتراءى لي الآن: هذه الوجوهُ الباهتة من البلاستيك كم أفتقد معها اللون الأسمر الحارّ وقد أرضعته الشمس. كم أحنُّ إلى عيون عميقة السواد.. عميقة الغور والأحزان))[٥].

وفي القصـة الرابعة ((رجـوع.. وجسر دامية)) تُدينُ الراويـة الرجل المثقف الذي يتحـدَّث عـن الأمم المتحـدة واجتماعات القـادة العـرب وجامعـة الـدول العربية، ولا يكلّـف نفسه أن يذهـب لمشاهدة خيام النازحين، وتقصّ حادثة رجوع الفتاة النازحة الفلسطينيـة التـي تعيـش في سورية، وقد ذهب ابنُ عمها وخطيبها في عملية فدائية، وفي القصة الخامسة ((صغير.. كبير آخر)) الراويـةُ معلّمة وكاتبة تصل إلى المدينة، وفي الباصـ طفل تخاطبه وتُناجي نفسها، ولكنَّ الطفل لا يريد أن يسمع حكايات عن التاريخ والشعـر، وإنَّما يقذف بوجههـا عبارة مثل رصاصة:

- أيـن البندقيّة؟ أنا أريـد بندقيةً! ألا تملكين بندقية؟ ثوب عسكري بدون بندقية. أنت جبانة.. أنت..)[٦].

هكـذا تسـير القصـص الأخـرى في المجموعـة لتنهـل مـن ينبوع واحـد، وهو القضية الفلسطينية، والملاحظ على قصص هذه المجموعة أنَّها مفعمةٌ بالأمل والانتصار، والطريقُ الوحيدة إلى ذلك المقاومة، وهذا في زمن كان فيـه الأدب الحزيراني البكائي مهيمناً على الشعر والمسرح والرواية، ولذلك كانـت قصص كيلاني مختلفـة في اتجاهها ورؤاها، وهي تنضح من الواقعية الاشتراكية، وتنتظر الفجر الفلسطيني القادم، وهذا ما يجده القارئ في القصة السادسة ((الأعياد الحزينـة)) والقصـة السابعـة ((اللعبـة الخطرة)) التي تحكي حكاية أطفال فلسطين رجال المستقبل، فقد كان على أبي همام أن يسرع إلى سليم لتوزيع الأسلحة التي خَبّؤوها في القبو قبل أن يصل الجنود الإسرائيليون،

فما كان من أطفال القرية إلاّ أن تسرّبوا إلى مخبأ تحت الأرض بقيادة همام ليزرعوا الألغام في طريق هؤلاء الجنود، وكذا شأن قصة ((البركان)) أو الرجل البركان التاجر المقدسي الذي يسوق شاحنة مليئة بالخضار والفواكه والمتفجرات، لينسف سوقاً، وجنود الصهاينة يتطايرون أو يهربون، وهو يتمنّى الخروج من السجن ليفعل ما فعله.

وتحدّثنا قمر في القصة التاسعة ((المرآة)) عن أولئك الذين سيكتبون ملاحم النضال والبطولات، في حين ترشّ الطائرات الصهيونية اليوم فوقهم الموتَ والنّارَ والعذاب، وكذا شأن القصتين العاشرة ((أريد أن أنسى)) والحادية عشرة ((نهاية العالم وطوق الياسمين)).

أمّا القصة الأخيرة ((الخطيئة)) فهي كالقصة الأولى في علاماتها الفارقة، قصة بهية التي فقدت زوجها منذ عشرين عاماً، وقد رفض الانصياع للأوامر العسكرية بالانسحاب، ثمَّ أنقذ رفيقه من أحد سجون الأعداء، ليُصاب ويُستشهد، في حين عاد رفيقُه إلى أطفاله السبعة وزوجته وأمِّه، ولذلك اتّهم أهل القرية بهيّة بأنّها المخطئة لأنّها دفعت زوجها إلى الموت، ولكنّها ظلّت صابرة، وهي تخرج في الليل إلى الجبل لتطبخ لأكثر من عشرين شخصاً، ثمَّ سحبت ابنها من المدرسة لتعلّمه الرمي، وجعلت بيتها مركزاً لاجتماع الثوّار وانطلاقهم نحو أهدافهم، ولكنَّ خطيئتها حين كان الطرق القويّ على بابها، فظنّت أنّهم جنود الأعداء، مما دفعها إلى أن تُطلق الرصاص على نفسها، ولكنّهم كانوا ثواراً آخرين يلتحقون بهذا المنزل.. بهيةُ مثال المرأة المناضلة التي تتوّج بها قمر كيلاني مجموعتَها القصصية ((عالم بلا حدود)).

وفي المجموعة الأخيرة ((المحطة)) تسع قصص قصيرة مكتوبة في الثمانينيات من القرن الماضي، وقد أهدتها لأختها الراحلة الزهراء، وهي لا تختلف عن مجموعتها الأولى إلاّ في توسيع دائرة الموضوعات التي اقتضتها الأحداث الجديدة، خاصةً ما جرى في لبنان بعد الاجتياح الإسرائيلي في عام ١٩٨٢م، كذلك كان لدمشق وبطولات الثوار السوريين في أثناء الاستعمار الفرنسي نصيب منها، ففي القصة الأولى ((السراب)) تشرب الراوية- وهي قاصّةٌ- كأس ماء، فتشعر بأنّها تموت، فتحدّث القارئ عن موتها على طريقة السياب في قصيدته القناع ((المسيح بعد الصلب))، لتذكر لنا الثائر مسعود الذي استُشهد برصاص الفرنسيين في الغوطة، ولذلك تُصبح دمشق مركزاً للعالم ببطولات أبنائها الأسطورية: ((روحي تطيرُ في جهات

دمشق الأربع. أراها مدينةً بحجم راحة الكفّ. تكبر.. حتى تُصبحَ هي العالم))[٧]، وتعود في قصّتها الثانية ((وقت لفقدان الذاكرة)) إلى المرأة العربية المناضلة وصورة الرجل العربي الحقيقي الذي يُضحِّي بكل شيء في سبيل قضايا أمته المصيرية، فالزهرة أديبة مثقفة ومعلّمة، وهي تخاطب الطبيب ملهم ابن القرية النقي الذي يقوم بواجبه الوطني في علاج الجرحى من المناضلين، وكذلك كان للمرأة دور وللرجل آخر، فصورة البطل في قصصها إيجابية دائماً (صورة البطل الإيجابي)، وهي تنتقي أبطال قصصها من الفدائيين أو ممّن يقدّمون خدماتهم المجانية لهؤلاء، كما هي الحال في هذه القصة.

ولذلك كان الوطن في الدهاليز تحت الأرض وليس فوقها، فهناك يكون المناضلون والجرحى الذين يقوم ملهم بمداواتهم، وهناك بالمقابل من يقوم بالمؤامرات على هذا الوطن، كما تقول الراوية في خطابها لملحم: ((وأنتظرُ.. والوطن أمامي يمتدُّ تحت الأرض.. في السراديب حيث المرضى والجرحى.. في خنادق المقاتلين.. في دهاليز المؤامرات والخيانات.. في كهوف الدعارة والرقص والجنس.. في بحيرات النفط التي تغلي بجشع من يعرفون طريقها. وأنتَ.. كيسوع.. توزّع زيت الشفاء.. وخمر الدواء. وأنا مثل نجمة تهوي باردة منطفئة))[٨].

في القصة الثالثة ((الوجه الآخر)) الراوية، وهي تناجي مصعباً، تهاجمها أسماء مرعبة وحشية (شارون- بيغن- شامير..)، وهو الذي شهد مذابح صبرا وشاتيلا، فهل يستطيع أن يكون بديلاً عن أخيه قاسم الذي يشبهه تماماً..!؟، ثمَّ إنَّ الراوية تحكي في القصة الرابعة ((سيّدة الحزن والصمت)) حكاية صديقة الطفولة وفاء التي أحبَّت فلسطين من أجل ذلك الشاب الذي تزوّجته، وهي تزورها بعد دهر من الزمان وبعد أن مات حفيدها لتظلَّ صامتة، في حين أنَّ الببغاء تردّد عبارة ((لكن الحقيقة لا تموت))[٩]، وهي تموت، ثمَّ جاء دور الشهيدة البطلة سناء (محيدلي) في القصة الخامسة ((حكاية بلا بداية أو نهاية))، وقد ذهبت في طريق الفداء، وكأنَّها تذهب إلى عرسها، فيتغيَّر حساب الأمور العظيمة، فإذا تاريخ الاستشهاد تاريخ الميلاد الحقيقي: ((التاريخُ.. تاريخ ميلاد النجمة ١٩٨٥/٤/٩م. والخميس يوم فرحك.. يوم الفداء يوم زفافك في بيت أبيك. العروس هي سناء.. والعريس هو الجنوب))[١٠].

وثمة ليًا في القصة السادسة ((احتراقاً حتى الموت))، وهي في قرية من قرى فلسطين

تنتظر إبراهيم الذي اعتقله جنود الاحتلال، وهو ممّن تعرّضوا للتعذيب والقتل، وتعرض قمر بأسلوب شاعري عذب ومؤثّر في القصة السابعة ((إنَّه من سليمان)) لحادثة واقعية جرت في سيناء بعد معاهدة كامب-ديفيد، وهي حادثة لجندي يُدعى سليمان من قرية مصرية ((أكياد)) اتّهم بقتل سبعة صهاينة رفضوا أن ينصاعوا لأوامره، وهو يحرس نقطة ممنوعة، ويُشاع في قريته أنَّ المحكمة برّأته، وسيخرج من سجنه يوم الإثنين، ويفرح الشعب المصري لذلك، ويتهيّأ لاستقبال هذا البطل، وخاصة أمّه وأخته وداليا عروسه، والمهزلة الكبرى أنَّ المحكمة المصرية اتهمته بالجنون، فيا ((ليت كلّ أمّ مصرية إذن تلد مجنوناً مثل سليمان بدافع عن عزّة مصر.. وكرامة مصر))[11]، ولكنَّ المهزلة لم تنتهِ هنا، وكي تكون هذه المهزلة مقبولة لدى العدوّ المتحكّم في نتائج الأمور أُعلن النبأ عند الفجر وقبل خروجه من سجنه أنَّ سليمان انتحر، فما كان من أكياد وأمّ سليمان ومصر إلاّ أن يودّعوا هذا البطلَ المصري الهمام بما يليقُ أن يُودّع به، وفي القصة الثامنة «من أوراق المواطن (م)» عدد من الأوراق التي خلّفها المواطن الفلسطيني (م) الذي خرج من أحد المخيّمات في الأرض المحتلة، ووصل إلى القدس، فإذا ملامحها العربية تتغيّر شيئاً فشيئاً، وهذا ما عرضه في هذه الأوراق.

ففي الورقة الأولى يرفض هذا المواطن أن يُباع ويُشرى في وطنه، ويصف في ورقة أخرى مهزلة أن يكون طالباً جامعيّاً، ولكنّه يدرس في جامعات الأعداء، ويعيش الفلسطيني في الورقة الخامسة غريباً، وهو في منفى المنفى في القدس، ويخاطب في الأوراق الأخرى حبيبته زهرة والأرض، وهو يسمع في القدس لغة غريبة تأكل لغته.

وفي القصة الأخيرة ((المحطّة)) تطالعنا الراوية المسافرة إلى قرية العبادية، فإذا المحطّة في حالة عجائبية، وتواجهها هناك طفلة تأخذ خاتمها ورجل عجوز دعاها إلى سيّارته القديمة في رحلته الأخيرة، فإذا الطفلة ابنته، ويسوق العجوز سيارته بسرعة جنونية، ليصطدم بمقبرة السيارات القديمة، فتستجمع قواها لتخرج من السيارة التي تحطّمت، لترى المحطة التي تبتعد والحارس والرجل العجوز الذي يُشبه أباها، ويُلاحظ أخيراً على موضوعات المجموعة الأخيرة ((المحطّة)) أنَّها اتّسعت وتنوّعت، ولم تقتصر على الهمّ الفلسطيني، وإنّما شملت المقاومة في سورية ولبنان ومصر، فضلاً عن فلسطين، وهذا ما فرضته حقيقة التغيّرات التي طرأت على المنطقة في الثمانينيات في القرن الماضي.

-٢-

استخدمت قمر كيلاني في مجموعاتها القصصية، خاصةً في المجموعتين المذكورتين، تقنياتٍ وأساليبَ معاصرةً، صحيحٌ أنَّ معظم قصصها تضع الفكرةَ في رأس اهتمامها، وتقدّمها على أيّ لعبة فنّية أو فنتازيا جمالية، ولا سيّما الفكرة القومية منها، ولكنَّ الصحيح أيضاً أنَّ هذه المبدعة قدّمت أفكارها ضمن تقنيّات مختلفة، ولذلك فإننا نجد في مجموعاتها القصة الرسالة، والقصة المونولوغ، والقصة الشاعرية، والقصة الرمز.. إلخ.

- **أولاً: القصة الشاعرية:** كانت الشاعرية في مجموعة قمر الأولى ((عالمٌ بلا حدود)) خجولة، وهي بسيطة شفّافة لا تُثقل على السرد ولا تزاحمه على المكان، وإنّما تكون في الافتتاحية قصيرةً وموظفة، ووظيفتُها سردية خالصة، وهي وسيلةٌ لا غايةٌ، فقمر لا تهجم على موضوع القصة مباشرة، وإنّما تمهِّدُ له تمهيداً قصيراً للدخول في مناخ السرد الذي يأتي حينذاك مرتاحاً، ولا يحتاج إلى تعريف أو تقديم أو مسوّغات، وقد يكون هذا التمهيد الشاعري للمكان، كما هي الحال في قصة ((قبلة.. على أرض غريبة))، فالراوية البطلة في لندن، وكأنّها في متاهة أيـن منها الصحراء؟ وهي تبحث عن حازم من دون جدوى بين هذا الازدحام وهؤلاء القوم الأغراب، ولذلك كان التمهيد للمكان من جهة، وللنفس المثقلة والعذاب من جهة ثانية: ((في هذه اللحظة.. وفي هذا المكان الصلب الوسيع من العالم أحاول أن أذيبَ المي. أحسُّ ثقل الأشياء. كأنّما الجسور تضغط فوق رأسي. قلبي يجهشُ في كأس من العذاب. تبدو لي الدنيا لحظةً بلا لون كالقرمز في قاع البحار كلّ شيء لا فائدة فيه: أن تمتلئَ عينايَ بدهشة الجديد أو أن تطير ضلوعي عندما ينبثق الواقع المجهول))[١٢].

وربّما كان هذا التمهيدُ الشاعريُّ القصيرُ الشفّافُ لتوضيح طبيعة الشخصية القصصية، فصديق الراوية يدعوها إلى أن يعيشا الحياة اللاهية العابثة كما يعيش معظمُ الناس من حولهم، ولكنَّ ما يعانيه أبناءُ شعبها في المخيمات خاصة الفتاة الفلسطينية رجوع في قصة ((رجوع وجسر دامية)) يدعوها إلى أن تشارك هؤلاء في آلامهم اليومية، ولذلك تقع الشخصية بين قطبي صراع الواجب القومي واللامبالاة بشؤون الآخرين.

وهذا ما يوضّحه هذا التمهيد الافتتاحي للقصة: ((تسمعُ الصمتَ القاسي من حولها

يتحطَّم.. ملايينُ القطع الزجاجية الحادّة تمزّق قلبها.. لكنْ، لعلَّ هذا يخلصها من الضغط الرهيب الذي يُثقل صدرها ويُخفِّف من حدة الأفكار الشرسة المهاجمة باستمرار.

شيء ما في أعماق عقلها يصرخ وعملية إصغائها أضحت جزءاً من محنة حياتها اليومية، لم تعد تستطيع أن تفلت من هذا الإسار وهي دائماً في عذاب لا ينقص))[١٣].

لكنَّ مستوى الشاعرية ودرجاتها يرتفع في مجموعتها الأخيرة ((المحطة))، وانتقلت من التمهيد إلى أماكنَ أخرى في بنية القصة، لتجدها في التمهيد والعرض والخاتمة ضمن انسيابية شفَّافة، وشاعرية وهّاجة، وديباجة مشرقة، وكأنك إزاء قصائد من شعر البحتري الذي قيل فيه ((أراد أن يشعر فغنّى)).

ولنأخذ على سبيل المثال لا الحصر قصة ((وقت لفقدان الذاكرة))، ففيها تمهيد شاعري طويل للتعارف بين الراوية والطبيب ملهم، ومنه هذا المقطع: ((اللحظات الأولى للقاء كانت فريدة بين شخصين يتعارفان وهما متعارفان.. أمامنا انبثقت من ثمار وأنهار. كان هو فيها مثلَ طفل يلهو.. وكنت أنا أحاول أن أقطف النضارة من كلمات يابسة. وبيننا كانت الصبيّة الجميلة التي أسماها (الزهرة). وُجودُه إلى جانبي بدا مفعماً بعطر سماوي. انتشينا بكلام كثير.. وامتدّت أمامنا سهول معشبة كان فيها يركض مثل جواد أصيل بينما (الزهرة) تضحك حتى تدفع عيناها الماسيّتان))[١٤].

وغير بعيد عن هذا التمهيد تعود الشاعرية مرَّة أخرى، ولكنَّها أكثرُ وهجاً وتدّفقاً وإيقاعاً في مناجاة الراوية للطبيب الإنساني الوطني المناضل ملهم، فتقول:

((لكنَّني ظللْتُ حزينة.

وأحزان نفسي تساقطت ونحن معاً يا ملهم نخترق الغابة الجليلة. أنا شجرة منخورة بالحبّ وثمارُها تخطفُها الريح.. لكنَّه لا يزال فيَّ غصن طريّ أخضر. اجعلني من جديد أرتجف لعذوبة الماء.. للهواء الصافي حتى الدمع.. للشمس المختبئة بين الأغصان فأنا لا أريد أن أترك كتاب الحبّ المقروء في صدر الطبيعة.

أنتَ بحر زاخر يا ملهم..

وأنا نبعةٌ مجهولةٌ في قلب غابة.

أنتَ موج وضوء وامتداد للاّ نهاية.

وأنا بين أجفان دمعة تأبى السقوط.

أمَّا (الزهرة) فهي بيننا وكأنَّها مقطوفة من حلم. تُراكَ وتراني كما تحبّ.. وتلمس أوتار الطبيعة كما تحبّ))[١٥].

وليست هذه القصة وحيدة في هذا

المجال، فالشاعرية تلفُّ قصص المجموعة كاملة، والشاهد الأخير في هذا المجال من قصة ((إنَّه من سليمان))، وهذا المقطع الدّال:

((وأنت يا داليا.. يا عروسَ البطل وابنةَ العمّ. لا تُطبقي الجفنَ على الجفن.. ولا تنامي على الحلم الكاذب بأنَّه سيخرج من السجن بعد عدّة سنوات، يأتيك غداً.. بالطلعة المصرية.. بالقامة غير المحنية.. بالوجه الطفولي العنيد.. بقلب البطل الصنديد.. يا رجال.. يا نسوان.. يا صغارُ ويا كبارُ انْصُبُوا الزينات.. أشعلوا الأفراح. يا طبَّالين .. يا زمَّارين.. يا منشدين.. يا قوّالين. دقّوا. وغنُّوا. قولوا معَ من قال:

يا شرقية قولي الحق

ابنك بطل واللاّ لأ

زغردوا.. لماذا لا تزغردون))[١٦].؟

- ثانياً: القصةُ المونولوغ: تتخذ بعض قصص قمر شكل المونولوغ الداخلي، وهي تقنية في مخاطبة الذات فيما تراه، وكأنَّها تؤكد للقارئ صدق هذه الرؤيا وواقعيتها، خاصة أنَّ قصص كيلاني ذاتُ نزعة واقعية يفرضُها الاتجاهُ القوميّ والأحداثُ التي تمرُّ بها البلاد. ويتجلَّى هذا المونولوغ في المجموعة الأولى في قصة ((صغير.. كبير آخر))، ومنه ((تشعر أنَّ قنبلةً ما تدوي في داخلها. لا تستطيع أن تنظر إلى الوجوه التي تنضح بالعرق والعذاب والخيبة والمرارة. تتمنَّى لحظةً لو تتقذف من النافذة. كلّ ما حولها يتحرَّك بشكل غامض: العيون تنغرز بوقاحة أو تميل عنها بتراخٍ كسول. عالمان متناقضان: بعضهم يندمج بغيره بصورة لا تصدَّق والآخر يكاد لا يشعر بوجود الآخرين))[١٧].

يتعمَّق المونولوغ الداخلي ويمتدُّ في المجموعة الأخيرة ((المحطة)) ليصبح وسيلة للرؤيا والتذكّر، كما هي الحال في قصة ((السراب)) التي تنهل من قصيدة المونولوغ القناع ((المسيح بعد الصلب)) للسياب، فالراوية تشرب كأس ماء لتموت به أو تشعر بذلك، فتتذكّر المناضل مسعوداً الذي استشهد برصاص الفرنسيين في الغوطة، وتصبح حينذاك دمشق مركزاً للعالم، وكما هي الحال في قصة ((المحطة))، حين تجنح الراوية المسافرة للحديث إلى نفسها عن الفتاة التي اختفت فجأة: ((إحساس حادٌّ يجرح قلبي.. لا.. لايمكن أن أتركها للمجهول سأبحثُ عنها. أركض في كلِّ اتجاه. أصرخ بملء حلقي. هيه.. أنتِ.. يا بنتُ.. يا من أخذت الخاتم. أين أنت؟ وصوتي يرتدُّ إليّ مبعثراً على أجنحة الهواء. ليختف الخاتم.. ولتضع الأوراقُ.. لكنَّه يجب أن أعثر على الطفلة))[١٨].

- ثالثاً: القصة الرسالة: هي القصة التي تتخذ في طابعها شكل الرسالة، أو هي خطاب تقوم من مرسل إلى مرسل إليه، كما هي الحال في قصة ((قبلة.. على أرض غريبة))، فهي رسالة موجهة من ثريا إلى حازم، وهي تشرح له فيها المتاهة التي تعيشها في مدينة الرذاذ لندن، تبحث عنه، ولكن من دون جدوى، تصرخ، ولا من مستمع: ((في الشارع وحيدة. حازم.. أين أهرب منكَ يا حازم؟ هل يلعق الحجر الأصمّ من بين أهدابي بريق الحنين إليك؟ أشتاقُكَ يا حازم وأكره هزيمتي. لا شيء يحرِّرُني منهما: شوقي وهزيمتي))[١٩]، ويستمرّ شكل الرسالة ضمن الخطاب، وتبوح له في الرسالة ما لم تكن تستطيع أن تبوح به في حضرته، لتقول له: ((في صدري طائران حزينان.. ليس لي طفل يشتهي ثديي الأبيض.

أزحف.. من أجل قبلة منحتها لبرتقالة غريبة في ليلة غريبة.. فوق أرض غريبة))[٢٠]..

- رابعاً: القصة الحوارية: هي القصة التي تتكئ على الحوار بين شخصياتها، ويكون فيها للحوار نصيب يتساوى والسرد، ينقص قليلاً أو يزيد، وشاهدنا على ذلك قصة ((اللعبة الخطرة))، فقد كان الحوار أولاً بين الزوجين أبي همام وأم همام حول موّال شعبي:

- هذه أغنيةُ أبي يا (أمّ همام). سمعتها منه قبل أن يتركنا.

فأجابت:

- وما رجع..

أضاف:

- وما رجع.. ولكنَّه قام بواجبه.[٢١]

واستمرَّت هذه القصة موزَّعة بين بنيتي السرد والحوار، حتى إنَّ القارئ يلمح مقاطع تتفرَّد بالحوار لولا أسلوب السرد الحواري ((قال- أجاب- أردف..إلخ))، وهذا ما يتجلّى في هذا الشاهد الطويل، حتى إنَّ لغة الحوار تقترب من الحديث العادي كما هي الحال في المسرحيات:

قال همام: - أنتم تتوهّمون.. أبونا لا يبكي.

وقالت نداء: - إنَّه يصلّح البندقية.. أنا رأيتُهُ.

ثمَّ همد الثلاثة جميعاً. لم يفهموا شيئاً ولكنَّ الألم عصرهم بشكل مجهول.

قالت الأمُّ بصوت مخنوق بالألم: - إذن، السفر غداً.

وأجاب الأب: - مع الصبح بإذن الله.

أردفت: - هل ستذهب وحدك؟

قال: - لا.. سيكون معي (أبو قاسم) و (سليم).

ألم أقل لك؟

- نعم ولكنَّ عقلي ليس معي.

- والفلوس؟ هل يكفينَّك ما أعطيتُك؟

بيعي أيَّ شيء من البيت.

وتنهّدت المرأة.. ونظرت في زوايا البيت الصغير. هناك أشياء كثيرة باعوها. لم يبقَ إلَّا ما ليس له قيمة تُذكر.

أجابت: -المهمُّ أن تعود بالسلامة. متى ستعود؟[٢٢]

- خامساً: القصة الرمزية: القصةُ القصيرةُ في أدب قمر كيلاني واقعية بامتياز، ولذلك ذهبت إلى الواقع وأحداثه، لا لتسجيل البطولات القومية كما يفعل المؤرِّخون، ولكنْ لتخليد هذه البطولات في أذهان الأجيال ضمن مناخ فنّي جمالي، ولذلك كان عليها أن تلجأ إلى المباشرة والتسمية والتحديد، ومن هنا خلّدت بطولة سناء محيدلي في جنوب لبنان والمجنّد سليمان في مصر، وكانت التسميات للمدن والقرى: القدس-دمشق- بيروت.. إلخ، ولكنّها حاولت أيضاً أن تشتغل على الرمز الشفّاف الذي يُخرج قصتها من دائرة الواقعية، وهذا ما فعلته في قصتها «من أوراق المواطن (م)»، فابتعدت عن التحديدات في التسمية، لتُضفي على القصة شيئاً من الغموض البسيط الذي لا يحتاج إلى جهد كبير من القارئ للوصول إلى مبتغاه، وذلك في موضعين: الأوّل في تسمية المواطن بالحرف (م)، وهو قابل لمئات الأسماء والصفات التي تبدأ بهذا الحرف، ثمَّ إنَّ عدم التحديد يجعل هذه الحادثة غير مقيدة بزمن ومكان، وإنَّما هي صالحة للماضي والحاضر والمستقبل، ويمكن أن ينسحب هذا الحرف على الحروف الأخرى في اللغة العربية، حتى إنَّ المخيَّم الذي خرج منه هذا المواطن غير محدّد أيضاً.. هكذا بدأت هذه القصة في الافتتاحية وقبل الدخول في أوراق المواطن:

((محمد.. محمود.. منذر.. ميلاد.. كلّها أسماء تبدأ بحرف (م). وكلمات أخرى أيضاً وصفات: مقاتل.. مناضل.. مقاوم.. مجاهد.. وفي القائمة السوداء لديهم (مخرّب). لم يعرف اسمه أحد. لكنَّه يظلّ في ضمير التاريخ الفلسطيني المواطن (م) من أحد المخيّمات في الأرض المحتلة خرج في ليل قاتم خرج.. بينما القدر.. قدره يخبّئ له قصة مثيرة إلى درجة البكاء))[٢٣].

أمَّا الموضع الثاني في هذه القصة فهو في اسم الحبيبة (زهرة) الذي بدأ يظهر بدءاً من الورقة الرابعة، وهو يروي لها معاناة الإنسان الفلسطيني، فإذا هي ما كان يحلم به، وهي ليست أنثى وحسب، وإنّما هي كما يقول في الورقة السابعة: ((أنتِ كنتِ المدينةَ يا زهرة... والمدينة كانت أنتِ))[٢٤]، ثمَّ يقول

لها في الورقة الثامنة: ((يا سيدتي المرأة.. يا سيدتي الأرض))[٢٥]، ويقول لها في نهاية الورقة التاسعة: ((يا امرأةً هي الوطن))[٢٦]، ثمَّ هو يُوصيها بعد استشهاده بهذه العبارات في نهاية الورقة العاشرة: ((ولا بأس أن تتزوّجي غيري.. فأنا أريد أطفالاً آخرين للوطن ولو أنَّهم ليسو أطفالي.

ولا بأس أن يُقامَ في حيّكم فرحنا الشعبي... روحي سوف تسعد لو خلّدوني بموّال.. أو أهزوجة نصر.

أموتُ.. وتظلّين أنتِ المرأةَ الوطن.. حرّة كالهواء.. شامخة كالسّماء))[٢٧].

ويكتمل هذا الرمز (زهرة) في الحاشية، ليظلّ عدم التحديد صفة ملازمة له، وإن تحدّد بالوطن والحبيبة:

حاشية: ((عثر أحد المقاومين الذين نجوْا على أوراق في كيس المواطن (م) ولمّا أراد أن يسلّمها إلى زهرة وجد أنَّ الأمر مستحيل. فمن هي زهرة؟ أين تُقيم؟ في أيّ قرية أو بلدة؟ قرأ الأوراق.. أحرقها.. وأطعم رمادها للريح))[٢٨].

هذا غيض من فيض في القصة القصيرة عند قمر كيلاني موضوعات وتقنيات وأساليب، ولا شكَّ في أنَّنا لم نتوقّف في هذه الورقة عند قصة الفلاش باك والقصة السيرية وسواهما لضيق المجال، وبالجملة فإنَّ قمر كيلاني أديبةٌ كبيرة من بلدي أسهمت بدور فعَّال في الحركة الأدبية في سورية روايةً وقصةً ودراسةً وكتابةَ مقالات، فضلاً عن دورها في التعليم والمجالات الأخرى، وهي تستحقّ فعلاً أن تُقام على أعمالها الأدبية دراساتٌ أكاديميةٌ جادّةٌ لوضعها في مكانها المناسب من جهة، وإحياء لجهودها وذكراها من جهة أخرى.

الهوامش

١- انظر: الموسى، د.خليل: المقالة في سورية، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٠١م، ص٨٧.

٢- كيلاني، قمر: عالم بلا حدود، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٢م، ص٣.

٣- المصدر نفسه، ص٢.

٤- المصدر نفسه، ص٣١.

٥- المصدر نفسه، ص٣٢.

٦- المصدر نفسه، ص٥٦.

٧- كيلاني، قمر: المحطة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٧م، ص١٩.

٨- المصدر نفسه، ص٣٣.

٩- المصدر نفسه، ص٦٨.

١٠- المصدر نفسه، ص٧٢.

١١- المصدر نفسه، ص١٠٤.

١٢- عالم بلا حدود، ص٣٠.

١٣- المصدر نفسه، ص٣٧.

١٤- المحطة، ص٢٥- ٢٦.

١٥- المصدر نفسه، ص٢٧- ٢٨.

١٦- المصدر نفسه، ص٩٣ - ٩٤.

١٧- عالم بلا حدود، ص٤٨ .

١٨- المحطة، ص١٣٨.

١٩- عالم بلا حدود، ص٣٠.

٢٠- المصدر نفسه، ص٣٦.

٢١- المصدر نفسه، ص٦٥.

٢٢- المصدر نفسه، ص٦٧- ٦٨.

٢٣- المحطة، ص١١٥.

٢٤- المصدر نفسه، ص١٢٣.

٢٥- المصدر نفسه، ص١٢٤.

٢٦- المصدر نفسه، ص١٢٧.

٢٧- المصدر نفسه، ص١٢٩.

٢٨- المصدر نفسه، ص١٣١.

الكتابة عن الذات سردياً

د. عادل الفريجات ✿

تعـددت أشـكال الإبداع السـردي، من حيـث المسعى الذي يـروم الكاتب أن ينشئ إنتاجـه من خلالـه، ومن حيـث السمات المهيمنـة على السرد، فصار في تاريخ السرد روايات تاريخيـة، وأخرى اجتماعية، وثالثة نفسية، ورابعة بوليسية، وخامسة تجمع بين هـذه وتلك.. إلخ. وأخيراً كان هناك روايات تتحدث عن الذات. وهذه الأخيرة ربما كانت هي الأقدم بين أشكال الرواية المختلفة. وهي تتنزل منـازل، وتتلون ألواناً، وتتوزع أشكالاً، منها ما هو اعترافات، وما هو مذكرات، وما هو يوميات، وما هو رحلات، وما هو رسائل، ومـا هو مقابلات، وما هـو سيرة ذاتية غير فنية، وما هو سيرة ذاتيـة فنية. وثمة من يرى أنَّ اعترافات القديس أوغسطين (القرن الرابع الميلادي) من أوائل أشكال الكتابة عن الذات. وعليه، فهـذا اللون السردي ضارب الجذور في أعماق الزمن.

ولا شـك في أن الذاكـرة في هذا النسق الكتابـي تبدو في أقـوى تجلياتها، فالكتابة عن الـذات هي فـن التذكـر الأول، وهي الفن الذي يتم به ترويض الزمن، كما يقول الفيلسوف الفرنسي (بول ريكور). ويقع فيه أيضـاً تنظيم الوقائـع والأحداث في خيط تتابعـي ينظمه، أو غير تتابعي، ولكنه ينتهي إلى عمل يلبي هاجساً من النفس الإنسانية. وربمـا كان التحـرر أهم هاجـس يلبيه هو (التذكر)، فنحن حين نكتب ما نتذكر، نتحرر من ضغطه وتنغيصه.

بيد أن التحرر وحـده ليس هو السبب الوحيـد للكتابـة عن الذات، بـل قد يكون هناك أسباب أخـرى، مثل التعبير عن أزمة

✿ ناقد وأستاذ جامعي.

نفسية. وهذا نلقاه كثيراً عند بعض من تعرض للتنكيل والتعذيب وللقهر الاجتماعي، كما في العديد من الروايات التي تتحدث عن السجن أو البؤس الاجتماعي أو حوادث الطلاق التعسفي، أو غير ذلك. ومن الأمثلة عليه رواية «تلك الرائحة» لصنع الله إبراهيم، و«الخبز الحافي» لمحمد شكري، و«يوميات مطلقة» لهيفاء بيطار، و«حياتي صرختي» للمغربية رشيدة يعقوبي.

وقد يكون سبب الكتابة إثبات الذات إزاء العواصف التي تلم، أو ألمت بها، كما هي الحال مع طه حسين في «الأيام» التي نشرها إثر العاصفة التي هبت عليه بعد نشره كتابه «في الشعر الجاهلي» في العام ١٩٢٦م.

ونرجسية طه حسين تتضح في «الأيام» حين يقول لابنته في الفصل الأخير: ألست ترين أن أباك خير الرجال، وأكرمهم (انظر دراسة أكرم السيسي: السيرة الذاتية لطه حسين وجان جاك روسو، مجلة ضاد، القاهرة، عدد ١٠، ص٥٤).

والاحتفاء بالعصامية كثير الظهور في روايات السيرذاتية كما يذكر (صبري حافظ) فهو موجود عند (سيد قطب) في «طفل من القرية» و«عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم، و«سبعون» لنعيمة، و«في الطفولة» لابن جلون، و«حصاد العمر» لتوفيق يوسف عواد، و«حياتي» لأحمد أمين، و«أنا» للعقاد.

وبالمقابل قد تكون السيرة الذاتية تعبيراً عن ذات متشظية وفاقدة لليقين كما في «أوراق شخصية»، للطيفة الزيات، و«أيام الإنسان السبعة» لعبد الحكيم قاسم. (انظر مجلة ألف، القاهرة ٢٢/٢٦).

وقد يكون تحدي الموت واحداً من أسباب كتابة السيرة الذاتية، كما هي الحال مع إدوار سعيد في كتابه «خارج المكان» إذ حاول (سعيد) ها هنا، وهو المريض بسرطان الدم، أن يقاوم الفناء ويتحدى الموت. وأن يثبت فلسطينيته وعروبته. وقد هوجم (سعيد) من محام يهودي اتهمه بأنه لم يقل الحق، فهو ليس من القدس ولم يولد فيها. وقول المحامي اليهودي هراء في هراء. والحقيقة أن الموت والحب -كما يقول نجيب محفوظ- . جوهران موكلان بالباب الذهبي يقولان للطارق: تقدم فلا مفر.

وربما كانت السيرة الذاتية تعبيراً عن آثار المنفى لدى كاتبها وعن الحنين إلى الوطن، كما هي الحال عند (حليم بركات) الذي كتب يقول يوماً: «في روايتي طائر الحوم، وهي رواية سيرة ذاتية، حاولت أن أعبر عن تجربتي في المنفى في مختلف أبعادها، في المنفى أجد شجرة الوطن تغرق جذورها عميقا في داخلي، فأنتقل ذهاباً وإياباً، ومن خلال التداعي النفسي وعلى أجنحة المخيلة بين الكهولة والطفولة بين مدينة أمريكية هي واشنطن، وقرية سورية

هي الكفرون. كل ذلك في مناخ نفسي تأملي متوتر معا. وفي زمن محدود هو بضعة أيام. أنتقل بين المهجر والوطن كما تتقل السندباد من جزيرة إلى جزيرة، وأبحث عن جذوري ضائعاً كيولسيس مستنطقا التاريخ السحيق» (فصول، القاهرة مج ١٧/١، ص٤٤).

وتبدو الذات في أنساق الكتابة عنها على ثلاث حالات: ذات فاعلة، وهي التي قامت بالأفعال قبل السرد، وذات منفعلة، وهي التي تقوم بفعل السرد وإنشاء المتن، وذات موضوع للانفعال، وهي التي تدور حولها المتون السردية، وفق ما تقدمه عملية التذكر.

ولا مراء في أن التجربة الذاتية التي يعاد إنتاجها يداخلها كثير من النسيان والقطع والاختيار والبناء والتشكيل، على نحو يتيح للتخييل أن يفعل فعله، ويحول العمل إلى بنية فنية، وليس إلى تقرير طبي عن جثة هامدة.

وقد رأى (أندريه موروا) أن كاتب السيرة يعاني أكثر مما يعاني كاتب الرواية. وبسبب اشتباك السيرة الذاتية، بالرواية السيرذاتية، وبالعنصر الذاتي في الرواية، التبست الحدود فيما بينها. وقد عبر عن مفهوم اللبس هذا الناقد (صبري حافظ) بأنه نوع من التصحيف الذي يخل بالمطابقة ما بين الوقائع التي حدثت للذات، والوقائع التي تحكيها الذات.

يقول (حافظ): «ولكن عملية الحكي ذاتها، وخاصة إذا ما كان حكياً استعادياً، لا تسجيلاً سردياً لما تراه العين، هي في حقيقتها عملية تخيلية بالدرجة الأولى تتحول فيها الأشياء بمجرد اختزالها في الذاكرة، ثم تتحول مرة ثانية عند استجلابها من مخزون الذاكرة، وتجسيدها في سرد متعين على الصفحة، بما تنطوي عليه عملية الكتابة ذاتها من تصحيف» (انظر: رقش الذات لا كتابتها، مجلة ألف، مج ٢٢ ص٨). وقد حصر الباحث (حسام عقل) ميدان النشاط التخييلي في نص السيرة الذاتية في ثلاثة مسائل هي:

١- طرائق رسم الشخوص.
٢- تشكيل الأبنية الزمنية.
٣- معالجة الوقائع (نقلاً عن دراسة ممدوح فراج النابي في مجلة الرواية، القاهرة، ع٧، ص٣٤٨).

ورغم الالتباسات في فهم هذا اللون السردي، فإنّ النظرية النقدية المعاصرة حاولت تحديده وحصره، فكتب الناقد الفرنسي (فيليب لوجون) معرفاً السيرة الذاتية: «هي حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وتاريخ شخصيته بصفة خاصة. ويشترط فيه أن يصرح مباشرة أو غير مباشرة بأن ما يكتبه هو سيرة ذاتية» (انظر: السيرة الذاتية-

الميثاق والتاريخ الأدبي، ص٣٢٩). ويضيف فيليب لوجون: «السيرة الذاتية تتطلب عقد قـراءة صريح يعلن فيه المؤلـف أنه سيروي قصة حياتـه الخاصة. وهي تستدعي اتباع خط زمـاني يصعد من الـولادة إلى لحظة الكتابة المقترفة».

ولا بد مـن التطابـق في السيرة ما بين المؤلف والراوي والبطل. ولكن هذا التعريف لم يكـن جامعاً مانعـاً، ولم يستـوف ميزات السيرذاتية كلها. ومـن أشكال التمرد على حصره في أدبنا العربي عملان وقف عندهما الناقد (بطرس حلاق) هما «ذاكرة للنسيان» لمحمـود درويـش (بـيروت عـام ١٩٨٧م) و«حريق الأخيلة» لإدوار خراط (الإسكندرية عام ١٩٩٤م) وكانت وقفة الناقد عند ذينك الأثريـن لقيمتهما النموذجيـة، فمبناهما منوط بالزمن والموت.

وبمـا أنّ السرد حارس للزمن ومعاند للموت، فالسيرة ها هنا تفعل الفعل ذاته. في عمل محمـود درويش تعدد للأصوات، وفيه ما يناقض ميثاق السـيرة الذاتية لفيليب لوجون، وما يعـدل مقاربتنا لجنس السيرة الذاتية، فالفرد عند محمود درويش يتحدث عن مجموع هو الشعـب الفلسطيني، لا عن فـرد بعينه، وهـذا يضعنا في مواجهة مفهوم الفرد/ الجماعة.

وبدلاً من السرد الخالص في هذا العمل نجـد خليطاً من الأجناس كالشعر وغيره، وهـذا أيضـاً أمر آخر يعدل شـروط كتابة السيرة الذاتيـة، حسب (لوجـون) فليست المسألة كلها نـثراً. أمّا إدوار خراط، فيكتب سيرة ذاتية مغايـرة لما قننه (لوجون) أيضاً، من حيث إصراره على الكتابة عبر النوعية، وبحثـه عـن شكل يعبر عن تصفيـة عالم متشظ.

وينهي (الحـلاق) دراسته بالقـول: إنَّ العلاقة بين الفردي والجماعي عند درويش لا يشبه ما هو عليـه في الثقافة الأوروبية، وما كتبه الخراط في السيرة فيه رفض لكل جنس أدبـي يقنن.(انظـر دراسة الحلاق: السـيرة الذاتيـة وتعـدد الأصـوات، مجلة فصول، القاهرة مج ١/١٧ صص ٧١-٨٠).

ويبدو أن شأن الإبداع هو التجاوز دوماً. وقواعـد كتابـة جنـس أدبـي لا توضع إلا لتخرق.

وفي دراسـة حـول كتابـة الأنا وكتابة التاريـخ في الروايـة الفرنسيـة تستعرض الدكتورة(سلمى مبارك) نماذج من إبداعات سيريـة تزعزع الإطار الذي وضعته النظرية الأدبيـة لكتابات الـذات. ومنهـا مثلا ما كتبـه(رولان بـارت) بعنـوان: «رولان بارت بقلـم رولان بـارت» وفيـه دحـض لفكرة الحقيقة السائدة في كتابات السيرة الذاتية، واستخدام الصـورة الفوتوغرافية لمصاحبة نص السـيرة، وذوبان ضمـير الأنا الداعم الأساسي للسيرة الذاتية وسط ضمائر عدة

كما فعل بيكيت في سيرته الذاتية. وهناك تناوب ما بين مقاطع متخيلة ووقائع حقيقية عند (جورج بيرك). وهو المصطلح الذي صكه (سيرج دوبرفسكي) عام ١٩٧٧م، فيما صار يعرف بـ «خيال ذاتي» في وصفه لكتابه «الابن» والذي يتحرر فيه من الالتزام بالحقيقة فيتلاعب بالأحداث وبالزمن. (انظر: كتابة الأنا وكتابة التاريخ في الرواية الفرنسية المعاصرة، لسلمى مبارك، مجلة الرواية قضايا وآفاق، ع٥ ص٢٠٩. ٢١٠).

ووقف عند هذا المصطلح الناقد (محمد الداهي) فرأى العملية الإبداعية المنضوية تحت ما يسمى «التخييل الذاتي» تخلف لدى القارئ انطباعا مفاده أن الكاتب يكتب محكيا لا صلة له به. ثم يمضي فيفصل في السمات العامة للتخييل الذاتي (انظر: الحقيقة الملتبسة، للداهي، ص١٥٧. ١٥٨).

تاريخ الكتابة عن الذات:

يبدو للمتتبع لهذا اللون من السرد الذي نناقشه هنا، أن مدونته العالمية والعربية واسعة جداً. وربما كانت الكتابة على القبور عند المصريين، وهي عبارات قصيرة، من براعم كتابة السيرة الذاتية، فهي قد تشير إلى شيء من تاريخ الشخصية ومن صفاتها، وتروم، كغيرها من الكتابات المطولة، محاربة الفناء ومقاومة الزمن.

وهناك من عد كتاب «اعترافات القديس أوغسطين» التي كتبها في شمالي أفريقيا في القرن الرابع الميلادي من أوائل السير الذاتية، كما ذكرنا. وفيها وصف أيام الطفولة والشباب. وقد تابع (أوغسطين) في الغرب (جان جاك روسو) في «اعترافاته». وكذلك فعل شارل ديكنز في روايته «ديفيد كوبرر فيلد» وغوته في «أحزان فرتر» وسومرست موم في «الرق البشري» وهنري ميللر في مدار السرطان وجيمس جويس في «صورة الفنان في شبابه» (انظر مجلة الرواية قضايا وآفاق، القاهرة ٢٠١٢، ع٧، ص٣٣٢).

وفي محيطنا العربي هناك من يرجع تاريخ الكتابة عن الذات إلى زمن متأخر، فيشير إلى ما كتبه (حنين بن إسحق) عن نفسه في كتابه «طبقات الأطباء»، وكذلك الغزالي، وابن سينا، وابن خلدون، والسيوطي.

ولكن مثل تلك الآثار هي أقرب إلى الترجمة الذاتية منها إلى السيرة الفنية. لذا نرى بعض الباحثين يقفز إلى منتصف القرن التاسع عشر ليسجل أن كتاب «الساق على الساق فيما هو الفارياق» لأحمد فارس الشدياق، هو أول نص في السيرة الذاتية العربية (انظر صبري حافظ، مجلة ألف ع٢٢/ ص١٨). ويرى الناقد (حافظ) أن هذه السيرة حكمتها ثلاثة خيوط هي:

١- خيط النشأة.
٢- خيط الرحلة.
٣- خيط اللغة

وهذه الخيوط اشتركت فيها العديد من السيرذاتية العربية.

ولا تصح الاستهانة بالكتابة عن الطفولة في السيرة الذاتية، فهي عمل معقد، ويتطلب قدرات خاصة، يقول (دويت رينولد) في هذا الصدد: «يفترض نوع السيرة الذاتية عن الطفولة حساسية تجاه الشكل، وقدرة على تكييف المادة الخام غير المتوازنة والمشوهة، مع تناسق التعبير الأدبي، من دون إفراط في تشويه الحقيقة، ويشترط إدراكاً للبعد الملحمي والانضباط الصارم للإيقاع يشترط معرفة بالذات». (انظر رينولد في: السيرة الذاتية في الأدب العربي- الفكرة المغلوطة عن الأصول الأوروبية، مجلة الكرمل، ع٧٦، ص٨٩). ويرادف الكتابة عن الطفولة ما يسمى سرد سنوات التكوين، وقد خصصت مجلة الهلال المصرية بابا شهرياً بعنوان سنوات التكوين حرر فيه العديد من الكتاب والمفكرين والأدباء والفنانين سنوات تكوينهم بأقلامهم. ثم أصدرت تلك المقالات في كتاب مستقل في شهر فبراير من العام ١٩٩٨م (انظر: محمد كامل الخطيب، أعشاب الماضي، دراسة في السيرة الأدبية، دمشق ٢٠١٠م، ص٣١).

ومن الأمثلة على روايات التكوين في الأدب السوري رواية غادة السمان: «الرواية المستحيلة- فسيفساء دمشقية» فالعلاقة ما بين الطفلة (زين) بطلة الرواية و(غادة السمان) تكاد تكون متطابقة فكلتاهما نشأت يتيمة الأم وكلتاهما مولودة لامرأة قدمت من اللاذقية إلى دمشق، ووالد كل منهما محام وأستاذ جامعي...إلخ. (انظر كتابنا: الخطاب وتقنيات السرد في النص الروائي السوري المعاصر، دمشق، ٢٠٠٩م، ص٣١).

أمَّا الرحلة، فنطالعها أيضاً في سير توفيق الحكيم، والمازني، وأحمد أمين، ونوال السعداوي، ورضوى عاشور، وجبرا إبراهيم جبرا، وفدوى طوقان، وهشام الشرابي، وبديع حقي... إلخ. والرحلة تنقل الذات الساردة من مكان إلى مكان. ولا ريب في أنها تترك آثارها في تفكيره وسلوكه وتوجهاته. ورحلات نعيمة ما بين موسكو وواشنطن مثلاً، تركت بصماتها بقوة في تفكيره وسلوكه. وكذلك كانت رحلة طه حسين إلى فرنسا، ورحلة عبد المجيد بن جلون.

أمَّا هاجس اللغة، فلا أراه ضربة لازبة عند كتاب السيرذاتية، فمرامي الكتاب ليست واحدة، ومعاناتهم اللغوية لا تبدو واضحة في سيرهم الذاتية، كما هي عند الشعراء الذين مثل عليهم صبري حافظ في دراسته المذكور بـ: نزار قباني والبياتي وصلاح عبد الصبور وأدونيس.

ومن اللافت للانتباه أن الرواية السيرذاتية، وإن كُتبت في مراحل العمر المختلفة، كانت في كثير من الأحيان الرواية

الأولى لكثير من الكتاب، والأمثلة كثيرة منها. زينب لهيكل، والأيام لطه حسين، ويوميات مطلقة لهيفاء بيطار. ونشر الباحث خيري دومة دراسة عن الروايات النسائية في مصر في تسعينيات القرن العشرين، فوقف عند سبع روايات، كانت كل منها الرواية الأولى لمؤلفتها. وتلك الروايات هي: الخباء لميرال الطحاوي، ودنيا زاد لمي التلمساني، وقميص وردي فارغ لنورا أمين، ومرايا الروح لبهجة حسين، والسيقان الرفيعة للكذب لعفاف السيد حسين، ودارية لسحر الموجي، وأوراق النرجس لسمية رمضان (انظر مجلة نزوى، عمان، ع٣٦/٢٠٠٣م).

وهذه ظاهرة تؤيد قول (كليف جيمس) وهو لا بد أن تكون الرواية الأولى سيرة ذاتية لكاتبها. ولكن هذا القول لا ينطبق على الكتّاب برمتهم، فحنا مينة وبديع حقي وإحسان عباس وإدوار سعيد وأحمد أمين وآخرون، لم تكن الرواية السيرذاتية أولى رواياتهم، بل كتبوها بعد أن بلغوا من العمر عتياً.

ويبدو أن الكتابة النسوية عن الذات انتشرت انتشاراً كبيراً، حتى إنَّ الباحثة السورية (نوار الحسن جولي) نشرت بالإنكليزية كتاباً عنوانه «قراءة السير الذاتية للروائيات العربيات». وصدر عن مطبعة جامعة تكساس في العام ٢٠٠٣م.

وعقد الباحث المغربي (محمد الداهي) في كتابه «الحقيقة الملتبسة» فصلاً عنوانه «محكي الحياة النسائية». ووقف فيه عند كل من الكاتبات المغربيات فاطنة البيه وليلى لحلو ورشيدة اليعقوبي. ولكل منهن رواية سيرذاتية. منتهيا إلى القول: إن كل ساردة تحكي نوعاً من المغامرة الداخلية الموجهة إلى هم التوضيح وصفاء الذهن والانسجام وتطهير الذات مما تركته التجربة المريرة من آثار. (انظر الحقيقة الملتبسة، ص١٠٣). وهذا الغرض مكن كتابة السيرة عند النسوة أن تقترب من غرضها عند (نعيمة) الذي قال: «إنَّ كتابة سيرته سيساعده على تصحيح حساباته مع نفسه ومع الناس ومع الكائنات التي كان لها في حياته نصيب» (سبعون ١/١٢). ويضاف هذا الحافز إلى حوافز التطهر ومجابهة الزمن والموت التي كانت وراء إنتاج السيرذاتية المختلفة.

ووقف الناقد السعودي (معجب الزهراني) في دراسة له عند أربع روايات درسها تحت عنوان «القراءة الحوارية لعلاقات السيرة الذاتية بالرواية». وهي: (تلك الرائحة) لصنع الله إبراهيم و(الخبز الحافي) لمحمد شكري و(ثلاثية أطياف الأزقة المهجورة) لتركي الحمد، و(الحزام) لأحمد أبو دهمان. ورأى أنها تقع تحت عنوان «الرواية السيرية». وأشار إلى ثلاثة اتجاهات تحققها، هي فضح السلطات القامعة للكائن الفرد، مع الاحتفاء بانتقال

الضحيـة من موقع إلى موقـع. ومثاله هنا (تلك الرائحة) و(الخبز الحافي).

والاتجاه الثـاني يتمثل باستغلال الشكل الروائي قناعاً فنيـاً لإعادة تشكيل التجربة الشخصيـة بأقصـى قـدر مـن الحرية والموضوعيـة ومثاله عليـه (أطياف الأزقة المهجـورة) لتركـي الحمد. والثـالـث يتمثل بإعـادة صياغة التجربة الفردية من منظور احتفـالي تبرز معاناة الـذات خلال سيرورة التعلم والوعي. والمثال علـى هذا الاتجاه روايـة «الحزام» لأحمد أبـو دهمان (انظر الرواية العربية «ممكنـات السرد»، الكويت ٢٠٠٩م، ص٩٧).

والحـق أنَّ الـذات التي تكتـب نفسها تكتـب معها أشياء كثيرة، لعلَّ أهمها التاريخ العام إلى جانب التاريـخ الشخصي، يقول سلامـة موسى في هذا الصدد: «أنا في هذه السيرة لست مؤرخاً لنفسي فقط، إنما أروي تاريخ العصر الذي عشت فيه وتاريخ الجيل الذي كنت أحد أفراده».

وفي قطرنا العربي السوري يمكن للمرء أن يقـع على إشارات دالة على واقع الحالة الاقتصاديـة في بعضـ السيرذاتية، فحين يكتب (بديـع حقي) أن الراتـب التقاعدي لوالـده في أربعينيات القـرن العشرين كان إحدى وعشرين لـيرة سورية، فإنه يشير إلى رخص السلع السورية آنذاك، وإلى قوة الليرة السورية في تلك الآونة. (انظر الشجرة التي غرستها أمي، لحقي، ص٨٦).

وفي مصر العربية يشير أحمد أمين إلى ما جره نشوب الحـرب العالمية الأولى على مصر، ولكن بإيجاز وتكثيف، يقول: «جاءت الحـرب العالميـة الأولى، وكانـت أحداثها وقـوداً لإلهـاب الشعـور الوطنـي، فخلع الخديوي عباسـ وأعلنت بريطانيا الحماية على مصر وولي الأمير حسين كامل سلطاناً على مصر، فأثرت في شعورنا الطريقة التي عـين بها، فقد كان والي مصر يعين من قبل سلطان الآستانة بفرمان يحمله مندوب سام مـن قبل السلطان، فرأينـا في هذه المرة أن تعيين سلطان مصر يتم بخطاب وجهه متولي أعمال الوكالة البريطانية.

وعانـت مصر ويلات الحـرب من سوء الحالـة الاقتصادية وتعديات الإنجليز على الأهـالي وتشغيـل العمـال المصريين رغم أنوفهم، وأخذت السلطة الإنجليزية الدواب والمحصولات جبرا وتحليق الطائرات الألمانية فوق القاهرة وإصابتها بعض الأهالي وتسفير العمال المصريـين إلى فرنسا والعراق ونزع سلاح المصريين.

كل هذا ربى شعورنـا الوطني (حياتي، صـ١٨٥). ولا ريب أن (أمـين) هنا يكثف في سطـور مـا يمكن للمـؤرخ أن يسود فيه صفحات كثيرات.

وعليه فنحـن، وإن لم نجد تاريخاً كاملاً

للزمن الذي تنشر فيه السيرة، فإننا واجدون إشارات ربما تكون ذات قيمة حتى للمؤرخ المختص. ولا غرو في ذلك فالذات الساردة هي مرآة لعصرها.

والتاريخ الفردي هو شكل من أشكال التاريخ العام. ولكن الوظيفة الإشارية للغة هنا تتفوق على وظيفتها الأدبية، طبقا لمصطلح (جابر عصفور) الذي رأى أن الذات في «الأيام» لطه حسين لم تكف عن الإشارة إلى تاريخها الذي هو عام وخاص في الوقت نفسه. ولكن غلبة الأدبي في تلك الرواية جعلها تنتسب إلى حقل الأدب، في الوقت الذي يراها المؤرخ وثيقة تاريخية دالة.(انظر زمن الرواية، لعصفور، ص٢١٧).

ولم يكن الالتباس بين العام والخاص في النص السيرذاتي الالتباس الوحيد في هذا اللون السردي، بل نرى لبسا آخر يتمثل بامّحاء الخط الفاصل ما بين العنصر الذاتي في رواية ليست سيرية، وشخصية الكاتب نفسه خارج أعماله الكتابية.

وقد اعتاد الكثير من الروائيين أن يعزف عن السيرة، بحدودها المعروفة، وينزع إلى الرواية ببنيتها التخييلية. لأن الرواية تعبر عن الجوهري في أنفسنا، يقول (جان بول سارتر) بعد أن نشر جانبا من سيرته الذاتية: «إنه قرر أن يكمل عمله في القالب التخييلي للرواية، لأن الحقيقة لا يمكن قولها إلا في قالب تخييلي». (جابر عصفور: زمن الرواية، ص٢٥٠). وقد حفلت الروايات الغربية والعربية بحالة تشبه التماهي ما بين الكاتب المعروف خارج روايته، وإحدى شخصيات الرواية التي أخرجها للناس. ومما يؤثر عن الروائي الفرنسي (غوستاف فلوبير) قوله: «أنا هي السيدة بوفاري». والسيدة بوفاري هي حاملة اسم رواية فلوبير «مدام بوفاري» بل هي الشخصية المحورية في تلك الرواية. ويؤثر عن (نجيب محفوظ) قوله: «أنا» هو (كمال عبد الجواد). وعبد الجواد هو الشخصية الأبرز في الجزء الثالث والأخير من ثلاثية نجيب محفوظ المعروفة (انظر: أعشاب الماضي، للخطيب، ص٤٣) وفي دراسة لي عن رواية «الربيع والخريف»، وجدت علاقة قوية ما بين بطلها (كرم) وكاتبها حنا مينه، فكل منهما عاش في الصين، وعمل مدرساً في جامعة بكين، ثم في جامعة بودابست، إضافة إلى سمات أخرى مشتركة كثيرة... وربما ينطبق الشأن ذاته على شخصية (يوسف) في روايتي فتحي غانم: الرجل الذي فقد ظله، وزينب والعرش، ومؤلف الروايتين. وعلى شخصية (ميخائيل) في روايات إدوار الخراط: رامة والتنين، والزمن الآخر، وترابها زعفران، وبنات إسكندرية. وشخصية الخراط نفسه.

ولعلّ هذا الاختزال يظلم الروايات التي تحمل شخصياتها شيئاً من قسمات وسمات

كاتبهـا، فالروايـة أوسع من ذلـك وأعقد. وهنـاك من يرى في «الثلاثية» صورة لتاريخ مصر بين الحربين العالميتين، وليست صورة لنجيب محفـوظ. والشيء ذاته يصدق على أبطـال حنا مينـه في ثلاثيتـه: بقايا صور والمستنقع والقطاف، فهي تتحدث عن سورية أكثر مما تتحدث عن حنا مينه نفسه.

وقـد تطرف بعض النقـاد، فاختزلوا الروايـة ببنيتها العامـة ودلالتها ومراميها بالعنصـر الذاتي فيها، فقـرروا أن ما بين أيديهـم من هـذا اللون السـردي هو رواية سيرذاتيـة. وفي دراسـة للناقـد السعودي (صالـح بن معيض الغامـدي) وقفة عند أشكال من رؤية الرواية السعودية على أنها سيرة ذاتية لكاتبها، فهو يشير إلى أن منصور الحازمـي يرى أن أكـثر الروايات السعودية سيرذاتيـة لأصحابها، يصح هذا على رواية «فكرة» لأحمـد السباعي وروايـة «البعث» للمغربـي، ورواية «ثمـن الضحية» لحامد المنهـوري، و«ثقب في جدار الليل» و«سفينة الموتى» لإبراهيم الناصر.

والحكم السابـق يصدق علـى روايات لرجاء عـالم وحمزة بو قـرة وعبده الخال، وعلى رواية شقـة الحرية لغازي القصيبي. ويشـترك في الحكم السابـق كل من النقاد السعوديـين محمـد الشنطـي وسلطـان القحطاني وحسن الحازمي وحسين المناصرة ومعجب الزهراني. ولكن هذا الفهم للروايات السعودية المذكورة جوبه بالرفض من قبل كل الروائيين عبده الخال وتركي الحمد وغازي القصيبـي (انظر في ذلك دراسة، الغامدي: سيرذاتية الرواية العربيـة السعودية، مجلة علامـات في النقد، جـدة ع٥١/ صص ٣٩. ٦٢).

وقبـل أن ينكـر بعـض الروائيـين السعوديـين التطابـق التام بـين شخوص رواياتهـم وشخصياتهم خارج تلك الروايات نفى توفيق الحكيـم أن تكون «عودة الروح» و«عصفور من الشـرق» و«يوميات نائب في الأريـاف» سيرة ذاتية لـه، لأن التشابه بين أبطـال رواياته وحياتـه لا يمكن أن يعطي للناقـد أو الدارس الحق في اعتبارها وثائق تاريخية دقيقـة، لأن عوامل كثيرة وعناصر مختلفة اختلطت بهـا، منها ما هو حقيقي، ومنها ما هو غير حقيقي.

وفعل الفعل ذاتـه عباس محمود العقاد حـين أنكر أن يكـون (همام) بطـل روايته «سارة» هـو العقاد ذاته، ورفض بهاء طاهر الربط بـين شخصية الصحفـي في روايته «الحـب في المنفـى» وشخصيتـه ذاتها لأن روايته كمـا يرى أساسها الخيال رغم وجود أشياء حقيقية فيها. وعليه يترتب على الناقد أن يقرأ بعضاً مما يشير إلى سيرة الكتاب في رواياتهـم بحذر، فعلى الرغم من التداخل القوي بين سيرة الكاتـب خارج الرواية وما يشبههـا داخل الرواية، فـإن مكرًا قد يقع،

وبعضاً من ألاعيب الفن تستغل... وفي هذا الصدد يقول الروائي الجزائري (واسيني الأعرج): «عندما أكتب شخصية قريبة مني أو تشبهني، كأن تكون أستاذاً جامعياً أو فناناً، هذه الشخصية فيها مني، لكنها ليست أنا في تفاصيلها، قد تكون أنا في روحها» (انظر الرابط w.w.w.mahjoob.com).

وفي حوار للكاتب (الأعرج) مع كمال الرياحي على الشابكة (النت) ذكر (الأعرج) أن روايته «ذاكرة الماء» هي الأقرب إلى سيرته الذاتية. ويضيف: فيها الكثير مما حصل معه ومع ابنته وزوجته. ولكن ليس ذلك ما حصل بالفعل وبكل دقة. الرسائل الموجودة صحيحة وبعضها غير صحيح. إنها ألعاب فنية فواحدة من الرسائل هي رسالة أحلام مستغانمي، وليست رسالة زينب. وكلام واسيني الأعرج يظهر بوضوح أنموذجاً من مزج التخييل بالوقائع في العمل الروائي.

وربما يعود إنكار الكتّاب لعلاقة التطابق ما بينهم من جهة، وبين أبطال رواياتهم من جهة أخرى، وما يستتبع ذلك من أن الرواية التي تحتقب هذا التطابق هي رواية سيرية، إلى حقيقة مآلها: أن السيرة الذاتية بنية مغلقة ومنتهية لأنها تنتهي مع حياة كاتبها، وهي بهذا لا تمتد في المستقبل، وتلغي كل بعد في هذا الاتجاه.

أمّا الرواية فتبدو منفتحة على كل الأزمنة، فهي تصوّر حياة متطورة نامية.

كما أن السيرة تفتقد، أو قد تفتقد، بعضاً من عناصر الرواية، فكاتب السيرة أو صاحبها قد لا يكون معنياً كثيراً بعنصر التشويق والحبكة الدرامية، بقدر اعتنائه بسرد وقائع حياته بأسلوب عفوي وطبيعي. (انظر فضاء المتخيل، لحسين خمري، دمشق ٢٠٠١، ص٢١٨، وبنية التشابه بين المؤلف وشخصيات الرواية، لعبد الرحمن عمار، دمشق، ٢٠٠٧م ص٤٠).

ومن الأوهام المتصلة بإدراج العنصر الذاتي في الرواية، وخاصة عند النساء، تحدي المحرمات من زاوية بعض رجال الدين، وهذا ما عانت منه الكاتبة نوال السعداوي لاتهامها بانتهاك المحرمات، وعفاف السيد التي فقدت حريتها وارتدت الحجاب بعد أن أقنعها الأصوليون بأن الإبداع فعل شيطاني. فأعجب بذلك (انظر مجلة الرواية، ع٧ ص٣٤٥).

وهكذا تبدو الكتابة عن الذات عملاً سردياً عريقاً، ومدونته في الأدبين العربي والغربي كبيرة ومتسعة. ولها أشكال وبنى مختلفة، والخيال غير غائب عن نماذجها. وهي كما تؤرخ للأفراد تؤرخ للأمم والأجيال والأمصار. ودوافعها عديدة ومتباينة. ومحاولة تحديدها في النظرية الأدبية المعاصرة لاقت تجاوزاً واختراقاً مستمرين، كما هي الحال في ذاكرة للنسيان لمحمود درويش، وحريق الأخيلة للخراط.

وعلى الرغم من سطوع العنصر الذاتي في بعض الأعمال السردية، وزعم الكتّاب أن واحداً من أبطالهم يمثله كما هي الحال مع مدام بوفاري وفلوبير، وكمال عبد الجواد ونجيب محفوظ، فإن روائيين آخر رفضوا ما زعمه النقاد من تطابق ما بين أبطالهم وشخصياتهم خارج الرواية، كما فعل غازي القصيبي وعبده الخال والعقاد وبهاء طاهر وغيرهم. وذلك لاعتقادهم بأن ما فعلوه هو تخييل، وظيفة اللغة فيه أدبية لا إشارية. ولأنهم يرغبون بأن تفهم آثارهم الفنية على أن لها بنى منفتحة وغير مغلقة البتة. ولأن الرواية، في النهاية، هي فن مراوغ، يصعب تقنينه في قوالب حجرية جامدة. وكل رواية هي نوع أدبي في ذاتها -وجوهرها- كما يقول (شليجل). يكمن في فرديتها. (انظر الملحمة والرواية، لباختين، ترجمة جمال الشحيد، ١٩٨٢، ص٢٢).

المراجع

- السيسي، أكرم: السيرة الذاتية لطه حسين وجان جاك روسو، بين التعتيم والتعميم وبين التصريح والتخصيص، مجلة ضاد، القاهرة، ٢٠٠٨م، ع١٠.
- حافظ، صبري: رقش الذات لا كتابتها تحولات الإستراتيجية النصية في السيرة الذاتية، مجلة ألف، القاهرة، ٢٠٠٢م، ع٢٢.
- بركات حليم: رواية الغربة والمنفى، مجلة فصول، القاهرة، ١٩٩٨م، ١٧/١.
- النابي، ممدوح فراج: تداخل الأنواع الأدبية وتوالد السرد (رواية السيرة الذاتية نموذجا)، مجلة الرواية قضايا وآفاق، القاهرة، ع٧.
- لوجون، فيليب: السيرة الذاتية . الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة: عمر حلمي، بيروت ١٩٩٤م.
- الحلاق، بطرس: السيرة الذاتية وتعدد الأصوات، مجلة فصول، القاهرة ١٩٩٨م، مج ١/١٧.
- مبارك، سلمى: كتابة الأنا وكتابة التاريخ في الرواية الفرنسية المعاصرة، مجلة الرواية قضايا وآفاق، القاهرة، ٢٠١٠م، ع٥.
- الداهي، محمد: الحقيقة الملتبسة، الدار البيضاء، ٢٠٠٧م.
- رينولدز، دويت: السيرة الذاتية في الأدب العربي، مجلة الكرمل، ١٩٩٢م،ع ٧٦.
- الخطيب، محمد كامل: أعشاب الماضي دراسة في السيرة الأدبية، دمشق ٢٠١٠م.
- الفريجات، عادل الخطاب وتقنيات السرد في النص الروائي السوري المعاصر، دمشق ٢٠٠٩م.
- دومة، خيري: رواية السيرة الذاتية، قراءة في بعض روايات البنات في مصر في التسعينيات، مجلة نزوى، عمان، ٢٠٠٩م، ع٣٦.
- نعيمة، ميخائيل: سبعون، بيروت، ١٩٥٩م.

- الزهـراني، معجب: القـراءة الحوارية لعلاقات السيرة الذاتية بالرواية، دراسـة ضمن كتاب الرواية العربية «ممكنات السرد»، الكويت ٢٠٠٩م.
- حقي، بديع: الشجرة التي غرستها أمي، دمشق، ١٩٨٦م.
- أمين، أحمد: حياتي، بيروت، ط٣، ١٩٨٥م.
- عصفور، جابر: زمن الرواية، القاهرة ١٩٩٩م.
- الغامدي، صالح: سير ذاتية الرواية العربية السعودية، مجلة علامات، جدة، ع٥١.
- الأعرج واسيني، حوار معه، على الرابط.w.w.mhjoob.com
- الخمري، حسين المتخيل السردي، دمشق ٢٠٠١م.
- عمار، عبد الرحمن: بنية التشابه بين المؤلف وشخصيات الرواية، دمشق ٢٠٠٧م.

الأنثى في أدب الشرق العربي القديم

نزار مصطفى كحلة ✪

لطالما حظيت المرأة بمكانة سامية، أفرزتها جملة من التراكمات والمشاهدات، والتي بقيت تدغدغ مشاعر نصفها الآخر تارةً، وطوراً استطاعت الوصول إلى مكنونات عقله، جاعلة إيّاه في حالة من الذهول والانبهار، فأمام هذه المشاهد المتراكمة من عبقرية المرأة، وهذا الإرث الذي ما فتئ يدفعه نحو تقديسها. والذي ترسخ في العقل الجمعي منذ عصور ما قبل التاريخ، وحتى آخر تجليات الإلهة الأنثى كأم «للإله» متمثلة بالسيدة العذراء. فمنذ أن كانت المرأة إلهة الصيادين الأوائل، وحتى اكتشافها الزراعة، وعلى اعتبارها الطبيبة والصيدلانية والكيميائية الأولى، وأمام ارتباط وتشابه دورة الإنجاب والولادة لديها بدورة القمر والخصب والزراعة.

أمّا، والحالة هذه، فكان لا مندوحة أمام الذكر سوى تقديسها وجعلها السيدة والإلهة الأولى، فقد ترسخت هذه الأيديولوجية المبكرة في عقله، رسوخ الإيمان الحقيقي في قلب ناسك متعبد، جاعلةً من العقل الجمعي لإنسان ذلك العصر صورةً حقيقيةً وانعكاساً جلياً لمكانة عالية مُثِلت ونُحتت في تلافيف وحنايا خلاياه النبيلة، والتي تحولت إلى سلوك واقعي، تمثل في جعل المرأة تحظى بالمرتبة الأولى، والتي انعكست في الكثير من الدمى الطينية، التي تمثل حالة المرأة كرمز للعطاء والخصب والأمومة، في عصر ما قبل الكتابة.

✪ أديب وباحث سوري.

أمّا، وقد استطاع الإنسان الكتابةَ، فكان أهم انعكاس لهذه المكانة العالية للمرأة لديه، قد تجلى في الأدب والشعر، ومن غيرهما الأقدر ليصبح صورة للمجتمع ومرآة للفكر والسلوك والعقل الجمعي.

فقد تحولت المرأة لمادة شهية دغدغت مشاعر وأحاسيس شعراء وكتّاب ذلك العصر. وعلى اعتبارهم مرآة عصرهم، وخير شاهد عليه، كان شعرهم ونثرهم خير ممثل لما ينتاب المرء من مشاعر وأحاسيس تجاه المرأة، والذي صُبَّ في العديد من القصائد التي صورت لنا المرأة كإلهة أم، وسيدة جميلة، وأم حنون، وعاشقة ملهمة، فكنّا نراها تمثل كافة الأدوار، وتسيّر أقلام الشعراء حسبما تشاء.

فكان أوّل دور لعبته الأم هو مشاركتها في خلق الإنسان، حيث نقرأ في أحد نصوص التكوين البابلية:

أنت الرحمُ الأم

يا خالقة الجنسِ البشري

اخلقي الإنسان ليحمل العبءَ

ويأخذ عن الآلهة عناءَ العملِ

فتحت «ننتو» فمها وقالت:

لن يكون لي أن أنجزَ ذلك وحدي

ولكن بمعونة «أنكي» سوف يخلق الإنسان

فليعطني «أنكي» طيناً أعجنه.

ومن خير من الأنثى في تمجيد ذاتها ومعرفة كنه حقيقتها، فها هي الشاعرة (أنخيدو- أنا)[1] تقول في تمجيد الإلهة إنانا:

عندما ترتدين جلابيب الآلهة

الآلهة القديمة جدّاً

سيغنّي ذوو الشعور السوداء[2]

سيمدحونك بأغنية.

وفي ابتهالٍ لجوديا ملك لاغاش[3]، إلى الإلهة، حيث يصف المرأة بأنها ملكة، فهي تحتل المركز الأوّل في السماء وتقدم الخير للجميع، وهي أُمٌّ، وبنتُ لاغاش، وهي التي ترعى اليتيم وتدافع عن الأرملة، وتقف ضد الظلم، حيث يقول فيه:

أي مليكتي، يا ابنة السماء الصافية

التي تنصح بكل ما هو خير

أنت التي تحتلين المركز الأوّل في السماء

والتي تمنحين الحياة للبلاد

أنت الأم التي أسست لاغاش

أنت الرجل التقي الذي توجهين نظرك إليه

تطول حياته

ليس لي أم، أنت أمي

ليس لي أب، أنت أبي

فبالنسبة للسومريين، كانت الإلهة (نانشي) هي:

التي تعرف اليتيم وتعرف الأرملة

التي تعرف ظلم الإنسان للإنسان

وهي أم اليتيم نانشي تعتني بالأرملة

وتحقق العدالة لأفقر الناس

إنها الملكة التي تستجلب الملتجي إلى حجرها

والتي تجد ملاذاً للضعيف.

وفي كتاب قديم يدعى (كتاب الرعد) نراها تتحول إلى الأم العظمى، فهي أم الجنس البشري، ولها دورها في عملية الخلق والإبداع، إنها رمز العطاء، كما إنها تعطي الحكمة والمعرفة، وهي العقل، كما أنها الحرب والسلام والقوة والشرف والعار، وهي الخشية والخزي.

ويرد هذا النشيد على لسان كينونة أنثوية تتكلم عن نفسها والذي نقتبس منه هذه المقاطع:

أنا الأولى والأخيرة

أنا المكرمة والمحتقرة

العاهرة والقديسة

والزوجة والبكر

الأم والبنت

أنا العاقر وكثيرون هم أولادي

أعراسي لا تحصى ولم أقترن ببعل

أنا العروس والعريس

زوجي ولدني

وأنا أم أبي وأخت زوجي وهو ابني

أنا المعرفة أنا الجهل

أنا العار والخزي

أنا القوة وأنا الخشية

أنا الحرب وأنا السلام

أنا الصمت الذي لا يكْتَهُ

وفي مقطع آخر تقول:

أنا الحكمة (صوفيا)

وأنا المعرفة (غنوص)

أنا الأم العظمى التي لا تسقط، وصوفيا

الحكمة التي سقطت

أنا العقل والكلمة والصمت والصوت

أنا ذلك الذي وحده يوجد ولا أحد

يحكم عليّ.

وفي طقوس الجنس المقدس الخرافية[٤] تتحول المرأة من ربة (إنانا) في السماء إلى كاهنة تلعب دور إنانا في الزواج المقدس (الرمزي المعنى) على الأرض، والذي كان يجري بغية استمرار الخصب والحياة كانعكاس لما يجري في السماء.

ففي شعر غرامي رائع يجمع في صوره بين العري المنزّه، والمشاعر الأعظم رقة، تقصُّ علينا الترانيم الملكية الأكثر وضوحاً، وهي ترنيمة (أدين- داجان)[٥] مواسم هذا الزواج كما يدور على الأرض، في غرفة بغطاء فاخر، وكانت الرّبة قد استحمت واستلقت عليه، وفاحت من الأرض رائحة زيت الأرز العطرة. ويتقدم منها الملك، حيث يقول الشاعر:

يقترب الملك، والرأس مرفوع من حجرها المقدس.

ويقترب، مرفوع الرأس من حضن إنانا المقدسة.
وينطرح (أما - أشوم جال - أنا)[٦] إلى جانبها،
ويدغدغ أحضانها.
وعندما استلقت الزّية المعلمة فوق السرير.
وفي أحضان (الملك) المقدسة
عندما استلقت إنانا الطاهرة فوق السرير
في أحضانه المقدسة
قالت إلى أدين داجان:
أنت حبيبي والحق.

وبعد أن يتم القران يُفتَح باب الدخول للجمهور المحمل بالتقدمات، وكذلك للموسيقيين، وتقدم مائدة بهذه المناسبة.

وأمام المجتمع الذكوري القادم بقوة مع اقترابنا من ميلاد السيد المسيح، هذا المجتمع الذي بدأ ينازع المرأة مكانتها السامية، فإنَّ المرأة لم تقف مكتوفة الأيدي أمام هذا الامتهان لكرامتها، فنراها تنتفض لتغسل عن كاهلها غبار التبعية ولتذكّر الذكر بقوتها وعظمتها، ففي أحد النصوص[٧] التي تعبّر من خلاله عن نفسها، فهي ما تزال ترى في نفسها القدرة القادرة على فعل كل شيء، فهي تمثل كل ما في الوجود، حيث تقول عشتار وهي بالتأكيد إيزيس مصر:

أنا الأوّل، وأنا الآخر
أنا البغيّ، وأنا القدّيسة
أنا الزوجة، وأنا العذراء
أنا الأم، وأنا الابنة
أنا العاقر، وكثر هم أبنائي
أنا في عرس كبير ولم أتخذ زوجاً
أنا القابلة ولم أنجب أحداً
وأنا سلوة أتعاب حملي
أنا العروس وأنا العريس
وزوجي من أنجبني
أنا أم أبي، وأخت زوجي
وهو من نسلي.

كما تناول الأدب الشرقي القديم مكانة الأم في كثير من القصائد الرقيقة والجميلة، ففي قصيدة لشاعر من أوغاريت كُتبت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وتعبِّر عن عاطفة شاعر نحو أمه بقوله:

أمي كنوز الأفق
غزال الجبل
ونجم الصباح المتألق
وحلي ابنة الملك السائحة بفتنتها
وتمثال الرخام على اللازورد
وروح العاج الكامل المملوء بالفتنة
أمي هي المطر في الوقت الجيد
وأول ماء الزرع، والمحصول الوفير، والقمح الرفيع
وثمار الربيع ومنتوج نيسان، والجدول
الناقل للمياه العذبة إلى السهل

ومن النصوص التي وجدت في أوغاريت أيضاً، والتي تنسب إلى الأدب السومري الأكادي، وهو عبارة عن رسالة ربما كانت خيالية كتبها شخص عُرِفَ عنه من مصادر

أخرى بأنه شاعر يوصي فيها ناقلها المتوجه إلى نيبور[8]، بأن ينقل سلامه إلى أمه ويقول له:

«إذا كنت لا تعرف أمي، فإني سأعطيك علامة فارقة لها» ويعطيه هذه العلامة الفارقة في القسم الأول من هذه المقطوعة، ثم يتابع النص بقوله:

«وسأعطيك علامة فارقة ثانية لأمي» وهنا القسم الثاني من النص المكتشف في رأس شمرا، والذي يقول فيه:

أمي هي ومضة السماء، وبهاء الخيال،

هي نجمة الزهرة، والضياء المشع

هي اللازورد من بلاد بابل، والبلور من (مرحشي).[9]

هي حلية ابنة ملك تفيض سحراً

هي قطعة فيروز، ووعاء فاخر

هي سوار من معدن أبيض، وخاتم من حديد ثمين.

هي قطعة من ذهب، وفضة خالصة.

هي حلية نفيسة مدلاة على العنق.

هي تمثال من الرخام على قاعدة من اللازورد.

هي لوحة عاجية كاملة ملأى بالسحر.

ثم يتابع النص بقوله:

وسأعطيك علامة ثالثة لأمي

أمي هي الغيث يأتي في أوانه، وهي القطرة الأولى للمزروعات.

هي الغلال الوافرة، والقمح المحصود

هي حديقة غنّاء مفعمة بالبهجة والحبور.

هي صنوبرة مروية تزينها جوزاتها.

هي أوّل ثمار العام، ونتاج نيسان.

هي جدول ماء، يجلب الخير إلى البساتين

هي البلح العسلي من بلاد دلمون[10]، أطيب أنواع البلح.

ثم يتابع النص بالعلامات الرابعة والخامسة بأسلوب شعري بعيد عن التحديد.

ولا بد وأن هاتين القصيدتين تنتميان لمدرسة شعرية واحدة، تتميز بالرقة والرومانسية والشعر الوجداني المفعم بالحب والأحاسيس والمليء بالانفعالات التي تظهر دائماً بشكل واضح من خلال الكلمات الشعرية الرقيقة تارة والهائجة طوراً لكي تعبّر عن مكنونات الشاعر.

وهنا نراها معبرة بشكل صادق عن مشاعر الحب والاحترام للأم، معطية المثل الأعلى في الوفاء، للأم خاصة، وللأنثى بشكل عام، مؤكدة على دور الأنثى كواحدة من أعظم المخلوقات وأعلاها مرتبة.

وعندما نتكلم عن الأم فإننا نتكلم أيضاً عن الأخت والابنة لأن كليهما في مرحلة ما ستصبح أماً وتعامل معاملة خاصة كرمز للعطاء والخصب والأمل.

أما عن الغزل في حياة المرأة، فقد كان له تواجد كبير في أدب ذلك العصر، ففي أول قصيدة غزلية سومرية موغلة في القدم، تتحدث عن دعوة عاشقة لحبيبها نسمع:

نم في بيتنا يا حبيبي
حتى ينبلجَ الفجرُ
اغمرني بمداعباتكَ
أنت يا من أحبني
نم في بيتنا حتى الفجر
جسدي جميلٌ لذيذٌ كالعسل
مد يدكَ إليه
امسح كفكَ عليه

وها هنا تطل علينا الشاعرة السومرية بُلبالة[11]، مخاطبة حبيبها في قصيدة رقيقة تخاطب فيها حبيبها وتصفه بكل الصفات الجميلة التي تدل على عشقها له، فتناجيه، وتطلب منه أخذها لكي يتزوجها، مع كثير من الجرأة بالألفاظ، تقول:

«أيها العريس الحبيب إلى قلبي
جمالك باهر حلوٌ كالشهد
أيها الأسد الحبيب إلى قلبي
جمالك باهٍ حلو كالشهد!
لقد أسرتَ قلبي فدعني
أقف بحضرتك وأنا خائفة مرتعشة.
أيها العريس! سيأخذونني إلى غرفة النوم
لقد أسرتَ قلبي فدعني
أقف بحضرتك وأنا خائفة مرتعشة
أيها الأسد ستأخذني إلى غرفة نومك،
أيها العريس
دعني أدللك
فإنّ تدليلي طَعمٌ وشهي
وفي حجرة النوم الملأى بالشهد
دعنا نستمتع بجمالك الفاتن.
أيها الأسد، دعني أدللك
فإن تدليلي أطعم وأشهى من الشهد!
أيها العريس! لقد قضيتَ وطر لذتك مني
فأبلغ أمي وستعطيكَ الأطايب
أما أبي فسيغدق عليك الهبات
وروحكَ، أنا أعرف كيف أبهج روحك،
وقلبك، أنا أعرف كيف أدخل السرور إلى قلبك!
أيها العريس، نَمْ في بيتنا حتى انبلاج الفجر،
أيها الأسد، نم في بيتنا حتى انبلاج الفجر،
وانك لأنك شهواني
هبني بحقك شيئاً من تدليلك وملاطفتك.
يا مولاي الإله، ويا سيدي الحامي
موضعك جميل حلو كالشهد فضع يدك عليه
قرّب يدك عليه كرداء الجشبان
إنها غناء بُلبالة
من قصائد إنانا».

وفي قصيدة عاطفية على شكل أغنية الحب مأخوذة من التاريخ المصري القديم، نرى الرجل فيها يُعبِّر عن مشاعر الحب تجاه الحبيبة، ويدعوها لزيارته، وفيها الكثير من مشاعر الحب والصور الشعرية الجميلة، تقول:

يا حبيبتي تعالي إليّ في الحديقة
إن حبيبتي مثل كل زهرة تنفح عطرها

فارعة العود ممشوقة القوام كنخلة بشبابها
وفي كل خد من خديها وردة حمراء.

وفي قصيدة أخرى، نرى الشاعر يشبّه النسمات القادمة من النساء، بنسيم الشمال البارد، وبنسيم الشرق المنعش، الذي يفتح نوافذ السماء، والتي سوف يدخل منها الإله رع إلى الحياة الآخرة، عبر صورٍ شعرية جميلة وساحرة. نقرأ:

هذه النسمات المقبلة إليّ من أولئك الصبايا!
إنّها نسيم الشمال الذي يحيق بجزر إيجة،
ويمد ذراعيه حتى أطراف البلدين
والليل بانتظام يعيره فائق عنايته!
هذه النسمات المقبلة إليّ من أولئك الصبايا!
إنها نسيم الشرق الذي يفتح نوافذ السماء
ويخط الطريق الجميل لـ«رع»[12] وعليه ينتصب
فيأخذني «رع» بيدي ويجلسني بين الخيزران
حيث أرعى كالثور «آبيس» وأشبع مثل «سات»[13]
منعش هو نسيم الشرق وبه أعيش!.

ولا بد وقبل الختام، من ذكر الشاعرة بيلتي[14] الكنعانية الأصل، والتي يعني اسمها (سيدتي)، وهي من أرق الشاعرات، وصاحبة جرأة كبيرة في الشعر، ففي قصيدة عن مناجاة الأم نقرأ:

مناجاة أم

تغسلني أمي في العتمة وتلبسني وضح النهار
وتسرحني في النور وإذا ما خرجت تحت ضوء القمر
فإنها تشد لي حزامي وتعقده عقدة مضاعفة وتقول لي
العبي مع العذارى وارقصي مع الأطفال الصغار
ولا تنظري من النافذة، ابتعدي عن حديث الشباب
ولا تثقي بالأرامل.....
سيأتيك أحدهم ذات مساء.... كما للأخريات ليأخذك
إلى وسط الحفلة الكبرى حيث «ثميانون» الصاخبة
والمزامير العاشقة
في ذلك المساء عندما تذهبين يا «بيليتو» ستتركين لي
ثلاث قرع مرة.... واحدة للصباح وأخرى للظهيرة
والثالثة الأكثر مرارة... الثالثة لأيام العيد.

وفي قصيدة بعنوان: بيلتي، تتحول إلى عاشقة تطلب من حبيبها أن يأخذها كما هي، نقرأ:

بيلتي

تتشح امرأة بالصوف الأبيض وأخرى بالحرير والذهب
وثالثة تتغطى بالزهر... بأوراق العنب الخضراء
وأنا لا أعرف أن أتمشّى إلّا عارية... فخذني يا حبيبي كما أنا
بلا ثوب ولا حلي ولا خف فها هي بيلتي مجردة
شعري أسود بذاته وشفتاي حمراوان بطبيعتهما
وجدائلي تتموج حولي طليقة دائرة كالريش
خذني كما خلقتني أمي في ليلة حب بعيداً
وإذا كنت أرضيك هكذا فلا تنسَ أن تقول لي!.

وفي الختام وكما في البدء، نقول: لقد كان للمرأة دور كبير في مجتمع الشرق العربي القديم، أملته عليها عوامل كثيرة، فرضتها سيرورة وصيرورة التاريخ. فمع المزيد من مغامرات العقل الإنساني، كانت المرأة تكتسي حللاً جديدة، ملؤها التقديس والإكرام وعلو الشأن والمكانة، باتت واضحة من خلال العديد من مفردات الحضارة العربية، وفي مقدمتها العدد الكبير من الدمى الطينية ذات الأهمية الكبرى في علو مكانة المرأة، كرمز للعطاء والحكمة والبهاء، وتوجت بأدب جميل مُعَبِر عن مرحلة تاريخية كان للمرأة فيها قصب السبق في الإنجاز والعطاء، حيث استطاع هذا الأدب بما يحمل في طياته من إمكانات اعتباره صورة للواقع، فقدم لنا المرأة بكل تجلياتها، من اعتبارها إلهة عظمى، ومربية فاضلة، وكاهنة تنذر حياتها للخير والعطاء، وأم حنون، ومنبع للحكمة والمعرفة، وفتاة عاشقة كسرت قيود الخوف، وخرجت تناجي حبيبها بكل جرأة، عبر قصائد شعرية جميلة، ستبقى البذرة الأولى لكل ما أتى وما سيأتي بعدها من شتلاتٍ وورودٍ وأشجارِ الشعرِ والأدب في عصرنا الحالي.

الهوامش

١- ابنة الملك الشهير سرجون الأكادي ٢٣٤٠- ٢٢٨٤ ق.م، وكانت شاعرة تدون مؤلفاتها باللهجتين السومرية والأكادية، حيث تعتبر أنخيدو. أنا، أقدم شاعرة في العالم، وكثيراً ما كانت تكتب الشعر كصلوات محبة وشعائر ولاء للإلهة إنانا أو عشتار.

٢- الشعور السوداء، أو الرؤوس السود، وقد وردت في شريعة حمورابي للدلالة على عدم التفرقة بين عناصر السكان «سومريين. أكاديين...».

٣- الملك الثاني عشر من سلالة لاغاش الثانية وأعظم ملوكها على الإطلاق، حكم ما بين ٢١٤٤. ٢١٢٤ ق.م.

٤- هناك من يعتبر هذه الطقوس هي فقط طقوس رمزية، وإنها لم تكن تحدث في الواقع.

٥- (أدين- داجان) ثالث ملك في سلالة إسين الرافدية.

٦- وهو لقب من ألقاب دموزي.

٧- وجدت هذه القصيدة كنص كتبه أحد الغنوصيين المصريين في القرن الرابع الميلادي عن لسان عشتار (إيزيس)، وتمّ اكتشافه في إحدى مخطوطات منطقة (نجع حمادي) في صعيد مصر منتصف الأربعينيات من القرن العشرين.

٨- وهي مدينة نفر السومرية المقدسة (فهي مركز ديني كبير) في بلاد الرافدين.

٩- مرحشي: اسم مدينة أو مكان غير معروف حتى الآن.

١٠- دلمون: وهي جزيرة البحرين الحالية والمناطق المحيطة بها.

١١- بُلبالة: شاعـرة سومرية كانت تعمل مع فرقة «إنانا» التي كانت تغنـي في البلاط السومري أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، في عصر مملكة أور الثالثة السومرية، حوالى ٢١١٢-٢٠٠٤ ق.م.

١٢- الإله رع: إله الشمس عند المصريين، ومركز عبادته في هيليوبوليس.

١٣- آبيس: الثـور آبيس، وقد اعتبره المصريـون أنه الصورة الحيّة للإله بتاح (إلـه الفنانين والحرفيين، أي: الحداديـن والنحاتين). أما سات: فهو على الأغلب سيت: وهو الإله المحارب بخدمة رع وخصم أوزيريس، ويصوَّر على شكل حيوان خرافي له خرطوم وأذنان طويلتان، وهو أخو أوزيريس.

١٤- بيلتي: شاعرة كنعانية فينيقية، عاشت حياة مليئة بالأحداث، مثّلتها في أشعارها الشجية، وقد كانت بيلتي قـد ولـدت في بداية القرن السادس قبل الميـلاد، من أم فينيقية، ووالدها يوناني، لـذا فقد حملت اسماً فينيقياً بمعنى (سيدتي).

المراجع

١- إحسان هندي: أشهر شاعرات الحب في بلاد الشرق والغرب -تراجم ومختارات شعريّة، القسم الأوّل، مجلة آفاق ثقافية، العدد ١١٢، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٢م، ص١٦.

٢- جـان نوغايرول: نصوص جديدة من أوغاريت- بالسمارية البابلية، ت.فيصل الصيرفي، الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد ١٤، ١٩٦٤م، ص٢٣٥ – ٢٣٧.

٣- خضر الحموي: التفاعل القانوني في حوض البحر المتوسط- دراسة مقارنة للقوانين منذ خمسة آلاف سنة، دار بيسان للنشر، بيروت، ١٩٩٦م، ط١، ص ٢٧-٢٨.

٤- علي القيّم: المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٨، ص ٥٦.

٥- عيـد مرعي وفيصل عبدالله: تاريخ الوطن العربي القديم- بلاد الرافدين، دمشق، ط٤، ٢٠٠١- ٢٠٠٢م، ص ١١٨.

٦- فايز مقدسي: بحث في الغنوصية السورية، مجلة المعرفة، العدد ٥٤٢، ٢٠٠٨م، وزارة الثقافة، سورية.

٧- فراس السوّاح: قراءة في ملحمة جلجامش، سومر للدراسات والنشر، قبرص، الطبعة السورية، دمشق، ١٩٨٧م، ط١، ص٢٤٤.

٨- ليونار كوتريل: زوجات الفراعنة، ت. فيليب عطاالله، دار الرّوائع الجديدة، بيروت، ١٩٧٢م، ص٢٥٨.

٩- محمـد مظلـوم: صور عشتار في مرايا العراق المشروخة، مجلة فكر، الحـزب السوري القومي الاجتماعي، العدد ١٠٧، ٢٠٠٩م، ص٧.

١٠- موسوعـة دمشق: مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر، جريـدة الثورة، بالتعاون مع دار التواصل العربي، ص ٢٦٤- ٢٦٥.

١١- نعيم فرح: معالم حضارات العالم القديم، دار الفكر، ١٩٧٣م، ص٥٠.

١٢- وديع بشور: مبدعون سوريون في تاريخ الإنسانية، مكتبة بالميرا، اللاذقية، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٨، ٣١، ٣٤.

مادة البحث الأدبيّ

د. ممدوح أبو الوي *

يقول الدكتور شوقي ضيف «معروف أنّ مادة البحث الأدبيّ هي الأدب بفرعيه من الشعر والنثر، وما امتد على كلّ فرع من غصون مختلفة»(1) ويتابع الدكتور شوقي ضيف، ويرى أنّ الأدب يخاطب العواطف، التي يجللها الغموض، إذ لا توجد مقاييس نقيسها بها، ولا لدينا مختبرات يمكن أن نحللها فيها.

قد أوافق الدكتور شوقي ضيف في رأيه الآنف الذكر، إلا أنّني أريد أنْ أضيف أنّ الأدب لا يكتفي بمخاطبة العواطف الإنسانيّة، وإنْ كان يركزّ عليها، ولكنّه يخاطب العقل الإنسانيّ أيضاً.

وإذا عدنا إلى تاريخ الأدب نجد أنّه كان في القديم في معظمه شعراً، وأخذ النثر يكثر بعد ذلك شيئاً فشيئاً، فعلى سبيل المثال، الأدب العربيّ في بداياته أيّ في العصر الجاهليّ كان في معظمه شعراً وأمّا الأدب العربيّ الحديث في معظمه نثر، وما ينطبق على الأدب العربيّ ينطبق على الآداب العالميّة الأخرى.كان الأدب في البداية شعبياً، إذ نحن لا نعرف اسم المؤلف، وبعد ذلك أصبح فردياً ،ويرتبط باسم كاتب معين،ومرّ الأدب بخمس مراحل:

١- ارتبط بالطبيعة.

٢- ارتبط بالسحر.

٣- ارتبط بالديانات الوثنيّة.

٤- ارتبط بالديانات السماويّة.

٥- ارتبط بنظريات بعض المفكرين والفلاسفة.

* أديب وناقد وأستاذ جامعي.

ولقد كان الأدب في مراحله الأولى أدباً شفوياً ثم أصبح مكتوباً مع ظهور الكتابة، وهذا شأن الآداب العالمية كلّها. ومع ظهور المطبعة، أصبح الأدب مطبوعاً، إذ ظهرت المطبعة عام ١٤٥٣م على يد المخترع الألمانيّ غوتنبرغ. وكانت بدائية، وأخذت تتطور شيئاً فشيئاً.

إذاً ما هو الأدب، هل هو فنٌ أو علم؟ أم هو فنٌ وعلم بالوقت ذاته؟ وهل الطابع العلميّ هو الصفة الغالبة في الأدب أم الصفة الفنيّة؟

١- تعريف عبد الرحمن بن خلدون للأدب:

لا بأس، قبل الإجابة عن التساؤلات السابقة، من الإشارة إلى تعريف ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م) للأدب الذي جاء في مقدمته الشهيرة، وبالتحديد في الفصل السادس والثلاثين، الذي يحمل عنوان «في علوم اللسان العربيّ» «أنّهم إذا أرادوا حدّ هذا الفن قالوا الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كل علم بطرف، يريدون علوم اللسان..»[٢]، وكان ابن خلدون دقيقاً في تعريفه للأدب، فجعله علماً وفناً ولم ينسب هذا التعريف إلى نفسه، وإنّما نسبه إلى العرب، وفهم أنّ الأدب يتأثر بالعلوم الإنسانيّة كافة، مثل علم الاجتماع، وعلم النفس وغيرهما.

٢- تعريف ميخائيل نعيمة للأدب:

ولن أذكر ما قاله النقّاد العرب والأجانب عن الأدب نظراً لكثرة التعريفات واختلافها ولكنّني أجد نفسي مضطراً لأنْ أذكر قولاً لميخائيل نعيمة (١٨٨٩-١٩٨٨م) عن الأدب نظراً لأهميته، ولقد جاء هذا الرأي في دستور الرابطة القلميّة التي تأسست في مدينة نيويورك ما بين عامي ١٩٢٠-١٩٣١م: «ليس كلّ ما سطر بمداد على قرطاس أدباً، ولا كلّ من حرر مقالاً، أو نظم قصيدة موزونة بالأديب. فالأدب الذي نعتبره هو الذي يستمد غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها... والأديب الذي نكرمه هو الأديب الذي خصّ برقة الحسّ، ودقة الفكر، وبعد النظر في تموجات الحياة وتقلباتها، وبمقدرة البيان عمّا تحدثه الحياة في نفسه من التأثير...»[٣] ويتابع ميخائيل نعيمة آراءه عن الأدب في أعماله العديدة فهو يرى أنّ الأدب ليس إلا رسولاً بين نفس الكاتب ونفس القارئ، والأديب الذي يستحق أن يدعى أديباً هو من يزوّد رسوله من قلبه ولبه. ومن ثم فهناك أدب رفيع وأدب مؤذ، والأدب الرفيع الذي يصدر عن موهبة حقيقية ويفيد المتلقي ويتصف بمستوى فني جيد، ويحمل مضموناً جيداً ومنسجماً مع الشكل، فالأدب الذي يشجّع على الإجرام ويحرض على الإباحة هذا أدب ضار، وإن كان ذا

مستوى فني جيد، فلا بدّ للأدب من حمل رسالة أخلاقية إضافة إلى المستوى الفني الرفيع أو أن يقوم بمهمة قوميّة أو وطنيّة.

٣- تعريف الدكتور محمّد مندور للأدب:

أمّا الدكتور محمد مندور(١٩٠٧-١٩٦٥) فيعرف الأدب في كتابه «النقد المنهجيّ عند العرب» بما يلي: «كلّ المؤلفات التي تكتب للمتلقين كافة، لتثير لديهم بفضل خصائصها الجماليّة صوراً خياليّة أو انفعالاتٍ شعوريّةً أو إحساساتٍ فنيّةً».[٤]

٤- تعريف الفيلسوف الفرنسيّ جان بول سارتر:

ولقد عرّف الناقد الفرنسيّ جان بول سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠م) الأدب: «الأدب كشف للإنسان والعالم»[٥] وذلك في كتابه «ما هو الأدب» (١٩٤٧م) وبيّن سارتر أنّ غاية الأدب هي الإنسان وتكوينه الوجدانيّ والأخلاقيّ، أمّا حقل الأدب فهو كلّ نشاطات الإنسان والطبيعة.

٥- تعريف الروائي الروسيّ ليف تولستوي:

أمّا الأديب الروسيّ العظيم ليف تولستوي (١٨٢٨- ١٩١٠م) فلقد عرّف الأدب في كتابه «ما هو الفن» (١٨٩٧م): «الأدب واحد من وسائل اتصال الناس فيما بينهم، إنّ كلّ عملٍ أدبيّ يجعل الإنسان المستقبل أو القارئ، يدخل في اتصال مع المبدع»[٦] وبذلك فإنّ تولستوي يفهم أنّ الأدب رسالة يوجهها الأديب إلى المتلقي، ولذلك يجب أنْ تكون الرسالة واضحة وخالية من الغموض، فلقد انتقد تولستوي المدرسة الرمزيّة لأنّ ممثليها يلجؤون إلى الغموض، ويكتبون للنخبة، وليس للجماهير ومن هؤلاء الشاعر الفرنسيّ بودلير (١٨٢١- ١٨٦٧م) وكان تولستوي يرى أنّ معظم الأدباء يكتبون للنخبة، والأدب الشعبيّ، برأيه، هو الأدب الذي يصل إلى عامة الشعب، وكان يقصد بعامة الشعب الفلاحين، ولذلك أخذ تولستوي يكتب للفلاحين قصصه القصيرة الشعبيّة، وهي موجهة للفلاحين، وعن حياتهم، وتعبّر عن القيم التي يؤمنون بها. فكان تولستوي يطرح الأسئلة التالية ماذا نكتب؟ ولماذا نكتب؟ ولمن نكتب؟

٦- تعريف الناقد أحمد أمين:

ولا بأس هنا من ذكر تعريف أحمد أمين (١٨٨٧-١٩٥٤م) للأدب، الذي جاء في الجزء الأول من كتابه «النقد الأدبيّ»: «وخير تعريف للأدب أنّه التعبير عن الحياة أو بعضها بعبارة جميلة»[٧] ويتابع أحمد أمين آراءه عن الأدب ويرى أنّ الأدب يعتمد على الذوق والعاطفة، وتختلف عواطف الناس من شعب لآخر ومن فرد لآخر، لأنّ الأدب هو مرآة الأمة، وتعبير عن عصر معين من

العصور التي تمر بهـا أمّة معينة، ويختلف أسلـوب كلّ أديـب عن الآخـر، فهذا أديب واقعيّ وآخر رومانسـيّ، وهذا أديب غيريّ وآخـر ذاتيّ، بمعنى أنّ الغـيريّ هو الأديب الذي يصور عواطـف الآخرين والذاتيّ هو الـذي يعكس تموجـات عواطفه الذاتية في أدبـه. وقد يكـون الأديب ذاتيـاً وغيرياً في الوقت ذاته، وقد تغلب الذاتية في أدبه، على الغيرية أو العكس. ويرى بعض النقاد ومنهم أحمـد أمين أنّ عناصر النص الأدبيّ أربعة: وهي العاطفة والفكر والخيال والأسلوب.

العاطفة في الأدب:

ويقـول ابن رشيـق القـيرواني (٣٩٠-٤٥٦هـ، ١٠٠٠-١٠٦٣م) في كتابه «العمدة في محاسـن الشعـر وآدابـه»: «قواعـد الشعر أربعة: الرغبـة، والرهبة، والطرب، والغضـب، فمع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتـذار والاستعطاف، ومع الطرب يكـون الشوق ورقـة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والوعيد والعتاب» وبهـذا يكون ابن رشيق قد بيّن بواعث المدح والهجاء والغزل والاعتـذار. كان الشاعر يذكـر في ممدوحه صفات معينة مثل العقل والشجاعة والكرم والعدل والعفة. أمّا الغزل فهـو نوعان عذريّ وحسـيّ. هناك عاطفة المبدع وعاطفـة المتلقي، ويستطيع المبدع أنْ ينقـل عاطفته إلى المتلقي، أو إلى عددٍ كبير من المتلقين.

العاطفة من أهـم عناصر الأدب إضافة إلى الخيال والمعاني والأسلوب. ويرى أحمد أمـين أنّ العاطفة قد تكون قويّة أو ضعيفة. وقد تكون العاطفة قوية ولكنها لا تدوم فترةً طويلةً. وقد تكون العاطفة كاذبةً، وقد تكون صادقةً، فلم يكـن البحتري صادق العاطفة في أغلب الحـالات، ويشير إلى هذه النقطة الدكتور طـه حسين، ويقـدم د.طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣م) تحليلاً لشخصية البحتري (٨٢١-٨٩٦م)، ويـرى أنّ شخصيته لا تخلو من النفـاق، ويقدم أمثلةً علـى ذلك، فلقد مدح البحـتري الخليفة: «المنتصـر وأثنى عليه، ومـا دالت دولته حتـى هجاه. وولي المستعين، فمدحه وأكثر من مدحه، وعندما خلع المستعـين هجاه، وأسـرف في هجائه، إسرافاً لا يحتمل من رجل كريم..

ثـم لم يقف اضطـراب البحـتري عند الخلفاء، بل صنع مثل هذا مع القواد والأمراء والوزراء، ويحدثنا الرواة أنّه هجا من هؤلاء أكثر مـن أربعين، كان قـد مدحهم جميعًا، وإنّما هجاهـم عندما تنكرت لهـم الأيام. مـدح كاتباً من كتـاب المستعين، هو شجاع، ثـم لما غضب المستعين على شجاع، وسجنه، أسـرف البحتري في الشماتة به، ودخل على

المستعين وأنشده قصيدةً، يحرضه فيها على قتله واستصفاء أمواله.

وأقبح مـن هذا في أخلاق البحتري، أنّه مدح أكثر من عشرين رجلاً من كبار الأشراف في بغداد وغيرها في ذلك العصر فلما تغيرت حالهم و دالت دولتهم، نقل هذه المدائح عنهم إلى غيرهم، ومحا أسماءهم، وأثبت مكانها الأسماء الجديدة فهو إذاً لم يتردد في بيع شعره، كأقبح ما يبيع الشعراء أشعارهم».[٨]

وكان البحتري شديد الإعجاب بنفسه، ويشبهه د. طه حسين بأحد خطباء أثينا واسمه (كليون)، الذي كان في أثناء خطبه يصول ويجول، ويتقدم ويتراجع، ويمشي نحو اليمين واليسار، ويحرك عنقه يميناً وشمالاً، وكذلك كان يفعل البحتري، حتى إنّ الخليفة المتوكل كان يغضب من حركاته، وكان البحتري لا يهتم بمظهره ولباسه. وكان ضعيفاً لا يستطيع الابتعاد عن قصور الخلفاء لحاجته إلى مالهم وعزهم. ولكن البحتري كان صادقاً في مدحه للمتوكل.

ويرى د.طه حسين أنّ شعر البحتري يدل على عبقرية مؤلفه: «فشعر البحتري من أجمل ما ترك لنا الأدب العباسيّ..»[٩] وأجمل شعره ذلك الذي قاله في الخليفة المتوكل، يقول فيه:

أكرم الناسِ شيمةً، وأتم النا
سِ خَلقاً، وأكثر الناسِ رِفدا
هو بحرُ السماحِ والجودِ فازدد
منه قرباً تزدد من الفقر بعدا
شبيه النبي خَلقاً وخُلقاً
ونسيب النبي جداً فجدا
فابقَ عمرَ الزمان حتى نؤدي
شكر إحسانك الذي لا يؤدى[١٠]

نلاحظ مبالغة البحتري في مدح الخليفة المتوكل، فالخليفة كريم، وهو يشبه النبي العربي الكريم، صلى الله عليه وسلم يشبه في أخلاقه وفي خلقه، ويعود بنسبه إلى الرسول، وجرت حرب بين أفراد قبيلة تغلب، في ذلك الوقت، فكلف الخليفة المتوكل وزيره الفتح بن خاناقان ليصلح بين المتحاربين، فقال البحتري بهذه المناسبة:

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها
تذكرت القربى ففاضت دموعها[١١]

العاطفة في شعر المتنبي:

كانت عاطفة المتنبي (٩١٥- ٩٦٥م) صادقة حين مدح سيف الدولة الحمداني أمير حلب:

إذا رأيت نيوب الليث بارزةً
فلا تظنَنّ أنّ الليث يبتسمُ
فالخيلُ والليل والبيداء تعرفني
والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

إنْ كانَ سرَّكمُ ما قالَ حاسدُنا
فما لجرحٍ إذا أرضاكُمُ ألمُ
كم تطلبونَ لنا عيباً فيعجزكم
ويكره الله ما تأتونَ والكرمُ(١٢)

نلاحظ في هذه القصيدة الميزة التي تتميز بها قصائد المتنبي وهي مزجه بين غرضه الأساسي وهو هنا المدح، وبين غرض الفخر والاعتزاز بالذات، وبين ترصيع شعره بحكم عامة تصلح لأزمنة متعددة وأمكنة كثيرة يقول المتنبي: لأي شيء أخفي حبّ سيف الدولة؟ وحبه يضنيني ويتعبني، في حين تتظاهر الأمم في حبِّ سيف الدولة، وهي قد لا تحبه فعلاً.

ويرى الدكتور طه حسين في كتابه «مع المتنبي»(١٩٣٦م) أنّ المتنبي يبالغ في مدح الأمير سيف الدولة الحمداني:«هذا الشاعر العظيم الذي يفاخر العراء ويستعلي عليهم، ويسرف في الكبرياء والخيلاء،يتمنى أنْ يكون فرساً يحمل الأمير إذا سار، أو خيمةً تظل الأمير إذا أقام،»(١٣)، ويدل على ذلك البيت التالي للمتنبي:

ليت أنا إذا ارتحلتَ لك الخيـ
لُ، وأنا إذا نزلتَ الخيامُ

أما عاطفة المتنبي حين مدح كافور الإخشيدي لم تكن صادقة، فيقول في مدحه:

إذا الجودُ لم يُرزق خلاصاً من الأذى
فلا الحمدُ مكسوباً ولا المالُ باقيا
إذا كسب الناس المعالي بالندى
فإنك تعطي في نداك المعاليا
وتحتقرُ الدنيا احتقارَ مجربٍ
يرى كلَّ ما فيها وحاشاك فانيا
وما كنتَ ممن أدركَ الملكَ بالمنى
ولكن بأيامٍ أشبنَ النواصيا.(١٤)

يتصف هنا مدحه، كعادته، بالمبالغة، وتوافر الحكمة. إضافة إلى الفخر والاعتزاز بالذات ويعود المتنبي ويهجو كافور الإخشيدي هجاءً لاذعاً وذلك عام ٣٥٠ هجري يوم عرفه. يقول في هجائه:

ما يقبضُ الموتُ نفساً من نفوسهم
إلا وفي يده من نتنها عودُ
لا تشترِ العبدَ إلا والعصا معه
إنّ العبيد لأنجاسٌ مناكيدُ
ما كنتُ أحسبُني أحيا إلى زمنٍ
يسيء بي فيه كلبٌ وهو محمودُ
من علّمَ الأسود المخصيَّ مكرُمةً
أقوامهُ البيضُ أم آباؤه الصيدُ(١٥)

يخاطب المتنبي في البيت الأول العيد، ويقصد عيد الأضحى، ويتمنى ألا يكون هذا العيد كالأعياد السابقة الحزينة، ومعنى البيت الثاني: أنّ الشعراء يحسدونه على علاقته بكافور الإخشيدي، وهو باكٍ بما يلقى من كافور وبخله ومعنى البيت

الثالث: إنّ قوم كافور كذابون، لا يحسنون إلى ضيفهم وبالوقت ذاته لا يمكنونه من الرحيل،ومعنى البيت الرابع: إنّ قوم كافور يجودون بالأقوال لا بالأموال.

وقد تثير العاطفة لدى المتلقي الحزن أو السرور، وهي من أهم عناصر الأدب.

المضمون في الأدب

والعنصر الثاني في النص الأدبيّ هو المضمون أو المعنى أو الفكر، ويتابع أحمد أمين قوله: «يستنتج من هذا أنّ الأدب الراقي ينبغي أن تكون له صفة أخلاقية»[١٦] ويعود إلى هذه النقطة ويرى أنّ الأدب لا ينبع من الأخلاق وليس الشاعر واعظاً يبشر بالأخلاق السليمة، فهناك شعر جميل، وإنْ كان يخلو من أية مواعظ أخلاقية، فنعجب بخمريات أبي النواس وغزله، لأنّ الأدب يصف الطبيعة الإنسانية ويشرحها، ويعرض ما فيها من خير أو شر، وما تحمله من شهوات حادة أو معتدلة، وليس الفن محاضرات في الأخلاق والسلوك، فمثلاً عندما يقول أبو النواس (٧٦٢- ٨١٣م) (١٤٥- ١٩٩هـ):

دع عنك لومي فإنّ اللوم إغراءُ
وداوني بالتي كانت هي الدّاءُ
صفراءُ لا تَنْزلُ الأحزانُ ساحتَها
لو مسّها حَجَرٌ مَسّتْهُ سرّاءُ[١٧]

يخاطب الشاعر أحد رؤساء المعتزلة، واسمه النظّام، ويطلب منه أنْ يكف عن لومه، لأنّ زيادة اللوم تؤدي إلى نقيض غايتها ويقول في الشطر الثاني: إنّه يطلب الخمرة ليتداوى بها من ذاتها. كقول قيس ابن الملوّح:

تداويت من ليلى بليلى وحبها
كما يتداوى شارب الخمر بالخمر.[١٨]

ويقول أبو نواس في البيت الثاني:إنّ الخمرة تبعث الفرح في الحجر القاسي، فكيف بالإنسان؟ فهي عدوة الأحزان.

هذان بيتان جميلان لأبي نواس، وإنّ كان الشاعر لا ينادي بالأخلاق العفيفة التي كان ينادي بها شاعر عباسيّ آخر وهو أبو العلاء المعري (٩٧٣-١٠٥٧م) إذ يقول:

ولو أني حبيت بالخلد فرداً
لما أحببتُ بالخلد انفرادا
فلا هطلت عليّ ولا بأرضي
سحائب ليس تنتظم البلادا

ويقول المعري في قصيدة أخرى:

لو كان لي أو لغيري قَدْرُ أنملة
فوق التراب لكان الأمر مشتركا

ويقول المعري:

أيا أنفساً ما صومها وصلاتها
بدين لها، بل تركُها الظلمَ دينُها

ويقول أبو العلاء المعري:

وأمّا الخمرُ فهي تُزيلُ عقلاً
فتحتَ به مَغالقَ مُبهمَاتِ

تذيعُ السّرَ من خُروعَبدِ
وتُعربُ عن كنائزَ مُبهمَاتِ
ولا تُخبرُ شؤونَكَ، واجعلنَها
سرائرَ في الضّميرِ، مُكتّماتِ
وما الجاراتُ إلا جارياتٌ
بعيبكَ، إن وُجدنَ مهيّماتِ
فلا تسألْ: أهندُ أم لميسٌ
ثوتْ في النّسوةِ المتخيّماتِ
ولا ترمُقْ بعينكَ رائحاتٍ
إلى حمامهنّ، مكمّماتِ[١٩]

أيّ إنّ الخمر تجردك من عقلك الذي يوضح لك كبريات القضايا فهي تذيع الأسرار الخفية التي لا تريد كشفها ويقول: لاترمقْ، أيّ لا تسترق النظر إلى جاراتك.

أمّا في العصر الحديث، فلقد انقسم الأدباء إلى فريقين كبيرين، ورأى الفريق الأوّل أنّ على الأدب القيام بمهمة اجتماعية معينة. أيّ يجب أنْ تلقى على عاتق الأدب مهمة عملية نفعية واضحة، ورأى الفريق الثاني أنّ على الأدب أن يخدم نفسه فقط، وطرحوا شعار الأدب من أجل الأدب، أو الفن للفن.

وطرح الفريق الأوّل مقياس الالتزام في الأدب. ولعلّ مدرسة الواقعية الجديدة أو الواقعية الاشتراكية هي إحدى المدارس التي تبنّت مبدأ الالتزام في الأدب، ويعد الأديب الروسيّ مكسيم غوركي (١٨٦٨-١٩٣٦م) من كبار مؤسسي هذه المدرسة الأدبية، وأصبحت معالم هذه المدرسة واضحة بعد رواية «الأم» (١٩٠٦م) لغوركي، كما يعد حنا مينه (مواليد ١٩٢٤م)، وسعيد حورانية من ممثلي هذه المدرسة في القطر العربيّ السوريّ ومن أعلامها المسرحيّ الألمانيّ بريخت (١٨٩٨-١٩٥٦م)، والشاعر الإسبانيّ لوركا (١٨٩٨-١٩٣٦م)، والأديب التركيّ ناظم حكمت (١٩٠٢ - ١٩٦٣م) والشاعر الروسيّ مايكوفسكي (١٨٩٣- ١٩٣٠م)، الملقب بشاعر الثورة الروسية. وكان لينين (١٨٧٠-١٩٢٤م) يرى أنّ الأديب الحر هو الذي يخدم الكادحين، وهم الأكثرية في المجتمع، ولا يخدم المستغلين، وهم الأقلية. ويرى المفكر الهنغاري جورج لوكاتش (١٨٨٥-١٩٧١م) أنّ الواقعية الاشتراكية في حركة دائمة، فهي لا تعرف السكون، من حيث المضمون والشكل، وبذلك فهي تطوير للمدرسة الواقعية النقدية.، وكذلك دعا إلى الالتزام المفكر الروسيّ تروتسكي (١٨٧٩-١٩٤٠م).

ويرى أنصار هذا الاتجاه الأدبيّ أنّ الأديب لا يكتفي بتصوير أوضاع مجتمعه، فيجب على الأديب أنْ يعيش المشاكل التي تقلق الطبقة، التي ينتمي إليها.

وبهذا المقياس الملتزم، لا يعد الأثر الأدبيّ جيداً، إلا إذا عبّر بوضوح عن موقف

صاحبه من قضايا عصره وأمته، وخاصة في الفترات، التي تتحول فيها الأمّة من عالم الإقطاع والرأسمالية إلى عالم الاشتراكية والعدالة الاجتماعية. ولقد طالبت المدرسة الأدبية المذكورة الأدباء بالالتزام بثلاثة شروط:

الشرط الأول: وهو تصوير البطل الإيجابي، الذي يتبنى قيماً ومبادئ معينة ويناضل في سبيل تحقيقها.

الشرط الثاني: أنْ يبث الكاتب في تصويره للشر طرق التخلص منه، وأن تكون نظرته للمستقبل نظرةً متفائلة.

الشرط الثالث: أن يصوّر الواقع من وجهة نظر الفكر الاشتراكيّ.

ويقول غوركي (١٨٦٨-١٩٣٦م) في بحث له بعنوان «الفن»: «الفن أساسه صراع، في سبيل شيء ما، أو ضد شيء ما، ليس هناك، ولا يمكن أن يكون فن لا مبال،..».(٢٠)

ولقد تبنت مبدأ الالتزام في الأدب مدرسة أدبية أخرى، وهي المدرسة الوجودية، ويعد الكاتب الفرنسي جان بول سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠م) من أبرز أعلامها. ويرى سارتر أنّنا ملتزمون قبل أن نلتزم، أيّ أننا لا نختار أسرتنا ولا بيئتنا، ولا قوانا الجسميّة والعقلية، فهي مفروضة علينا. فوجود الإنسان سابق على ماهيته التي يحققها بذاته.

ومع هذا فلابدّ للإنسان من الاختيار، لأنّ المرء إذا أذاب وجوده في غيره من الناس، وكان سلبياً.

فإنّه يلغي وجوده، وإذا اختار الإنسان لنفسه موقفاً معيناً من قضايا عصره، فلابدّ من الالتزام بهذا الموقف. يقول الدكتور محمّد غنيمي هلال في كتابه «الأدب المقارن» (١٩٥٣م): «ولهذا يسمى الأدب الوجوديّ القائم على الفلسفة الوجوديّة:أدب الالتزام أو أدب المواقف، وفيه يحدد الكاتب موقفه من مسائل عصره تحديداً تاماً»(٢١) فالأدب في نظر المدرستين المذكورتين وسيلة وليس غايةً بحدّ ذاته.

أمّا موقف الفريق الثاني فيتلخص في أنّ الفن يجب أنْ يخدم ذاته، وأنْ يكون هدفاً بحدّ ذاته وليس وسيلةً لغايات اجتماعية. فلو سئل أحدهم ما هو الهدف من كتابة رواية معينة؟ لأجاب الرواية غاية بحدّ ذاتها، المهم أن تكون الرواية جميلة وجيدة، وليس الجمال خادماً للحق. ومن أعلام هذه المدرسة الشاعر الروسي «فيت»، ويطلق النقاد على هذه المدرسة اسم المدرسة البرناسية، نسبة إلى جبل برناس في اليونان، موطن الإله أبوللو.

أمّا في أدبنا العربي الحديث فنقد نادى الاتجاه الواقعيّ في الأدب بقضايا أمتنا والمطالبة بحرية الإنسان والأرض

من المستعمر، وبحرية المرأة، والعدالة الاجتماعية، ونادى الأدب بالالتزام بقضية أمتنا الأولى ألا وهي قضية فلسطين، وكلنا نحفظ منذ الطفولة قصيدة بعنوان «وردة من دمنا» للأخطل الصغير، بشارة الخوري (١٨٨٥-١٩٦٨) التي يخاطب بها فلسطين:

يا فلسطينُ التي كِدْنا لما
كابَدْتُهُ من أسىً ننسى أسانا
نحن يا أختُ على العهد الذي
قد رضعناه من المهدِ كلانا
شرفٌ للموتِ أنْ نطعمَهُ
أنفساً جبَّارةً تأبى الهوانا
انشروا الهولَ وصبُّوا ناركمْ
كيفما شئتم فلن تلقَوْا جَبانا[٢٢]

فمفهوم الالتزام في الأدب العربيّ الحديث، يختلف عن مفهوم الالتزام في الآداب الأوروبية، وذلك بسبب خصوصية المرحلة التاريخية التي تمرّ بها الأمّة العربية.

لأننا مازلنا نعاني من الاحتلال الأجنبيّ لجزء من تراب وطننا، ونعاني من مشاكل اجتماعية لا تقلق الواقع الأوروبيّ في العصر الحديث، ولذلك دعا الأدب العربيّ المعاصر إلى التحرر من المستعمر وإلى التخلص من واقع التجزئة وإلى مواجهة التحديات التي تعترض الأمة العربية.

أمّا من الناحية الفنيّة، فيجب أنْ ينسجم المضمون مع الشكل، فلا يطغى أحدهما على الآخر، وأحياناً يشبهون الشكل بالوعاء، والمضمون بمحتوى الوعاء، أو بالثمرة وقشرتها. وتحدث عن هذه النّقطة بشكل رائع الشاعر الهندي طاغور (١٨٦١-١٩٤١م) في مقاله بعنوان «مضمون الأدب»: «يؤثر العالم الخارجي على وعينا، ويثير فيه عالماً آخر، وهو عالم مفعم بالألوان والصور والأصوات وأمور أخرى آتية من العالم الخارجي، ومرتبطة ارتباطاً عضوياً بمفاهيمنا عن الخير والشر والرعب، والدهشة والحزن والفرح، والتعبير المتنوع لهذا العالم الخارجي مرتبط بغنى عالمنا الروحي».[٢٣]

ولقد أشار شيخ النقّاد الروس بيلينسكي (١٨١١-١٨٤٨م) إلى أهمية ذاتية الكاتب في إبداع مضمون العمل الأدبيّ في بحثه بعنوان «نظرة إلى الأدب الروسيّ خلال عام ١٨٤٦م» وفي «نظرة إلى الأدب الروسيّ خلال عام ١٨٤٧م» كما أشار تشيرنيشيفسكي (١٨٢٨-١٨٨٩م) في بحثه بعنوان «الصدق في النقد» إلى أنّ مضمون العمل الأدبيّ لايمكن أن يتشكل دون الأساس الذاتي.

الخيال في الأدب:

والعنصر الثالث في الأدب هو الخيال، وهو موهبة أو ملكة تزود الفكر بالصور التي يحتاج إليها، ولقد أشار إلى هذا العنصر

أرسطو (٣٨٤-٣٢٢)ق.م. في كتابه «فن الشعر» وواضح كذلك مما قلناه أنّ مهمة الشاعر ليست في رواية الأمور كما وقعت فعلاً، بل رواية ما يمكن أنْ يقع.. إمّا بحسب الاحتمال، أو بحسب الضرورة وذلك أنّ المؤرخ والشاعر لا يختلفان بكون أحدهما يروي الأحداث شعراً والآخر يرويها نثراً، فقد كان من الممكن تأليف تاريخ هيرودوتس نظماً، ولكنه كان سيظل مع ذلك تاريخاً سواء كتب نظماً أو نثراً، وإنّما يتميزان من حيث كون أحدهما يروي الأحداث التي وقعت فعلاً، بينما الآخر يروي الأحداث التي يمكن أن تقع.. الشعر بالأحرى يروي الكلي، بينما التاريخ يروي الجزئي..»[٢٤] قلّ أرسطو من شأن الخيال، وكان أرسطو يخشى الخلط بين الخيال والوهم. وانتقلت أفكار أرسطو إلى النقاد العرب القدماء، فأكد ابن سينا على الفكرة ذاتها ،وكان الجاحظ يرجح الصنعة على المعاني،ويرى أنّ المعاني مطروحة على قارعة الطريق، يعرفها الناس كلهم، المهم كيفية صياغة هذه المعاني، وبذلك فهو يركز اهتمامه على المبنى أكثر من اهتمامه بالمعنى.

يقول الناقد الإنكليزيّ ريتشاردز، والذي كان أستاذاً في جامعة كمبردج في كتابه بعنوان «مبادئ النقد الأدبيّ» الذي صدر عام (١٩٢٨م): «هناك معنى للخيال وهو الجمع بين عناصر متفرقة، لا توجد رابطة بينها عادةً»[٢٥] ولقد فرق الشاعر والناقد الإنكليزيّ كولريدج (١٧٧٠-١٨٥٠م) في كتابه «النظرية الرومانسيّة في الشعر -سيرة ذاتيّة»(١٨١٧م) بين نوعين من الخيال:

١- **الخيال الأولي**: وهو ضروري لكلّ الناس، وليس فقط للأدباء والمبدعين.

٢- **الخيال الثانوي**: ويتميز به الشعراء، وهو يقدّم المحسوسات ممزوجة مع العواطف والمشاعر، ويزيل التناقض بين الذات والموضوع،وبين القلب والعقل، وبين الروح والمادة.والشعر الذي يبدعه الخيال هو شعر الطبعة والعفوية، وهو أقرب إلى شعر الإلهام منه إلى شعر الصنعة،فكأنّ الشاعر يوحى إليه، أو يتلقى قصائده من قوى خفية.إذا اتصف الشاعر بخيال خصب، فإنّه ينظم قصيدةً ذات وحدة عضويّة، وإذا لم يتمتع الشاعر بالخيال الخصب فإنّه ينظم قصيدةً مفككةً لا روح فيها، ولذلك فالخيال صفةٌ من صفات الشعراء العباقرة، ومن الصعب ترجمة الشعر العظيم الذي يتصف بالوحدة العضويّة، أمّا إذا افتقر إلى الوحدة العضويّة، فإنّه يترجم لأنّه مفكك وغير متماسك البنية.[٢٦]

قد يسمح الأديب لنفسه بتصوير أشياء لم يرها وإنّما يتخيلها، وبقدر ما يكون خيال الأديب خصباً، بقدر ما يقدم أدباً رفيعاً،

فمثلاً قول الشاعر الجواهري (١٩٠٠-١٩٩٧م):

يا شام، يا لمحَ الكواكب في دجىً

يا موكبَ الأعراسِ في صحراء

هنا يصف الشاعر محمد مهدي الجواهري الشام بأنّها نور كوكب في ليلة ظلماء، وبأنّها موكب أعراس في منطقة قاحلة صحراوية، وهو بذلك يشير إلى أنّ دمشق هي الأكثر بين الدول العربيّة تمسكاً بالمصالح العربيّة، وهي التي تضحي في سبيل أهداف الأمة.

أو مثلاً قول المتنبي:

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه

أني بما أنا باكٍ منه محسود

أيّ إنّني لم أجد في حياتي سوى المصائب، ومع هذا أجد من يحسدني حتى على مصائبي، ونرى الخيال المجنح في قصيدة المتنبي التالية:

كفى بكَ داءً أنْ ترى الموتَ شافيا

وحسبُ المنايا أن يكُنّ أمانيا

فيقول إنّك تجد الحياة مظلمة في وجهك لدرجة أنّك تجد الشفاء من حالتك هذه في الموت. ويتابع قوله:

إذا الجودُ لم يُرزقْ خلاصاً من الأذى

فلا الحمدُ مكسوباً ولا المال باقيا

بمعنى، إذا كرمت فلا تعقب كرمك بالمنية والأذية لأنّك إن فعلت ذلك فلن يبقى المال ولن تحصل على الحمد والشكر.

خُلقتُ ألوفاً لو رحلتُ إلى الصّبا

لفارقت شيبي موجع القلب باكياً

أيّ إنني إذا اعتدت على ظروف معينة استصعبت فراقها حتى لو قيل لي وأنا شيخ: عد إلى شبابك، لعدت وفي قلبي وجع وألم.

ففي هذه الأبيات الثلاثة السابقة للشاعر العظيم المتنبي نجد الخيال المجنح والتعبير الجميل كما نجد فكراً سليماً وبالتالي فإنّ الأديب لا يقوم بتسجيل أحداث معينة أو يعكس أحداثاً معينة وإنّما يصوّر أحداثاً يمكن أن تقع ولكي يقوم بهذا العمل لابّد من أن يتمتع بخيال خصب.

الهوامش والمصادر

١- الدكتور شوقي ضيف، البحث الأدبيّ، طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره، القاهرة، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية. ١٩٧٦م، ص٩.

٢- ابن خلدون- المقدمة، بيروت، دار مكتبة الهلال، ١٩٨٣م، ص٣٤٣

٣- ميخائيل نعيمه، المؤلفات الكاملة، المجلد الأوّل المرحلة الثانية، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩م، ص٤٤٦.

٤- د محمد مندور، النقد المنهجيّ عند العرب، ص١٤.

٥- جان بول سارتر، ما هو الأدب، ترجمة: محمّد غنيمي هلال، بيروت، دار العودة،١٩٨٤م، ص٧١.
٦- ليف تولستوي، ما هو الفن، ترجمة:د.محمد عبدو النجاري، دمشق، دار الحصاد، ١٩٩١م، ص٢٣.
٧- أحمد أمين، النقد الأدبي، الجزء الأوّل، بيروت، دار الكتاب العربيّ، الطبعة الرابعة ١٩٦٧م، ص١٧.
٨- د.طه حسين، المؤلفات الكاملة، المجلد الخامس، البحتري وشعره، ص٦٦٧.
٩- المصدر السابق، ص٦٨٢.
١٠- ديوان البحتري، الجزء الأوّل، تحقيق:عبد الرحمن البرقوقي، مصر، ١٩١١م، ص١٢٨.
١١- ديوان البحتري المجلد الثاني، تحقيق: حسن الصيرفي، طبعة٣، القاهرة، دار المعارف، ص١٢٩٩.
١٢- ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، بيروت، دار المعرفة، ص٣٦٤.
١٣- د.طه حسين، المؤلفات الكاملة، المجلد السادس، ص٢٠٣.
١٤-
١٥- ديوان المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، الجزء الرابع، بيروت، دار المعرفة، ص٢٨١.
١٦- ديوان المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، الجزء الثاني، بيروت،دار المعرفة، ص٣٩.
١٧- أحمد أمين، النقد الأدبيّ، مصدر سابق، ص٥١.
١٨- ديوان أبي نواس،الجزء الأوّل، تحقيق: إيليا الحاوي، بيروت، دار الكتاب اللبنانيّ، ص٢١.
١٩- ديوان قيس بن الملوّح، القاهرة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ص١٦٠.
٢٠- ديوان لزوم ما لا يلزم لأبي العلاء المعري، تحقيق:د.كمال اليازجي، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٢م، ص١٩١.
٢١- مكسيم غوركي، المؤلفات الكاملة في ثلاثين مجلداً، مجلد٢٧، موسكو، ١٩٥٥، ص٤٤٤، المصدر باللغة الروسيّة.
٢٢- د.محمّد غنيمي هلال، الأدب المقارن، بيروت، دار العودة، الطبعة الخامسة، ص٤٠٧.
٢٣- ديوان الأخطل الصغير، بيروت، وردة من دمنا، ص١٨٠.
٢٤- طاغور، المؤلفات الكاملة، مجلد٨، موسكو،١٩٥٧م، ص٢٩٩، المصدر باللغة الروسيّة.
٢٥- أرسطو، فن الشعر، بيروت، دار الثقافة ١٩٧٣ ترجمة عبد الرحمن بدوي ص٢٦.
٢٦- ريتشاردز، مبادئ النقد الأدبيّ، القاهرة، المؤسسة المصريّة العامة للتأليف، ١٩٦٣م، ص٣١١.

الثّورة الجزائريّة في الكتابة الروائية بين التّخييل والأيديولوجيا

د. سيدي محمّد بن مالك ✿

تُعدّ الرواية جنساً سردياً يشخّص الوجود عبر تطويع اللّغة المعيارية بغرض تقديم واقع متخيَّل يسمو على الواقع الفعلي ويتجاوزه إلى طرح رؤية ممكنة التّحقّق، ذلك أنّ الرواية تضطرب، في تشخيصها للعلاقة بين الفرد والمجتمع، بين وعي قائم يمثّل جملة من الأهواء والهواجس والأفكار والاختيارات والالتزامات والآمال الماثلة في ذهن الفرد الاجتماعيّ ووعي ممكن يمثّل، غالباً، نقضاً للوعي القائم من حيث إنّه يعبّر عن رفض كلّ ما يشدّ الإنسان إلى القيم البالية والآداب البائدة وينشد واقعاً اجتماعياً جديداً تعْمُرُه قيم وآداب مختلفة.

ويخوض الكاتب، باعتباره فرداً اجتماعياً مثقّفاً، صراعاً فكرياً وهو يحاول تشخيص الانتقال من وعي قائم مترسّب ومتجذّر في ذهن الإنسان بفعل ظروف تاريخيّة واجتماعية وثقافية وسياسيّة واقتصادية متعدّدة إلى وعي ممكن لا يحضر إلاّ كحلم جميل يراود خياله ويدعوه إلى ترجمته في نصّ إبداعيّ متخيَّل.

ويتجسّد هذا الصّراع الفكري، في النّص الروائي، من خلال الشّخصيات اللّغوية الورقية الّتي يُحكِم الكاتب صنعها نفسياً واجتماعياً وأخلاقياً وفكرياً حتّى تضطلع بالتّعبير عن الانفصام الوجوديّ والشّعوريّ الّذي ينتابه حيال العالم الاجتماعيّ؛ فمهما حاول الكاتب التمويه على القارئ بتنويع ضمائر السّرد ووضعها على لسان الراوي العليم أو الشّخصية الفاعلة والمتكلّمة

✿ أستاذ محاضر في جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان - الجزائر.

وتقديم خطابات الشّخصية المباشرة وغير المباشرة، تظلّ رؤيته للعالم الفلكَ الّذي تحوم حوله الـرؤى والأيديولوجيات المشخّصة في النّص؛ فالكاتب يُخضِع التّعدد الأيديولوجي الموجود في الواقـع إلى إستراتيجيّة مسبقة تخدم نواياه وأفكاره.

وتكون الشّخصية المحوريـة أو البطلة، عادة، هي الممثّل لشخص الكاتب النّفسي والنّاطق بلسانه والمعبّر عن وعيه الاجتماعيّ، حيث تدخل هذه الشّخصية في نزاع أفعاليّ وكلاميّ مع الشّخصيات الأخرى لتُعرب عن تأمّلاتها في الإنسان والحياة.

إضافة إلى دخولها في جدال نفسيّ حادّ تسائـل فيه ذاتها باستمـرار رامية إلى نقد آرائهـا وتصحيح أخطائهـا وإعادة صياغة خواطرهـا. إنّ الشّخصيـة الروائية أيقونة أدبية يتوسّل بها الكاتب التّلميح أو التّصريح بحقيقته الّتـي تتوزّع بين الصّراع الخارجي مع المجتمـع والعالم والصّـراع الداخلي مع مبادئه وإنسانيته.

ويـكاد يغلـب علـى وعـي الشّخصية المحوريّـة أو البطلـة، في عُـرف النّقّـاد الاجتماعيّين، البعد الإشكاليّ الّذي يجعلها أسيرة أحـلام لا تستطيع تحقيقها في أرض الواقع (واقـع الرواية طبعاً) بسبب تذبذبها بين الإرادة والفعل، وبين النّية والعمل، ذلك أنّ ظهـور الرواية قد ارتبـط بالبرجوازيّة الّتـي نبذت القيم الأصيلـة نظير السّماحة والمحبّـة والخير والعدل والإيثـار والتّعاون وراحت تشيع، في المجتمع، قيماً جديدة هي قيم السّوق الّتي سلبت الفرد كرامته وحريّته وحوّلته إلى آلة منتجـة ومستهلكة؛ فاعتراه التحجّر ولازمه الاغتراب واكتنفه اليأس، ولم يُلْـفِ حلاً سوى البحث عـن قيمه الأصيلة الّتـي ضيّعها المجتمع؛ بحثاً يفتقر إلى العزم والحرص. مـن هنا، كانـت الرواية «قصّة بحث متدهور (يُسمّيـه لوكاتش «جنونياً»)؛ بحث عن قيم أصيلة في عالم متدهور أيضاً، لكن في مستوى آخر متقـدّم عليه وبصيغة أخرى»[1]. ومثالها رواية «التّربية العاطفية» لـ «فلوبير» الّتـي تعرض للانقسـام الّذي تعيشه الشّخصية الإشكالية بين رضاها بما يجـود به الواقع واستحالـة الثّورة عليه في الآن ذاته.

وتمتاز الشّخصية الإشكالية عن سواها من الشّخصيات الروائية بإحساسها المرهف الّـذي يجعلها لا تقوى على تحمّل تعقيدات الحياة وتناقضـات المجتمع؛ فتلوذ بالماضي والشّعر والفـنّ لتستحضر معـاني الفطرة والطّيبـة والجمـال والانسجـام والتّوافق الغائبـة أو المغيّبة عن العـالم ولتحتميَ بها من الخوف والوحشة اللّذيْن يُثيرهما الواقع في نفسهـا، وكأنّها تنشد اللّحمة مع المجتمع مثل مـا تُجسّده الملاحم القديمة ويشخّصه

الشّعـر والفنّ؛ تلك اللُّحمـة الّتي انفصمت عُراهـا بسبب قيم السّوق الّتـي «أفسدت» الدّهـر وأخضعت الشّعر والفـنّ نفسيْهما لقانون العرض والطّلب.

والشّخصية الإشكاليـة، لذلك، لا تريد الانغماس في الواقـع ولا تروم تغييره فعلياً، لأنّ التّفكيـر في التّعقيـدات والتّناقضـات يستنفـد وقتها والتّنظـير للحلول والمشاريع يستهلك طاقتها.

إنّ الشّخصية الإشكالية تتمتّع، بلا شكّ، بالاستقامـة ودماثة الأخلاق، ولكنّها تتمتّع، على وجه الخصوص، بالقدرة على إدراك جوهر التّعقيـدات وأصل التّناقضات، وهو ما يؤهّلها لأن تمثّل ضمير الكاتب في النّص الروائي، «كما لو كان الوعي الإشكاليّ يُوحّد، بشـكل لا متكافئ، بـين البطـل الإشكالي والمبـدع الّذي همّشته الحيـاة بسبب وعيه الإشكاليّ»(٢).

ولكـنّ إشكاليّـة الشّخصيـة لن تطول بعد أن تكتشفَ البنيويـة التّكوينية احتمال تغيـير الفكـر والحسّ والإرادة عن طريق الأيديولوجيـا الثّوريّة الّتي أرسى مداميكها ماركس وإنجلز في مجال الاقتصاد السّياسي؛ فقـد سعى أحد أهمّ رائـديّ هذه النّظرية، وهو غولدمـان، إلى تأكيد حضـور الرؤية الثّورية، الّتـي تُنتجها الشّخصيّة الإيجابية، في عـدد من الروايـات الغربيّة مثل روايتيْ «زمـن الازدراء» و«الأمل» لـ «أندريه مالرو»، حيث إنّ هاتيْن الروايتيْن تشخّصان النّضال الثّـوري الّـذي تخوضه شخصيـات تنتمي إلى فئات اجتماعية مختلفـة يجمعها رافد الثّورة الّـذي تمثّله الطّبقة العاملة والحزب الشيوعي.

ومن ثمّ، فـإنّ الأيديولوجيا الثّورية، في نظـر صانعيها ومعتنقيها، هي رؤية فلسفية للمجتمـع والعالم تنطلـق في تفسير الوجود الإنسـاني من أنّ الصّراع هـو الّذي يؤسّس تاريـخ البشـر وأنّ البروليتاريـا أو الطّبقة العاملـة هي طبقة اجتماعيـة تستطيع من دون سواها من الطّبقـات فهم الاختلالات والانقسامـات الاجتماعيـة وإقامة مجتمع جديد تنتفي فيـه الصراعات الطّبقية الّتي يُحفزها التّشيّؤ، وهـذا المجتمع هو مجتمع الكادحين الّذي يؤلّف طبقة عالميّة.

غـير أنّ الرؤيـة الثّوريـة ليسـت رؤية خاصّـة بالطبقة العاملـة فحسب، بل هي شعار المُضطهَدين والمقهورين والمُهمَّشين في العـالم؛ فقد عرف مصطلـح الثّورة انزياحاً عن مدلوله الماركسيّ ذي الصّفة الكونيّة إلى مدلـولات دينية وقوميـة ووطنية. وهذا ما ينطبق على الثّـورة الجزائريّة الّتي أخذت، في البداية، بعداً دينياً ووطنياً قبل أن تتحوّل إلى ثـورة اشتراكيّة تبـدّت، بعد الاستقلال، في محاربـة الاستغـلال والتّخلّـف والجهل

من خلال الثّورات الزراعية والصناعيّة والثّقافية، بل إنّ الثّورة الجزائرية قد سلكت، في خضمّ التّحولات التّاريخية، مساراً قومياً وعالمياً بمعاضدتها لحركات التّحرر في الوطن العربيّ والعالم كلّه.

١ - الثّورة الجزائرية موضوعاً وموضوعةً:

حظيت الثّورة الجزائريّة باهتمام الروائيّين الّذين راموا التّاريخ، سردياً، لمرحلة هامّة وحسّاسة من وجود الأمة الجزائرية الضّاربة بجذورها في أعماق التّاريخ الإنساني عبر مجموعة من النّصوص الإبداعية الّتي فاق احتفاؤهم فيها بالثّورة احتفاءهم بموضوعات أخرى نظير الخصاصة والبطالة والتّخلّف والعنف والإرهاب والفساد وسواها من الموضوعات الّتي أرّقت مضاجع الروائيّين الجزائريين باعتبارهم النّخبة المثقّفة القادرة على استكناه أسباب الاضطرابات والتّناقضات الحاصلة في المجتمع.

بل إنّنا نُلفي بعض الكتابات الروائيّة قد جعلت من موضوعة الثّورة التحريرية ثمّ من موضوعة الثّورة الزراعية موضوعة أدبية مركزيّة تتضمّن موضوعات فرعية كالاستغلال والمحاباة وأزمة السّكن والإيمان بالقدرية والتّواكل، حيث إنّ استلهام روح الثّورة وتحقيق الثّورة الزراعية، في رأي المرحوم عبد الحميد بن هدوقة مثلاً، هما البلسم الشّافي من تلك الأمراض الاجتماعيّة.

ويجوز لنا تبرير انكباب الروائيين الجزائريين على تشخيص موضوع الثّورة التّحريرية ذي الخاصية الواقعية والتّاريخية في شكل موضوعة روائيّة تمتاز بالتّخييل الأدبي والتّشكيل الجماليّ بالقول إنّ ذلك كان من قبيل التّعريف بعظمة هذه الثّورة وفرادتها في تاريخ الثورات العالميّة.

ولكنّنا سنحذر من تبرير انكبابهم على تشخيص الثّورة الزراعية حين نعلم أنّ «السّلطة كانت تمارس تحكّماً قويّاً في مجريات الأحداث الريفية بوساطة الثّورة الزراعية، وفي الاستحواذ على الرّأي العام داخل المدن عن طريق الجامعات والمعاهد العليا والإعلام، بصفتها وسائل دعائية قويّة وفعّالة في استقطاب اهتمامات الذّات الوطنية المتحكّمة فيها أطر معرفيّة تنتمي، في تصنيفها، إلى التّعلّق بالأرض، وبالموت من دون الشرف والحرية، وقد يكون ذلك التّحكّم هو الّذي أعجز حركية الزّمن السياسي وآلياته عن جرّ الذّات الوطنية نحو الابتعاد عن التّعامل وفق تلك القيم والرموز، لأنّ هذه القيم هي الّتي أملت على الرعيل الأوّل لثورة التّحرير الكبرى أن يجعل

الدّفـاع عن الأرض وحمايـة الدين مبدأين أساسيّين من مبادئ هذه الثّورة. فلا غرابة، إذن، إن كان محـور الأرض هو الّذي تكثّف حوله زمن الخلق، وإن كان عنصر الدّين هو الّذي زوّد زمنَ الخلق بالجدّة في الطرح وفي الرفض للبديل عنهما»[٣].

من هنا، غلبت على طرح موضوعة الثّورة الزراعيـة، في سبعينيات القـرن العشرين، النّزعة الأيديولوجية الّتي اتّصفت، عموماً، بالإشـادة بجدوى الفكر الاشتراكيّ وتمجيد الخطـاب السّياسي والتّركيـز على محاسن المشاريـع الّتي اعتزمـت السّلطة تطبيقها. فيما تخلّلت طرح موضوعة الثّورة التّحريرية نزعـة إنسانيّة أضفت علـى الفعل الثّوري قداسة، مـن دون إغفال الحديـث، العابر غالباً، عـن بعض الأخطـاء الّتي صاحبت تحرير الأرض والإنسان من أغلال الاحتلال الفرنسيّ، وهي أخطاء لا تسلَم منها أية ثورة تنشد التّغيير الجذريّ للأوضاع والأفكار.

غـير أنّ الرؤيـة الإبداعيـة للثّورتـين التّحريريـة والزراعيـة ستعـرف تحوّلاً في التّخييـل والتّشكيل مـع انعتاق الروائي من أسر الرؤية الأيديولوجيـة الواحدة وسلطة لغتها الدعائيّـة والتّوجيهية، حيث سيمتزج التّخييـل بالنّقـد، وتتشـكّل الأيديولوجيا بجمالية اللّغة.

٢ - أطروحة الثّورة والتّخييل:

لقد كانت الثّورة التّحريرية وما تزال، إذاً، المعينَ الّذي يغترف منه الكتّاب الجزائريّون مـادة نصوصهم الروائية؛ فمنذ أن ألّف ابن هدوقة رواية «ريح الجنوب»، الّتي تُعتبر أوّل رواية جزائرية مكتوبة باللّغة العربية تستجيب لشروط الكتابة الروائية على صعيديّ البنية والدلالة، مارسـت موضوعة الثّورة حضوراً طاغياً في المشهد الروائي والنّقدي على حدّ سواء، حيث أثارت هـذه الرواية ومثيلاتها الكثـير من الأسئلة النّقدية الّتي غلب عليها الطّابـع الأيديولوجي الدعائي المتوجه نحو شرح المضامين الاجتماعيّة وتفسيرها تفسيراً طبقياً يركن إلى رؤيـة للعالم تتّسم باليقينية والشّمولية باجتزاء المقاطع السّردية الدالّة على الصراع الطّبقي بـين طبقة برجوازيّة استعماريـة خلّفـت وراءهـا جماعـة من الإقطاعيين الجزائريـين الّذين تمكّنوا من التغلغل في بعض المصالح الحكومية وطبقة العمّـال الصّاعدة الّتي تشرئب لوضع أسس نظام جديد يقوم على العدالة الاجتماعية.

وبهذا الشّكل، غدت الرواية الجزائرية، بتشخيصها للثّـورة التحريرية والدفاع عن مكتسباتها ومباركـة مشاريع السّلطة الفنيّة وتثمين قراراتهـا السياسية، رواية أطروحة Roman à thèse لا يستنكف كاتبوها من إظهـار انتمائهم للفكـر الاشتراكي في ثنايا

نصوصهم الإبداعية بأسلوب يبرز تسلّط هذا الفكر على التّخييل الأدبي وعلى متخيّله معاً. وتمتدّ سلطة الأطروحة لتطال متلقّي هذا التّخييل، حيث يبتغي الكاتب بتشخيص أطروحة ما تحويل تسلّطها عليه إلى القارئ، وكأنّه يروم الدخول في تواصل فكريّ ينقل فيه معرفته الأيديولوجية أو العلمية أو الدينية أو الفلسفية المشتغلة كسلطة إلى المتلقي بهدف تلقينه وإقناعه(٤).

ويتوسّل ابن هدوقة، لتشخيص الثّورة والدفاع عنها والتّنبيه إلى خطر الأيديولوجيات الأخرى التّي ترمي إلى تقويض أركان الدولة الجديدة في رواية «نهاية الأمس»، لغة سهلة لا تتطلّب إعمالاً للذّهن من أجل فهم معانيها العميقة وحبكة بسيطة لا تستغلق على القارئ إذا ما جرّب ترتيب مادتها الحدثّية وأسلوباً في السّرد يعتمد على التّسلسل Enchainement الذّي نُلفيه في الحكاية مع توظيف اللّواحق Analepses، في بعض الأحيان، لإلقاء الضّوء على ماضي الشّخصية الرّئيسة واستعمال ضمير الغائب الدّال على حضور ذات شاهدة على الأحداث وعليمة بأفكار الشّخصيات ونواياها وأفعالها؛

هذه الذّات الراوية التّي تحرص على تقديم «البشير» كشخصية ملتحمة مع نفسها فكراً وسلوكاً وتصبو إلى الالتحام مع المجتمع مرّة أخرى بعدما أعيتها الحياة في المدينة بزيفها ورياء أهلها؛ فالبشير يريد العودة إلى القرية ليُجسّد حلمه الاشتراكيّ الذّي حارب من أجله المحتل الفرنسيّ وكابد في سبيله آلام الفراق ونوازل الأسى والحيرة، حيث يعتقد «أنّ البداية الحقيقية لكلّ إصلاح هي إعادة النّظر في قضية الملكية.

لا يُمكن أبداً أنّ تتحقّق ديموقراطيّة في التعليم أو في العمل أو في السياسة ما لم تتغيّر هذه الأوضاع الظّالمة لملكية الأرض. حتّى التّصنيع نفسه مرتبط بالأرض»(٥).

ولهذا، يستلزم الحديثُ عن الثّورة الزراعية الحديثَ عن الثّورة التحريرية، وهما حديثان أيديولوجيان لا شكّ ونصيب التّخييل من الخطاب الأدبيّ الذّي يحويهما يسير. ولكنّ الحديث الأوّل يفرض بكثافته وسعته حضوراً آنياً في حيّز الرواية، بينما يُحيَّن الحديث الثّاني عبر شهادة الراوي الذّي يُفعّل ذاكرة «البشير» فتجود بأحداث تفيد في بناء حاضر الشّخصية ورؤيتها للعالم.

يقول الرّاوي: «وتحلّق به الذكريات من جديد: إلى تونس حيث حُمل إليها جريحاً. ويعلم الله ما قاساه من أتعاب وأهوال حاملوهُ.. ثمّ إلى ألمانيا الشرقيّة.. وتمضي الأيام متشابهة في العلاج أوّلاً ثمّ في التّمرين على السير، ثمّ في النّقاهة. وتطول الأيّام

حتّى لكأنّها القـــرون! وتنقطع نهائياً أخبار الزّوج الــرؤوم وطفلها المنتظــر(...) ويدبّ اليأســ مع الأيام إلى نفســه فيحتلّ ثناياها ثنيــاً فثنياً حتّى لا يبقــى منها إلى الأمل في اللّقاء مقرّ. ويزهد في نفسه وفيما حوله.

تحاول تلك الفتيات الشّقراوات الألمانيات تهوين الأمر عليه، وإدخال السّرور إلى نفسه ما وجدن إلى ذلك منفذاً(...) ولكنّ تحبُّبَهنّ وتقرُّبَهنّ ومحاولاتهنّ المستمرة في التّخفيف وإرجــاع الأمــل إلى نفس مريضهنّ لم يكن مُوفّقاً دائماً. فقد كنّ ينجحن يوماً ويخفقن أيّامــاً. كان المريضــ متمرّد الــروح عنيد الطبع. وكانت زوجُــه الحُبلى البعيدة تقف حائلاً بينه وبين جميع النّاس!»[٦].

كما يعمِد الراوي، لبيان أهمية الحديث عن الثّورة التحريرية ووظيفته في بناء حبكة النّصــ، إلى تكثيف الحوافــز المشكّلة لتلك الموضوعة من خلال تأطير Encadrement أو تضمين Enchâssement مجموعة من القصصــ الفرعية في الفصــل الثالث من الرواية يكشف فيها الــرّاوي بعض الوقائع الّتــي ظلّت سرّاً في خَلَد «رُقيّة» زوج البشير، ويتباهــى بمعرفتــه بالعــادات والتقاليــد والاعتقادات والأباطيل الشّائعة في القرية، وينتقد بعض المفاهيم الّتي استوطنت عقول الناس فيها نظير مفهوم الشّرف.

وهذه القصصــ الفرعية هي: قصّة ما قبل زواج «البشير» و«رقيّة»، وقصّة زواجهما، وقصّة حمل «رقيّة» ووضعها وعذابات المخاض والفــراق، وقصّة اغتصابهــا من قِبل جنود الاحتــلال، وقصّة إطّــلاع «الشّيخ حمّودة» والد «البشير» على قصّة الاغتصاب، وقصّة استشهــاده، ثمّ قصّــة استشهــاد «العجوز سعدية» والدة «البشير».

ويسعــى الــراوي، بحديثه عــن الثّورة التّحريرية ارتدادياً تارة وتكثيفاً تارة أخرى، إلى التّفرّغ لسرد يوميات «البشير» في القرية الّتــي تتّسم بالصّراع مع «ابــن الصّخري» الّذي يمثّل الفكر الإقطاعي القديم المتجدّد؛ القديم من حيث الرؤيــةُ الّتي توجّه علاقة الشّخصية الإقطاعيــة بالآخرين الّذين هم أدوات طيّعة تخــدم مصالحها ولا تستطيع معارضــة مشاريعهــا والحدّ مــن طغيانها ومحاربة نزواتها، والمتجدّد من حيث اصطناعُ الشّخصية الإقطاعيّة صــورةً مغايرةً لتلك الّتــي يظهر بهــا، عادة، هــذا الضّرب من الشخصيــة وهي صــورة المحافظ والجشِع والأنــاني والمــراوغ والغليظ كمــا يجسّدها «عابد بن القاضي» في «ريح الجنوب»؛

فـ«ابن الصخري» يتظاهر بالتقوى والورع بترتيله للقرآن الكريم مع الإمام بالجامع كلّ مســاء، ويساهم في خليّة الحــزب بالقرية، ويشارك في الثورة التحريرية بماله وأولاده،

ويبدي اعتدالاً في حياته الأسَريّة كما يعكسه ثياب ابنته وأثاث بيته.

والراوي إنّما يقصر الصراع بين هاتيْن الشّخصيتيْن المنتجتيْن لأيديولوجيتيْن متناقضتيْن، فلكي يبرز الخطر الّذي تمثّله الأيديولوجيا الإقطاعية على المجتمع الاشتراكي الّذي بدأ يتكوّن حديثاً. هذا المجتمع الّذي يساعد «البشير» في عمليّة إصلاح الأوضاع الاجتماعية بالقرية كما يمثّله المجاهد «بوغرارة» وصاحب المقهى والمهندس والأكاديمية والبلديّة.

ويشير الراوي، في الوقت نفسه، إلى خطر «الشّيخ» الّذي يتحالف مع «ابن الصّخري» ضدّ «البشير»؛ فخطره نابع من رؤيته النافية للآخر الّذي يمثّل، في نظره، الكفر والإلحاد. وهو ما يدفع «البشير» إلى التّوجس من الدّور الّذي يضطلع به «الشّيخ» بقوله على لسان الراوي: «بقدر ما كان هذا النّمط من النّاس أثناء الاحتلال عاملاً من عوامل الحفاظ على الشّخصية وعدم الذّوبان في المستعمر بقدر ما سيكونون في المستقبل عرقلة في وجه كلّ إصلاح وحاجزاً أمام كلّ تقدّم»[7].

إنّ عناية الراوي بآنية الثّورة الزّراعية واستحضاره من حين إلى آخر للثّورة التحريرية يعبر عن الارتباط الحثيث بين الماضي والحاضر، حيث لا يُمكن بناء مستقبل اشتراكيّ إلاّ بتضافر هذيْن الزّمنيْن المتواصليْن تاريخياً وأيديولوجياً. وهو ما يجعل شخصيّة ملحميّة مثل «البشير» مؤهّلة للنّهوض بهذا البناء، لأنّها تجمع بين الزّمنيْن رغم الانقطاع الزّمني والفكري الّذي وسم وجودها حين استسلمت لإغراءات الحياة العصرية في المدينة، ورغم أنّ «البشير» يلوذ بالقرية من أجل تلقين الأحداث أبجديات القراءة والكتابة وتغيير الذّهنيات الّتي استغرقها الإيمان بالقدريّة والانتهازية والتّخلّف والجهل، لكنّه يهتدي، بعد معاينة واقع القرية المتخَم بالاستغلال والبطالة والخمول، إلى أنّ «المدرسة الجزائريّة الحقيقية هي تلك الّتي ستُخلَق يوم أن تبرز القرى الزّراعية إلى الوجود»[8].

وبهذا الشّكل، تمثّل رواية «نهاية الأمس» توقَ «ابن هدوقة» إلى انبثاث النّظام الاشتراكيّ، الّذي اقتنع به ودافع عنه في منابر الحزب وفضاء الإبداع منتقداً بعض أخطائه هنا وهناك، في المجتمع الجزائري كبديل عن النّظام الإقطاعي الّذي يُعدّ سبب التّدهور الاجتماعي والاقتصادي والثّقافي. وهو توق يعكس وعياً ممكناً لم يستتب بعد، لأنّ الإقطاع مازال يملك إمكانات تسمح ببقائه ولو إلى حين، ولأنّ تحالف «الشّيخ» معه يقف عائقاً أمام اكتمال اللّحمة الاجتماعية.

٣ - أطروحة الثّورة وأطروحة الرواية:

وتكاد تنفرد رواية «طيور في الظّهيرة» لـ «مـرزاق بقطاش»، فيما نعلَم، بالحديث عن آنية الفعل الثّوري التحرّري من خلال وعي الطّفل «مراد» الّذي يُطوِّعه الكاتب تطويعاً أيديولوجيـاً لا يخرج عـن دائرة ما وقر في عقله وقلبه من التزام بالدّين وحبّ للوطن، حيـث يتضافـر الإسـلام والوطنيّة، وهما عاملان متأصّلان في الإنسان الجزائري، في تأليف نظرة بقطاش للثّورة الّتي يعكف على تشخيصها في باكورة أعماله الإبداعيّة.

والكاتب إذ يعزو رؤيته هذه إلى شخصية لم يستوِ عودها من حيث النّضج الأيديولوجي والممارسة السّياسيّة، فهو يبتغي التنصّل من سلطة الأيديولوجيـا السياسيّة الّتي أرادت أن تضفـيَ على الثّورة بعـداً اشتراكياً تبرّر به ثورتيْهـا الزّراعية والصناعيـة خاصّة، والإعـراب، في الآن نفسِـه، عـن رضـاه بسلطة الثّورة باعتبارهـا عقيدة وممارسة غـير وافدتـيْن أو دخيلتيْن علـى المجتمع الجزائريّ، وكأنّـه، باستثماره شخصيّة غير راشدة لم تطمس جِبلّتَها مثاليةُ الأيديولوجيا أو نفعيتُهـا أو هما معاً، يـروم التّأكيد على عفوية هذه الثّورة وبراءتهـا من التّلفيقات الأيديولوجيـة والحسابـات السّياسيّة الّتي بدأت تلوح مع فجـر الاستقلال، تماماً مثل عفويّة الطّفل «مراد» وبراءته في تلقّف أخبار الثّورة واستقبـال أصدائهـا؛ فهي مجرّدة، لديه، من أيّ تفسـير طبقيّ يختزل الصّراع بين الأصيل والدّخيل إلى نزاع ماديّ محموم حول موضوع الأرض.

بـل إنّ التّفسير أو التّقدير، على الأصحّ، الّذي تهتدي إليه الشّخصية هو تقدير ينبني علـى شعور داخليّ يُخالجهـا حيال ما تراه يومياً من فوارق واختلافات جوهرية بين قيم الإنسان الجزائري وقيم الإنسان الأوروبي؛ فتخلص، بذلـك، إلى أنّ الصّراع مع الآخر هـو صراع دينيّ بين «النّجمـة» و«الصّليب» من جهة، وصراع بـين جنس العرب وجنس الأوروبيين من جهة أخرى.

ثـمّ، إنّ الكاتب يحـاول التّأصيل للثّورة الثّقافية، الّتي نهضت السّلطة بعد الاستقلال بتطبيقها عبر سياسة تعميم التّعليم ومجانيته وسياسة التّعريب، حـين يجعل الامتناعَ عن تعلُّم اللّغة الفرنسية من صميم الجهاد ضدّ الاحتلال؛

فقد تناهى إلى سمع «مراد» وهو يندسّ بين التّلاميذ الّذين يفوقونه سنّاً خبر «قرار خطير اتّخذه المجاهدون، وهو أن يكفّ أبناء الجزائريين عـن تعلُّم لغة العـدو. وتعجّب كيف أنّه لم يسمع بمثل هذا القرار في الحيّ، ربّمـا لأنّه معزول عن بقيّة الأحياء الأخرى، أو لأنّه بعيد عن قلب المدينة!

لعلّ هذا القرار اتّخذ أخيراً، وإلاّ لكان قد سمع به هو وأطفال الحيّ جميعاً. يستحيل أن يصدر المجاهدون قراراً ويبقى مقصوراً على ناحية واحدة من المدينة»[٩]. وبالتّالي، يُنزل «بقطاش» موضوعة الثّورة التّحريرية منزلتها الطّبيعية وهي المنزلة الإسلاميّة والعربيّة والوطنيّة بالجمع بين الجهاد بالنّفس من أجل استرداد الأرض وصون الدّين والعِرض ومحاربة مظاهر التّغريب الفكري بالكفّ عن تعلّم لغة المحتل. وهو، حينئذ، يُسلّم بسلطة الأطروحة (أي سلطة الثّورة) ويرفض أطروحة السّلطة (أي اشتراكيّة الثّورة) في هذه الرواية.

ومن أجل تشخيص رؤيته للثّورة في إطار رؤية شاملة للمجتمع والعالم وتأسيساً على خطاطة روائيّة معدّة سلفاً، يعهد «بقطاش» إلى الراوي العليم بانتقاء الأحداث الّتي تنمّي في «مراد» الإحساس بتميُّزه وبني دينه وجلدته عن الأوروبيين وتبعث في نفسه عاطفتيّ الخوف والحقد تجاههم، نظير حدث اقتياد الشبان الأربعة إلى مكان اغتصابهم للفتاة الغجرية بغرض تمثيل الواقعة على مرأى من الشّرطة وسكّان الحي الّذين أبوا إلاّ أن يتعرّفوا إلى مرتكبي هذا الفعل الّذي أثار عبوس الشّرطة وزاد من حقدهم على العرب.

وحدث الشجار الّذي وقع بين «نوربير» الإسباني و«والد روني» المالطي والّذي أماط القناع عن حقيقة الأوروبيين المتسترّين خلف أخلاق مصطنعة وطيبة مُفتعلة. وحدث مواجهة «مراد» للمعلّمة اليهودية الّتي «صوّبت نحوه سبابتها متوعّدة، وسألته: «لم لا تريد أن تتعلّم الفرنسية؟». وأحسّ لحظتها بالدماء تغادر وجهه كلّه، ثمّ شعر بنظرات زملائه من التّلاميذ تقع عليه، وتحثّه على الامتناع عن الجواب، لكنّه اندفع يُجيبها بقوله:

«لأنّني لا أحب الفرنسية». ولم يُكمل جملته تلك حتّى كانت صفعة قويّة تتهال على خدّه، فيسيل الدم من أنفه. وتراجعت المعلّمة وهي تنظر إلى سحنة مراد، والدم الراعف منه. ووقفت مرتبكة فوق المصطبة. ثمّ، إنّ مراد قام من مكانه، واندفع نحو الباب، والدم يسيل على شفتيّه ورقبته. وتبعه التّلاميذ وهم ينظرون بحقد إلى المعلّمة الّتي وقفت بكماء لا تقوى على القيام بأيّ شيء»[١٠].

ولكي يحافظ على تميُّز الشخصية البطلة واتّزانها واستقامتها، يحرص الراوي على بسط انفعالات «مراد» وفق ما طفق يتشكّل في وعيه من التزام بتعاليم الدين الإسلاميّ الّتي تحثّه على إبداء معارضته لأيّ عمل يسيء إلى القيم الإسلامية الّتي تجب مراعاتها قبل الإقدام على تصرّف طائش أو اتّخاذ قرار غير صائب يشوّه صورة

الإنسان العربيّ الجزائري، ذلك أنّ «مراد» يحاول تبرير سلوك عبد الله، وهو أحد الشبّان الأربعة الّذين تورّطوا في اغتصاب الفتاة الغجريّة، بدعوى أنّه فتى هادئ ويُقيم الصّلاة ويحفظ بعض السّور القرآنية الّتي علّمه إيّاها هو نفسُه، ولكنّه يتراجع عن ذلك بعدما يوقِن أنّ ما اجترحه ذلك الفتى خطأٌ لا تمحوه إلاّ التّوبة.

ويستهجن انصراف عمّه إلى معاقرة الخمر والحرب قائمة، ويُوقِر «في نفسه أنّ المجاهدين لم يعملوا على تصفيّة كلّ شاربي الخمرة؛ فالخمرة حرام»(١١).

ويُنكِر على عجوز قيامها بأعمال السّحر الّتي تُعدّ كفراً يستوجب النّار. وتأكله الحسرة حين يشارك صديقيْه «أرزقي» و«محمّد» سرقة حبّة الجوز الهندي من الدكّان.

ويصدُر «مراد» في ردود أفعاله تلك عمّا أخذه عن شيخ المسجد من آداب إسلاميّة ونصائح دينية، ممّا يشي بأنّ هذا النّمط من الشّخصيات؛ أي الشّيخ، يُعدّ رائدَ الدعوة إلى الحفاظ على قيم الشّخصية الإسلامية في المجتمع الجزائري الرّازح تحت سلطة غاشمة تستبيح المحرّمات والمقدّسات، وحاملَ لواء الجهاد كما تعكسه صورة الخطيب الّذي راح يحثّ الرجال والنّساء، بمناسبة الذّكرى الثانية للفاتح من نوفمبر، على مواصلة الكفاح ضدّ الاحتلال الفرنسيّ.

أمّا المعلّم فقد بدا حذراً في تذكير التّلاميذ برمزيّة هذا اليوم تلافياً للمضايقات الّتي قد يتعرّض لها من قِبل لجنة التّربية بالمدرسة؛ فقصارى جهده أن يبثّ في النّاشئة حب الوطن عبر تعليمهم الأناشيد الوطنية.

غير أنّ تقلّبات الحياة ومفاجآتها، كما يومئ الراوي، ستغدو دروساً لا يتعلّمها «مراد» لا في المسجد ولا في المدرسة. وهو ما يُنبئ بإمكانيّة تطوّر فكر الشّخصية مع مرور الزّمن من خلال احتكاكها بالواقع اليوميّ المتجدّد والمتغيّر، ومن ثمّ، احتمال تغيّر الفكر، الّذي يحضن الثّورة ويوجّه خطاها نحو بلوغ غايات محدّدة، مستقبلاً.

فضلاً عن الإلماح إلى أنّ الوعي الممكن الّذي يذود عنه «بقطاش» ويرغب في تحقّقه على صعيد الكتابة على الأقلّ، وهو الوعي الديني القومي الوطني، قد تعترضه إشكالات وعوائق تؤخّر أو تحول من دون انبثاثه في المجتمع الجزائريّ بعد الاستقلال.

ولا يغفل الراوي الإشارة إلى أنّ «مراد»، رغم تميّزه ذاك واتّزانه واستقامته؛ يحب اللّعب ويهاب الكلاب وينتابه التّردّد ويتملّكه الخجل وتعتريه الغيرة وتخذله الحكمة ويعوزه الفعل مثل أيّ طفل آخر. وربّما شكّل ذلك ذريعة لأن يهيمن صوته؛ أي صوت الراوي العليم، على مجموع الأصوات

الحاضرة في النّص وتحتكر رؤيته السرديّة المنظور السّردي؛ إذ نلفيه يُبطئ في السّرد مسترسلاً في اقتفاء أحداثه المتعاقبة الّتي تجري في حيّ شعبيّ بالجزائر العاصمة من نهاية العطلة الصيفيّة إلى الفاتح من نوفمبر سنة ١٩٥٦م، ويسرع في الوقفات الوصفيّة الّتي كادت تغيّبها سلطة السّرد، ويؤسلب الخطابات والأقوال عبر تسريدها وعرضها إلاّ ما جاء منها من كلام مباشر على لسان بعض الشّخصيات.

الهوامش

1- Lucien Goldmann : « Pour une sociologie du roman », Gallimard, Paris, 1964, p 23.

٢- فيصل درّاج: «نظرية الرواية والرواية العربية»، المركز الثّقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط.١، ١٩٩٩م، ص٤٤.

٣- بشير بويجرة محمّد: «بنية الزّمن في الخطاب الروائي الجزائري ١٩٧٠م - ١٩٨٦؛ المؤثرات العامة في بنيتيّ الزّمن والنّص»، ج١، دار الغرب للنّشر والتوزيع، وهران (الجزائر)، د.ط، ٢٠٠١ - ٢٠٠٢م، ص ١٤٥، ١٤٦.

4- Susan Rubin Suleiman : « Le roman à thèse ou l´autorité fictive », P.U.F, Paris, 1983.

نقلاً عن: «معجم السّرديات»، مجموعة من المؤلفين، إشراف: محمّد القاضي، الرابطة الدولية للنّاشرين المستقلّين، (تونس، لبنان، الجزائر، مصر، المغرب)، ط.١، ٢٠١٠م، ص ٢٠٨.

٥- عبد الحميد بن هدوقة: «نهاية الأمس»، الشّركة الوطنية للنّشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، ١٩٧٥م، ص ١٣٤.

٦- المصدر نفسه، ص ٣٣، ٣٤.

٧- المصدر نفسه، ص ٦٢.

٨- المصدر نفسه، ص ٢٢٩.

٩- مرزاق بقطاش: «طيور في الظّهيرة»، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، د.ط، ١٩٨١م، ص ٦٤.

١٠- المصدر نفسه، ص ٦٧، ٦٨.

١١- المصدر نفسه، ص ٦٣.

«عنترة بن شداد وعقدة النقص»

إبراهيم محمود الصغير ✿



لم يُعرف رجل، في العصر الجاهلي، ناضل وكافح بقوة وشجاعة، من أجل نيل حريته وعتقه من العبودية، إلا عنترة بن شداد. فقد واجه هذا الرجل، بصبر وجلد، تعنت قبيلته وقوانينها وعاداتها الظالمة المجحفة بحقه. وتحمل في سبيل ذلك الأذى والظلم من أهله وأقاربه وقبيلته. واستطاع، أخيراً، أن

✿ أديب وباحث في التراث العربي.

يظفر بحريته بذكائه الحاد وشجاعته النادرة في القتال وخوض الحروب، وبشعره الرائع الأخاذ الذي يأسر به ألباب سامعيه، والذي يثير فيهم النخوة والحماسة، حتى غدا أيقونة بني عبس وتميمتها التي تحميها من الأعداء، وتفخر بها بين القبائل. ومع أنه نال حريته، وتحرر من العبودية، وأصبح سيداً

من سادات عبس، إلا أن لونه الأسود، وكون أمه عبدة حبشية سوداء ظلا كالسد المنيع أمامه، وظل هناك حاجز خفي بينه وبين الكثير من أفراد قبيلته، من الحساد والشامتين، وحتى من القبائل الأخرى التي ظلت تعيره بسواده وبأمه السوداء.

وقد ظل يعاني من هذا الأمر إلى نهاية حياته. ونعرف هذا من خلال قصائده، التي جمعت في ديوان فيما بعد، وفيها الكثير من الشكوى من القبيلة ومن الناس ومن كل من تعرض لسواده وسواد أمه.

ولعلَّ الكثير لا يعرف قصة عنترة وحياته، فهو أبو المغلس عنترة بن شداد بن عمرو بن قراد. وقيل شداد هو جده غلب على أبيه. وقيل عمه كفله بعد أبيه.

والعنتر في الأصل الذباب الأزرق والواحدة عنترة. وأمه زبيبة، وهي أمَةٌ حبشية سوداء، سباها شداد في إحدى الغارات وكان أبوه قد استعبده على عادة العرب في استعباد أبناء الإماء.

وقد عمر عنترة طويلاً، ويقدر مولده عام (٥٢٢م)، ووفاته عام (٦١٥م). استطاع عنترة أن ينتزع حريته بشجاعته حين وعده أبوه أن يمنحه الحرية إذا تمكن من رد غزو قامت به بنو طيء إذ استاقت إبل عبس. وقد نجح عنترة في رد الغزو واستنقاذ الإبل، ونال بذلك حريته، وألحقه أبوه بنسبه. كما شارك عنترة في حروب داحس والغبراء، التي قامت بين قبيلتي عبس وذبيان، وأبلى فيها بلاءً حسناً. وقد أحب ابنة عمه عبلة وخصها بأروع شعره.

وامتاز بخصال حميدة جعلته محط تقدير الكثير من أبناء قبيلته والقبائل الأخرى، منها فروسيته المشهورة وشجاعته النادرة، وخلقه السمح.

وقد نسجت حوله قصص وحكايات غريبة وأسطورية جعلته محط إعجاب الأجيال، فكُتبت سيرته الشعبية في القرن الخامس الهجري، واستغلت لتحريك روح القتال في الناس لمواجهة الغزو الأجنبي.

ولعلَّ الشيء المميز في عنترة أنه منذ وعى الحياة كان يتصرف تصرف السيد الحر، وليس تصرف العبد الذليل، كغيره من العبيد. وقد عرف عنه الإباء والأنفة والاعتداد بالنفس، وظل كذلك إلى نهاية حياته. كان يدرك أن أباه شداد عربي أصيل ومن سادات عبس وأشرافها، وكان يؤمن بأن على الابن أن يتبع أباه ويكون مثله في الشرف والحسب. ولكن هذا اللون الأسود والشفاه الغليظة وأمه زبيبة الحبشية السوداء، كانت كلها عائقاً أمام طموحاته، وكانت تسبب له القلق والشعور بالنقص والدونية، وهو ما كان يرفضه في أعماقه، ويجعله ثائراً متمرداً على هذا الوضع الذي فرض عليه ولم تكن له يد ولارغبة فيه، فكثرت منازعاته ومشاجراته مع الكثير من أفراد القبيلة بسبب ذلك. فأرسله أبوه إلى حيث يرعى الإبل والأغنام، ليبعده عن النزاع والمشاجرة مع الآخرين

وهناك وسط الطبيعة، في البراري والمراعي لانت نفسه، وتهذبت أخلاقه، واشتد ذكاؤه، وتعمقت حكمته، وأخذ يطيل التفكير في كيفية الحصول على حريته، والتخلص من العبودية. وأخذ يدرس سير الفرسان الأحرار المشهورين بين العرب فوجد أنهم يمتازون بالفروسية والشجاعة، والأخلاق الكريمة، وبالولاء للقبيلة، وبقول الشعر، وبالافتخار باتخاذهم حبيبة يتغزلون بها، فوطن نفسه على أن يكون مثلهم، بل ويحاول أن يتفوق عليهم خاصة وأنه مؤهل لهذه الأشياء بالفطرة، فأخذ يتدرب على ركوب الخيل وعلى القتال. وجعل الأخلاق الكريمة ديدنه وجزءاً من شخصيته، وتغلب على شراسته وغضبه السريع باللين وسعة الصبر. وجعل قبيلته عبساً محط افتخاره وولائه.

أمَّا الشعر فأخذ يكثر من حفظه وترداده واختلاطه بالشعراء من قبيلته ومن القبائل الأخرى. أمَّا الحبيبة، التي يتغزل بها فقد وجدها في شخص ابنة عمه عبلة.

لقد اختار عنترة أن يكون فارساً مشهوراً بين العرب، فقط ليكتسب حريته، وليتخلص من عقدة النقص التي يعانيها من جراء سواد لونه وانتسابه لأمه الحبشية، ونحن نعتقد أنه لو لم يكن أسود وأمه زبيبة لما كان عنترة المشهور الذي تعرفه كل العرب. ولو كان حراً كغيره من أفراد القبيلة لظل مغموراً خاملاً لا يذكره أحد.

وقد كان عنترة في الذكاء والفطنة بحيث أدرك أن الفروسية الحقة والشجاعة النادرة هما جواز سفره لنيل الحرية، إلى حد أنه أصبح يساوم بهما القبيلة ويبتزها في الأوقات العصيبة التي تمر بها القبيلة في مواجهة الغارات والغزوات من قبل القبائل الأخرى. وقد تحقق له ذلك، كما مرَّ معنا، عندما وعده أبوه بالحرية إن هو استنقذ الإبل التي استاقتها قبيلة بنو طيء في غزوها بني عبس. ونجح عنترة في رد الغزو واستنقاذ الإبل، فاعترف به أبوه أمام بني عبس كلها وألحقه بنسبه.. وأصبح عنترة، بين ليلة وضحاها، حراً وواحداً من فرسان بني عبس المعدودين.

ولكن هل تخلص عنترة، فعلاً، من عقدة النقص، التي كانت تقلقه وتزعجه قبل نيله الحرية، ولم يعد أحد يدعوه: ابن زبيبة، أو العبد، أو الأسود؟

بالعكس، لقد زادت الهجمة عليه من قبل أعدائه وحساده والمنكرين حريته، لأن بعض سادات عبس كانوا ينكرون تماماً إعطاء العبيد حريتهم مهما تكن أفعالهم ومزاياهم، فالعبد يجب أن يبقى عبداً.

والذي كان يؤلم عنترة أكثر، أن من يعيبونه بسواده هم أبناء قبيلته وأهله. وقد فطن إلى أنَّهم يستغلون فروسيته وشجاعته لمصلحتهم وحماية أعراضهم وأموالهم. فزادت معاناته من عقدة النقص هذه، وزادت شكواه من ظلم قومه وأهله إلى نهاية حياته. ولكنه لم يسكت بدوره أبداً، فكان يرد الصاع صاعين، ويهجو بشعره اللاذع كل من يتعرض له ويعيبه بسواده وسواد أمه وإخوته. وأخذ يتهمهم صراحة بالنفاق والخداع والمحاباة حين يقول:

يُنادُونني في السِّلم يا ابْنَ زَبيبةٍ
وعندَ صدامِ الخيلِ يا ابنَ الأطايبِ

كما يشبه قومه بالدهر الظالم المتقلب الذي لا يهنأ بصحبته الأحرار:

دَهْرٌ يرَى الغدْرَ من إحدَى طبَائعهِ
فكيْفَ يَهْنا بهِ حُرٌّ يُصَاحِبُهُ؟

ويتهمهم بالخبث والمكر والتقلب، وأن أفعالهم القبيحة من السوء بحيث أنها أشد سواداً من لونه:

يعيبون لوني بالسواد وإنَّما
فِعَالهم بالخبث أسود من جلدي

وهو يعتبر أنَّ سواده فخر واعتزاز له، لأنه يظهر خصاله الحميدة، بل ويبالغ في الافتخار بنفسه حتى إنه ليقول:

يعيبون لوني بالسواد جهالةً

ولولا سواد الليل ما طلع الفجْرُ

وإن كانَ لوني أسْوداً فخصائلي

بياضٌ ومن كَفيَّ يُستنزَلُ القطْرُ

ويقول، كذلك، في موضع آخر، مفتخراً بسواده وشمائله وأفعاله التي تتفوق على النسب:

سوادي بياضٌ حين تبدو شمائلي

وفعلي على الأنساب يزهو ويفخرُ

وهو يقول لقومه صراحةً، بأن سواده الذي يعيبونه به، هو نسبه الذي يفتخر به وقت الحرب:

لئنْ يعيبوا سوادي فهو لي نسبٌ

يومَ النزالِ إذا ما فاتني النسبُ

ويحاول، هنا، أن يخرسهم بأنه، وإن كان عبداً، فإنَّ شجاعته وهمته هما اللتان تصنعان المجد والعلا له، وليس النسب والقرابة:

إن كُنتُ في عَدَدِ العَبيدِ فَهِمَّتي

فَوقَ الثُرَيّا وَالسِماكِ الأَعزَلِ

أو أنكَرَتْ فُرسانُ عَبسٍ نِسبَتي

فَسِنانُ رُمحي وَالحُسامُ يُقِرُّ لي

وَبِذابِلي وَمُهَنَّدي نِلتُ العُلا

لا بِالقَرابَةِ وَالعَديدِ الأَجزَلِ

وأنَّ سواده، واسم أمه زبيبة، لا يضرانه أبداً، طالما الأعداء عاجزون عن إدراك مكانته في علو الهمة وبلوغ المجد، وإن يكن لونه أسود، فالمسك لونه أسود أيضاً:

ما ساءني لوني واسمُ زبيبةٍ

إنْ قصَّرتْ عَنْ هِمَّتي أعدائي

لئن أكن أسوداً فالمسك لوني

وما لسواد جلدي من دواءِ

والشيء الوحيد الذي يملكه عنترة، ولا يملكه أعداؤه، وبه يتفوق عليهم، هو الشجاعة النادرة والخارقة في القتال وخوض المعارك، ومعرفته لنفسيات أعدائه وأساليبهم في القتال، وتقديره الحكيم متى يهجم ومتى يتراجع، من دون تهوّر منه أو تسرع. حتى بات اسمه يدب الذعر والخوف في قلوب أعدائه ومنازليه ومبارزيه. وبات قومه يتفاءلون به ويستظلون تحت شجاعته وإقدامه في كل المعارك والحروب. وقد عرف عنترة هذا، واستغله لمصلحته، وصار يتغنى ويفتخر بشجاعته وفروسيته في كل الأماكن والمناسبات، مستخدماً شعره الحماسي والبطولي «ولا شيء أجمل من الشعر في الدفاع عن الهوية، وإثبات الذات، والبرهنة على سمو النفس، ونبل الأخلاق، لإقناع

الناس بأن السواد لا صله له بالشخصية إذا عظمت، وبالنفس إذا كرمت، وبالعزيمة إذا كبرت. فكان لا مناص لعنترة، لكي يصبح شخصية مرموقة أن يقول الشعر، ويحب فتاة، ويبلي في ساحة الحرب لكي يدافع عن القبيلة، التي لولا تدخله لكانت تعرضت للفناء والعار، كما تزعمه الأخبار».

لقد اكتسب عنترة الإعجاب والتقدير من أعدائه قبل أصحابه، وبات مضرب المثل في الشجاعة والإقدام، ليس من العرب وحدهم، بل ومن المستشرقين والأدباء الأجانب. فهذا (غوته) شاعر الألمان الأكبر، يبدي إعجابه الشديد بشجاعة عنترة، وخاصة في بيتيه من المعلقة:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سُقمها
قيلُ الفوارس ويكَ عنترَ أقْدِمِ
ذللٌ ركابي حيثُ شئتُ مشايعي
لُبِّي وأحفزُهُ بأمرٍ مُبْرَمِ

فهو يعجب بهذا التفاخر الرائع بروحه القتالية وأمجاده في ساحة الوغى، وكيف تعود إليه حيويته، وكيف تشفى نفسه عندما يمتطي ظهر حصانه، وإن كل مطاياه تلين له إلى حيث يتجه ويعاونه على أفعاله عقله الحكيم بالأمر المحكم والسديد.

وقد وصل الافتخار بنفسه وبشجاعته إلى حد المبالغة القصوى، وذلك في قوله:

ولو صَلَتِ العُرْبُ يومَ الوغى
لأبطالها كنت للعرب كعبة

وليست المبالغة هنا إلا محاولة ذكية لصرف أنظار الناس عن سواده، ولإثبات شجاعته للناس واكتساب إعجابهم واحترامهم. وليقول للجميع أن سواد اللون لا يمكن أن يكون عائقاً أمام النفس الأبية والكريمة، وأن لكل إنسان الحق أن يعيش حراً كريماً، وكأنه بذلك يؤكد للناس قولة الخليفة (عمر بن الخطاب) المشهورة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟».

ومن أبياته المشهورة في الفخر والاعتداد بالنفس، والتي يحفظها كثير من الناس:

حصاني كان دلالَ المنايا
فخاض غمارَها وشرى وباعا
وسيفي كان في الهيجا طبيباً
يداوي رأسَ من يشكو الصداعا
ولو أرسلت رمحي مع جبانٍ
لكان بهيبتي يلقى السباعا

وفي مكان آخر يقول مفتخراً أيضاً:

محوتُ بذكري في الورى ذكرَ من مضى

وسدتُ فلا زيدٌ يقالُ ولا عمرو

سيذكرني قومي إذا الخيلُ أقبلتْ

وفي الليلة الظلماءِ يُفتقدُ البدرُ

والبيت الثاني يذكرنا ببيت (أبي فراس الحمداني) المشهور، والذي أخذ معناه، ولا شك، من بيت عنترة هذا:

سيذكرني قومي إذا جدَّ جدُّهمُ

وفي الليلة الظلماءِ يُفتقدُ البدرُ

ونورد هنا بعض أبياته الأخرى في الفخر والشجاعة وعزة النفس والإباء:

خلقتُ من الحديد أشدَّ قلباً

وقد بليَ الحديدُ وما بليتُ

وليستْ سباعُ البَرِّ مثْلَ ضِباعِهِ

ولاَ كلُّ مَنْ خاضَ العَجاجةَ عَنْتَرُ

ومن قال إني سيّدٌ وابن سيّد

فسيفي وهذا الرمحُ عمّي وخاليا

لا تسقني ماءَ الحياة بذلة

بل فاسقني بالعزِّ كأسَ الحنظلِ

ماءُ الحياة بذلة كجهنم

وجهنمٌ بالعزِّ أطيبُ منزلِ

ومثلما افتخر عنترة بفروسيته وشجاعته، افتخر، أيضاً، بأخلاقه الفاضلة وشمائله الكريمة وصفاته النبيلة. لأن الناس تعجب بالفارس الخلوق ذي النفس العفيفة والنبيلة. وقد نجح عنترة في أن يكسب إعجاب الناس من هذا الباب الذي صدق فيه قولاً وفعلاً.

وقد أنشد النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- بيت عنترة الذي يقول فيه:

ولقد أبيتُ على الطوى وأظلُّهُ

حتى أنالَ به كريمَ المأكلِ

فقال: «ما وُصف لي إعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة». كما أعجب (غوته) شاعر ألمانيا الأكبر، أيضاً بأخلاق عنترة في بيتيه اللذين يقول فيهما:

أثني عليَّ بما علِمْتِ فإنني

سمْحٌ مخالقتي إذا لم أظلم

وإذا صَحَوْتُ فما أقصِّرُ عنْ ندى

وكما عَلمتِ شمائلي وَتَكَرُّمي

لأنَّ هذين البيتين يمثلان الأخلاق العربية. ومن هنا تبدو عبارة (غوتة): «ألا ما أطيبهم وأحبهم إلى النفس!» قريبة كل القرب من هذه السجايا التي يتغنى بها الشاعر الجاهلي. وما أروع هذا الشاعر العفيف الذي يترفع عن الفواحش حين يقول:

ولكن تبعدُ الفحشاءُ عني

كبعْدِ الأرْضِ عن جَوْفِ السماءِ

وهو الذي يغض بصره، أيضاً، إذا مرت به نساء الجيران:

وأغضُّ طرفي إنْ بدَتْ لي جارَتي
حتى يُـواري جارتـي مـأواهـا

وعنـترة في عون جاره دائمـاً، كما يقوم بحق الضيف ويبتهج به:

وإني لأحمي الجارَ من كل ذلّةٍ
وأفـرحُ بالضيْفِ المقيم وأبْـهجُ

وهـو يفضل الموت ولا أن يمد يده طالباً الإحسان من الآخرين:

وأيْـسرُ من كفّي إذا ما مددْتُها
لنيل عطاءٍ مدُّ عنقي لذابحِ

وهـو لا يمكن أن يتصف بطبـع اللئام، ويرى البخل عيبـاً، وأن المكارم هي مطلبه، وأنـه نادراً مـا يغضب لأنه حليـم في أكثر الأوقات:

تجافيتُ عن طبع اللئام لأنني
أرى البخلَ يشني والمكارمَ تُطلبُ
وللحلْم أوقـاتٌ وللجهلِ مثلها
ولكنَّ أوقـاتـي إلى الحلْـم أقْـربُ

وعندمـا يقاتل عنترة فهو لا يسعى لنيل المغانم والأسلاب لأنَّ هذا يدل على الجشع والطمع:

يخبرْك من شهدَ الوقيعةَ أنني
أغشى الوغى وأعفُّ عند المَغْنم

وأمَّا عقـدة النقص الثانية، التي سببت لعنترة القلـق الدائم، والعذاب المستمر فهي إعراض عبلة عنـه وعدم استجابتها لحبه. وظل يعاني من صده ورفضها طوال حياته. مع أنه حـاول وفي استماتـة أن يسترضيها بشعـره، وشجاعتـه، وبأخلاقـه الكريمة، ولكن مـن دون طائل ولم يكـن يفقد الأمل، فكان يسترضيها، وأحيانـاً يستعطفها، وفي أحيان أخرى يعتب عليها، بل ويغضب منها ويهجرها، ثـم يعود ويلين ويعيد الكرة. فما هو هذا السر في حبـه هذا الغريب؟ مع أنَّ كثيرات غيرها، جميلات وشريفات، عرضن أنفسهـن عليه، ولكنـه كان يعتـذر ويقول متألماً:

لو كان قلبي معي ما اخترْتُ غيركمُ
ولا رضيتُ سواكمْ في الهوى بدلا
لكنـه راغـبٌ في مـن يـعـذّبُـهُ
وليـس يقبـل لـومـاً ولا عـذلاً

ويقول في مـكان آخر، مستسلماً لحبها، راضياً بقضاء الله:

إن عشْتُ فهي التي ما عشْتُ مالكتي
وإنْ أمـتْ فالليالي شأنها الـعِبرُ

ويقول الدكتور (مصطفى ناصيف): «إن عبلة الإنسانة، قد تتحول إلى رمز يجسد كل

همـوم عنترة، آماله وآلامـه، ومن ثم يشمل حاجات المجتمع العليا. ولكننا نبدأ من عبلة (الإنسانـة، الموضـوع) أولاً. ففيها يتحقق انسجامه مع الحياة، ومنها إلى عبلة الآمال والأحـلام، حيـث تتصفى الصـورة وتميل إلى التجريد، بعـد أن تنبع من خط الحياة الأولى».

وعنترة يعلم، حـق العلم، أن عبلة بعيدة المنال، وأنَّ مكانها في السماء بينما هو عاجز على الأرض:

مقامُكِ في جوفِ السماءِ مكانُهُ

وباعي قصيرٌ عن نوالِ الكواكبِ

لكنه، مـع ذلـك، يستمـر في التمسك والتغزل بها، لأنها تظـل دائماً الرمز الذي يبحث عنه ويناضل من أجل الحصول عليه، تماماً كما تفعـل الفراشة التي تظل حائمة حول النور حتى لو احترقت.

«إنَّ حبه لعبلة أجج في قلبه رسيس الهوى فأنطقه بما أنطـق، وألهمه بما ألهم فجعله يخاطبهـا وهي بعيـدة عنه، معاتبـاً إياها عن عدم مساءلتها عـن بلائه في الحروب، ومتابعتها لمقاماته في الوغى، وكيف أنَّ الخيل كانت تعرفه لفروسيتـه، وكيف أنَّ الفرسان كانت تهيبه لشجاعته، إلا هي ظلت جاهلة، أو متجاهلة، بما كان يجب عليها أن تعلم من أمره، وتعرف من شأنه:

هلا سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ

إنْ كنتِ جاهلةً بما لمْ تعلمي؟

بل وهو في ساحة الحرب، وسط الضرب والقتـل والطعـن، وصهيل الخيـل، وأنين الجرحى، وصراخ الفرسـان، وتطاير الغبار مـن كل الجوانب، يتذكرها فجـأة ويتخيل وجهها الجميل فيناجيها قائلاً:

ولقد ذكَرْتُكِ والرماحُ نواهلٌ

مني وبيضُ الهندِ تقطرُ من دمي

فـوددتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها

لمعتْ كبارقِ ثغرِكِ المبتسِمِ

وهو يقوم بكل هذه الأعمال والبطولات ويصفها لعبلة من أجل ماذا؟»

لعلَّ عبلةَ تضحى وهي راضيةٌ

على سوادي وتمحو صورةَ الغضبِ

ياعبلَ قومي انظري فعلي ولاتسلي

عني الحسودَ الذي ينبيكِ بالكذبِ

ويقول في موضع آخر في المعنى نفسه:

فلـو أنَّ عينيـكِ يـومَ اللقا

تـرى موقفي زدتِ لي في المحبة!

وهو يأمل في حبها، حتى عند اليأس، لأن في قلبه من الحب الشيء الكثير والكثير:

ياعبلَ مثل هـواكِ أو أضعافُهُ

عـنـدي، إذا وقـع الإيـاس، رجـاءُ

بل إنه يخاطبها من بعيد ويحييها ويدعو لها:

يـا دار عبلـةَ بـالجـواءِ تكلّمي

وعِمِي صباحاً، دارَ عبلةَ، واسْلمي

وقد يكون هذا البيت، كما يقول النقاد، مـن أجمل الشعر العربي زخرفة، وقد سأله أحدهم أن يصف له عبلة فقال:

لـعـوبٌ بـألـبـاب الـرجـال كـأنها

إذا أسْفرتْ بـدرٌ بـداـيِّ المحاشدِ

كـأن الـثريا حـين لاحـتْ عـشيةً

على نحرها منظومةٌ يِّ القلائدِ

منعّمةُ الأطـراف خـودٌ كأنها

هـلالٌ على غصنٍ من البان مائدِ

حوى كلّ حسنٍ يِّ الكواكب شخصُها

فليس بها إلا عـيـوب الحواسدِ

ومن صفات الفرسان، كما ذكرنا سابقاً، الولاء للقبيلة، والاعتزاز بالعرب.

وقـد عرف عـن عنترة الـولاء الشديد لقبيلتـه عبس. وهو إن جـارت عليه قبيلته وظلمته وعاملته معاملـة العبيد، واستغلته لمصلحتهـا، فإنه سرعان مـا ينسى كل ذلك وينصرهـا ويحميهـا إذا تعرضت للأخطار والغـارات والغـزو، وكأنـه يتمثـل بقـول الشاعر:

بـلادي وإن جـارتْ علـيَّ عـزيـزةٌ

وأهـلي وإن ضـنُّوا علـيَّ كـرامُ

لذلك فهو يفتخر ويقول:

إني امـرؤٌ من خير عبْسٍ منصباً

شطْري وأحمي سائري بالمنْصلِ

كما يقول يِّ موضع آخر أيضاً:

وإنّي اليـوم أحمي عرْضَ قومي

وأنْـصـرُ آل عـبْـسٍ على الـعـداة

وهـو يقول أن قبيلة عبـس كريمة ومن خير كرام العرب:

لله درُّ بني عبْسٍ لقد نسلوا

من الأكارم ما قد تنْسلُ العَربُ

ويفتخر عنترة بالعرب كلهم لأنّه من نسل عربي أصيل، وحتـى حبيبته عربية سمراء أصيلة:

عـربـيـةٌ يـهـتـزُّ لـيـنُ قـوامـهـا

فتخالـه العشاقُ رمحـاً أسْمرا

حتى ناقته تنفر عن مياه حياض الأعداء (الديلم) بينما تشرب وتهنأ بمياه العرب:

شربتْ بماءِ الدحرضين فأصْبحتْ

زوراءَ تنْفرُ عن حياض الديْلمِ

وهو يتوعد الأعاجم، الذين يهربون من لقائه ومقاتلته:

يا بني الأعجام ما بالكم

عن قتالي كلكم في شغلِ؟

ونأتي الآن إلى عقدة النقص الثالثة لدى عنترة، وهي قول الشعر، وقد استطاع أن يتغلب عليها تماماً عندما أبدع معلقته المشهورة، فأصبح بذلك من شعراء العرب الكبار المشهورين، واعترف له بذلك الجميع. ويعود السبب في إبداعه لهذه المعلقة إلى ما وقع له من بعض العبسيين في تعييره إياه بالسواد وعدم قول الشعر. وقد ذكر ذلك البغدادي في (الخزانة)، ونقله أيضاً ابن قتيبة في (طبقات الشعراء). وفي رواية أخرى (في شرح الزوزني) أنّ رجلاً شاتمه من بني عبس وعيره بسواده وسواد أمه وإخوته، وأنه لا يقول الشعر. وفي رواية ثالثة أنه قال له: «أنا أشعر منك». ونحن نعتقد بصدق الرواية الثالثة لأن عنترة كان شاعراً حقيقياً، وإنه كان مقلاً في البداية، ولكن هذا لا يمنع من أنّه كان يقول الشعر، لأنه تربى في بيئة شعرية ووسط شعراء كثر من بني عبس ومن غيرها من القبائل. وأنّ عنترة اجتهد كثيراً ليقول الشعر ويثبت كفاءته به، كما مرَّ معنا سابقاً، مثله مثل الفرسان الأحرار. وفي ديوانه، الذي جُمعَ فيما بعد، توجد قصائد كثيرة في مستهل حياته وفي شبابه، وفي الفترة ما قبل المعلقة. وفي إحدى قصائده الطويلة يقول مفتخراً بقصيدته هذه، وأنها خير القصائد:

فدونكمُ يا آل عبْسٍ قصيدةً

يلوحُ لها ضوءٌ من الصبحِ أبْلجُ

ألا إنها خير القصائد كلها

يُفصَّلُ منها كلُّ ثوْبٍ ويُنسجُ

ونحن نرى قدرته على قول الشعر من رده على ذلك الرجل بقوله: «وأمّا الشعر فسترى». فالرجل عندما افتخر على عنترة بأنه أشعر منه كان يقصد بأن شعر عنترة ليس من القوة مثل شعره، أو مثل شعر الفرسان الشعراء وأصحاب المعلقات. لذلك قبل عنترة هذا التحدي ليثبت له أنه أشعر منه، وأنه لا يقل قدرة عن الفرسان الشعراء وأصحاب المعلقات. وقد كانت معلقته التي أخرجها للناس تختلف عن بقية المعلقات من حيث أنها سهلة اللفظ، وذات وقع موسيقي جميل، تظهر شرف المعاني، ورقة المشاعر، وسلاسة وطواعية الأسلوب، على غير ما هو معهود بالشعر الجاهلي وفي المعلقات، وإن لم تخرج في بعض أبياتها عن الغريب والخشونة في الجملة. وهذا ما جعل العرب يسمونها

بالذهبية. وعن هذه المعلقة يقول (طه حسين): «أمَّا عنترة فقد كان حلو النفس، رقيق القلب، قوي العاطفة. جاءه ذلك من أنه عز بعد ذل، وتحرر بعد رق، فهو قد تألم في طفولته وصباه، واحتمل الأذى في شبابه، وأي ذلّ! هذا الذل يداخل النفس ويختلط بها اختلاطاً فيصفي عواطفها تصفية، ويلطف مزاجها تلطيفاً».

ويبدأ عنترة معلقته بشكل يختلف عن بقية المعلقات، حيث يقول:

هل غادرَ الشعراءُ من متردَّمِ

أم هل عرفتَ الدارَ بعد توهُّمِ؟

أي إن الشعراء لم يتركوا شيئاً يصاغ فيه الشعر إلا وقد صاغوه فيه، فهم يكررون ما يقولونه. ولم يبق له ما يضيفه على ما قالوه. وهذه إشارة ذكية منه وتمهيد بأنه معذور إن لم يأت بجديد. ولكنه سيحاول ما أمكن أن يأتي بشيء جديد لم يسبقه فيه المعلقاتيون.

ثم يبدأ بالغزل بحبيبته عبلة، وهو غزل عفيف ولطيف يدل على سمو أخلاقه، فلم يسف فيه ويفحش كما فعل امرؤ القيس وطرفة. وقد وصف حبه لعبلة كما وصف حلاوتها وثغرها، فشبه طيبته مرة بفأرة للمسك وأخرى بالروضة الأنف. وذكر بعد ذلك تشبيها رائعاً وفريداً في بيتيه اللذين يقول فيهما:

وخلا الذبابُ بها فليس ببارحٍ

غرداً كفعلِ الشاربِ المترنِّمِ

هزجاً يحكُّ ذراعَهُ بذراعِهِ

قدحَ المكبِّ على الزنادِ الأجذمِ

وهي صورة رائعة يلتزم فيها الشاعر الحقيقة ولا يعدوها، ولكنه يخرجها إخراجاً يجعلها من أصفى أنواع الشعر، وفي أسمى ما تطمح إليه شاعرية شاعر.

فقد صور الذباب في الروضة على الماء، وأسمعنا طنينه فيها، وأبى إلا أن يضفي عليها من جمال نفسه، فجعله غناء ثمل يترنح، وصور حركته تصويراً لا يخرج عن الطبيعة أقل خروج، حيث يحك الذراع بالذراع كفعل المكب الأجذم حين يقدح بعودين اثنين. وهي حركة يعرفها من تابع الهوام في حركاتها حول المياه في الرياض. وجهابذة البيان ما يزالون يستجيدون هذا التشبيه ويقرون حسنه، وقد كان (الجاحظ) أعجب بهذه الصورة إعجاباً شديداً، فلاحظ أن عنترة لم يُسبق إليها في الشعر العربي، ولم يلاحقه فيها أحد من الشعراء مخافة

أن يقصروا عمّا بلغه هو فيها من الجودة وحسن التصوير.

ثم في المعلقة، يصور بعد ذلك تنعم عبلة وشقاءه. وبعدها يصف ناقته على مثال طرفة، ولكنه لم يسرف، وتخلص إلى ذكر كرمه وإبائه وكراهيته للظلم، ووصفه لنجدته ومنازلة الأبطال.

ثم يصف حصانه وصفاً رائعاً، ليس كوصف امرؤ القيس لحصانه. فامرؤ القيس وصف الحصان وصفاً خارجياً في أربعة عشر بيتاً، بينما وصف عنترة حصانه من الداخل ببضعة أبيات، ولكنه أسبغ عليه صفات إنسانية تدل على أنه أكثر فهماً للحيوان من امرئ القيس، وربما لأنه كان راعياً وشديد القرب من الحيوانات أيام عبوديته. وهذا يجعله يكثر من ذكر الحصان والإبل في شعره وخوضه بهما المعارك والحروب.

وهناك تشبيه دقيق وغريب ساقه عنترة في معلقته وهو قوله:

تأوي له قلُصُ النعام كما أوَتْ

حِزَقٌ يمانيةٌ لأعْجمَ طِمْطِمِ

فهو يقول أن هذا الظليم من النعام تأوي إليه صغاره كما تأوي الإبل اليمانية إلى راعٍ أعجم يمني لا يفصح. فشبه الظليم في سواده بهذا الراعي الحبشي، وصغار النعام بإبل يمانية، لأن السواد في إبل اليمنيين أكثر. وهذا يدل على معرفته بالحيوانات أيضاً.

ويعود عنترة بعد ذلك إلى الغزل، ويتذكر عبلة، فيقول هذين البيتين المشهورين وهما من رقيق الكلام وحلو القريض:

ولقد ذكَرْتُكِ والرماحُ نواهلٌ

مني وبيضُ الهندِ تقطُرُ من دمي

فوددْتُ تقبيل السيوف لأنها

لمعتْ كبارقِ ثغرِكِ المتبسِّمِ

ويختم معلقته بذكر بطولته وشجاعته، ويتهدد الذين يتوعدونه بالقتل والانتقام بأنه سيكون السابق فيقتلهم ويلحقهم بمن قتلوا على يديه.

ونكتفي هنا بما ذكرناه عن عنترة وعقدة النقص لديه، فالمقالة لا تحتمل المزيد والإطالة، مع أن الحديث عن عنترة طويل وشائق. ولنا كبير الأمل من الكتاب الآخرين أن يستدركوا ما فاتنا، وأن يأتوا بالجديد والطريف عن عنترة، فهناك جوانب كثيرة حول عنترة بحاجة إلى كشف الغطاء عنها، وإلقاء الضوء عليها.

المصادر والمراجع

١- ديوان عنترة بن شداد، شرح وتعليق: عباس إبراهيم، دار الفكر العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
٢- شرح ديوان عنترة بن شداد، الخطيب التبريزي، تحقيق: مجيد الطراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
٣- شرح المعلقات السبع للزوزني، منشورات دار القاموس العربي، بيروت، بلا تاريخ.
٤- د.عبد المالك مرتاض، السبع معلقات، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ١٩٩٨م.
٥- د.سليمان الشطي، المعلقات وعيون العصر، سلسلة عالم المعرفة، العدد رقم /٣٨٠/، الكويت، ٢٠١١م.
٦- ج.هيوارث دن، تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، مكتبة الثقافة العربية، بيروت، بلا تاريخ.
٧- كاتارينا مومزن، غوته والعالم العربي، ترجمة: عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، العدد رقم /١٩٤/، الكويت، ١٩٩٥م.
٨- الأدب والنصوص، للصف الأول الثانوي، وزارة التربية، دمشق، ٢٠٠٨-٢٠٠٩م.

روسّو، المتخيّل القلق[1]
جولييت غاليازي[2]

ترجمة: د. ماري شهرستان ✿



جان- جاك روسو-Jean Jacques Rousseau، هو أحد كبار فلاسفة قرن الأنوار بفضل غزارة أعماله وأفكاره المجددة المبدعة. غير أن هذا المدافع عن البشر والطبيعة والحرية والمساواة، كان منعزلاً وحيداً وصموتاً.

في الأسطر الأولى من مؤلفه: «أحلام المتنزِّه الوحيد[3] Rêveries du promeneur solitaire» يبدأ روسو بتعريف نفسه وحالته:

«ها أنا ذا وحيد على هذه الأرض، ولم يعد لي لا أخ ولا قريب، ولا صديق، ولا مجتمع سوى نفسي.

✿ مترجمة وباحثة سورية.

العمل الفني: الفنانة منى القداد.

الإنسان ذو الطبع المألوف والأكثر حباً للبشر أبعدَ بتوافق إجماعي».

نحن هنـا في نهاية عـام ١٧٧٦م، يعود مؤلِّـف «العقـد الاجتماعـيContrat social» و«الإميل l'Émile» ليعيش مجدداً في باريس. لم تكن الثورة قد بدأت بعد، وكان يقود المملكة في ذلك الزمن نظام ملكي بحق إلهي، وكانت الأنوار تغزر في بعض المنتديات ويشـعر نفسه في أنه مستثنـى منها بعد أن تجنبها بنفسه قبل بضع سنوات.

روسو، كهل في الـ ٦٤ من عمره، صحته سيئـة، يعاني من اضطهـاد حقيقي منذ أن نشـر كتابيه الأساسيين عـام ١٧٦٢م الأمر الذي أجبره على الفرار. غير أنه في عزلته، بالَغ الفيلسوف في مقـدار الكره الذي وقع ضحيتـه وأخذ يكرر مـراراً الأسلوب الذي طُرِد به من باريس إلى جنيف مسقط رأسه، وحيث تم إحراق كتبه، وتخلى عنه أصدقاؤه القدامى مثل الفيلسوف دوني ديدرو Denis Diderot، وسخر منـه فولتير Voltaire من دون توقف، كما هاجمه سكان موتييه – ترافير Môtiers-Travers الذين رشقوا بالحجارة ملجأه الكائن في الإمارة البروسية في نوشاتيل Neuchâtel...

هل هو حقيقة ذو طبيعة انعزالية؟

هذه الأحـداث والوقائـع التي حصلت فعـلاً تشكل ربمـا أهم الصـور، المشحونة سابقاً، والتي لا تزال تسري حول هذا الكاتب وفيلسوف القرن الثامن عشر، بينما يُحتفل هذا العام بالذكـرى المئوية الثالثة لولادته. نجده هو نفسه يحافـظ على هذه الصورة للإنسان الوحداني، المنبوذ من الجميع.

فهـذا الفيلسوف العبقـري ذو الأفكار الجديدة والعميقة، يميل غالباً إلى الوحدة، وإلى عشق الطبيعـة وإلى نوع من «أسطورة المتوحـد الطيـب» التـي تنسب إليه. من الصعوبـة الإحاطة بهـذه الشخصية رغم مـرور ثلاثة قـرون علـى ولادتهـا، لأنها تعرضت للعديد من المتناقضات، وحوصرت بين الصورة التي قدمهـا عبر «الاعترافات Les Confessions (١٧٦٥-١٧٧٠)» وبين المعتقدات الخاطئة التي رسمها له أعداؤه. ولـمـا كان روسّو معقداً وشديـد الحساسية، يبدو أن خجله هو سبب عدم مهارته، ويبدو أن انزعاجه في المجتمع قاده إلى الوحدة.

في هـذه الذكـرى المئويـة الثالثة صدر العديـد من الكتب تتساءل حـول طبيعة ميله للوحـدة. يجـد الفيلسـوف الكندي دافيد غوتييه David Gauthier علاقة بين «خطاب حول عـدم المساواة ١٧٧٥م le Discours sur l'inégalité، وبـين هذا الميل». ففيه يقرأ لنا روسو تاريخ جنسنا: «ولدنـا في الوحـدة، ودخلنـا تدريجياً في المجتمـع؛ الإنسـان مخلـوق متوحـد

أصبـح اجتماعيــاً»، وفي افتتاحية الأحلام Rêveries التي يقرأ روسو لنا فيها تاريخه الخاص: قصة مخلوق اجتماعي ارتد إلى التوحد.(٤)

لكن إن اختار هـذا الكاتب والفيلسوف العيش وحيـداً، فهو قد فضّل الانعزال بعد أن قضى سنين عديدة بين الناس.(٥) التساؤل حـول طبيعة روسو وميلـه للتوحد هو شأن منطقي وشرعـي طالما أنه هو نفسه أكّد في نهايـة حياته وفي الظروف التي نعرفها، أنه يميل للوحدة، بينما «لا يتصوّر جان – جاك روسـو سعادة حقيقية أخـرى إلا بين البشر وفي مجتمع قلوب».

في كتابـه الأول «الاعترافـات Confessions» يظهـر أن «الشعور الأول الـذي نشأ في قلب روسو هـو شعور عميق بالمواطنـة». في الواقع، في ٢٨ حزيران عام ١٧١٢م في جنيـف، ولد جان – جاك روسو مواطنـاً في جمهورية وفي وسـط متواضع. والده صانـع ساعات، وهذا مـا كان يروق لفولتيـر Voltaire ذكره،(٦) وتوفيت والدته في ٧ تمـوز أي بعد بضعــة أيام من ولادته. «كانـت ولادتي أولى نكباتـي»، هذا ما كتبه بعـد خمسين عامـاً.(٧) رغم هـذه النظرة الاستعاديـة المرتـدة إلى الماضـي، يبدو أن سنيه الأولى كانت مفعمة بالحب والسعادة. «والدي، وعمتي، وصديقتـي، وكل العائلة، وأصدقاؤنا، وجيراننا وكل من كان يحيط بي (...) كان يحبني؛ وأنا كنت أبادلهم الحب». مع والده الذي كان يقول إن حب الوطن هو أقوى هـوى، كان جان- جاك الشاب اليافع يشاركه القراءة ولفـترات طويلة جداً حيث اكتشـف التاريـخ القديم.. وهـذا ما طبع تفكـيره، مثـل الصداقة التـي ربطت بينه وبين ابن عمه الـذي أمضى معه سنتين في الريف.

اكتشـف الظلـم في سـن الثانية عشرة عندمـا تمّ اتهامـه بعمل مشـين لم يرتكبه. ثم تم توظيفه عنـد معلم نقاش استبدادي، فوجـد نفسه في وحـدة نفسية حصرته في التعاسة. كـي يهرب من هـذا الوضع وكي يتجنب الصدامات، اكتشف فضائل الوحدة الفيزيائية باللجوء للكتـب. «الانطواء على الذات هنا هو رياضة روحية لتحقيق تعويض عن السعادة كـدواء بديل غمر طوال حياته كلهـا النقص الحقيقي للعلاقـات»، وذلك وفق تحليل فايـك Faïck، وكان روسو قد أمضى حياته باحثاً من دون جدوى عن هذه السعادة الأولية وتلك الصداقة الأصيلة التي يجد قبسات منها عند السيدة فاران Mme de Warens، التـي عاشـ معهـا اتحاداً نادراً بين آنيسـي وشامبيري Annecy et Chambéry قبـل أن تحـل مكانها امرأة أخرى.

بعـد سن الثلاثين، عندمـا أتى ليستقر في باريس، أراد روسو أن يحتل مكانة بين الناس. «التـوق إلى مجتمع مثالي لم يكن بعد المحـرك لوجـوده».[٨] كان روسو يبحث عن العرفان في نظرات الآخرين. لكن عندما تم عرض الأوبرا – الساخرة «عرّاف البلدة Le Devin» أمـام البلاط عام ١٧٥٢م، صرف النظر عن دعوة الملك خشية منه ألا يكون في المستوى المطلـوب... وقبل سنتين من ذلك، كافـأت أكاديمية ديجـون Dijon خطابه حول الفنـون والعلـوم الذي يبرهـن فيه، – وهـو في قلب قرن الأنـوار! – أن العلوم والفنون،لا ترقّي العـادات بل تبعد الإنسان عن الفضيلة ولا تفيـد إلا بإشغاله بترهات كـي ينسى عبوديته. اكتسب بذلك شهرة لم يكن يمتلكهـا بالولادة، لكنهـا جعلته يشعر بالارتيـاح في الصالونات الباريسية.. ويعلن روسـو في الاعترافـات: «لو لم أكـن متأكداً بأنني سأظهـر ليس فقـط بمساوئي، بل بشخصية غـير شخصيتي لأحببت المجتمع مثل أي إنسان آخر».

انتقاله من الموسيقى، موهبته الأولى، إلى الكتابة والفلسفة، وصفه روسو لاحقاً وكأنه نوع من الإلهـام ذي العواقب المشؤومة: «تمّ ضلالي بـدءاً من ذلك الوقـت». وبعد فترة قصـيرة، عندما اختار أن ينعزل في صومعة بعيداً عن باريس، أجج ضده فلاسفة الأنوار الذين لم يفهموه، لأنّهم كانوا يعتبرون أنفسهم ملتزمـين برسالة :وهـي إبـداء شخصية منفتحة وملتزمـة واجتماعية لإقناع الناس بأفكارهم.[٩]

ابتداع عالم مثالي

وبينهم ينفجر روسـو مؤكداً أن بالنسبة إليه «أن يعيش وحيداً في الصحراء لهو أمر أقل قساوة وأقل صعوبة من أن يكون وحيداً بين من هم أمثالـه». فهو لعدم التوصل إلى التفاهم مـع كائنات حقيقيـة كما كتب في اعترافاته، يفضل اللجوء «إلى بلاد وهمية» يخترع «عالماً مثالياً» مسكوناً بكائنات يحبها قلبه. وتجرأ بالإخبار عن منظمة اجتماعية ظالمة باغية، من دون أن يتملق ولا أن يجامل أحـداً على حساب العدالة والحقيقة زاعماً أنه يتبع بشجاعة سبل الاستقامة.

لكن الانتقادات الأكثر حدَّة التي تستمر في عصرنـا حول روسو تستند من دون أدنى شك إلى الفجـوة الكائنة بـين سلوكه وبين أعمالـه. لقد كان هـو نفسه واعيـاً لهذه المفارقـة ويقول محـذراً: «بصـرف النظر عـن القيام بالمهمـة الأكثر إفـادة، سأتجرأ وأحـاول بالطريقة الأكثر سهولة: على غرار الكثيرين غيري، لن أعمل بيدي بل بالريشة؛ وعوضاً من أن أقـوم بعمل ما ينبغي عمله، سأبذل جهدي لقوله».[١٠] كتب حول العيش المشترك في العقـد الاجتماعي ١٧٦٣م لأنه

غير قادر على العيش بين الناس. وبعد أن تخلى عن أطفاله الخمسة الذين رزق بهم من تريز لوفاسور ThérèseLevasseur، كتب الإميل l'Émile، وهو كتاب مخصص للتربية...

من هذا المنظور بدا روسو وكأنه يعطي دروساً وإن لم يكن هو نفسه مثالاً يقتدى به. وهذا لم يمنع عدداً من المفكرين المعاصرين من مباركة القدرة الخلاقة لفكره، وعلى الأخص إدغار موران Edgar Morin: «أحب هذا الجنيفي، العصامي المتعلم الذي كوَّن نفسه، وذا الحساسية الفائقة والذي بعد أن كابد كل أنواع المغامرات، قصد باريس إلى وسط الفلاسفة وأبدى على الفور عمق إلهامه، إلهام كان في آن معاً أديباً وسياسياً وفلسفياً. ثم لم يلبث أن أثار استنكار الفلاسفة الذين استقبلوه في البدء بحفاوة».[11]

أسطورة «البرّي الطيب»

في الخطاب حول أصل وأسس عدم المساواة،[12] يناهض روسو نظريات عصره بالمجمل التي تبرر عدم المساواة بإرجاع ذلك إلى الحق الإلهي (جاك بوسويه Jacques Bossuet) أو إلى الحق الطبيعي. أمَّا توماس هوبز Thomas Hobbes فيعتبر أن الإنسان هو ذئب بالنسبة للإنسان، والدولة القوية هي ضرورية للحفاظ على النظام الاجتماعي.

أمَّا روسو فيعتبر أن الفلاسفة الآخرين قد ضلوا سبيلهم عندما ألصقوا الحاجة والجشع والقمع والرغبة والغطرسة بالإنسان المتوحش بينما هي صفات الإنسان المدني. فيقوم بإجراء تمييز تفريقي أساسي بين «الإنسان بالحالة الطبيعية» و«الإنسان المتوحش»، هذا الإنسان الذي يقارنه بإنسان الكاريبي الذي يعتبره أنه لم يعد بحالته الطبيعية بل أصبح يعيش ضمن شكل اجتماعي. وهو بذلك قد بنى ورسّخ مفهوماً نظرياً وتصوراً خاصاً به.

بغية معرفة ماهية الطبيعة العميقة في الإنسان، تصوَّر روسو حالته الطبيعية السابقة للتمدن وتخيَّل البشر «هائمين في الغابات من دون صناعة ومن دون كلام، من دون مسكن ولا حرب ومن دون علاقة ومن دون أي حاجة لمثيله، وكذلك من دون أية رغبة في إيذائهم أو قتلهم». غير أن «البشر في هذه الحالة التي لا يوجد فيها أية علاقة أخلاقية فيما بينهم ولا واجبات معروفة، لم يستطيعوا أن يكونوا لا صالحين ولا أشراراً ولم يمتلكوا لا مثالب ولا فضائل». فقبل سقوطه، لم يكن الإنسان لا صالحاً ولا شريراً، لأنه وحده وبإمكانه التوصل لسد كل حاجاته. لكن عندما أصبح ضمن مجتمع ظهرت الشرور واللامساواة.

ما هو العقد الاجتماعي؟

«ولد الإنسان حرّاً، وهو مكبل بالحديد في كل مكان»، هذا ما لاحظه جان - جاك روسو في العقد الاجتماعي ١٧٦٢م، وهو في هذا الكتاب يجهد «لإيجاد شكل للتشارك يدافع ويحمي الإنسان الفرد وممتلكات كل مشترك متضامن، بوساطة كل القوة الجماعية، وعبر هذا الشكل يتحد كل فرد مع الجميع مع ذلك لا يخضع إلا لنفسه ويظل حرّاً كما كان في السابق.[١٣]

ويتساءل الفيلسوف حول العيش المشترك، «العقد الاجتماعي» الشهير، بعد أن بيّن في «الخطاب حول اللامساواة ١٧٥٥م» أن أصل اللامساواة سببه سياسي ويكمن في المعاهدات القائمة (والمقبولة) من قبل البشر.

والعقد الاجتماعي كما حدده روسو «ليس عقداً بين الشعب والسلطة، حيث بوساطته قد نفوّض حق القيادة. إنّه عقد فيما بين الشعب نفسه، إرادة تبزغ عن جدل يُدار جماعياً ومنطقياً، وفي نهايته يفوّض الشعب بالتصويت شخصاً أو عدة أشخاص لكنه لا يعطيهم حق التقرير إنّما واجب تطبيق القرارات المتخذة»، وذلك وفق شرح الفيلسوف جان- بول جواري.[١٤] وبذلك يؤكد روسو على مبدأ سيادة الشعب الذي ينبغي أن يخضع لقوانين من صنعه.

لذلك، كل مواطن ينبغي أن يكون باستطاعته تكوين رأيه الخاص متجاوزاً مصالحه ورغباته، والتمييز بين ما يوجّه حياته الفردية وما ينبغي أن يقود المجموع. يميّز روسو إذاً بين إرادة الجميع التي هي حصيلة إرادات فردية والتي تستند أحياناً إلى ملاحظات وذلك على الأخص إلى مصالح وميول كل واحد، عن الإرادة العامة التي تناسب ما ينبغي أن يريده الشعب لو امتلك المعرفة الكاملة لما هو في صالح المجموع. غير أن روسو واع أن هناك شروطاً عديدة منها مستوى معين من إجادة اللغة يضاف إليها المقدرة العقلية والمنطقية، وهاتان المقدرتان ينبغي أن تجتمعا كي تتطابق إرادة الشعب مع الإرادة العامة...

من الإيميل De l'Émile إلى «التربية الحديثة»

كي يطوّر نظرياته حول التربية، ابتدع جان- جاك روسّو ولداً يافعاً خيالياً وهو «إميل Émile» ووصف كل مرحلة من مراحل التربية التي ينبغي أن يتلقاها. معتبراً أن «كل شيء يخرج من أيادي صانع الأمور يكون جيداً أما بين أيدي الإنسان فكل شيء يفسد».(١٥) الفيلسوف، الذي يهتم بـ«فن تكوين البشر»، يخطط لـ«علم روحاني للطفولة»(١٦) طالما يعتبر أن الطفل الذي لا يزال قريباً من الحالة الطبيعية (التي كان

الإنسان فيها سعيداً) ينبغي أن يستمر في هذه الحالة أطول وقت ممكن. ودور التربية من وجهة نظر المهذِّب، أن تعلِّم الطفل كيف يعيش، وأن تجنبه التسرع في أن يصبح بالغاً قبل الأوان. فبرأيه ينبغي ألا نشبعه معارف وأقوال بل أن نعلمه كيف يحكم بنفسه، وأن نتركه يتعلم بتجاربه الخاصة.

مثل هذه الأفكار تولِّد «ثورة كوبرنيكية في التعليم» هذا ما قاله لاحقاً اختصاصي علم النفس السويسري إدوار كلاباريد Édouard Claparède ١٨٧٣-١٩٤٠، أحد روّاد علم التربية. لقد أسس عام ١٩١٢م معهد جان – جاك روسّو في جنيف، المخصص لتكوين المهن التربوية «بعقلية جديدة»، حيث تعلم جان بياجه Jean Piaget ١٨٩٦-١٩٨٠، الذي ألَّف العديد من الكتب حول تنمية ذكاء الطفل.. في فرنسا وفي غيرها من البلدان، أنشأ سيلستان فرينه Célestin Freinet جمعية مدنية للتعليم يحرِّض فيها الأطفال على إنتاج مجلة، وفي روما أسَّست ماريا مونتيسوري Maria Montessori «بيت الأطفال casa de bambini»، والأمريكي البراغماتي جون ديوي John Dewey الاختصاصي في علم النفس الذي نحن مدينون له بالعبارة الشهيرة: «التعلم بالعمل apprendre en faisant». إضافة إلى التربية المركزة على الطفل، الجميع يشيدون بحياة الريف، ويوصون بالعمل اليدوي وبتعدُّد الحِرَف، وحرية الإبداع الفني كما بالتربية الأخلاقية. ينبغي ألا يُترَك الطفل لغرائزه وبمفرده، بل أن يتم تسجيله في منظمة اجتماعية (مبنية على أسلوب تعاوني تكافلي أو بعقد مع البالغين) يكتسب فيها الطفل الاستقلالية وحس المسؤولية في آنٍ معاً.[17]

روسّو، أبو الإثنولوجيا[18]

«لم يكن روسّو يتنبأ بعلم الإثنيات فحسب، بل هو أسَّسه». هذا ما شرحه كلود ليفي- شتراوس Claude Lévi-Strauss في خطاب له في جنيف ألقاه في ٢٨/حزيران ١٩٦٢م، خلال احتفال أقيم لذكرى الفيلسوف.[19] برأيه، قبل قرن من ظهور الإثنولوجيا تصوَّرها روسّو، وأرادها وأعلنها، ووضعها حالاً في مكانها بين العلوم الطبيعية والإنسانية التي كانت قد تشكلت. ووفق ليفي – شتراوس يمكن أن يُعتبَر «الخطاب حول أصل اللامساواة ١٧٥٥م»، وكأنه البحث الأول في الإثنولوجيا العامة لأنه يطرح مسألة العلاقات بين الطبيعة والثقافة.

من وجهة نظر أكثر تجريدية، يميز روسّو بعد ذلك في نص له من المرحلة نفسها، وهو بحث حول أصل اللغات، بين غاية عالم الإثنيات وغاية الكاتب الأخلاقي أو المؤرِّخ:

«عندما نريد أن ندرس البشر، ينبغي أن ننظر إلى أنفسنا؛ أما لدراسة الإنسان، فينبغي أن نتعلم كيف ننظر أبعد من ذلك؛ ينبغي قبل كل شيء ملاحظة الاختلافات بغية اكتشاف الخصائص». بتعبير آخر، عندما نتوجّه لاكتشاف أناس آخرين، وعادات أخرى، نتعلم أن نعرف أنفسنا.. (التعبير حضارة لم يكن موجوداً بعد، لكن فيلسوف القرن الثامن عشر استبقه.

بالنسبة إلى ليفي- شتراوس، «دَيْن عالم الإثنيات تجاه روسّو» يقع أيضاً في خانة «الدعم الأخوي» الذي وفره عندما كشف نفسه من خلال اعترافاته ما يساعد «في التفاهم بشكل أفضل، لا كعقل مفكر تأملي بل كعنصر لا إرادي لتحوّل يحدث من خلاله».

روسو أوّل الساخطين

يصف بعضهم في يومنا هذا روسو بأول الساخطين، وبرأي الأستاذة سيلين سبيكتور[٢٠] Céline Spector إنه وصف مبرّر طالما أن روسّو يعتبر العدالة وكأنها حب الإنسانية، أي حب الشعب الذي يشكل أساس النوع الإنساني.

حتى إنه يذهب إلى الإعلان أن «الشعب يكوّن النوع الإنساني: ما هو ليس من الشعب، هو شيء لا يذكر ولا حاجة لاعتباره». عندما هتف الساخطون: «نحن الـ٩٩٪» وطالبوا بالعدالة، فهم قريبون من سخط روسّو الذي يعتبر أن السياسة تهتم في أغلب الأحيان بالـ١٪.. يكمن معنى الفكرة في أن الديمقراطية ليست نظاماً سياسياً يمنح حقوقاً شكلية، بل نظام ينبغي عليه أن يوفّر حقوقاً ملموسة من دون الانحراف إلى أوليغارشية أو إلى تسلطية الأغنياء.

بالنسبة إلى روسّو لا يوجد حرّية من دون مساواة. لذلك فهو لا يعتبر إنكلترا على أنها مثال الحرية السياسية، رغم أنها كانت في عصره نظاماً تمثيلياً - فيه مجلس العموم منتخب-. بالنسبة إليه هو صورة وهمية للحرية.

خلال الحرب الباردة، نستطيع أن نميّز كتلتين ترميزيتين، من جهة، كتلة الماركسية التي تعتبَر روسّو الأب الروحي للثورة الفرنسية وحقوق الإنسان، وإنْ لم يذهب بعيداً في تفكيره لأنه قارب موضوع الاقتصاد السياسي وفق نموذج الملاكين الريفيين الصغار.

من جهة أخرى: هناك الليبيراليون المناهضون للشمولية، منهم من وضّح فكر روسّو والدور الذي لعبه في الأفكار الشمولية من دون أن نرى رابطاً تاريخياً بين روسّو وستالين، أو بينه وبين هتلر. وبينوا كيف أن الارتهان التام لكل فرد بكل حقوقه لكامل

المتحد يبرز محذور سلطة الدولة المطلقة، أو كيف أن المماثلة يمكن أن تحصل بين وجه المشرّع المكلف بتغيير الطبيعة الإنسانية ووجه الإنسان الجديد.

الانتقاد الثالث الذي وجهوه لروسّو هو أنه وضع نموذجاً سياسياً غير تعددي ولا يعطي مكاناً كافياً للأقليات، ما يوحي بتمثيل باطل للمتحد؛ إن مؤلِّف العقد الاجتماعي يمدح ويستشرف الإجماعية(٣١) ومجانسة العادات وهذا ما تستثنيه الديمقراطية التعددية ومتعددة الثقافة. تغيّر الاتجاه بدءاً من عام ١٩٧٠م عندما قام جون رولز John Rawls برد الاعتبار لروسّو وأعاد دمجه في تاريخ الليبيرالية السياسية بالعودة إلى آلية الإرادة العامة في نظريته المتعلقة بالعدالة.

هل هذا يعني أنّ المناقشة قد انتهت؟

تظل تركة روسّو معقدة وغامضة أحياناً. فإذا اعتبر رولز أنّ مؤلف العقد الاجتماعي يسمح ببناء مجتمع عادل ومستقر تكون فيه المؤسسات مدعومة بدوافع ملائمة، وحيث المساواة هي في خدمة الحرية، فإنّ أعداء رولز النظريين يجدون عند قراءة روسّو نقداً قبل رسالة التعاقد الشكلية أو ليبيرالية تنافسية.. كما أنّ فكر روسّو لا يتيح لنا الإضاءة على العالم المعاصر من دون وساطة:

نجد الفيلسوف ميكائيل سانديل Michael Sandel حريصاً على الحذر من نزعة جمهورية معتبرة قمعية، صماء تجاه الانشقاقات والفتن ولا ترى الاختلافات. ويحذر شارل تايلور(٣٢) Charles Taylor من انحرافات ممكنة لمجتمع لايعترف بحقوق الأقليات.

كان روسو حريصاً على فرض الإرادة العامة، لهذا السبب لم يذهب بسياسة المساواة إلى النهاية أي إلى الاعتراف بالاختلافات. مهما يكن من أمر يبقى روسّو حاضراً بقوة في الجدالات المعاصرة: فمنذ نهاية عام ١٩٧٠م، تستمر الدراسات الأنثوية بنقد روسّو ولا تقتصر فقط على إصدار قرار اتهام ضد ما يوحي به الإيميل l'Émile من التمييز ضد المرأة بل تنتقد «رؤيته العلائقية» في الاستقلالية.

التسلسل التاريخي لأعمال روسّو:

١٧١٢م ولد جان - جاك روسّو ولد في ٢٨ حزيران في جنيف.

١٧٤٢م مقالات حول نوطات جديدة للموسيقى Projet concernant de nouveaux signes pour la musique

١٧٤٣م بحث حول الموسيقى الحديثة
Dissertation sur la musique moderne
١٧٤٤م ربات الفن الأنيقات les Muses galantes(اوبرا)
١٧٤٩م إصدار مقالات في الإنسيكلوبيديا
des articles sur la musique pour l>Encyclopédie
١٧٥٠م الخطاب حول العلوم والفنون (مكافأ بجائزة من أكاديمية ديجون) Discours sur les sciences et les arts
١٧٥١م خطاب حول فضيلة البطل Discours sur la vertu du héros
١٧٥٢م عرّاف القرية Le Devin du village (اوبرا)
١٧٥٢م نارسيس أو عاشق نفسه، (كوميديا) Narcisse ou l'Amant de lui-même
١٧٥٥م نشر الخطاب حول أصل وأسس اللامساواة بين البشر Discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes
١٧٥٥م محاكمة مشروع السلام الدائم للسيد كاهن سان- بيير Jugement du Projet de paix perpétuelle de Monsieur l'Abbé de Saint-Pierre
١٧٥٦م فحص المبدئين المقدمين من رامو Examen de deuxprincipesavancés par M. Rameau
١٧٥٨م رسائل أخلاقية كتبت بين عام ١٧٥٧م وعام ١٧٥٨م، نشرت عام ١٨٨٨م Lettres morales, écrites entre ١٧٥٧ et ١٧٥٨, publication posthume en ١٨٨٨
١٧٥٨م رسالة حول العناية الربّانية Lettresur la providence
١٧٥٨م رسالة إلى المبير حول العروض المسرحية Lettre à d'Alembert sur les spectacles
١٧٦١م جولي أو الإيليوز الجديدة Julie ou la Nouvelle Héloïse
١٧٦٢م إميل، أو في التربية Émile, ou De l'éducation
١٧٦٢م في العقد الاجتماعي Du contrat social
١٧٦٤م رسائل كتبت من الجبل Lettres écrites de la montagne
١٧٦٤م رسائل حول تشريع كورسيكا Lettres sur la législation de la Corse
١٧٦٥م مشروع دستور لكورسيكا Projet de constitution pour la Corse

١٧٦٧م قاموس موسيقي Dictionnaire musical

١٧٧٠م الاعترافات كتبت من عام ١٧٦٥م إلى عام ١٧٧٠م ونشرت بعد وفاته Les Confessions

١٧٧١م تأملات حول حكومة بولونيا Considérations sur le gouvernement de Pologne

١٧٧١م بيغماليون Pygmalion

١٧٧٧م حوارات، روسّو يحاكم جان – جاك Dialogues، Rousseau juge de Jean-Jacques

١٧٧٨م أحلام المتنزه الوحيد Les Rêveries du promeneur solitaire

١٧٨١م بحث حول أصل اللغات (نشر بعد وفاته) Essai sur l'origine des langues

١٧٨١م إميل وصوفي، أو المتوحدان (نشر بعد وفاته، ملحق لـ«إميل») Émile et Sophie، ou les Solitaires publication posthume en la suite de l'Émile ،١٧٨١

الهوامش

١- المصدر: مجلة العلوم الإنسانية العدد ٢٣٨ شهر حزيران ٢٠١٢م- موضوع: كيف تنشأ الأفكار الجديدة؟

٢- جولييت غاليازي Juliette Galeazzi، كاتبة وصحفية أوروبية، محررة في مجلة العلوم الإنسانية وفي العديد غيرها من الصحف.

٣- أحلام المتنزه الوحيد Rêveries du promeneur solitaire ١٧٧٦-١٧٧٨م أعيد نشره عام ٢٠١٢م، فلاماريون réed. Flammarion، coll. GF

٤- دافيد غوتييه، شعور الوجود. البحث غير المكتمل لجان – جاك – روسو، ماركوس آلر، ٢٠١١م David Gauthier، Le Sentiment d'existence. La quêteinachevée de Jean-Jacques Rousseau، Markus Haller

٥- وفق دوني فايك، جان – جاك روسو. المدينة والأشياء، بريفات ٢٠١٢م Denis Faïck، Jean-Jacques Rousseau. La citéet les choses، Privat ودوني فايك أستاذ الفلسفة في جامعة تولوز.

٦- جان – بول جواري، روسو مواطن المستقبل، Jean-Paul Jouary، Rousseau، citoyen du futur، LGF، ٢٠١٢.

٧- جان – جاك روسو، الاعترافات، Jean-Jacques Rousseau، Les Confessions، ١٧٦٥-١٧٧٠، réed. Gallimard، «Folio Classique»، ٢٠٠٩.

٨- د. فايك D. Faïck.

٩- د. فايك D. Faïck.

١٠- جان – جاك روسو إيميل أو في التربية، ١٧٦٢م، فلاماريون Jean-Jacques Rousseau، Émileou De l'éducation، ١٧٦٢، GF» coll. Flammarion»، ٢٠٠٩.

١١- إدغار موران، فلاسفتي، جرمينا Edgar Morin، Mes philosophes، Germina، ٢٠١١.

١٢- جان- جاك روسو، خطاب حول أصل وأسس عدم المساواة بين البشر، ١٧٥٥م، إعادة إصدار، فلاماريون، مجموعة «GF»، ٢٠١٢Jean-Jacques Rousseau، Discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes، ١٧٥٥، réed. Flammarion، coll. «GF»، ٢٠١٢.

١٣- جان- جاك روسو، في العقد الاجتماعي، ١٧٦٢م، إعادة إصدار فلاماريون، Jean-Jacques Rousseau، Du contrat social، ١٧٦٢، «GF، coll. réed. Flammarion»، ٢٠١٢.

١٤- جان- بول جواري روسو، مواطن المستقبل، Jean-Paul Jouary، Rousseau، citoyen du futur، LGF، ٢٠١٢.

١٥- جان- جاك روسّو، إيميل أو في التربية، ١٧٦٢م، إعادة إصدار فلاماريون، Jean-Jacques Rousseau، Émile ou De l'éducation، ١٧٦٢، «GF، coll. réed. Flammarion»، ٢٠٠٩.

١٦- التعبير لـروجيه كوزينة Roger Cousinet مفتش التربية القومية المعروف لوضعه أسلوب عمل حر ضمن مجموعات عام ١٩٢٠م، وهو مؤلف «التربية الحديثة» L'Éducation nouvelle عام ١٩٦٥م، كتاب يسجل فيه نشوء الحركة.

١٧- مارتين فورنييه، قرن التربية الحديثة، العلوم الإنسانية، Martine Fournier، «Un siècle d'éducation nouvelle»، Sciences Humaines، n° ١٠٥، mai ٢٠٠٠.

١٨- علم يبحث أصول السلالات البشرية ethnologie

١٩- كلود ليفي- شتراوس، «روسّو أبو الاثنولوجيا»، بريد اليونيسكو، آذار ١٩٦٣م، Claude Lévi-Strauss، «Rousseau، père de l'ethnologies»، Le Courrier de l'Unesco، mars ١٩٦٣

٢٠- سيلين سبيكتور أستاذة الفلسفة في جامعة بوردو الثالثة، عضو المعهد الجامعي في فرنسا Céline Spector، professeure de philosophie à l'université Bordeaux-III، membre de l'Institut universitaire de France، spécialiste de la philosophie et de l'histoire de la philosophie des Lumières à nos jours، auteure en ٢٠١١ de Au prisme de Rousseau. Usages politiques contemporains، Voltaire Foundation، Oxford University.

٢١- الإجماعية: unanimisme: مدرسة أدبية في القرن العشرين تقوم على أن من واجب الفنان المبتكر أن يعبّر عن الحياة الجماعية. ومن ممثلي هذه المدرسة جول رومان بفرنسا ودوس باسوس بالولايات المتحدة.

٢٢- شارل تايلور مؤلف «التعددية الثقافية»، Charles Taylor، auteur de Multiculturalisme، Aubier، ١٩٩٤..

قبسات من دفتر الأيام

عبد الباقي يوسف ✪

إنَّ سماعك عن شخص ليس واقع الشخص ذاته، إنه مفهوم مَنْ يُسمعك تقييمه لهذا الشخص. المفاهيم في أمر من الأمور تختلف من شخص لآخر، وهذا يأتي على الأخلاق والجمال والحق، فما أسمعك من الأخلاق قد لا يكون كذلك، وما أسمعك من الجمال قد يكون مختلفاً لمقاييس الجمال، وما أسمعك من الحق قد يكون ظلماً. وها هنا فإنَّ معرفة مفهوم سامعك لهذه القيم تبيّن أمامك الحقائق وفق مفهومك.

تعلّم كيف تعفو.. تعلّم كيف تصفح. وكما أنك تطلب العفو، عليك أن تكون عفواً بالناس. وكما أنك تطلب أن يُحسن إليك، عليك أن تكون محسناً للناس.

✪ أديب وناقد وقاص.

إنك ترتقي في درجات إنسانيتك كلّما تنمّي طاقة التسامح لديك.

● ● ●

دوماً تجنب الانفعال المباشر مع الأحداث المباشرة، الحياة ليست حدثاً واحداً، إنَّها سلسلة أحداث، ما أبكاك اليوم قد يضحكك غداً، وما أضحكك البارحة قد يبكيك اليوم.

لا تتخذ القرارات إلا بعد أن تنطفئ النيران وتصفو السماء وتتضح الرؤية.

● ● ●

كن دائم السعي لتطوير طاقة الشجاعة لديك لتعفو عن نفسك وتحسن إليك. ليست الشجاعة أن توجه العقاب لنفسك، ولكن الشجاعة هي مدى مقدرتك على الصفح

عن نفسك والاجتناب من السقوط في حفرة مرتين.

لم يكن شجاعاً ذاك الذي وجه عقاباً لنفسه وآثر الانسحاب في مواجهة الحياة، الشجاعة.. كل الشجاعة تكمن في مدى قوة الصمود والمقاومة حتى آخر نبض.

● ● ●

وأنت تغرس الورد في تربة الأرض، تعلّم كيف تغرسها في تربة النفوس كذلك.

كما أنّ تربة الأرض تحتاج إلى فلاحة وبذور وسقاية وهواء نقي حتى تهب الزهور والثمار الطيبة، كذلك هي تربة نفوس أولئك الذين تراهم كل يوم. دوماً عليك أن تحمل معولاً، وبذوراً، ومطراً، وهواء نقياً.

● ● ●

جئتَ إلى الحياة لتعيشها، لا لأن تمر بها مروراً عابراً. تعلّم دوماً كيف تعطي.. تعلّم كيف تدرّب نفسك على تذوّق متعة العطاء.

عندما تقدّم زهوراً للآخر، فإنّه أيضاً قد يقدمها للآخر، وكلما أعطيته زهوراً فإنك تدربه على أن يقدّمها حتى يأتي يوم فيقدمها. وعندما لا تقدّم إليه زهوراً فإنّه لا يقدّمها لأحد، ولا يتدرب كيف سيقدمها في يوم ما.

إن مقدرتك على غرس وردة واحدة في نفس إنسان، قد تدفعه إلى غرس وردة في نفس إنسان آخر، وكان قبل ذلك يغرس الأشواك. خُلِقَ الإنسان وهو يتأثر بفعل إنسان آخر. يقال: «الصاحب ساحب» لأنه يسحب إلى حدائق الورود، أو إلى أودية الأشواك.

● ● ●

ثمة أناس يبتغون أن يسري كل شيء وفق مشيئتهم: ألا يجوعوا، ألا يبردوا، ألا يمرضوا، ألا يحزنوا. وأن يؤيدهم الناس كافة من مختلف شتاتهم.

عجب أمر هؤلاء، فإن تحقق لهم كل هذا فلأي شيء سوف يعيشون.

إنّ ضرورة الحزن والسقام والجوع بالنسبة للإنسان في حضن الحياة هي كضرورة قرّ الشتاء، وحر الصيف، وسقوط أوراق الخريف بالنسبة للربيع في حضن الطبيعة.

علينا أن نتذكر دوماً أنّ الطعام الطيب يستمد طيبه على قدر مافيه من حمض وملح وحاد وحلو ومر. علينا أن نتذكر أن الورود هي ورود على قدر ما توخزها أشواكها وهي لاتكف من تقديم رحيقها لهذه الأشواك التي لاتكف عن وخزها كل ربيع.

● ● ●

دوماً علينا أن نسعى لإصلاح الواقع، لإصلاح السلوكيات السلبية التي تعشعش في نسيج هذا الواقع، وعلى قدر ما يحالفنا

النجـاح في مهمتنا يأتي إصـلاح أبناء هذا الواقع تلقائياً ومتساوياً لخطواتنا.

• • •

الحـب هو شعـور ذاتي بالإشـراق نحو شخص آخر، وليـس القلب وحده هو الذي يحـب، ولا النظر وحده، ولا النفس وحدها . يسري الحب في شريان كل ذرة من الجسد والروح فتشرق الذرات لرؤية الذرات ويبدو المحبان لحظة اللقـاء يسبحان في فلك من نور الحب حتى لوكانا في زنزانة مظلمة.

• • •

لاشيء يبرر الاستسـلام لليأس حتى لو تآمر العالم كلـه ضدك، وأغلقت كل الأبواب أمام خطواتك، عليـك أن تصنع شيئاً نافعاً تقدمـه للعالم، وعندها فقـط تشعر بقوتك العظمـى في مواجهـة الهزيمـة، وهذا هو الانتصار بعينه.

- دومـاً عليك أن تبحث عن فعل بطولي تقـوم به، لقد جئت إلى الحياة لتكون بطلاً، وعندمـا تحقق هـذه البطولـة ستكون قد حققـت جدارتك بالحياة التـي وُهبتْ لك. ليست البطولة أن تقدم الزهور لأولئك الذين يقدمون لـك الزهور، البطولة هي تقديمك الزهور لأولئك الذين يقذفونك بالأشواك .

• • •

ليس هناك مـن يتذوق لذة الطرب أكثر مـن ذاك الصوت المعذب الـذي يشدو من شـدة الألم، يبلـغ بروحه الشـدو باباً يفقد فيـه أي إحساس بحجم ذاك الألم، وفي ذات اللحظة تهب على روحه نسمات نشوة غامرة لم تهب على مخلوق من قبله. إن أولئك الذين لاتحترق حواسهـم في جحيم المعاناة، لاتبلغ أنامـل أرواحهم البتة أوتـار النشوة الكبرى لتعزف عليها، تلـك النشوة التي تدفق بكل قوتهـا موازية لقوة النـيران التي يحترقون بها.

• • •

خلق الله لـك لساناً واحـداً وخلق لك أذنـين اثنين وجعل اللسـان خلف بابين، ولم يجعـل الأذنين خلف شيء وذلك حتى تسمع أكـثر مما تتحدث لأنَّ السمع هو أكثر فائدة من النطق، فإن أردت النطق احتجت إلى فتح بـاب الأسنان، وفتح باب الشفتين، وتحريك اللسان، واستخدام الصوت والاستعانة بأكثر أوتار الجملة العصبية حساسية، وبشيء من التركيـز والحدة قد تستعين بيديك وعينيك وحاجبيك ورأسك، وهذا كله يسبب الإرهاق لـك، فيتفصـد العرق من كامـل جسدك، ويختـل قلبك في نبضـه . أمّا وأنت تسمع، فلا تحتاج لأي جهد ويمكن أن تدخل بكامل حواسك حالة استرخائية من الإصغاء تنتهي بك إلى غفوة لم تدرك لذتها في ألف نوم.

• • •

أحيانـاً نصرّ على البحـث عن أمر غير موجود على الإطلاق في الإنسان، لأن وجود هذا الأمر يُحدث خللاً في كوننا أحياء نعيش في قلب الحياة. فنريـد زوجة كاملة، وولداً كاملاً، وصديقاً كامـلاً. وننسى أن الإنسان الكامـل لم يخلقه الله حتـى لنفسه ليعبده بصـورة كاملة، لأن خلق مثـل هذا الإنسان لا يلـزم أن يكون له وجـود في الحياة، كما أن الإنسان ذاتـه ليس بحاجة لكمال كهذا. تشرق الحياة وتمارس ذروة حيويتها كلما تعلّم إنسانها شيئاً جديداً لم يكن يعلمه، كلما يفتح عينيه ليرى شيئاً لم يكن رآه. فيتدرج الإنسان في درجـات الكمال ودرجـات الشروق على الحياة على سلـم درجات قربه من الإنسان ومـن نفسه ومـن ظاهرة الحيـاة برمتها، وهـو ذاته بالمقابل يمنح للحياة معنى وقيمة لتنفتـح وتشرق وتحقـق ديمومتها وشروقها من خلاله. إنَّ عظمة الإنسان المتميز تكمن هنـا في مـدى مقدرته علـى الانسجام مع حالـة اللاكمال هذه التي فطر عليها وفطر عليها الآخـرون وتوجيه هـذه الحالة نحو أعلى مراحل التطـور بدل المحاولة اليائسة لاقتلاعها من فطـرة الإنسان، لأن الإنسان ذاته عند ذاك سُيقتلَع معها.

• • •

دومـاً ثمة متسـع من وقـت كاف لكل ماينبغي أن نقوم به، ثمة وقت يكفي لممارسة طقوس الأسرار، وقت لممارسة الحب، وقت لعلاقات اجتماعية، وقـت لنزهات وسفر، وقـت لتأمـل وعمل، وقـت لنـوم وسماع موسيقـى، على الرغم مـن كل ذلك يتبقى متسع من وقت للفراغ لانجد ما نفعل فيه.

يكمن دورنا في مدى مقدرتنا على النجاح في أن نجعـل أعمارنـا غنية بهـذا الوقت، ونجعل هذا الوقت غنياً بأعمارنا.

• • •

ثمـة أمـور في الحياة يحتـاج تحقيقها إلى تـأنٍ وانتظار أكثر مما يحتاج إلى سرعة وعُجالـة. فأنت لاتحتـاج إلى عجالة حتى تنمو مدركاتـك وتكتمل قـدر حاجتك إلى التمهـل، ولاتحتـاج إلى عجالة حتى ترتقي في أجناس المعرفة قدر حاجتك إلى التأني. واعلـم بأنَّ الإنسان لم يكن يحتاج إلى عجالة حتى يبلغ ثورة التقنيات الكبرى قدر حاجته إلى الوقت، وأن كل تلـك الأحقاب البشرية الغابرة لم تكـن خالية من عباقـرة وأذكياء وعظمـاء، وأن حفـدة الحفـدة ليسوا أكثر عبقريـة وذكاء وعظمة من الأجداد أولئك. كن دائم الانتظار لتحقيق آمالك الكبرى، إنها لاتحتاج منك غير الإخلاص في السعي إليها والانتظار حتى تأخذ وقتها المناسب لتبلغك مكتملة في سطوعها ورسوخها وقوتها.

• • •

عندمـا يقـدّم الإنسـان عمـلاً طيباً، لايقدمه إلا وقد فتـح عينيه جيداً على أنه إنسان وعندمـا يقدّم عملاً خبيثاً، لايقدمه إلا وقد أغلق عينيه جيداً عن كونه إنساناً.

– ثمة أناس يحرصون كل الحرص على أن يستمـروا في عمل الخـير حتى ينضجوا فيه تمام النضـج، وثمة أناس يحرصون كل الحرص علـى أن يستمـروا في عمل الشر حتى ينضجوا فيه تمام النضج.

● ● ●

تكمن روح الطبيعـة في أنَّ أي فعل غير طبيعي تقوم به، يعكس على مكنوناتك ثورة رد فعل غير طبيعي، وعليك أن تحتمل هذه الثورة كما احتملت طبيعتك الطبيعية فعلك اللاطبيعي.

إنَّ ثـورة اللاطبيعة نائمة لايقظها غير فعل لاطبيعي تقوم بـه فتنتفض من نومها العميق وتثور على صفـاء طبيعتك الساكنة ولاتعود إلى نومها قبل أن تعود إلى طبيعتك أو أن تعيـدك إلى طبيعتك بالقوة، وإن كنت عنيداً سوف تحيلك إلى كائن لاطبيعي يعيش حياة لاطبيعية وتبقـى يقظة لايدركها نوم، كما أنك تبقى يقظاً لايدركك نوم.

● ● ●

الداء لايتحـول إلى دواء، إنه في أفضل أحواله مزيد من الداء، دوماً عليك أن تكون دائـم البحث عـن دواء لدائك، وإن لم تجده فـإن صبرك الطويل يتحول مـع الزمن إلى دواء.

● ● ●

مادامـت الشمس تشرق كل يـوم فإنها سـوف تحمل إليك جديداً لم تكن قد أدركته قط حتى لوكنت في ظلمة كهف.

● ● ●

كل حاضـر قابل لأن يتحول ذات حاضر إلى ماض، ما هو غـير قابل لأن يتحول إلى ماض لم يكن له حاضر ذات حاضر.

يكون الخريف شديد هبوب الرياح التي لا تدع ورقة على غصن شجرة إلا وتطرحها أرضاً وتدفع بها علـى شكل ركام إلى حيث الأوديـة والأنهار ،عاهـدة الشجرة في ذات الحين بثوب عيـدي مزركش جديد لم تر له مثيلاً في اي عيد مضى، هامسة بأنها سوف تخلـع عنها ثوب السنـة الماضية الذي غدا بالياً واكتظ بالغبار.

ثـم يهمس لهـا أن الشتاء ينتظر ليقدم بعـد ذلـك ويغسل سائـر بدنهـا، والربيع منهمك الآن بحياكة ثوبهـا المزركش الأنيق الذي يليق بقوامها المشوق، ويجعلها عروساً متجددة تستقطب بحلتها أنظار وحواس كل مـار بجوارها من أنس، وجن، وطير، ودابة، ونبات، وجماد.

يهتف الخريـف لها بحنان إنه في عجلة من أمـره لأن الشتاء والربيـع ينتظران كي

يكرماها، وعليهـا أن تتشجع وتتجاوب كي يحتفيا بها، فتخلع الشجرة بحياء شديد آخر ما تبقى على بدنها مـن قطع ثياب داخلية قطعة قطعة حتى تلبث بكامل عريها وتخلع آخر قطعة ثوب.

تسلّم عريهـا بخجل وتردد عذراء أمانة لأنامل الأمينـة الذي ما يلبث أن يسلّمها للشتـاء الـذي يتسلّمهـا ويشـرع في غسل بدنهـا عضواً عضواً بفيضـ مطره الغزير حتى ينظّـف عنها آخر ذرة غبـار، فيرسل آنئـذ الربيع زخات خفيفة مـن رذاذه حتى يتخلّص الجسد من آثار الغبار، ثم ما يلبث أن يرسل نفحـات دافئة من خصلات شعر شمسـه، فتتشّف أعضاءهـا عضواً عضواً بـدفء، ثم ما لبث الربيـع آنئذ أن يبدأ في ارتدائها الثيـاب التي حاكهـا على فصّال جسدها قطعة قطعة، بادئاً بالقطع الداخلية الصغـيرة، ومنتهياً بآخر لمسـات الزينة من أسـاور، وحلق، وخواتم، وعقـود الجواهر، واللآلـئ الثمينة، ثم يرشـ عليها نفحة من عطره.

تأخذ الشجـرة المباركة أوج حلّة زينتها، وتستـوي شامخة في عرش مقامها، فلا ترى البلابل موضعـاً أكثر جمالاً وقدراً منها كي تقضي فيه أيام شهـر عسلها، فتتهافت إلى ربوعها الخلاّبة من كل صوب وحدب أزواجاً أزواجاً.. فرادة فـرادة، فتبني لها أعشاشاً، وتتـزاوج، ويطول بها المقام حتى تفرخ في شدو، وزغاريد، وغزل، ومشاكسات، وحالات حب جديدة بين الجوار، حيث تفرّ عصفورة عاشقـة تحت جنح رعشات سكون الليل إلى شجرة جارتهـا، ويفرّ عصفـورٌ عاشق إلى شجـرة جارتـه، يلتقيان خلسـة على حافة غصـن خفي، يبث أحدهمـا شوقه ولواعج حنينه للآخر بحراسة مشدّدة من وردة.

يمرّ المارّ، فلا يكون له إلاّ أن يقف ليمتّع بصـره بالنظر الذي يشرح له صدره، ويرفع عنـه وزره، وهو يسبّح فالـق الإصباح على سحر هيأتها، وكمال بهائها، ونضوج ثمرها، وطيب ريحها، وعذوبة سكّاتها.

• • •

في الصبـاح استفاقت زينـب من النوم بنشاط وهي تـدرك أنها اليوم سوف تخرج مع أمها إلى سوق المدينة كي تشتري لها ثياب العيد الذي سوف يحل بعد يومين.

بعد تنـاول الطعام راحـت أمها تلبسها ثياب الخروج، فقالـت زينب في أثناء ذلك: كم هو العيد جميل يا ماما.

قالـت أمهـا: مـاذا تحبـين في العيد يازينب؟

قالـت: أحـب ثيـاب العيـد الجديدة، وتقـديم سكاكر العيد للأطفال الذين يأتون لمعايدتنا، وزيارة الأقرباء.

قبلتهـا أمها، ثم أمسكت بيدها وخرجتا

إلى حيث موقف الباص الذي أخذهما إلى حيث سوق المدينة.

كان السوق مزدحماً بالناس والسيارات، والمحال مزيّنة بهذه المناسبة.

أخذت زينب تمشي بفرح عارم ويدها بيد أمها كأنها فراشة وليدة للتو في قلب الربيع، تنظر إلى المحلات العامرة بالثياب الجديدة، وألعاب الأطفال من دون أن تترك يد أمها.

فجأة وقعتْ نظراتها على رجل يقف أمام محل، ويقذف عقب سيجارته على الأرض.

اعتراها إحساس مفاجئ بأنَّ المدينة تحوّلت إلى بيت صغير، هو بيتها.

تسمّرت بها قدماها في الأرض، نظرتْ إليها أمها مستفسرة عن سبب وقوفها المفاجئ؟!

تقدّمت زينب نحو عقب السيجارة المرمي على الأرض ويدها ماتزال بيد أمها.

مالت إلى العقب وحملته باليد الأخرى، ثم اتجهت صوب حاوية صغيرة موضوعة على الرصيف، ورمته في الحاوية.

ابتسمت أمها لما قامت به، وأكملت بها المسير بحثاً عن الثياب.

في هذه الأثناء كان الرجل الذي مايزال واقفاً أمام المحل ذاته، يشعر بشيء من الخطأ الذي ارتكبه عندما رمى عقب السيجارة على الأرض، وقد رأى ما قامت زينب به نحو العقب.

أحس الرجل بأنه ارتكب ذنباً ما كان عليه أن يرتكبه، وللحظة اعتراه شعور بأن المدينة ليست له وحده، بل هي لكل أولئك الذين يقيمون فيها.

مضى الرجل محاولاً اللحاق بزينب وهو ينادي وسط الزحام: مهلاً يا بنتي.

التفتت زينب وإذا بنظراتها تقع على الرجل ذاته الذي بدا بالقرب منها.

قال الرجل موجهاً كلامه لأم زينب: أرجو أن تسمحي لي ياسيدتي أن أبلغكِ تقديري على هذه التربية.

شكرته الأم على ذلك، فقال الرجل موجهاً كلامه إلى زينب:

أشكرك يابنتي، ثم بعد صمت أردف يقول: أعدك بأنني سوف أقلع عن عادة التدخين بعد اليوم.

في تلك اللحظة، أخرج علبة السجائر من جيبه، ومضى نحو الحاوية ذاتها ورمى العلبة فيها، ثم مضى في الزحمة حتى توارى عن أنظارهما.

عندئذ مالت أم زينب وقبلتها قائلة لها: أنا فخورة بك يازينب، وراحا يكملان مشوارهما للبحث عن ثياب العيد.

● ● ●

لا نحتاج إلى شيء قدر حاجتنا إلى روح الحكمة، كل خلاف يمكن علاجه بالحكمة، كل بغضاء يمكن علاجها بالحكمة.

عندما يدخل العنف من الباب، تخرج الحكمة من النافذة.

عندما تدخل الحكمة من النافذة، يخرج العنف من الباب.

الحب، لا شيء لنا غير الحب، لا سلاح لنا غير سلاح الحب.

لا قوة لنا سوى قوة الحب، لا حصانة لنا سوى حصانة الحب،

لا منعة لنا سوى منعة الحب، لا رصيد لنا سوى رصيد الحب، لا مستقبل لنا سوى مستقبل الحب.

الحب الذي يمدّ قلوبنا بطاقة التسامح ويجعلنا أكثر قرباً من بعضنا البعض، أكثر استيعاباً لبعضنا البعض، أكثر انفتاحاً على بعضنا البعض.

دوماً عليك أن تسأل نفسك: مَنْ أنا لأعاقب غيري؟

عليك أن تعاقب نفسك لمجرد أنك فكرت أن توجه عقاباً لغيرك، ثم تقول: يمكنني أن أصفح عن غيري.

عليك أن تكافئ نفسك لمجرد أنك فكرت أن تصفح عن غيرك، لن يكون بوسعك أن تكون إنساناً، لن تفوح رائحة الإنسان منك إلا إذا أنس الإنسان إليك، إلا إذا استكان الإنسان إليك، إلاّ إذا أمن الإنسان إليك بماله وسره وناموسه.

● ● ●

إن لم يبك الطفل كثيراً وهو صغير، سوف يبكي كثيراً وهو كبير.

إن لم يعبث كثيراً وهو صغير، سوف يعبث كثيراً وهو كبير.

إن لم يثرثر كثيراً وهو صغير، سوف يثرثر كثيراً وهو كبير.

إن لم يتصوّب كثيراً وهو صغير، سوف يتصوب كثيراً وهو كبير.

● ● ●

عندما لا ترى عيناك أطفالاً في غمرة احتفالهم بالعيد، فإن ذاك العيد لا يكون عيداً بالنسبة إليك، عندما لا ترى أطفالاً في بيتك يبتهجون ببهجة العيد، فإن ذاك العيد يكون منطفئ بهجة العيد، يكون منطفئ رونق العيد.

لذلك يلجأ الناس إلى الأماكن المكتظة بالأطفال الذين يعيشون ويتفاعلون مع ذروة مشاعر استقبال العيد، يترددون إلى تلك الأماكن كي يتذوقوا نكهة عسل العيد في عيون وضحكات الأطفال.

● ● ●

صفحة قراءة هي أثمن كنز يمكن للمرء أن يقدمه لنفسه.

غريب أمر الناس يبحثون عن أدوية لأمراضهم النفسية والكتاب في ظهرانيهم

عندما يقبل المرء على صفحة قراءة، فإنّ كل عضو فيه يوقره بتحية سلام

يمكن للنفس أن تغفر لصاحبها أي إثم، لكنها لا تغفر له إثم حرمانها نعمة القراءة.

هناك طاقات في الإنسان لا تتفتح إلا عندما يكون في محراب قراءة تدبرية.

لا أحد يستحق شفقة الناس أجمعين قدر شخص لا يقرأ.

لو كان للنفس أن تقاضي أحداً، لقاضت صاحبها الذي حال بينها وبين ارتقائها في مكرمات القراءة.

• • •

يفقد الإنسان من دون عائلة جوانب مثيرة غاية في الأهمية من المزايا الإنسانية التي تجعله أكثر توازناً وخبرة وإتساعاً في أفقه وبعداً للنظر في خضم حياة بالغة الجدية والألق.

إنها روح المسؤولية التي تجنب الإنسان مشاعر العدمية واللا انتماء والفوضى الروحية العارمة.

عندما يرى صبية، يتذكر ابنته الصبية.

عندما يرى صبياً، يتذكر ابنه الصبي.

عندما يرى زوجة، يتذكر زوجته.

عندما يرى أباً، يتذكر أبوته.

عندما يرى محفظة مرمية على الأرض، يتذكر محفظته التي تتعلق عليها آمال عائلة كاملة.

على هذا النحو العائلي الذي أحدثه الزواج، يختلف هذا الشخص عن شخص آخر عندما يرى صبية، ولا تكون لديه صبية.

عندما يرى صبياً، ولا يكون لديه صبي.

عندما يرى زوجة، ولا تكون لديه زوجة.

عندما يرى أباً، ولم ينتعش بمشاعر أبوية.

عندما يرى محفظة مرمية على الأرض، ولا يتذكر محفظته التي تتعلق عليها آمال عائلة كاملة.

عندئذ يداهمهُ إحساس بأنّ حاله من دون عائلة كحال نهر ساكن من دون جداول تتفرع عنه.

• • •

اللمسات الجمالية هبة يتمتع بها أناس من دون غيرهم، وهي لمسات إكرامية منها ما تكون ظاهرة، ومنها ما تكون باطنة.

والجمال قيمة حقيقية يمكن أن يظهر على الإنسان، والحيوان، والنبات والجماد، بيد أن جمال الإنسان يتميّز بأنه أكثر تأثيراً، وأكثر قيمة ذلك لأن الإنسان ذاته أكثر تأثيراً، وأكثر قيمة.

يمكن للإنسان أن يرسل الجمال من دون أن يتلقاه.

يمكن له أن يرسله من دون أن يتذوّقه.

كما يمكن له أن يرسله ويتلقاه في اللحظة ذاتها التي يأخذ فيها الجمال ذروة تألقه، وهو يوّحد الذرات بالذرات، يوّحد دفق المشاعر بدفق المشاعر، يوحد لذة النظرات بلذة النظرات، فيتعمّد الشخصان بذرات هذا التوّحد.

• • •

الحب بمقدوره أن يجعل من الألم نشيداً للفرح، ومن الخريف ربيعاً متفجراً، لاشيء بمقدوره أن يقف في وجه الحب إذا وقع في قلبين.

يستطيع أن يحيل أوقاتاً باردة إلى أوقات تنبض بكل ذرة من ذرات الحياة، يستطيع أن يتغلب على أي شعور من مشاعر اليأس.

تأتي امرأة واحدة من بين ملايين النساء، تولد امرأة واحدة بين ملايين النساء لتؤكد لرجل بأنها تخبئ عالماً، إنها تستطيع أن تنفخ في عالم جديد يظهر لأول مرة، كل حرف من حروف اسمها يضيء في وجه.. عندما يكتب اسمها تورق أصابعه.. عندما ينظر في وجهها تشتعل مصابيح الكون في عينيه.

الحب لا ينطفئ في ضمير الإنسان..

ومتى ما انطفأ الحب في ضميره، انطفأ الإنسان في ضميره.

بالحب يتذوق الإنسان الموسيقى وبه يكتشف ملامح الجمال وبه يميل إلى تحقيق العدل، لأنَّ قوة الحب هي ذاتها قوة العدل، وهي ذاتها قوة الخير في الذات الإنسانية.

الحب هو الذي يفجّر طاقات الإنسان نحو الخير والبناء، إنه قوة جبارة ضد التنازلات الكبرى ضد السقوط الذريع الذي يتعذر النهوض بعده.

من الحب تولد زهور النزاهة البشرية وزهور الصفاء وإمكانية الاستمتاع بقيم الإنسان والطبيعة في علاقة صفاء أبدية بين الإنسان والطبيعة، بين الإنسان والإنسان.

الحب هنا يبني الإنسان ويدفعه إلى الامتلاء بالحياة ولأن يكون صاحب قضية وصاحب موقف، هي قضية النزاهة البشرية، وهو موقف الصدق البشري تجاه النفس وتجاه الآخرين وتجاه الله.

إنه يبني العلاقات الكبرى مع الأرواح الحية والدماء الزكية الطاهرة.

الحب هو بيت الإنسانية الكبير الذي يتسع لكل عشاق العالم.

• • •

ما يهم هنا هو استشارة حواس العقل في كل فعل تود القيام به،

في كل فكرة تشاء أن تتأمل معالمها،

في كل معرفة ترغب أن تبلغها،
في كل كلمة تنظر في قولها.
كثير من الأفعال لا تلزمك.
كثير من الأفكار لا جدوى منها.
كثير من المعارف لا أهمية لها.
كثير من الكلمات تكون في غير موضعها.
ليس مطلوباً منك أن تفعل كل شيء.
ليس مطلوباً منك أن تبحر في معالم كل الأفكار.
ليس مطلوباً منك أن تبلغ كل المعارف.
ليس مطلوباً منك أن تقول كل الكلمات.
ما يهم أن تدرك أبعاد قدرتك المحدودة في الأفعال، في التأمل، في المعرفة، في الكلام.
كل فعل مقترن بزمنه.
كل فكرة مقترنة بوقتها.
كل معرفة مجدية في أوانها.
كل كلمة تغتني في موضعها.
دوماً تتأنى بما تود القيام به.
تتأنى بما تريد التأمل فيه.
تتأنى بما ترغب في معرفته.
تتأنى بكلمة تنظر في قولها.
تحت ظلال هذه الشجرة تكمن معالم التركيز التي تمكّنك من جمالية الإرسال والتلقي بمزيد من تؤدة، بمزيد من جدوى، بمزيد من رحابة.

وهنا تدرك أن روح الفضيلة تكمن قدر تمكّنك من العطاء،
تدرك أنك ترتقي في درجات الفضيلة كلما كانت مساحة العطاء لديك أغنى من مساحة الأخذ.

• • •

عشرون سنة مضت على شراكتهما في هذا المحل الذي اتخذاه لشراء وبيع القمح والشعير.

في بدء موسم الحصاد يضطر بعض المزارعين إلى بيع أكياس متفرقة من المحصول لأجل تغطية نفقات الحصاد، وكذلك الأمر بالنسبة لمن تصيبه بضعة أكياس من القمح سواء عن طريق الزكاة، أو عن طريق العمل برفقة الحصادة، أو كحصة صغيرة لاتستحق الشحن والبيع بشكل رسمي.

وكما أن هؤلاء يحضرون إلى المكاتب الشعبية الصغيرة في بدء الحصاد، فإنهم يحضرون إلى المكاتب ذاتها عند بذر الأرض لشراء البزور عندما يصعب الحصول عليها من المؤسسات الحكومية بشكل رسمي، كذلك يأتي بعض الناس لشراء أكياس متفرقة لاتخاذها مونة للبيت مثل البرغل، والشعيرية، والسميد، والدقيق، كما يلجأ مربو المواشي في الحالات الاضطرارية عند انعدام العلف في مؤسسات الأعلاف،

فيشترون الشعير لمواشيهم خاصة في بدء فصل الشتاء.

إنَّه عمل مستمر على مدار السنة يدر أرباحاً جيدة عليهما، وكل سنة يزدادان ربحاً، ويصرّان على التمسك بعضهما ببعض.

مع الأيام الأولى لاحظا ظاهرة غريبة في المحل، وهي أن أفواجاً من النمل بدأت تتسرب إلى المحل المكتظ بأكياس الحبوب، لكن بدل أن تسحب الحبوب إلى الخارج، فإنها تأتي حاملة حبوباً وتضعها في الداخل بحيث تتراكم كميات هائلة من الحبوب بين فترة وأخرى داخل المحل.

عند ذاك حاول الشريكان وضع حد للنمل على الرغم من أنه لايؤذيهما، بل بين فترة وأخرى يجمعان هذه الحبوب في أكياس ويبيعانها بالكيلو لبعض الناس، وأحياناً يتصدقان بها لبعض الفقراء، بيد أنهما لم يفلحا في منع النمل على الرغم من رش المبيدات، لكن النمل كان يغيّر مساره حتى يجد منفذاً للدخول، عندئذ قال الناس لهما: إنَّه نمل مبارك يأتي ليبارك لكما شراكتكما.

وبلغا قناعة بأن هذا النمل هو دليل خير وبركة، فلبث الأمر على ما هو عليه، بل اعتادا على وجود النمل كل يوم وكأنه طقس يومي لابد من رؤيته.

كانا يعرفان أن الصدق هو أساس نجاحهما وثرائهما الذي نبع من هذا المحل الذي استأجراه أوّل الأمر لمدة سنتين، وبعد ذلك تمكنا من شراء ملكيته، ثم بعد ثلاث سنوات أخرى مع تحسّن العمل وشعورهما بأن المحل على الرغم من سعته بعض الشيء أصبح يضيق بأكياس الحبوب، اشتريا قطعة الأرض الملاصقة له من الخلف التي تبلغ ألف متر مربع وجعلاها مخزناً تابعاً للمحل يجمعان فيه ما يتراكم لديهما من أكياس القمح والشعير خاصة في بدء موسم الحصاد، وكذلك يضعان فيه كميات هائلة من الأكياس الفارغة لبيعها إلى المزارعين في هذا الحي الشعبي المجاور للمدينة.

لدى فراغ المحل من القمح والشعير واستخدامه كمكتب مراجعات وحسابات فقط، رأى الشريكان أنَّ النمل أيضاً وجد له منفذاً إلى حيث المخزن.

عندئذ ازدادا قناعة بأنَّ وجود هذا النمل وبهذه الطريقة غير المعتادة إنما هي دليل بركة على شراكتهما.

عشرون سنة من العمل المتواصل المخلص حتى بات أحدهما لايُعرف إلا بالآخر، كأنهما توءمان، حتى اعتاد الناس أن يروهما معاً في المناسبات الاجتماعية صغيرها وكبيرها، أفراحها وأحزانها.

أما عندما يكون بارع في مكان ويصدف أنَّ شريكه لم يتمكن من الحضور معه في

الوقت ذاتــه، وأنه على وشك الوصول، فإنه يُسأل بشـكـل اعتيادي وتلقائـي عن غياب شريكه برهوم.

- كيف الحال يابارع؟
- أحمد الله على النعمة
- يهز السائل رأســه مستغرباً: وأين برهوم، خير إن شاء الله؟!

عندئذ يشرح له سبب تأخره.

مع هذه الوقائع تبـيّن لهما أن أحدهما احتـل موقعاً هامـاً لدى الآخـر، إنهما لا يُســألان عن أخوتهما بقدر مـا يُسألان عن بعضهما البعض.

مع تقدم السنوات بات يُضرب بهما المثل في كل أنحـاء المدينة، وكذلـك يُضرب المثل بتصرف النمل حتى إنَّ البعض لايكاد يصدِّق ما يسمع، فيأتي ليتأكد كيف أن النمل يخرج من المخزن فارغاً، ويعود إليه محملاً بحبات القمح والشعير، يلتقطه من الطرقات، ومن جوف الأرض، ويأتي به إلى المخزن.

وعندمـا يقـرر أحد أن يُشـارك أحداً يقول له الناس: إنشاء الله مثل شراكة بارع، وبرهوم ويرزقكما الله بمثل نملهما.

وعلـى الأغلب فإن النـاس يقولون عن شراكتهما: الشراكة المباركة.

أمام هذه العلاقـة الروحية في الشراكة قـررا عدم الانفصـال عـن بعضهما على الرغم من الثراء الجيـد الذي باتا يتمتعان به، فكل واحد اشترى عدة محال تجارية في المدينــة، من دون أن يفكــرا بالانفصال عن بعضهما ولو ليوم واحد.

وعندما يلمح شخص عن سبب بقائهما معـاً يقـولان ضاحكَـين: ومَـن يضمن لنا استمـرار البركة في عملنـا إذا انفصلنا، ثم يضيفـان: حتى النمل يبارك لنـا شراكتنا، منذ عشرين سنة ألفنا هذا النمل الذي ألفنا هو الآخر.

اليوم عندما قدم بارع صباحاً إلى المحل، فوجـئ بأمر غريب جعل غصـة ترتفع إلى حنجرته.

توقـف ليتأكد من الأمر، عسى أن يكون العيب في نظره، فـرأى النمل بالفعل ولأول مرة منذ عشريـن سنة، يخـرج من المحل حاملاً حبات القمح والشعير، يخرج حاملاً، ويعود فارغاً في حبلين متناسقين.

لايدري لماذا وقف يتأمل المشهد الحزين ويغالـب الدمـوع التي طفحـت تتحدر من عينيه، ينظر بحسرة وكأنه خسر كنزاً خفياً.

لطـم ركبتـه بقـوة وتمتم: لكـن ماذا حدث؟!

مدّ خطـوات باردة إلى المحـل، فنهض شريكـه برهوم مرحّبـاً بــه، وبالوقت ذاته مستغربـاً علامات الشحـوب البادية على سحنته.

قال برهوم: عسى أن يكون الأمر خيراً يا شريكي؟

أجاب بغصة: لاأظنه كذلك

قال بدهشة: اخبرني ماذا جرى؟

أجاب بحزن عميق: يبدو بأنه اليوم الأخير لشراكتنا

قال برهوم: كيف تقول هذا يارجل؟!

لم يرد عليه بارع، ولكنه دعاه إلى الخروج شطر المخزن.

سارع الخطا إلى الخارج فأحسّ بصعقة وهو ينظر إلى حبلين طويلين شكّلهما النمل وهو يستجر حبات القمح والشعير من المحل في حبل، ويعود إلى المخزن فارغاً في الحبل الثاني.

عند ذاك جمد في أرضه و بدأ يتخيل ما حدث منذ ساعة عندما دخل أحد القرويين إلى المحل وبيده مئة بيضة بلدية يعرضها للبيع.

اشتراها من غلة المحل، وأخذ يناصف البيض بينه وبين شريكه، في تلك اللحظات تذكر بأنه انتقى لنفسه البيض الكبير الحجم وأرسله مع ابنه إلى البيت، وترك الحجم الصغير لشريكه.

بعد قليل تمتم برهوم لشريكه وكأنه ينتفض من غفوة: سبحان الله، النمل الذي تسبب في استمرار شراكتنا عشرين سنة، يتسبب الآن في فض هذه الشراكة.

• • •

تقف الكلمة على أساس متين في تقويم حياة الإنسان، إنّها أحد أبرز الأركان التي تحرّك إيقاع الحياة، وهي سبيل الإنسان في بنية العلاقات الاجتماعية وتواصله الإنساني مع بعضه البعض.

يعتمد الإنسان على الكلمة في التعبير عن مدركاته، وآرائه، ومواقفه، ووجهات نظره، ويعتمد عليها في تلقي مدركات، وآراء، ومواقف، ووجهات نظر الآخرين.

يمكن للكلمة أن تجعلك صديقاً للآخرين، ويمكنها أن تحيلك خصماً لهم، يمكنها أن تجعلهم أصدقاء لك، ويمكنها أن تحيلهم خصوماً.

كما أنها تمتلك سبيل التغيير، فتقلب البغضاء مودة، وتقلب المودة بغضاء.

تفعل الكلمة فعلها في تحريك وتفعيل المشاعر والنزعات الإنسانية في دفقات مختلفة، تولّد الأفعال وردودها.

يمكن للكلمة أن تشفي مريضاً، ويمكن لها أن تسبب مرضاً لشخص معافى، يمكنها أن تبعث النشوة والانشراح النفسي إلى الإنسان، ويمكنها أن تجعله قلقاً مضطرباً.

تقوم الكلمة بتحديد العلاقات الإنسانية، وتؤسس للمراحل التحولية في حياة الإنسان.

• • •

آلهة الموسيقى عند الإغريق

د. نبيل اللو ✪



تخطف الأسطورة في حياة الشعوب خلفاً إلى اللاتاريخ، بمعنى أن الأمم لم تستطع تأريخ أساطيرها ولن تستطيع. فالحكايات التي صاغتها أحلام البشر وآمالهم وتطلعاتهم شاركت في صنعها المخيّلة الجمعية وحافظت عليها الذاكرة الجمعية. فالأسطورة حكاية

✪ باحث في الموسيقى، وأستاذ أكاديمي في جامعة دمشق.

كان الباعث عليها شخصاً أو حدثاً أو ظاهرة طبيعية أو قوة طبيعية عجزت عقول البشر في مراحلها البدائية عن تفسيرها أو تفسير ظواهرها فنسجت حولها حكاية تداولتها الألسن وأضافت عليها فأدخلت في صلب الحكاية (النواة) تفاصيل حتى اكتملت لها عناصر الحكاية فذاعت وانتشرت وحُفظت.

وجاء وقتٌ اضطلع بعضهم بحكاياتها أمام الناس، يمتلكون موهبة القص والتمثيل والصوت النافذ والشخصية الحكائية: قصاصون وحكّاؤون، وشعراء، وحكماء القبيلة، وشيوخها، وكبار السن فيها، وجداتها، وأمهاتها.. تطوّع الجميع في المجتمع البدائي البسيط في نقل وترويق حكايا تلهب الخيال وتمنح الرجال قوى خارقة ليست من إمكانات البشر الذين نصّبتهم آلهة.

الأسطورة وليدة الجغرافيا والجنس البشري الذي يعيش عليها، لكنها انتقلت جغرافياً بفعل علاقات التبادل التجاري والتنقل البشري والغزوات والحروب فاقترضت الشعوب المتجاورة من بعضها البعض عناصر وآلهة وأحداثاً ومزجتها بما لديها وربما زاوجت بينها. وقد استغرق هذا زمناً طويلاً اقتفته حركة الإنسان والأفكار البطيئة بطء زمن تلك الأزمان.

ظهرت الأسطورة اليونانية في القرن السادس قبل الميلاد، وبدأ الإغريق يحكون تاريخهم على شكل قصص اختلطت فيها مصائر الآلهة بالبشر. وكانت الآلهة عندهم من الذكور والإناث بحسب الناظر في سيرهم أنهم بشر لكنهم يعيشون في السماء تتنازعهم مشاعر الحب والبغض والكراهية والحقد والغيرة والحسد لا يبزّهم البشر في شيء ولا يبزّونهم في شيء.

وقد جعلوا لبعض آلهتهم اختصاصات ومواهب فبرع بعضهم بالصيد وبعضهم الآخر بالحرب، وآخرون بالحب، وبعضهم بالرقص والموسيقى التي كانت تشغل في حياة الإغريق اليومية العامة مكاناً ملحوظاً من بين سائر الفنون التي كانت معروفةً آنذاك. وابتدع الإغريق لفنهم الموسيقي الأثير، هذا ثمانية وعشرين إلهٌ يجتمعون كلّهم في حبهم لهذا الفن ويختلفون عن بعضهم البعض بالتفاصيل.

كيف تمكّنت الموسيقى من أن تشغل عند الإغريق هذا العدد الكبير من الآلهة المنشغلين بتفاصيلها؟ وما الذي مهد وشجّع على انتشار هذا الفن؟ وما هي حاضنته الاجتماعية؟ وما الخصائص التي انفردت بها الآلهات الموسيقيات عن الآلهة الموسيقيين؟ أسئلة سنجيب عنها وعن كثير غيرها في معرض حديثنا.

تُعرّف الأسطورة على أنها: مجموعة

قصص وحكايات خارقة انتشرت عند شعب من الشعوب وفي حضارة من الحضارات وارتبطت أحياناً بدين من الأديان[١]. والأسطورة تبسيطاً حكاية خارقة لمنظومة المألوف المعاش تناقلتها الألسنة العامة والخاصة من الرواة ممن اضطلعوا بنشرها، حفظتها الذاكرة الجمعية في أمة من الأمم. وهي تشكل في تفاصيلها مجموعة من الآلهة اختصت ببعض ظواهر الطبيعة وبخصال البشر من أحاسيس ومشاعر. هذا العالم الأسطوري المُبْتَدع اجتمعت له خوارق لا يقدر على صنعها صانعوه، وحمّلوه بذلك ما يتمنّون فعله، وحاولوا فيه تفسير ما عجزت أبصارهم وأفئدتهم عن تفسيره من ظواهر الطبيعة المختلفة. هذه هي العناصر المكونة الأولى لظهور الأسطورة في المجتمع، وقد أعطى التاريخ زمنياً مضامين أربعة لاصطلاح الأسطورة نذكرها هنا تباعاً.

المضمون الأوّل تاريخي يقول: إنّ الأساطير هي حكايات معدّلة مزيدة لأحداث تاريخية وقعت فعلاً تناقلتها الألسنة وأحاطتها بهالة وأضافت عليها خوارق تتصل بأصحابها أو بشعوبها، وآلهتها ما هم إلاّ ملوكها وقواد جيوشها وأبطالها ألّهتهم الذاكرة الجمعية الشعبية تقديراً لبطولاتهم وشجاعتهم وتضحياتهم واستنهاضاً لمشاعر العامة[٢].

المضمون الثاني رواقيّ[٣] جعل من الآلهة رموزاً لمظاهر الطبيعة المتنوعة: فالآلهة هيرا تمثل الهواء، بينما يمثل الإله زيوس الأثير.. والعلاقة بينهما علاقة تراتبية فالأثير يعلو الهواء الذي يغلف الأرض.

المضمون الثالث فلسفي: الآلهة فيه لها معنىً أخلاقي أو فكري فزيوس هو الذكاء، وهيرميس الحكمة والعقل.

المضمون الرابع تحليلي نفسي: يرى في الأسطورة عرضاً للاوعي الجمعي العام، أي ما يمثله الحلم ومفاعيله في لا وعي الفرد.

إذن، للأسطورة في سياقنا مضمون تاريخي ورواقي وفلسفي ونفسي يأتي على جوانبها المشكّلة لها كلّها ضروري استعراضه والتذكير به لفهم مكانتها وتأثيراتها.

ما هي مصادر الأسطورة الإغريقية التي وصلتنا؟

أهم هذه المصادر على الإطلاق أشعار هوميروس Homer وفيرجيل Virgile وأوفيد Ovide وبيندار Pindare وسوفوكليس Sophocle. وهي مصادر أدبية كلّها، يضاف إليها ما جاء في كتب المؤرخين أمثال: سترابون Strabon وديودور Diodore.

يُنظر للأسطورة عادةً من ثلاثة أوجه: أولها: يتصل بالأسطورة وعلاقتها بفكر الإنسان.

وثانيها: يتصل بالأسطورة وعلاقتها بفكر الشعراء والفلاسفة. وثالثها: يتصل بالأسطورة وفكر العلماء العلمي والموضوعي.

المرحلة الأولى تنحصر في قوى الطبيعة وظواهرها كالعواصف والرعد والبرق والجفاف ومرض الحيوانات الأليفة وأرواح الغابات والبحار والمحيطات والشمس والقمر والحب والحقد والغيرة... باختصار كل ما يتصل بحياة الإنسان البدائي الفطري اليومية المعاشة والتي كانت تشكّل قوام حياته ومشاغلها ومحورها: إنسان يعيش تحت رحمة طبيعة جبّارة الظواهر متقلّبة ترتبط تفاصيل حياته المعيشية كلّها بها تسانده أحياناً وتهادنه وتقسو عليه في أحايين أخرى. الأمر الذي جعل الطبيعة في نظر هذا الإنسان البدائي قوة يُرهب جانبها غامضة عصية على الفهم جاءت الأسطورة لتفسّر بعضاً من ظواهرها ولتبدي شيئاً من القلق والرهبة والخوف منها فأوجد خياله إلهة الغابة والماء لتبدّد وحشة الغابات، وابتدع إلهاً يحفظ له ويرعى غنمه وماعزه ومراعيه. وأحاط آلهته هذه بمظاهر التبجيل والاحترام واختصها بالأضحيات وتفرّغ لها كي تحمي له مصدر عيشه، وتشفي قطعانه مما يصيبها من أمراض وتحميها مما يلحق بها من ضرر.

كما وتحوّلت الفضائل والمحاسن إلى آلهة فكان للجمال فينوس، وللحذر والحيطة مينرفا، وللحكمة أثينا.

أمّا الفلاسفة أمثال أوغست كونت (١٧٩٨-١٨٥٧م)، وفونتونيل (١٦٥٧-١٧٥٧م)، وفولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م) فقد رأوا أنّ الأسطورة تعبّر عن جنون البشر، ليس بالمعنى الذي نفهمه اليوم للجنون على أنه ذهاب للعقل والبصيرة بل على أنه مغامرة عقلية بدائية كبيرة ذهب بها الإنسان الفطري البدائي إلى أبعد مدى ليفسّر ما عجزت عينه وما عجز فكره عن فهمه من ظواهر الطبيعة الخارقة المتقلبة المدمّرة أحياناً، وعجزه التام حيال الموت.

والأسطورة ضرورية حتى يومنا هذا لمن يريد أن يفهم النقوش والرسوم والتماثيل التي خلّفها لنا الإنسان القديم، كما وما زالت حتى يومنا هذا مصدر إلهام كبير للفنانين والسينمائيين والروائيين والمسرحيين.. باختصار مازالت الأسطورة حاضرة بيننا أبداً مستخدمةً حتى في أحاديثنا، إذ إن عقدتها الرمزية لم يُصبها البلى ولم تمت بالتقادم وكثير من الأعمال الفنية العميقة يحتاج فهمها وقراءتها إلى معرفة بالأساطير.

تفسير العلم والعلماء للأسطورة أرضي يُرجع التفاصيل كلّها إلى ما يحصل فعلاً في الواقع فتُسقط كلّ هالةٍ عنها ويرفع عنها

الحجُب والسُتُر لتبدو باهتة ساذجة مضحكة أحياناً، لكنها رؤية عصر المعرفة والتنوير ترى عالم الأسرار المبهم السحيق زمنياً، تدلل على عجز العقل البشري بإمكاناته المعرفية عن تفسير ما يحدث حوله. رؤية العلماء للأسطورة غير رؤية الشعراء لها، فالعالَم المجنّح الذي يصفه الشعراء يقص العلماء له أجنحته فيهوي أرضاً.

تكاد لا تخلو أمة من الأمم من الأساطير التي ابتدعتها مخيلة أهلها، لكن اليونان القديمة بزّتها جميعها بكثرة أساطيرها وآلهتها(٤). ولأن الموسيقى عند قدماء الإغريق كانت فعلاً جدياً يومياً معاشاً واجباً على كل مواطن إغريقي أن يتلذذ الفن أو يمارسه لتهذيب نفسه، ظهرت آلهة عديدة تحمي هذا الفن وترعاه، فالخصوصية التي جعلت الموسيقى في المجتمع الإغريقي مكوّناً مهماً في حياة الأفراد إلى جانب الرياضة، يهواها العامة، ويدعم فكرتها المهمة في التنشئة، الفلاسفة المربون. والموسيقى المتقنة الجادة يسمعها، في رأي أفلاطون، الإنسان الصالح فتناغمها العام يتوافق ويتناغم مع شخصية الإنسان الصالح. وبالفعل تنبه فلاسفة الإغريق لتأثير الموسيقى الطيب في النفوس فكانت عندهم عنصراً رئيساً من عناصر التربية الصالحة سعياً إلى بناء مجتمع فاضل تحكمه حكومة فاضلة.

لم تكن الموسيقى في حياة اليونان متعةً وتزجية وقت وإنما كانت واجباً على كل فرد إذ إنهم أدركوا عظيم فائدتها في أمزجة الناس وتهذيبهم. وهي فكرة تسعى التربية الموسيقية الحديثة اليوم إلى تحقيقها في مجتمعاتها فتعليم الموسيقى عزفاً وتذوقاً يهذّب السلوك الذي تنعكس آثاره في تفاصيل الحياة اليومية المعاشة عامّها وخاصّها. فكرةٌ يعكف المربون الموسيقيون اليوم على الترويج لها وتطبيقها وتعميمها.

لم تكن البضائع وحدها هي التي تنتقل تداولاً بين الشرق والغرب إنما كان الناس ينقلون معهم زيّهم وعاداتهم وآلاتهم الموسيقية وغناءهم بل وآلهتهم. بهذا يمكن أن نفسّر بعض رسوم الآنية وبعض النقوش التي صوّرت آلات موسيقية عند أهل الشرق والغرب على السواء كآلة الليرا والقيثارة والناي المزدوج المصنوع من القصب والرقّ أو الدفّ بأحجام مختلفة والصنوج..

كانت الحياة القديمة غنية بالموسيقى لأهميتها في مصاحبة طقوس الحياة اليومية من العبادة إلى الولادة مروراً بالأفراح من أعراس وأعياد عامة وخاصة.

ويروي لنا التاريخ أنَّ الملك داوود، ملك اليهود، كان شاعراً وواضع ألحان وقد شكّل جوقاً غنائياً مؤلفاً من ثلاثمئة شخص يصاحبهم عازفو هارب وليرا وصنوج وأكثر

من مئة نفير (آلات نفخية). ومازالت مزامير داوود معروفة حتى اليوم ومتداولة في الطقس الديني.

ظهرت أوّل إشارات عن الموسيقى الإغريقية القديمة في أساطير قدماء اليونان، ولو تتبعنا ما يتصل بآلاتها الموسيقية لوجدنا أنها تنتمي إلى عالمين اثنين: أولهما ريفي حيث ابتدع الإغريقي آلته الموسيقية مما ينمو حوله من نبات فصنع آلة الآولوس من القصب وهي شبيهة بآلة الناي، وثانيهما رحلي ينتمي إلى الأقوام الرحّل الذين كانوا يجوبون يابسات جزر الإغريق العديدة، وقد اخترعوا آلهتهم الموسيقية من بقايا الحيوانات كآلة الليرا الوترية التي تُشد عليها أوتار مصنوعة من أحشاء الأبقار والخرفان وجسمها المصوّت من قوقعة السلحفاة. ولا يشذّ الإغريق في هذا عن غيرهم من الأقوام في الأرض إذ صنعوا أول آلاتهم الموسيقية مما توافر بين أيديهم من مواد لعبت الملاحظة، ومعها التجريب، دوراً كبيراً في صنعها وتجويد أدائها مع الزمن.

الموسيقى في بلاد اليونان القديمة

شكّلت الموسيقى جزءاً مهماً من حياة الإغريق اليومية فكانت حاضرةً، كما أسلفنا، في الطقس الديني والتربوي، وفي المناسبات والاحتفاليات العامة والخاصة وحتى في الحروب كانت الطبول والنايات المزدوجة تستخدم لشحذ الهمم واستنهاض الجند قبل المعركة. وكان تعليم العزف على آلة الليرا يصاحبها الغناء جزءاً مهماً في تعليم ناشئة الأرستقراطية الإغريقية ودلالة على رهافة الذوق وحسن التربية. وكانت تنظم في المدينة مسابقات في العزف على آلة الليرا والنايات المزدوجة. وكان الإغريق ينظمون أربع ألعاب عامة نذكرها تباعاً هنا لأهميتها في سياق حديثنا عن مقام الموسيقى في حياة الإغريق:

أولها

ألعاب نيميا: وكانت تُنظّم في شمال غرب البلاد بالقرب من أرغوس، وتتضمن ألعاباً رياضية ومسابقات موسيقية أسسها أهل أرغوس إحياءً لمتوفاهم الشاب أرشيمور. وكان المتبارون يشاركون بلباس حدادهم الأسود. وكان الفائزون يقلدون إكليلاً من الآس.

ثانيها:

الألعاب الأولمبية: وقد بدأت هذه الألعاب سنة ٧٧٦ ق.م. وتنظّم مرةً كل خمسة أعوام في مدينة أولمبي لمدة خمسة أيام تبدأ في يوم الثاني والعشرين من شهر حزيران. وكان المتبارون يتنافسون في خمس ألعاب رياضية وتجري على هامش الألعاب مسابقات في العزف على آلات موسيقية. كان الفائز يُكلل بأغصان الزيتون.

ثالثها:

ألعاب إيستم نسبةً إلى مكان يدعى إيستم في كورنثيه، وكان قد أسسها الإله تيزيه في العام ٥٨٢ ق.م. إجلالاً للإله نيبتون. وكانت تنظم مرةً كل ثلاث سنوات صيفاً، وكانت تتضمن الركض والقفز والمصارعة والشعر والموسيقى. وكان الفائز يُكلّل بأغصان الصنوبر.

رابعها:

الألعاب البيتونية نسبةً إلى الثعبان بيتون Python. وتحكي الأسطورة أن هذه الألعاب قد تأسست في مدينة دلف اليونانية على يد الإله أبولّون تخليداً لانتصاره على الثعبان بيتون، وكان ذلك في العام ٥٨٦ ق.م. وكان الإغريق يجرون هذه الألعاب مرةً كل خمسة أعوام. وكانت المسابقات في أوّل عهدها شعرية وموسيقية. وكانت جائزة الألعاب تمنح لمن يُلحن أجمل نشيد مهدى للإله أبولّون الذي صرع الثعبان بيتون بسهامه القاتلة. وكان الفائز يكلّل بأغصان الغار.

الآلة المصاحبة لمسابقات الشعر في المهرجانات التي ذكرناها هي آلة الليرا(٥).

وقد أضحت الموسيقى في بلاد الإغريق تصبح أكثر فأكثر أهمية بفضل ازدهار المسرح عندهم، وكانت بعض المسرحيات تتطلب غناء ممثليها فرادى أو مجتمعين يرد بعضهم على بعضهم الآخر، وكانت الموسيقى تستخدم أيضاً بين فواصل المشاهد لتسلية الجمهور وامتاعهم فيما الممثلون يستعدون للمشهد التالي تمثيلاً وتأثيثاً لخشبة(٦) المسرح.

كان راوي أساطير هوميروس الشعرية يصاحب إلقاءهُ بالعزف على آلة الليرا(٧) وكان لدى الإغريق شعر غنائي غير أشعار الملاحم ازدهرت في القرن السابع كانت تلقى هي أيضاً مغنّاة. كما كان الجوق يغني أناشيد ومدائح على شرف الفائزين بالمسابقات، وأغاني أعراس وأهازيج سريعة الإيقاع.

أفلاطون وأرسطو كلاهما كانا يؤمنان بأن الموسيقى تؤثر في سلوك الإنسان وتصرفاته وتمنحه شعوراً إيجابياً وأفكاراً بناءةً.

الآلات الموسيقية التي استخدمها الإغريق

استخدم الإغريق آلاتٍ موسيقية متنوعة ظهرت في نقوشهم ورسومهم، أقدم آلاتهم وأكثرها شهرةً وانتشاراً هي آلة الليرا (ويُطلق عليها أيضاً لورا، وكيثارا، وتربط عادةً باله مدينة دلف) ويُعزى اختراعها للإله هيرميس، وتحكي الأسطورة أنه عندما كان في مهده قفز منه وخرج من مغارته فصادف قوقعة سلحفاةٍ فأفرغها ونظفها ثم مضى

إلى الجبل وسرق من قطيع أخيه الإله أبولّون خرافاً انتزع أمعاءها ليصنع منها أوتاراً ركّبها على قوقعة السلحفاة وعزف عليها.

وقد صوّرت رسوم الآنية والنقوش والمنحوتات حفلات موسيقية يعزف فيها على آلة الليرا يصاحبها آلة ناي، أو عازف أو عازفة على آلة الليرا منفردة. كما تظهر آلة وترية أخرى أشبه بآلة الهارب أوتارها أطول من أوتار الليرا كانوا يسمونها باربيتون.

الآلة الثانية المهمة التي أكثر الإغريق من استخدامها في موسيقاهم هي آلة الناي وكانت تدعى عندهم آولوس، وكانت تُصنع من قصب الغاب وتصنع أحياناً من عظام الحيوانات أو من العاج تُحفر فيه ثلاثة ثقوب لاستخراج الأصوات منه، وأضيفت له في القرن الخامس ثلاثة ثقوب أخرى، ووصل عدد ثقوبه في نهاية القرن الخامس ستة عشر ثقباً واستطال عما كان عليه أول عهده. ويُعزى للآلهة أثينا اختراعه. ويعقد الفيلسوف أفلاطون صلةً بين الآولوس والنبيذ ترميزاً للنشوة والطرب واللهو فربطه بالإله ديونيزوس.

وضمن فصيلة النفخيات أيضاً استخدم الإغريق آلةً اسمها سيرانكس المعروفة بفلوت بان نسبة إلى مبتدعها بان Pan، يُصنع من نايات متفاوتة الطول تُجمع على نسق واحد فيما بينها وتُربط: مادتها قصب الغاب، تتسلسل ناياتها المجموعة على نسق من الطويل فالقصير وعددها الإجمالي سبعة نايات. وقد شاع استخدام هذه الآلة عند الرعيان.

الآلهة الموسيقيون في الأسطورة الإغريقية

واضح أننا عندما نستخدم اصطلاح آلهة، جمع إله، مذكر، أو إلهة مؤنث، إنّما نحن نتكلّم عن حالة اجتماعية عقائدية إيمانية تعود في زمانها إلى ما قبل الميلاد وفي مكانها إلى بقعة جغرافية بعينها هي مجموعة جزر كثيرة شكّلت فيما بينها وحدةً بشريةً اجتماعيةً ثقافيةً فنيةً اقتصادية دينية عسكرية بفعل التعايش المستمر بين مجموعة بشرية متجانسة فيما بينها على أرض جغرافية اختلطت فيها اليابسة بالماء وشكّلت كُلّاً واحداً بلاد الإغريق. والآلهة هنا كائنات فوق بشرية تختلف عن البشر وعن طبيعتهم ابتدعتها الذاكرة الجمعية الإغريقية. خالدون غير مرئيين يسكنون قمة جبال الأولمب الواقعة شمال شرق بلاد اليونان، موقع مهيب اتخذته آلهة الإغريق سكناً لها على ارتفاع ٢٩١٧ متراً عن سطح البحر تُشرف منه الآلهة على البشر فترى تقلّب أحوالهم وأهوائهم فتتعاطف مع بعضهم وتقسوا على بعضهم الآخر..

بعض هذه الآلهة جسّدت قوى الطبيعة

فالإله زيوس يمثل السماء والعاصفة والمطر، بينما يمثل الإله ديميريوس الأرض الخصبة المعطاءة. وانفرد الإله أبولّون بالشمس، بينما اختص الإله بوسيدون بالبحر.. بعض الآلهة اختص بالفضائل والميول فكان نصيب الآلهة أثينا الحكمة، وأفروديت الحب، وعرائس البحر الفتنة والغواية واختص الإله لينوس بمن قضى وهو شاب ولم ينجز عمله في الأرض. وبعض الآلهة كانوا موسيقيين كباراً أمثال أورفيوس، وأبولّون وآريون إلى جانب مهام أخرى كانوا يضطلعون بها.

بدايةً جعل الناس لكل شيء من حولهم آلهةً سرعان ما تخصصت مع مرور الوقت بشيء لازمها واقترن بها وتوسّل البشر لتلك الآلهة ليقضوا لهم حاجاتهم وفق اختصاص كل إله. وجعل تنظيم المجتمع وتعدد مناحيه يجد له مرآة إدارية قدرية في قمة الأولمب. الزمن هو الذي جعل لكل إله هُوية وقصة وتاريخاً وطبعاً ومسلكاً وأهواء ومغامرات.

نلاحظ أنه من بين ٢٨ إلهاً موسيقياً أوردتهم كتب التاريخ اليونانية القديمة ثلاثة منهم فقط هم من كبار آلهة الأولمب، وواحد منهم فقط هو من كبار الآلهة الأرضيين، وخمسة منهم من صغار آلهة الأرض، واثنان من صغار الأولمب، واثنا عشر إله هامشياً. وقد ترسخت هذه التصنيفات مع الزمن والحوادث والوقائع المعاشة ومع الأحداث الطبيعية التي كانت تجري من حول الناس فتحول مجرى حياتهم خيراً أم شراً. فالخيال الذي أبدع الآلهة لم يكن بقادر في أول عهده أن يجعل لهذا الكم الكبير منها تصانيف، فتواتر الحوادث وتناقلها واختلاطاتها بالآمال والآمال والتفرعات والابتهالات وما تحقق منها وما لم يتحقق قدّم آلهةً على أخرى ورفع من شأن بعضها وقلّل من شأن بعضها الآخر وهمّش آخرين.

ولو دققنا النظر لوجدنا أن مواهبهم في الموسيقى متفاوتة، الأمر الذي يقسمهم إلى قسمين اثنين: آلهة من كبار الموسيقيين، وآلهة أقل موهبةً من طائفة القسم الأول. فقد بلغ عدد كبار الموسيقيين من الآلهة ستة عشر إلهاً، في حين بلغ عدد صغار الموسيقيين منهم اثني عشر إلهاً.

نستنتج مما تقدم أنه من بين الآلهة الموسيقيين الثماني والعشرين ستة عشر منهم من كبار الموسيقيين، واثنان منهم جاءا بجديد في الموسيقى أولهما: آمفيون وهو من كبار الموسيقيين ويُنسب إليه اختراع الوتر، وثانيهما: باخوس، وعلى الرغم من أنه من صغار الموسيقيين من الآلهة إلاّ أنه يُنسب إليه الفضل في تأسيس أوّل مدرسة لتعليم الموسيقى. عشرة من إجمالي الآلهة موهوبون في العزف على آلاتهم، وبعضهم أمثال دافنيس الذي برع في العزف على آلتي

الناي والمزمار يعد من صغار الموسيقيين من الآلهة، وينسحب الأمر كذلك في السياق نفسه على ربّات الفضائل، وعلى ميانديس، وعلى بيريفيتس، وبوليفيم. أمّا الهواة من الآلهة فهم: باخوس، وآلهة الريف، ولينوس، وفيلامون، وثاميريس، وميانديس ومجموعهم ستة. خمسة آلهة من مجموعهم العام كانوا معلمي موسيقى وهم: أبولّون، وشيرون، ولينوس، وفيلامّون، وثاميريس. وعدد الذين برعوا في الغناء من إجمالي الآلهة الموسيقيين ثلاثة عشر إلهاً نذكرهم: آريون، كوريبانتس، دافنيس، ديمودوكوس، لاميس، لينوس، ميريت، ربّات الشعر، جنيّات الماء، فيلامّون، بييريديس، عرائس البحر، ثاميريس.

أمّا الآلات التي عزف عليها الآلهة فهي: الليرا، العود، السيتار، الناي مزدوج المبسِم، الصنوج، الطبول، الناي، المزمار، الناي المزدوج، الهارب، ناي بان.

أكثر الآلات التي كان يستخدمها الآلهة:

- الليرا: ويعزف عليها ثلاثة آلهة.
- الناي: ويعزف عليه سبعة آلهة.
- العود: ويعزف عليه اثنان من الآلهة فقط.
- السيتار: ويعزف عليه اثنان من الآلهة فقط.
- الناي مزدوج المبسم: ويعزف عليه إله واحد فقط.
- المزمار: ويعزف عليه اثنان من الآلهة فقط.
- الصنوج والطبول: ويعزف عليها إله واحد فقط.
- الناي المزدوج: ويعزف عليه إله واحد فقط.
- ناي بان: ويعزف عليه إله واحد سمي باسمه وهو بان.

وتشير كتب التاريخ إلى أنَّ ستة آلهة فقط من بين ثمانية وعشرين إلهاً موسيقياً اتخذوا لهم رموزاً تكنوا بها من النبات والحيوان.

كبار الموسيقيين من الآلهة:

١- أمفيون:

أبوه كبير الآلهة زيوس، وأمه الإلهة أنتيوب. بنى أمفيون معبداً وأهداه إلى إله الشمس أبولّون فأهداه أبولّون آلة ليرا ليعزف عليها. وقد أضاف أمفيون ثلاثة أوتار على آلة الليرا التي كان يُشدّ عليها قبله أربعة أوتار فصارت معه سبعة أوتار. حكم أمفيون مدينة طيبة فبنى لها سوراً فيه سبعة أبواب سماها تباعاً بأسماء أوتار آلة الليرا السبعة.

٢- أبولّون:

إله الشمس والنور والحقيقة، واحد من كبار آلهة جبل الأولمب الاثني عشر. أبوه كبير

الآلهة زيوس أو جوبيتر. عند ولادته أهداه أبوه: عربةً تحمل طيور التمّ، وذهباً، وآلة ليرا ليعزف عليها. ظهرت مآثره في الحياة الدينية، وفي الحرب، وفي الطب، وفي الحب، وفي الموسيقى. يُنسب إليه اختراع آلتي العود والسيتار. برع في العزف على الليرا المذهّبة التي كان يحملها معه وفتن بعزفه وألحانه سائر الآلهة فكان له حظوة بينهم وتأثير عليهم بفضل موهبته الموسيقية.

تحكي الأساطير أنَّ مسابقةً موسيقيةً جرت بين الإله أبولّون وبين الإله مارسياس وكان عازف ناي، وفاز أبولّون عازف الليرا على مارسياس عازف الناي وبفوز أبولّون على مارسياس حَقّ له معاقبته فسلخ جلده حياً. وفي هذه الأسطورة ترميز إلى الصراع القائم بين الآلات الموسيقية الوترية والآلات الموسيقية النفخية، بين العقل والحدس، بين الذكاء والبهيمية. وقد أظهرت رسوم الآنية التي وصلت إلينا عن الآلهة أبولّون جمال خلقته وتناسق أعضاء جسده، فكان ممشوق القامة، موفور الصحة مفعماً بالشباب، حليق الذقن، ذهبي الشعر أجعده طويلاً مسترسلاً على كتفيه يُمسك برسن عربة يقودها أربعة جياد بيضاء. وفي رسوم أخرى يظهر أبولّون يحمل بيده آلة الليرا وعلى رأسه تاجٌ من الغار، وفي أحايين أخر يضع على رأسه تاجاً من النور، أو من أغصان الزيتون أو الآس.

٣- آريون:

كان إلهاً شاعراً وموسيقياً وعازف ليرا مجلّ مبدع المديح في فضائل إله الخمر ديونيزوس، ويُعزى إلى آريون ابتداع شعر الخمريات. جاب البلاد يعزف على الليرا ليكسب رزقه ويجمع مالاً. كان آريون يعتقد بأن الموسيقى تخلّص سامعها من أدرانه النفسية. كان الناس يتحلقون حوله ينتشون بسماعه وهو جالس في ظل شجرة يعزف ويغني. كانت موسيقاه تهدئ النفوس وتروّض الحيوان الوحشي. وكانت الآلهة تُطرب لعزفه وصوته وألحانه.

٤- أثينا:

ابنة الإله زيوس والإلهة مينيس. وأثينا هي واحدة من كبار آلهة جبال الأولمب الاثني عشر. وكانت المفضّلة الأثيرة عند والدها ومنحها صلاحيات كثيرة. وقد رافقت البطل الأسطوري أوليس في أسطورة أسفاره. كانت آلهة الحكمة والحرب، وكانت حامية أخيل بطل حرب طروادة. واختارها اليونانيون اسماً لحاضرتهم. وهي حامية العلماء والفنانين وراعيتهم. ويُعزى إليها اختراع الكتابة والرسم والتطريز. كما ويعزى إليها اختراع الناي مزدوج المبسم.

٥- شيرون:

كان قنطورُس (حيواناً خرافياً رأسه رأس بشر وجسده جسد حصان). كان حكيماً، عارفاً بالطب، بارعاً في رمي القوس، وفي الموسيقى. جعل من مغارته في تسّاليا مدرسة يعلم فيها الموسيقى والطب والأخلاق، وتتلمذ عليه أخيل بطل حروب طروادة. كان عازفاً ماهراً على الليرا قادراً على شفاء المرضى بموسيقاه.

٦- هيرميس:

أبوه الإله زيوس. يوصف هيرميس بالذكاء والحنكة. لقّب بإله التجار لأنه اخترع الأوزان والمقاييس. كما ويعزى إليه اختراع الأبجدية والموسيقى، وهو من اخترع آلتي الليرا والمزمار. سرق قطيع أبولّون وصنع من أحشاء الدواب أوتاراً لآلة الليرا.

٧- مغنيات اللاميس:

مغنيات مجيدات، يشبهن إلى حد بعيد عرائس البحر، بالفتنة والجمال والإغواء والشكل: نصف سمكة ونصف امرأة، وتفرق اللاميس عن العرائس بمخالبهن. يخرجن من الماء فجأةً ليخنقن من أغوينه بالاقتراب منهن.

٨- لينوس:

هو شقيق الإله أورفيوس، وكان شاعراً وموسيقياً، وقد تتلمذ شقيقه أورفيوس عليه. نظم أشعاراً في موضوعات شتى. يعود إليه ابتداع اللحن وضروب الإيقاع.

كثرت الأساطير حول مصرع لينوس نذكر منها هنا واحِدةً لعلاقتها بموضوع بحثنا: تحكي الأسطورة أنَّ لينوس كان يعلم هيراكليس (هرقل) العزف على آلة الليرا، لكن هيراكليس كان بطيء الفهم والاستيعاب ولم يكن موهوباً ليتعلم فناً كالموسيقى، وكان لينوس يعنّفه ويضربه على بطء فهمه. ذات يوم طفح كيل هيراكليس فأمسك بالليرا وكسرها على رأس معلمه لينوس فقتله في الحال. وهناك أسطورة أخرى تحكي أنَّ لينوس تحدى الإله أبولّون في مسابقة عزف مدعياً أنه أجود وأمهر عزفاً من أبولّون على الليرا فصرعه أبولّون في الحال عقاباً له على زهوه بنفسه.

٩- مارسياس:

ينحدر من الإله أولمبوس. برع في العزف على الناي. ويعزى إليه مأثرة اختراع الناي المزدوج. تحدى أبولّون في مسابقة عزف أقرت له هيئة التحكيم تفوقه على مارسياس. صلب أبولّون مارسياس على جذع شجرة صنوبر وسلخ جلده حياً عقاباً له على تحديه وخسارته أمامه في مسابقة العزف.

١٠- ربّات الشعر:

بنات الإله زيوس، برعن في الغناء، وتكفلن برعاية الآداب والتاريخ والفلسفة.

ألهمن الشعراء وحضن فن الرقص وفن الموسيقى. كن مستشارات الملوك يسدين إليهن النصح والمشورة في إدارة شؤون البلاد والعباد وتهدئة الخواطر والوقاية من النزاعات والحروب. كان عدد ربّات الشعر بداية عهدهن ثلاث ربّات. وأطلق اسم الربّات الثلاث على أوتار آلة الليرا عند اختراعها: حاد وسط، جهير. ثم أصبح عدد الربّات سبع ثم تسع عُهد إلى كل واحدة منهن رعاية فن من الفنون:

١-كاليّوب: ربّة الشعر البطولي الملحمي.

٢-كليو: ربّة التاريخ.

٣-ميلبومين: ربّة المأساة.

٤-ثالي: ربّة الملهاة.

٥-أوترب: ربّة الموسيقى.

٦-تربسيكور: ربّة الشعر الخفيف وربّة الرقص.

٧-إيراتو: ربّة الشعر الغنائي العاطفي.

٨-بوليمي: ربّة الغناء والخطابة.

٩-أوراني: ربّة الفلك.

وكنّ يأتمرن كلهنّ بأمر الإله أبولّون.

وكانت الرسوم القديمة تصورهنّ شابات جميلات متواضعات لباسهن بسيط يجلسن في ظل شجر الغار أو النخيل متحلقات.

١١- أورفيوس:

كان شاعراً وموسيقياً ومغنياً ولاهوتياً، ينحدر من الإله أبولّون ومن ربة الموسيقى كاليّوب. أشهر موسيقيي الأسطورة الإغريقية على الإطلاق. ويُعزى إليه إدخال الليرا إلى الطقس الديني وإضافة وترين لها، وكان عازفاً مجلياً على هذه الآلة. كما ويعزى إليه اختراع آلة السيتار. كانت الموسيقى عنده ملاذاً يروّح به عن نفسه من كثير انشغالاته. وكان يعزف ويغني فاتناً البشر والآلهة والحيوان على السواء، حتى النبات كان يتمايل عندما يسمع عزفه وغناءه، الطبيعة كلّها كانت تتوقف وتصمت لتسمع عزفه وغناءه. وكانت السباع والوحوش ترقد عند قدميه.[8] كان إلهاً فاتناً مغوياً ساحراً، وكانت جنيات الماء يعشقنه.

١٢- بان:

تعني كلمة بان بالإغريقية القديمة راع. وكانت الأسطورة الإغريقية تعتبره إلهاً ثانوياً فقد كان حامياً للرعيان، وإلهاً للخرفان والماعز، يحمي القطعان. وكان الفراعنة يعبدونه إذ كان عندهم رمزاً للخصوبة. شكلاً نصفه آدمي، ونصفه الآخر حيوان على شكل كبش. يُعزى إليه اختراع آلة الناي السباعي المتعدد الأطوال والنغمات والذي سمي باسمه. ولم يكن عازفاً مجلياً ولا موهوباً.

١٣- فيلامّون:

ينحدر من الإله أبولّون. كان شاعراً

وموسيقياً مجلياً كان أول من كوَّن جوقاً غنائياً نسائياً، وكان وسيماً جداً.

١٤- بنات بييريديس:

عددهن تسع بنات كن يتعاطين الشعر والموسيقى وبلغن فيها شأواً بعيداً حملهن على مناطحة ربات الشعر والموسيقى ومنافستهن، لكنهن خسرن في المسابقة التي نظمت للمجموعتين.

١٥- الإلهات المزقزقات:

يُمثلن عادةً على شكل عصفور برأس امرأة. واختلفت الروايات في تحديد عددهن: فبعضهم يجعلها اثنتين، وبعضهم يرفع عددهن إلى ثلاث، وأحياناً إلى أربع وحتى إلى خمس. كن يغوين البحارة ليلاً بغنائهن الطروب، وما أن يقترب البحارة منهن حتى ينقضّن عليهم. ويحكى أن أورفيوس، وأوليس وحدهما تمكنا من الإفلات من شركهن بأن أعرضا عن سماعهن.

١٦- ثاميريس:

تتلمذ موسيقياً على لينوس، ومن ثم تتلمذ عليه شاعر الإغريق الأول هوميروس صانع الإلياذة والأوديسة. ويوضع ثاميريس على قدم المساواة مع أورفيوس كشاعريَن وكموسيقييَن. وكان ثاميريس عازف ليرا. ويُعزى إليه ابتداع المقام الدُوري في الموسيقى. تحدى ربات الشعر في مسابقة وخسرها فحرمته ربات الشعر نعمة البصر ونزعت عنه موهبة العزف فألقى بآلته الليرا في النهر واعتزل.

ختاماً:

تعكس الأسطورة مجتمعها، فهي وليدته، والمجتمع بأفراده يبتدعون الأسطورة ويحمّلونها أحلاماً وآمالاً وأمانيَّ ويجعلون من أبطالها ملاذاً يلجؤون إليه كلما عزّت عليهم الأماني وشقّت عليهم الظروف وتقلّبت الأحداث. ولئن عرفت الشعوب الأسطورة في مرحلة بعيدة زمنياً من حياتها فلقد بزّ الإغريق الشعوب كلّها بوفرة أساطيرهم وحكاياهم. والمبهر العجيب كثرة آلهة الموسيقى عندهم ما يعكس أهميتها في حياة الإغريق إذ بلغ عددها عندهم ثمانية وعشرين إلهاً، وهو رقم كبير جداً لآلهة شغلت الموسيقى مكاناً كبيراً في حياتهم ومهامهم. في عصر الإيمان الأول عند الإغريق ازدحمت قمة جبل الأولمب بالآلهة الخالدين بعضها أشكالها بشرية وبعضها الآخر نصفها بشري ونصفها الآخر حيواني، وبعضٌ أُخَر من الوحوش.

جبّت المسيحية هذه التعددية الألوهية الخيالية، ومن بعدها فعل الإسلام كذلك. خرجت الموسيقى من إطار المقدس إلى إطار الفلسفة والرياضيات والفيزياء والصوتيات وأصبح إلهها العلم وحده تكتشف به أسرارها ونظرياتها.

الحواشي

١- قاموس روبير الصغير، ص١٤٦٥، بالفرنسية.

٢- فرانسواز دوكرو، ألف باء الأسطورة، ص٢٢، بالفرنسية.

٣- «نسبةٌ» إلى الرواق الذي كان يجتمع فيه أتباع الفيلسوف زينون، وهي فلسفةٌ تقول بأنّ كل شيء في الطبيعة إنما يقع بالعقل الكلّي ويقبل مفاعيل القدر طوعاً، قاموس المنهل، ص٩٧٨، طبعة عام ١٩٧٧م.

٤- انظر: جان أومبير، الأسطورة الإغريقية والرومانية، ص١٣. بالفرنسية.

٥- هي الآلة نفسها التي يُحكى أن إمبراطور روما نيرون عزف عليها وغنّى وهو يشاهد روما تحترق بأمره من شرفة قصره.

٦- لم تكن وقتئذٍ خشبة، فالمسارح كانت حجرية لكننا استخدمنا هنا خشبة بالمعنى المجازي المتعارف عليه اليوم.

٧- فلنلاحظ هنا وجه الشبه بينه وبين الرواة العرب البدو الرحّل الذين يغنون الملاحم الشعرية المقفّاة على الربابة. (نذكر منها سيرة الزير سالم، وسيرة عنترة بن شداد، وغيرهما كثير).

٨- في متحف شهبا التابعة لمحافظة السويداء جنوب سورية لوحة فسيفساء كبيرة ملونة تصور أورفيوس وهو يعزف ويغني والطبيعة والطير والوحوش تركع عند قدميه.

مراجع الدراسة

١- جاك شاييّ، الموسيقى الإغريقية القديمة، باريس، منشورات الآداب الجميلة، ١٩٧٩م، ص٢١٩. (بالفرنسية).

٢- كوميّلان، ماريشو، الأسطورة الإغريقية والرومانية، باريس، منشورات دونو، ١٩٩٥م، ٤٠٨ صفحات. (بالفرنسية)

٣- فرانسواز دوكروا، أبجديات الأسطورة، باريس، فلاماريون، ١٩٩٩م، ص١١٩. (بالفرنسية)

٤- بيير غريمال، قاموس الأسطورة الإغريقية والرومانية، باريس، منشورات فرنسا الجامعية، ١٩٦٩م، ص٥٧٤. (بالفرنسية)

٥- إديث هاملتون، الأسطورة، منشورات مارابو، ص٤١٥. (بالفرنسية)

٦- كلود موسّيه، قاموس الحضارة الإغريقية، بروكسل، منشورات كومبليكس، ١٩٩٢م، ص٥٢٧. (بالفرنسية)

٧- أندريه شافنر، أصول الآلات الموسيقية، باريس، منشورات موتون، ١٩٦٨م، ص٤٢٦. (بالفرنسية).

اكتساب اللغة عند الطفل

سهام شباط ✿



الإنسان هو أغلى ثروة خلقها الله عزّ وجل وأوصانا بحفظها والعناية بها، لذلك ميّزه بالعقل من دون سواه من الكائنات الحية، فهو كالزهرة يحتاج للرعاية والاهتمام كي تبقى نضرة ومتفتحة، فكم نشعر بالسعادة عندما نراها كذلك وكم نحزن عندما نراها تذبل لعدم إروائها والعناية بها.

والطفل الصغير كهذه الزهرة لولا رعايته والاهتمام به والعمل على تنمية قدراته كافة لما نشأ بشكل سوي وصحيح، ومن هنا كان علينا أن نسعى لمعرفة هذا الطفل معرفة واضحة.

✿ اختصاصية وأستاذة التربية وعلم النفس في المعاهد المتوسطة بدمشق.

العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

نسير معه في مشوار حياته متوقفين عند أهم مرحلة من مراحل نموه وهي مرحلة طفولته لأنَّها مرحلة البناء والتأسيس للمراحل كافة التي تليها ولأنها بمثابة المادة الخام للمراحل اللاحقة.

ولذلك سوف نؤكد في بحثنا هذا على أهمية النمو العقلي عنده وعلى أهمية التواصل عن طريق اللغة التي تشكل وسيلة الاتصال بيننا وبينه، ولأننا نشعر بأنَّ هناك تقصيراً غير متعمد بحق أطفالنا في مراحل عمرهم الأولى على الرغم من أهميتها والتي تعتبر مرحلة البناء والتأسيس لما يليها من مراحل، لذلك أكدنا على دور النمو العقلي في تعلّم اللغة والتي هي الدالة على إنسانية الإنسان كما يقول «رولان بارت».

إنَّ نمو القدرات العقلية أثناء فترة ما قبل المدرسة شيء غير عادي وجدير بالملاحظة مثله مثل النمو الجسمي ونمو القدرات الحركية أثناء فترة الطفولة المبكرة، ففي هذا الوقت نجد الأطفال ينمون حسب نماذج معينة من المهارات التي نسميها بالذكاء العام والتي تقاس باختبارات مقننة تشبه تلك الاختبارات التي تستخدم مع الأطفال الكبار والمراهقين والراشدين.

والنمو العقلي هو القدرة على التفكير وهذا يعني أنه يرتبط بعلاقة مع المحسوسات البيئية التي تنقل إلى الدماغ عن طريق الحواس حيث يقوم الدماغ بمعالجتها عن طريق الإدراك. وللنمو العقلي عوامل كثيرة تؤثر به وهي: النضج والذي هو حسب «بياجيه» يشير إلى الآثار الوراثية على النمو، وهذه الآثار لا يمكن عزلها ولكن قد يبدو من المهم بالنسبة لنا أن نعزل هذه الآثار عن مجرى الأحداث أو الحياة، وذلك لأغراض البحث والدراسة والتحليل، وإذا كان النمو هو الازدياد الكمي والكيفي للكائن الحي فإنَّ النضج هو المرحلة التي يتوقف عندها الازدياد الكمي والكيفي لهذا الشيء، أي يتوقف عندها النمو ويعتبر النضج من العوامل الهامة في عملية النمو عند «بياجيه» فهو يربط بين النضج الجسمي والنضج العقلي؛

فعملية النضج البيولوجي يرافقها تغيرات تشريحية ووظيفية في جميع أعضاء الجسم ومنها الجهاز العصبي وهو الجهاز المسؤول عن التفكير وما يصاحبه من إجراءات، فالنضج العصبي هو أحد أهم العوامل في تحقيق النمو العقلي «وخاصة لتعلم اللغة».. أمَّا الخبرة المادية فتمثل معرفة الطفل بأسلوب أداء الأشياء أو الموجودات في البيئة من حوله وتفاعله معها عاملاً ما يسمى الخبرة المادية.

فالطفل ينمو جسمياً وبالتالي يتمكن من الحركة والتجوال وتفحص الأشياء المجاورة من حوله وتزداد هذه القابلية للاستكشاف والتفحص مع زيادة نضج الطفل فحينما يضغط الطفل على جسم ما ويجده صلباً أو يسقطه على الأرض ويكتشف أنه ينكسر أو يضعه في الماء ويشاهده وهو يطفو أو يحدث أي نوع من التفاعل مع الجسم كجسم ينتج عن هذه العملية معرفة الطفل بهذا الجسم وأيضاً معرفته بالمادة التي يتكون منها هذا الجسم وتسمى هذه الخبرة بالخبرة المادية.

أمَّا الخبرة الرياضية المنطقية فتأتي بعد تكوين الخبرة المادية، فمحاولات الطفل معرفة أداء الأشياء ذاتها أو تصنيفها وعدِّها وترتيبها يمكِّن الطفل من القيام ببعض التعميمات على مجموعة من الأشياء ذات الصفات المشتركة وإيجاد علاقات بينها، كل ذلك يكوِّن لدى الطفل بنية عقلية يستطيع أن يستفيد منها في حالات أخرى ومواقف مشابهة للمواقف التي مرّ بها في خبرته من قبل وهذه البنية التي تكونت هي نتيجة الخبرة الرياضية المنطقية.

أمَّا النقل الاجتماعي فيأتي من الآخرين في المجتمع، فهم يوضحون كيف يتم عمل الأشياء وبالتالي يكتسب الطفل بعضاً من هذه المعارف، وبهذا نجد أنَّ الطفل يكتسب الخبرة من الأشخاص الآخرين وغالباً من الراشدين في المجتمع، وهذا ما يسمّى بالنقل الاجتماعي وخاصة تعلم اللغة عند الأطفال لأنَّها هي وسيلة الاتصال العظيمة مع العالم الخارجي الذي سوف ينخرط به في الحياة.

فاللغة هي نشاط عقلي راقٍ يعمل كشرط أساسي لتنظيم عملياتنا العقلية المعرفية وكوسيلة حتمية للاتصال الإنساني، فباللغة يستطيع الإنسان أن يحدد هذا الوجود المادي والإنساني في خصائص وعلاقات وقوانين وأن يتحقق له الوعي بهذا الوجود والتحكم به على أساس انعكاسه في دماغه بشكل رموز وكلمات وفي تكوين صورة مثالية لموضوعات هذا الوجود وظاهراته وأحداثه.

وباللغة ينتقل الإنسان من معرفة مبعثرة مجتزأة بعناصر الوجود إلى الانعكاس المعمم لها في شكل مفاهيم مجردة. واللغة بذلك توفر للنشاط العقلي المعرفي وللسلوك الإنساني خاصية «الاقتصاد العقلي» الذي يكمن وراء المقدرة المتعاظمة للإنسان على التحكم في الوجود، فاللغة كنظام من الرموز تحقق وظيفتين متكاملتين.

الوظيفة التجريدية: لتكوين الأفكار التي تجرد الواقع وتختزله بشكل رموز تمكِّن الإنسان من فهمه وضبطه بدرجة أكثر.

الوظيفة الاتصالية: حيث تعمل اللغة كوسيط للتفاعل بين الأفراد، ولنقل واستقبال المعلومات، وبقول آخر، تتحدد وظيفتا اللغة بالاتصال والتعميم وما يقوم بين هاتين الوظيفتين من تفاعل إنَّما يثري دور اللغة في حياتنا.

الأطفال الصغار كلّهم يتعلمون اللغة «الكلام» هذا الميل الطبيعي إلى اكتساب الكلام هبة مسجلة في الإرث الجيني الذي نتلقاه ككائنات بشرية، ولاشك بأنَّ المعوقات البدنية والفيزيولوجية الشديدة للغاية وحدها يمكن أن تؤثر على نمو هذه المقدرة العجيبة التي تشير إلى عظمة الإنسان وتميزه.

فالكلام كما أسلفنا هو لغة التواصل والتعبير بين البشر. والتي تتجزها أعضاء التصويت «أعضاء إنتاج الصوت الكلامي واللغة الملفوظة» أو تتحقق من خلال ترميز بوساطة علامات مادية «الكتابة»، فإنَّ الكلام بالنسبة للثاني هو أيضاً التعبير اللفظي عن الفكر. واللغة هبة التطور على صعيد تطور السلالات، فالإنسان ليس سابق الوجود على اللغة، فلدى الرئيسات منظومات بصرية وسمعية شبيهة بمثيلتها لدى الإنسان، وتشكل مجتمعات منظمة وتتمتع بمنظومات تواصل معقدة «قرود الغرفت» ولكن لدى الإنسان حدثت تطورات لجهازه الصوتي مع ازدياد تلافيف دماغه وإعادة قولبته ومن خلالها ينبغي تصور متتاليات.

التغيرات الجينية التي أفضت إلى تسجيل لياقة اللغة المتكلمة في رموز جيناتنا.

يأتي الوليد إلى العالم صارخاً، لا يتوقف إنتاج الأصوات عند الكائنات البشرية ولا في حال وجود مرض وهذه الأصوات مرتبطة بشكل كامل بفيزيولوجيته. إذ يطلق أصواتاً تلقائية أو استجابية تعبر عن راحته أو عن توعكه، فالرضيع فائق الانتباه للكلام، ينظر، ينصت، يتابع بانتباه حركات الفم، ويحاول تقليدها، تعابير الوجه واليدين والجسم، يشم الرائحة ويميزها يسمع الأصوات ويميزها، يميز النغمات، والضحكات والحركات.

ويتلقف الطفل اللغة عن طريق ربط الأصوات والمعاني وفق القواعد الصوتية والنحوية لهذه اللغة «النبرات والإيقاع والتنغيم» والتي تربط الوحدات في أشكال منظمة «كلمات، تراكيب تعبيرية، جمل».

يبدأ الطفل تعلم «الثغثغة» يرافقها مقاطع لفظية بسيطة متوالية. «حرف صامت، حرف صائت مثل با- ما» أو ب- م- ت وهي حروف صوامت، وهناك تكرارات لها.

يبتكر الطفل هذه الحروف ويكررها

ويحول فيها «تاتا- با- با- ..» وقد أجريت على هذه المرحلة تجارب كثيرة في دول عديدة وأهم ما خلصوا إليه بأن الطفل الرضيع الأصم بالولادة يصوت مثل الطفل الرضيع القادر على السمع ولا يلاحظ توقفه عن التصويت إلا وقت الثغثغة فالطفل الأصم لا يثغثغ ولا يبدأ بإنتاج مقاطع لفظية أو متواليات مقاطع لفظية في العمر الذي يبدأ فيه الطفل القادر على السماع بإنتاج ذلك نحو عمر سبعة أشهر، إذ نشاهد الطفل الأصم بأن التصويتات عنده تميل إلى التضاؤل ويلجأ إلى الإشارات.

ويتأثر الطفل بشكل عام ومنذ وقت مبكر جداً باللغة المتكلمة في محيطه ومن أسرته.

وحسب رأي «جان جاك روسو» الكلام أوّل مؤسسة اجتماعية ينبثق في جوانبها تطور الجنس البشري، وملكة التواصل بين أفراد الجنس البشري.

ومع نمو الرضيع تتعدل مواقف الوالدين وأسلوب لغة الأم ومضمونها، إذ تكون الأمهات أكثر تكلماً وتناغماً وانسجاماً عندما تجد طفلها متجاوباً معها فتبادله التجاوب والانسجام وكان في القرن الثالث عشر الطبيب «ألدبر إندن دوسين» طبيب إيطالي كان يعبر عن نفسه بالإنكليزية، يقول للأمهات نصائح كي يتمكن الطفل من أن يقول كلماته الأولى بارتياح: «افركن فمه بالملح الصخري أو بالعسل، اغسلن فمه بلبن الشعير خصوصاً إذا تأخر بالكلام»، لتجعله يقول كلمات ليس فيها كثير من الحروف التي تحرك اللسان مثل، ماما- بابا.. هذه النصائح مرتبطة بفكرة أنَّ الأسنان ضرورية للتكلم.

بعدها تأتي مرحلة التقطيع والتجميع لتشكيل المفردات ولذلك ينتظر من الطفل استخلاص وحدات معاني الكلمات التي يسمعها وليست هذه مسألة سهلة إذ يتجلى الكلام في الواقع مثل موجة صوتية متصلة نسبياً، يتعلق الأمر بعد ذلك باستذكار الكلمات على نحو يتيح تمييزها واستخدامها، ولكن الدراسات التي قامت على هاتين المرحلتين لتعلم الطفل اللغة شكلت مثار جدل وحيرة لفترات طويلة واعتبرت لغزاً محيراً برزت عند محاولتهم فهم كيف يكتسب الطفل كلمات لغته إذ تنساب اللغة من الفم كالموجة من دون توقف، ولذلك نجد الكبار من دون قصد عندما يتكلمون يقطعون الكلام ويجعلون بينه فواصل ليصبح أكثر تعبيراً وفهماً والطفل بشكل عام قادر على التمييز بين هذه الفواصل بطريقة لا شعورية.

ويشكل الإيقاع والتنغيم في اللغات كلها

جـزءاً من البنيـة الشكلية للـكلام تترافق الملامـح النغمية في بعض اللغات بفروق في المعنى والبنيـة، فتبدأ بالصراخ والصياح ثم مرحلة المناغاة وتتطور المناغاة نتيجة لثلاثة عوامل مهمـة: (التمييز السمعـي، الشعور بالقـدرة أو الإحساس بالمقـدرة، التعزيز)، ثم تأتي مرحلـة التقليد، مرحلة الإيماءات، مرحلـة اللغـة الحقيقية وفهـم اللغة، فهم اللغـة قبـل استخدامهـا، مرحلـة الكلمة الواحدة بوضعها في جملة، مرحلة الكلمتين، تكويـن العبارة وفهمهـا واستخدامها، وكل ذلك يحتـاج إلى سمـع وإحساس وتناغم وانسجام وتكرار إيقاعي ولفظي ونغمي مع الكلمات ليستطيع الطفل تمثلها لفظاً وفهماً واستخداماً وتكراراً وكلها متزامنة مع عمره الزمني والعقلي.

هل الأطفال كلهم متشابهون أم متباينون؟

الجواب كلهم متشابهون وكلهم متباينون فالأطفال كلهـم مبرمجون جينيـاً ليتعلموا الكلام، لقد أريد لأسبـاب نظرية أساسية، فصـل دراسة تسجيل مقـدرات الكلام في المنظومـة البيونوجية عن دراسة بدء عملها خـلال نموها، فقـد أكد داروين أنّ اللغة ليسـت غريـزة حقيقية بـل ولا تعلماً لفن عادي إنّمـا عبر بذلك عـن أن هذا التعلم ميـل غريزي إلى اكتساب فـن خاص جداً، من هذا المنطلق تصحح كلمة «فن» أن كلمة «غريزة» يمكـن أن تتسم بالاقتضاب حينما يتعلق الأمر باللغة البشرية.

وإذا كان الرضيـع مـزوداً بجهاز قوي وقابل للتكيف، فإنه سيتمكن من اكتساب لغة متلفظة أيّاً كانت خاصيات بيئته اللغوية.

إلا أنّ اختلافـات فنية ستظهر، اللغات متنوعة، متنوعة جداً، وإذا كانت قواعد أولى تعلل وجود سمات أساسية تبنى عليها، فإنه من غـير الممكن أنّ طـرق إنجازها مختلفة جداً.

يتعلم الطفـل اللغة المتكلمـة في بيئته، يقـوم بذلك ضمن الأشـكال والحدود التي يقدمها له التعيين الجيني في بيئته، غير أنّ هذه المقاربة ستحمل أيضاً علامات تعييناته الخاصـة به وعلامـة خبرتـه في الدالات النوعية التي سـتزوده بها لغته وثقافته كي يعمل على تحديث ميله الغريزي إلى اكتساب فن الكلام.

ونحـن نعرف جميعنا بأنّ اللغة أكبر قوة وجدت للاندماج في المجتمع. ولدى الأطفال كلهم حاجات أساسية مشتركة تتضح معالمها في بعض الأشكال المشتركة للمفردات الأولى ولكـن يجب عليهم جميعاً، كي يتواصلوا مع المحيط أن يكونوا موضع اعتراف كأشخاص

متكلمين، وبالتالي أن يتكلموا لغة بيئتهم وأن يتمثلوا لبعض التقاليد الشكلية والاجتماعية التـي تفرضها اللغة والثقافة في الآن نفسه، تتشكل مفرداتهـم بالتماس مع لغة البالغين التي تلقن الصغار منـذ البداية ليس فقط أشياء العـالم الذي ينبغي رؤيتها وفهمها، بل أيضاً طريقة قولهـا، وكيفيات التعبير عنها التـي تتيح للطفل أن يكـون موضع اعتراف ومفهوماً في الوقت ذاته.

لا يتعلـم المرء اللغة مـن ذاته لذاته، مع ذلك تنتظـر الأمهات بصبر كلمات الأطفال الأولى، ولدى غالبيتهن الرغبة في المساعدة أو بالأحرى في تسريـع بدايات الكلام عند أطفالهـن مـع أنَّ هنـاك تمايـزاً واضحاً ومبكراً في إستراتيجيات الوالدين في إيقاظ الطفـل تجاه البيئـة الطبيعية وفي تحريك مشاركتـه في العـالم الخارجـي، وتتمحور هـذه الإستراتيجيات غالباً حـول مواضيع ومفـردات يعلمونهـا لأطفالهـم تتعلق بما يحيط بهم بشكل مباشر (ماما، بابا، تاتا..) والأشيـاء الضرورية للبقاء، (حليب، شراب، نانا..) والأشياء التي تلبس، حذاء، جاكيت.. وأشياء تحـدث أصواتاً (هاتـف، تلفزيون، ضـوء..)، وأشياء تتحرك (سيـارة، قطار، باص، وحيوانات أليفة (كلب، قط، بطة..).

ويحب الطفل اللعب وهو حاجة أساسية (عمل الطفل الدائم وشغله الشاغل) إذ يجد الطفل في لعبة الاختفاء (الظهور والاختفاء) لعبة جميلة جداً.

أخـيراً هنالك جانـب آخر يـدل على الانشغـالات الأساسيـة المتماثلة عند وضع مختلـف الثقافـات أي جانـب التواصـل الاجتماعي: العبـارات المستخدمة في قول صباح الخير أو إلى اللقاء، في معظم المفردات الأولى للأطفال.

مـع ذلك تعـدل الاختلافـات الفردية، وتأثير الثقافة وبنية اللغة، منذ وقت مضى، خيار وتوزع كلمات الطفل الأولى.

فالطبقـة الاجتماعيـة والمستويـات التعليمية تتكشـف أيضاً في أساليب التعبير لأعضاء هـذه الثقافات الفرعية، ونستطيع أيضـاً أن نحكـم علـى شخـص متحدث بأنـه ينتمـي أيضـاً إلى الطبقـة الوسطى أو الدنيا من خلال طريقتـه في الحديث، واستخدامه للكلمات وطريقة التلفظ، رغم أنه من الصعب تحديد الفرق بين الطبقتين الوسطـى والعليـا. والطبقـة الوسطى من خلال الدراسات تبين أنها تسعى مباشرة إلى مزيد من الضبط لسلـوك الطفل ولتكوين نظـام أخلاقي معنوي لديه وذلك من خلال أساليـب للتنشئة يلعب فيها الوسيط اللغوي الدور الأكـبر، ومـن شـأن الاستخدامات

اللغوية أن تنظم المعاني الثقافية التي يجري توصيلها بطريقة صريحة أو ضمنية.

لذا تمثل اللغة – كوسيط للمعرفة وكجانب من جوانب الثقافة، وكأداة ثقافية للثقافة وكعامل ثقافي توحيدي للثقافة– قضية ذات أهمية بالغة في عالمنا أن تعليم وتعلم اللغة له علاقة وثيقة بالدراسات النفسية، وتنسب إلى ميدان علم النفس اللغوي الذي بين أنَّ فهم العلوم المساعدة يخدم كمؤشر معرفي تدور حوله المعلومات المتخصصة في تعلم وتعليم اللغة يقول الواقع إن التوازي الملحوظ بين علم النفس وعلم اللغة ليس غريباً وذلك بسبب علاقتهما القوية وارتباطهما الدقيق، وبعد أن يعرض جانباً من النظريات العلمية يجعل من العسير القول بأن هذه النظرية أو تلك صواب أو خطأ بل أصبح من المستحيل تفنيد نظرية بمعطيات نظرية أخرى وذلك لأن كل واحدة من هذه النظريات تشتمل على شيء من الحقيقة.

وقد استفاد الباحثون من تحليل لغة الطفل بطريقة منظمة في محاولة لاكتشاف طبيعة العملية النفسية واللغوية التي تمكن الإنسان من التحكم في هذا النظام المعقد من الاتصال، ثم عرض لنظريات اكتساب اللغة الأولى، ولعل أبرزها النظريات السلوكية التي تعنى بالجوانب المدركة من السلوك اللغوي ولاستجابات الملاحظة، وعلاقة هذه الاستجابات بالأحداث من حولنا وعندما يتم تعزيز استجابة معينة تصبح مادة أو أمراً متكرراً، وبناء على ذلك ينتج الطفل الاستجابات اللغوية التي يتم تعزيزها.

أمَّا النظرية الطبيعية والتي تفترض بأن اكتساب اللغة يتم فطرياً، وكل واحد منا يولد ولديه أداة تهيئة لاكتساب اللغة وإدراكها بطريقة منظمة، مما ينتج عنه بناء مستوعب كامل من النظام اللغوي مسلحاً بالمقدرة وهي المعرفة الضمنية بالنظام اللغوي، وكما أسلفنا فهناك علاقة وثيقة بين النمو اللغوي والنمو العقلي، لأنَّ لكل لغة طريقة لمحاكاتها يستعملها الطفل لاكتساب هذه اللغة، إذ إنَّ ترديد المسموع أسلوب واضح ومميز في التعليم المبكر لاكتساب اللغة وأصواتها.

والواقع أنَّ المراحل الأولى لدى الطفل قد يكون فيها الكثير من المحاكاة السطحية وذلك لأنَّ الطفل لم يمتلك بعد القدرة الضرورية لربط المعاني بالعبارات والألفاظ ولكن الأطفال مع مرور الزمن وفهم مستوى المعاني في اللغة يبدؤون في تركيز الكثير من اهتماماتهم على مستوى البنية العميقة للغة، وقد أوضح «براون» أنه حتى يتم الاكتساب الناجح للغة الأولى لابد من وجود الاحتكاك اللغوي وليس مجرد التعرض للغة،

والأطفال لا يتعلمون من مجرد استماعهم إلى كلام الآخرين، ولكن بسبب كونهم جزءاً من الحدث اللغوي نفسه حيث يتم الحديث معهم ويستجيبون للمحيط من حولهم، ولعلّ ما يساعدهم على ذلك الفترة الحرجة التي يمرُّ بها الإنسان وهي فترة فيزيولوجية محددة من النمو في حياة الإنسان يكون فيها اكتساب اللغة سهلاً وبتخطي هذه الفترة تكون اللغة أكثر صعوبة إذ إنَّ هناك الاعتبارات العصبية ومرونة المخ وطواعيته قبل فترة البلوغ تمكن الأطفال من اكتساب اللغة الأولى.

ولا عجب بأن نراهم يكتسبون نطقاً صحيحاً أفضل من الكبار لأنَّ النطق يشتمل على التحكم بالكثير من العضلات، وقد لوحظ عند الأطفال الذين يتعلمون لغة ثانية أنهم يتعلمونها جيداً من دون الاستفادة من التفكير العملي الذي يركز على حفظ القواعد وتكرارها والتمرن عليها.

والسبب في ذلك أنَّ الطفل تعلم اللغة في سياق طبيعي له معنى، بينما الأمر ليس كذلك بالنسبة للكبار، ونستخلص من ذلك: أنَّ المهم أن تكون الجمل والفقرات ذات معنى، ومن ثم يبدو أن الاتصال الذي يأتي في سياق وله معنى هو أفضل تمرين يمكن أن يشارك به المتعلم، وقد بيَّن «براون» أن عمليات الإدراك والحكم والتعرف والتذكر عمليات أساسية لفرص استيعاب اللغة، وتحدث «براون» عن مدرسة «سكنر» السلوكية.

إذ قال بأنَّ المعززات التي تتبع الاستجابة وتميل إلى تقوية السلوك تؤلف عاملاً مهماً في التحكم في السلوك الإنساني، وأشار براون إلى أهمية الجانب الانفعالي في التعلم وأهمية البيئة المشجعة وبأن التعلم لا يتمكن بشكل جيد إلا بإنشاء علاقات شخصية متميزة بين المعلم والطالب.

فحسب نظرية «روجرز» الإنسانية في علم النفس الذي بيَّن عدم اهتمامه بالعملية العقلية للتعلم إنما أكد على الظروف المصاحبة للتعلم حيث يرى أن تهيئتها بطريقة ملائمة تكفل تعلم الإنسان لكل شيء يحتاج إليه، ولكن «براون» خالفه الرأي إذ يرى بأن المعلم قد يجد نفسه تحت إغراء استعمال الطرائق غير المباشرة لتمكين الطلاب من اكتشاف الحقائق بأنفسهم مما يؤدي إلى ضياع الوقت، وقد تتحول البيئة التعليمية الدافئة المتساهلة إلى درجة تذهب فيها الضغوط اللازمة للتعلم، ومع ذلك يجب على المعلمين أن يشجعوا على إيجاد بيئة مناسبة للتعلم وأن يتخلوا عن حشو أذهان الطلاب بالمعلومات، لأن هذا قد يؤدي إلى

وضع يجد الطالب نفسه فيه مضطراً إلى التعلم الدفاعي، أي الدفاع عن ذاته ضد الفشل، والعقاب المحتملين.

وقد أشار «براون» بأن الانفتاح الاجتماعي في عملية التعلم ولم يجزم بأن أياً من الانبساط أو الانطواء يساعدان أو يعوقان اكتساب اللغة ويشير إلى معرفة الجانب الثقافي لمجتمع اللغة ومن هنا تأتي أهمية معرفة المعلم وإدراكه الأعراف الثقافية عند تقويمه لسلبية الطلاب المفترضة في قاعة الدرس، فالمجتمع الأميركي مثلاً لا يرى كثرة الكلام في قاعة الدرس أمراً غير لائق، وقد أشار «براون» إلى مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين وأشار إلى أنَّ الدافع هو مفتاح التعلم وفرق بين الدافع النفعي الذي يؤدي إلى اكتساب اللغة للانتفاع بها وبين الدافع الاندماجي الذي يستخدم عندما يرغب المتعلمون بالاندماج في مجتمع ما للاستفادة منه للغة ثانية، مزودة بالعلاقات الطيبة والوجدانية بين المتعلمين.

ولقد أثبتت الدراسات بأنَّ النمو اللغوي عند البنات يكون أسرع منه عند البنين وذلك فيما يتصل بعدد المفردات وطول الجمل والفهم ويكون هذا الفرق ظاهراً في السنوات الخمس الأولى وفيما بين السنتين الخامسة والسادسة نجد أنَّ الذكر والأنثى يتساويان أو أن الفروق بينهما متقاربة وكذلك أثبتت الدراسات بأن هناك علاقة واضحة بين الذكاء والقدرة اللغوية.

فضعاف العقول يبدؤون الكلام متأخرين عن العاديين، والعاديون يتأخرون في ذلك عن الأذكياء، وليس معنى ذلك أن كل طفل يتأخر بالكلام لابد أن يكون ضعيف العقل أو غبياً فهناك عوامل أخرى تتدخل في التأخر اللغوي غير الذكاء، وللطفل ذي القدرة العقلية الممتازة ميزات تتصل بقدرته على الملاحظة وإدراك العلاقات وفهم المعنى وإدراك الفروق التي بين المعاني المختلفة وهذه كلها عوامل تساعد على النمو اللغوي.

أمَّا البيئة فهي تشكل علاقة إيجابية بين المركز الاقتصادي والاجتماعي للأسرة التي ينشأ فيها الطفل ونموه اللغوي، فالأطفال الذين ينشؤون في بيئات مريحة مجهزة بوسائل الترفيه ويكون أهلهم متعلمين تمكنهم فرصهم من التزود بعدد كبير من المفردات وتكوين عادات لغوية صحيحة بعكس الأطفال الذين يعيشون في بيئة فقيرة حتى في حالة تساويهم مع الأول في درجة الذكاء.

أخيراً نقول: إنَّ التعاطي والتواصل مع الطفل مهم له كالطعام والشراب فالطفل

الذي يحصل على الغذاء الكامل والعناية الطبية ويحرم من العلاقات الإنسانية ومخالطة الكبار ينمو نمواً سيئاً ليس من الناحية النفسية فحسب بل ومن الناحية الجسدية أيضاً، فيتناقص وزنه ويفقد الاهتمام بالحياة.

ولقد أظهرت دراسات لحالات موت غير مفهومة علمياً لرضّع في دور الأيتام في أميركا وأوروبة بعد الحرب العالمية الأولى أنَّ سبب وفاتهم هو حاجتهم غير المتوافرة لعلاقة مع شخص قريب يعيرهم اهتمامه الدائم.

ولقد أثرت هذه النتيجة كثيراً في المربين والأطباء وعلماء النفس وأصبحت مسألة العلاقة بالطفل تهم العلماء أكثر من ذي قبل، إذ بينوا بأنَّ التواصل والعلاقة الإنسانية الحسنة والألفة والمحبة بين الطفل وأسرته تلعب دوراً في نموه من جميع الجوانب العقلية والجسدية والنفسية والروحية.

وعلينا أن نعرف نحن الكبار بأن علينا أن لا نربي أطفالنا كما تربينا فلكل زمان أهله وثقافته وطرقه.

مراجع البحث

١- كيف نتواصل مع الطفل؟ غيبينز يتير، ي. ب، ترجمة د بشرى الحلو.
٢- المعرفة اللغوية: طبيعتها وأصولها واستخدامها.
نعّوم تشومسكي، ترجمة محمد فتيح، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٣م.
٣- معمر نواف الهوارنة، دراسة بعض المتغيرات المؤثرة في اكتساب اللغة لدى أطفال ما قبل المدرسة، رسالة ماجستير، القاهرة ٢٠٠٣م.
٤- نوال محمد عطية، علم النفس اللغوي، القاهرة، الأنجلو المصرية ٢٠٠٠م.
٥- محمد رفقي عيسى، سيكولوجية اللغة والتنمية اللغوية لطفل الرياض. الكويت، دار القلم للنشر والتوزيع ١٩٨٧م.
٦- ليلى أحمد كريم الدين، اللغة عند الطفل تطورها والعوامل المرتبطة بها، مكتبة أولاد عثمان ١٩٩٣م.

التربية السكانية وثقافة الحاجة

د.هشام سعيد الحلاق ٭



١- بدايةً لنقرأ معاً الأحداث المتوقعة مع مطلع عام ٢٠٢٥م [١]:

• سيتجاوز عدد سكان العالم (١٠) مليار نسمة بينما لم يتجاوز حالياً (٧) مليار نسمة!

• سيتركّز ٩٠٪ من النمو السكاني العالمي في المناطق الحضرية!

• سيتضاعف عدد سكان أفريقيا ثلاث مرات عمّا عليه الآن!

• سيعيش حوالى ١.٥ مليار شخص في فقر مدقع!

• سيبلغ عدد الأميّين في العالم (المليار) ثلثيهم من النساء!

• من لا يحصلون على الماء الصالح للشرب والرعاية الصحية (١.٥) مليار نسمة!

٭ خبير وأستاذ محاضر في كلية التربية بجامعة دمشق.

إذن، مـا يتوقع حدوثـه في عام ٢٠٢٥م علـى الأرض وعلـى صعيد الظاهرات السكانيـة فيها، وما يمكـن أن يتحقق فعلاً مـن تلك التوقعـات، يمثّل مؤشّرات لخلل صـارخ في النظـام السكاني العالمي الذي يحتاج إلى حلول عاجلة لتصحيح هذا الخلل أو للتخفيف مـن تداعياته السلبية الخطرة على الإنسانية والعالم أجمع[٢].

إنّ ما أُطلق عليه بعض علماء المستقبليّات بمسـار الهـلاك للجنـس البشـري كأحد الخيارات التي سيواجهها العالم في السنوات القادمة، قد جعل من الزيادة السكانية التي يشهدها هـذا العالم اليوم، ومـن استنزاف شديد لمصادره غير المتجددة مصدراً أساسياً لتوقّع المسار المذكور.

فقـد أوضـح «بـاول إيرليش Paul R. Erlich» في كتابـه «القنبلـة السكانية» منـذ عام ١٩٧١م خطـر الانفجار السكاني بقولـه: «لا يمكن لأي تغيـيرات في السلوك أو التقنيات أن تنقذنا ما لم نستطع السيطرة على حجم الأعداد البشرية للسكان، وتحقيق نوع من التوازن بـين الولادات والوفيات في معدّلات التزايد الطبيعي عندهم. وإلاّ فإنّ الجنس البشري سيتّجه نحو حتفه وهلاكه». (عن سايتز ١٩٩٠م، ص ٢٠٩).[٣]

من أجل ذلك فقد غدا مصطلح «التربية السكانيـة» ووضـع إستراتيجيـة خاصة به إحدى أبرز الإستراتيجيات الإنقاذية للنظام السكاني في العالم اليوم.[٤]

٢- ما المقصود بالتربية السكانية؟

عرّف سالاس Salas منذ عام ١٩٧٨م التربيـة السكانية بأنّها «عبـارة عن سلسلة مـن التساؤلات حـول طريقـة استكشاف الظاهـرة السكانية وآثارهـا على التغيرات السكانية».[٥]

وجاء بعده فيدرمان S. Viederman[٦] لـيرى أنّ التربيـة السكانيـة هـي: «عملية تعليمية تساعد الأفراد على:

- فهـم أسبـاب الظاهـرات السكانية ونتائجها وتفسيراتهـا، وتحديـد طبيعـة المشـكلات المرتبطة بها، ومـا ينعكس منها سلباً على السكان داخل مجتمعاتهم.
- تحديد الوسائل الفعّالة والممكنة التي عن طريقهـا يستطيعون كأفراد في المجتمع أن يستجيبـوا ويؤثّروا في تلـك العمليات، مـن أجل تحسـين نوعية حياتهـم حاضراً ومستقبلاً».

أمّا شارما R.C. Sharma فقد عرّفها بأنهـا «دراسة البشـر بعلاقاتهم من وجهة نظـر تهدف إلى تحسـين نوعية الحياة من دون تدمـير أو معـاداة للبيئـة».[٧] وبذلك فإنّ هذا التعريف يؤكـد على أهمية البيئة ودورها الفاعل في التربية السكانية.

وإذا كان الخلـل في استقـرار النظـام

السكاني والنظام البيئي قد أقلق العلماء أو المختصين- نظراً لحالة التدهور والاضطراب التي وصلت إليها تلك النظم – فتصدّوا لهذا الخلل، واقترحوا حلولاً، ووضعوا برامج لغرض معالجته وردت كلّها تحت مسمّيات وعناوين عديدة كان الأبرز منها ما أُطلق عليه «التربية السكانية»، فقد تجاوز هذا القلق و-على صعيد المجتمعات والدول- أولئك العلماء إلى كثير من الحكّام والمسؤولين فيها، تُرجم ذلك باهتمام هؤلاء بالمشكلة السكانية في بلدانهم، ووضعهم برامج خاصة فيها تستطيع أن تُسهم في تكوين وعي اجتماعيٍّ وثقافيٍّ بيئيٍّ، يمكن أن يرقى بأخلاقيات الأفراد وتكوين اتجاهات سليمة وممارسات سلوكية واعية يستطيعون بها فهم تلك النظم السكانية والبيئية في بلدانهم، وإدراك أسس توازناتها ومعطياتها الطبيعية والاجتماعية المختلفة.(٨)

وفي ضوء هذا الاهتمام الأوسع بالمشكلة السكّانية، وتبنّي الدول لها عبر حكوماتها والهيئات والوزارات التابعة لها، فقد تطور مفهوم التربية السكانية وتطورت معه الآليات المتّبعة في تحقيق هدفها، وبالتالي تنوّعت التعريفات الخاصة بها مع تنوع تلك الدول واختلاف بيئاتها وتوجّهاتها!

لقد جاء التعريف في سورية وعبر وزارة التربية فيها حسب التالي:

«تمثّل التربية السكانية جهداً تربوياً يهدف إلى توعية المتعلمين بالظاهرات السكانية وعلاقتها بالموارد المتاحة، لاتخاذ مواقف رشيدة ومسؤولة حيال تلك الظاهرات بما يخدم التنمية الشاملة في سورية ويساعد على تحسين نوعية الحياة للفرد والأسرة والمجتمع»(٩). والملاحظ أنّ هذا التعريف يركّز على هدفٍ عامٍّ أساس هو تحسين نوعية الحياة لسكان المجتمع.

بينما أخذ التعريف في ألمانيا المضمون التالي:

«جهد تربوي يمكّن الأفراد والجماعات من إدراك التطور الديموغرافي الذي يعتمد التطور الاقتصادي والاجتماعي، ويهدف إلى إعانة الناس على إجراء تغييرات في حياتهم الشخصية وإزالة معوّقات التقدم الاجتماعي لديهم، وفق المستلزمات الاجتماعية التي تؤدّي إلى تطوير بلدهم ديموغرافياً» (المكتب الإقليمي ١٩٨٧م، ص٩٢)(١٠) والمُلاحظ هنا أنّ هذا التعريف يُعتبر شاملاً لخصائص التربية السكانية كنظام تربوي فعّال لفهم الأفراد كل ما يتعلّق بالقضايا السكّانية في مجتمعاتهم والدور الذي تلعبه على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والبيئي(١١).

٣- ما الحاجة إلى التربية السكانية؟

ربما سنجد في مضمون المجالات التالية الإجابة المقنعة لهذا التساؤل:

- ففي المجال السكاني: فإن التربية السكانية تُعين على إدراك طبيعة المشكلات التي تنضوي على عناصر ومؤشرات سكانية وتُساعد على تحديدها.

- أمّا في المجال التنموي: فهي تُعين على إدراك الناس بأنّ مظاهر التنمية الاقتصادية والاجتماعية تتأثر بحراك السكان وحيواتهم في المجتمع أو الدولة حيث يَعيشون.

- وفي المجال التربوي: فإنَّ التربية السكانية تُسهم بأساليب متعددة في التطوير العام للتربية وفي تجديدها. فهي تعمل على المساعدة في إعادة تنظيم المناهج الدراسية على أساس الجمع بين فروع المعرفة المختلفة منطلقةً في ذلك من أنَّ القضايا السكانية تحمل في ذاتها مقوّمات اقتصادية واجتماعية في البيئة التي تستهدفها، وفي اختيار محتوىً تعليمي تربوي ذي علاقة مباشرة بحياة المتعلمين بما يقدّم هذا المحتوى من حلول تُسهم في حلّ المشكلات السكانية والتربوية التي يواجهونها.

- أمّا في المجال الثقافي: فالتربية السكانية تُسهم في إكساب المعلومات والاتجاهات والقيَم والأعراف والعقائد التي يتبنّاها الناس فيما يخصّ الشؤون المرتبطة بهم كالعلاقات الأسرية والعادات والتقاليد الاجتماعية ووضع المرأة ودورها والأطفال... أي في مساعدة هؤلاء على تعرّف ديموغرافيّتهم الشعبية وما تنطوي عليه من تأثيرات تتعلق بالقرارات السكانية (اليونسكو ١٩٧٨م، ص ٢٥).(١٣)

- وأخيراً على صعيد الفرد والأسرة: فإنَّ برامج التربية السكانية تؤكد على الأوضاع الفردية والأسرية من أجل أن تكون ذات معنى للمتعلمين، وأكثر استجابة لحاجاتهم، بجعلهم يمتلكون القدرة على اتخاذ قرارات حياتية خاصة بعائلاتهم وحياتهم الأسرية بصورة عامة.

لاشكّ أن ما مرّ من تعريفات حول التربية السكانية، وما جاء من حاجة لمضمون ثقافتها يتّفق وبشكل كبير على أنَّ التربية السكانية تمثّل في النهاية برنامجاً تربوياً موجهاً بالدرجة الأولى للفرد بهدف تعميق فهمه وإدراكه للظاهرات السكانية، وتنمية مهاراته في اتخاذ القرارات المناسبة والمسؤولة في المسائل والقضايا السكانية، خاصة ما يستهدف منها الحد من النمو السكاني السريع بغرض تحسين حياته كفرد وحياة الأسرة والمجتمع الذي ينتمي إليهما.

وما دام الإنسان يشكل عنصراً هاماً وفاعلاً في البيئة حيث يعيش، فالتربية السكانية لابد وأنها تمثل مكوناً هاماً مما يسمى بالتربية البيئية، وبذلك يكون الهدف الأساس من التربية السكانية (وخلافاً لما يعتقده البعض في أنّه عبارة عن مخطط

لتقييد حريات الأفراد من حيث تحديد حجم الأسرة التي يرغبون في تكوينها، أو انتقاد أو تجاوز لموروث ثقافي أو معتقدي في مجتمع من المجتمعات خاصة الفقيرة منها) بل هو تقديم جهود تسهم في عملية التغيير الشاملة للمجتمعات عبر ثقافة معرفية مُكتسبة تبدأ من داخل المدرسة وتستمر لخارجها من أجل تحسين نوعية حياة الأفراد فيها[١٣].

إنّ مثل هذا التغيير يحتاج بالضرورة لجهود مجتمعية متضافرة للوصول إلى نوعية حياة أفضل. من أجل ذلك فقد تعاظم اهتمام البشرية بالمسائل السكانية سواء في الدول المتقدمة -التي عمل انخفاض معدلات النمو السكاني فيها على خلق مشكلات تجلّت في جعل أكثر من ٤٥٪ من أفراد مجتمعاتها كهولاً، مما أدى لجعل حاجتها للقوى العاملة كبيرة وإلى اضطرارها لاستيرادها - أو ما كان من مشكلات في الدول النامية -عندما اقتنع المسؤولون فيها بأنّ أية مجهودات في الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي لابد وأن تمر عبر ثقافة ضرورية تتكفل التربية السكانية في إكسابها للأفراد عن طريق تنفيذها لبرامج تستجيب لحاجاتهم بجعلهم يدركون أهمية الحد من النمو السكاني السريع وما يحدثه ذلك من إرباكات للخطط التنموية في بلدانهم ويتعرفون بالتالي على الظاهرات السكانية وما يدور في فلكها من معارف وقيم وسلوك تتعلق بتلك الظاهرات.

٤- التربية السكانية خارج المدرسة[١٤]:

إذا كانت التربية السكانية ببرامجها المختلفة قد مثّلت أحد المبتكرات التربوية النوعية والهامة في حياة المجتمع لدى عديد من الدول وخاصة ما كان في العقود الأخيرة من القرن الماضي عندما أسهمت في التجديد التربوي وتطويره في تلك الدول؛ فإنَّ الكثير من تلك الدول لم تكن راضية عمّا حققته برامج التربية السكانية فيها! ولا غرابة في ذلك مادامت جهود تلك البرامج قد ركزت أو استهدفت فقط تلاميذ المدارس، وتجاهلت من هم خارجها. من أجل ذلك، فقد سعت تلك الدول ولحل هذه المشكلة إلى تصميم برامج في التربية السكانية تستهدف من هم بحاجة لمثلها (ممّن هم من خارج المدرسة).

ومن المفيد هنا الحديث وبشيء من التفصيل عمّا يسمى بالتربية السكانية خارج المدرسة وذلك عبر النقاط التالية:

أ- من هم المستهدفون ببرامج التربية السكانية من خارج المدرسة؟:

مما لاشك فيه أنَّ مثل تلك البرامج التي تأتي من خارج المؤسسات التعليمية المدرسية، تستهدف في الغالب شرائح مجتمعية تتمثل في الفئات المحرومة من التعليم المدرسي

الابتدائي، أو المتسربين من ذلك التعليم، عدداً من الشباب والكبار والبنات والنساء.

لقد بدأ تفكير الدول -خاصة النامية منها- في كيفية الوصول إلى تلك الشرائح من السكان واستهدافهم في برامج التربية السكانية، بعد أن توافرت لها أسباب موجبة عدة لذلك أهمّها:

١- ارتفاع معدل النمو السكاني فيها وصعوبة السيطرة عليه بالوسائل التقليدية الخاصة بتنظيم الأسرة.

٢- ضرورة الأخذ بعين الاعتبار ارتباط التربية السكانية بالتوعية الوطنية أو القومية، والنمو الاقتصادي.

من أجل ذلك فقد شرعت تلك الدول بوضع العديد من البرامج الخاصة بهذا الشأن عن طريق مؤسسات تربوية غير مدرسية من مثل المعنية بالإعلام أو الصحة أو الثقافة أو بعض الهيئات الشعبية الأخرى بما يحقق تكاملاً مع الأهداف المرجو تحقيقها من برامج التربية السكانية لمن هم من داخل المدرسة.

ب - النشأة والتطور:

كان أول برنامج تمّ تخطيطه وتنفيذه في التربية السكانية في السويد عام ١٩٣٠م كمحاولة منها حينذاك لتفادي الانخفاض الكبير في نسبة المواليد فيها، تبعتها الولايات المتحدة وللسبب نفسه، وكان تنفيذ تلك البرامج يتم خارج المدرسة بحيث لم يتم إدخال برامج التربية السكانية رسمياً ضمن برامج التعليم العام والعالي إلّا في بداية الستينات، وإن كان جانب من هذا البرنامج قد دخل إلى بعض الدول الأوروبية في العقود الأولى من القرن الماضي من خلال ما سمّي بالتربية الجنسية (التعليم الجنسي بهدف تعرّف ظاهرة الأمراض الجنسية التي تفشّت بين أوساط الشباب عندها..).

بينما تركّزت جهود البلدان النامية في هذا الجانب من التربية السكانية خارج المدرسة من خلال مفهوم نابع من حاجات مجتمعاتها، تمثّل ذلك ببرامج تتعلق بتنظيم الأسرة وتهدف بأساسها إلى التقليل من الارتفاع الكبير في نسبة الزيادات الطبيعية فيها (على الرغم من تصادم هذه البرامج في أحيان كثيرة بعوائق عديدة تعود معظمها لأسباب دينية وعقائدية أو ذات علاقة بالموروث الثقافي لتلك البلدان).

لقد شهدت مثل هذه البرامج في التربية السكانية من خارج المدرسة في تلك الفترة انتقادات كبيرة؛ بحجّة أنها وجّهت في الأصل إلى الأسر التي تضم عدداً كبيراً من الأولاد، أي إنّها برامج تحاول أن تواجه المشكلة بعد حدوثها!.. بحيث كان من الأفضل أن تعمل تلك البرامج عملها بمفعول وقائي يعمل على تفادي المشكلة قبل حدوثها، كأن يكون

توجيهها للأطفال والشباب منذ مراحل مبكرة من أعمارهم.

وبالطبع فإنَّ هذا النمط من التفكير والنقاش حول التربية السكانية خارج المدرسة قد شمل أيضاً البرامج والمستهدَفين منها داخل المدرسة، وكان ذلك مع بداية العقد السابع من القرن المذكور، وعدم اقتصارها وكما سبق ذكره على المجهودات خارجها.

ج - الإطار النظري للمفهوم:

إنَّ العلاقة بين النمو السكاني من جهة والنمو الاقتصادي والاجتماعي من جهة ثانية متشابكة وقديمة، وبالتالي فإنَّ الاهتمام بموضوع هذا التشابك يرجع لبداية التجمعات البشرية وبروز الحضارات القديمة.

فقد كانت الزيادة السكانية ومن خلال الأفكار التي كانت سائدة في العالم (خاصة في أوروبة وحتى القرن الثامن عشر) تعني:

أ- الزيادة في القوى البشرية وتوسيع حجم القوى العاملة والمنتجة لتحقيق نمو مضطرد ومتزايد في الناتج القومي.

ب- التوسع بسوق الاستهلاك والتنوع في طلب الإنتاج.

ج- زيادة حجم السكان يؤدي إلى رفع قوة الدولة وتثبيت دعائمها وتنامي شعورها بقدرتها الأكبر بالمحافظة على سلامة مواطنيها وحمايتهم ضد الغزوات والحروب الخارجية عليها.

هذا الشعور ربما المفرط في التفاؤل نحو زيادة السكان في بلد ما في تلك الحقب التاريخية من حياة المجتمعات، قد شهد تغيّراً أضحى لدى بعضها ضرباً من التشاؤم، خاصة في أوروبة في ظل التطورات والتغيرات التي طرأت عليها وعلى مجتمعاتها سواء على الصعيد التقني أو الفكري أو الصناعي.. وبالتالي فقد ظهرت الزيادات السكانية العالمية في أجزاء عدة من العالم على أنها أضحت تشكّل عبئاً كبيراً على قدرات الإنسان عبر تطوره (كما ورد عند مالتوس في شرحه للعلاقة بين السكان والظروف الاقتصادية التي يعيشونها من خلال فرضياته المعروفة).

وعلى الرغم من أن النمو السكاني المتزايد كان في البلدان الأكثر تطوراً بالعالم في فترة القرن التاسع عشر (كما في أمريكا الشمالية - أوروبة - الاتحاد السوفياتي سابقاً) أعلى من المناطق التي تمثلها اليوم البلدان النامية، إلا أن الصورة اليوم قد تغيّرت باتجاه معاكس! بحيث دلّت الإحصاءات بأنَّ عدد السكان في تلك الدول ارتفع على سبيل المثال وخلال عشرين سنة فقط من ٢ مليار إلى ٣.٣٨ مليار (حدث ذلك بين عامي

١٩٦٠ و١٩٨٠م)، بينما زاد عدد السكان في الدول المتقدمة من مليار واحد إلى ١،١٣ مليار فقط في الفترة المذكورة نفسها!

إذن، هذا التزايد المتسارع في السكان بات من الموضوعات الهامة لدى معظم البلدان وخاصة النامية منها، لأن مثل هذا التزايد غير المخطط أصبح يشكّل عائقاً ملفتاً أمام الجهود التنموية و الاقتصادية والتعليمية والصحية في تلك البلدان، كما أصبح واضحاً أنَّ الحل الأنجع لمثل هذه المشكلة يكمن في ضبط هذا التزايد السكاني، والحد من تسارعه بما يكفل تحقيق نوع من التوازن بين أعداد السكان وبين توافر موارد الغذاء وتأمين فرص العمل والسكن وخدمات التعليم والصحة والطاقة والخدمات الأخرى فيها.

من هذا الواقع أو المبرر القوي المتأتي من ارتفاع عدد السكان وإدراك ما يسببه ذلك من مشكلات: فقد خطت كثير من الدول المتقدمة وبعض الدول النامية خطوات كبيرة في تخطيط برامج وسياسات سكانية لمجابهة هذه المشكلة والعمل على حلّها أو التخفيف من سلبياتها وخطورتها، بحيث استهدفت معظم هذه البرامج ما من شأنه التأثير على الخصوبة ومن ثمّ السيطرة على الزيادة السكانية المضطردة في مجتمعاتها، كما طبقت العديد من الدول النامية الأخرى برامج تنظيم الأسرة ونجحت في السيطرة على معدل الخصوبة فيها، وبالمقابل فقد أخفقت دول نامية أخرى أو تعثرت في تنفيذ مثل هذه البرامج نتيجة لمعوقات أهمّها نسبة الأميّة العالية، إضافة إلى سيطرة بعض العادات الاجتماعية.. الأمر الذي أبرز الحاجة إلى برامج تعليمية منظمة ومخططة تهدف إلى تغيير سلوك السكان في تلك البلدان عن طريق التعليم النظامي وغير النظامي خارج المدرسة مما يؤدي في النهاية إلى تعلم سكاني موجه إلى الجميع ويطال الأطفال والشباب والكبار...

د - المناهج والموضوعات:

يشكل اختيار محتوى التربية السكانية لمن هم خارج المدرسة صعوبة أكبر مما هو عليه الحال في اختياره للمستهدفين لمن هم من داخل المدرسة. وتأتي هذه الصعوبة من اتساع وتباين في النسيج المكوّن لتلك الشريحة المستهدفة من السكان، من حيث حالتها الاجتماعية ومستواها التعليمي أو الثقافي، أو حتى نوع اللغة الأصلية لأفرادها، أو الأعمال التي يزاولونها، أو ما يكون من تأثير لمعتقداتهم أو أوضاعهم المعيشية ومراتبهم الاجتماعية في البيئة حيث يعيشون.

إنّ مثل هذا التباين في المكونات

الشخصيـة لهـؤلاء الأفـراد يجعـل منهم مجموعات تختلـف من حيـث احتياجاتها واهتماماتهـا واتجاهاتها تختلف من واحدة إلى أخـرى، وهـذا ما دفـع المعنيّين ببرامج التربيـة السكانيـة إلى مراعـاة هذا التباين ممّا أوجد مناهـج متعددة للتربية السكانية خـارج المدرسـة، كان من أهمهـا تلك التي اقتُرحـت منـذ عـام ١٩٧٥م في بانكـوك، وضمّـت موضوعات تتعلـق بمناحي الحياة الإنسانيـة في المجتمعات المختلفة - خاصة المتأثرة منها بالنمو السكاني المتسارع- بحيث تشكّلت تلـك المناهج وبمجملها من مفاهيم عامـة ونظريات مأخوذة من العلوم التي لها علاقـة بالظاهرات السكانيـة، أو ما يتعلق منهـا بالنمو السكاني وتزايـد عدد السكان كما في العلـوم الإنسانية من مثـل التاريخ والجغرافية والاقتصاد والاجتماع وعلاقتها المباشـرة بعلم السكان، ومـا يمكن أن يثري مضامين مناهـج ومحتوى التربية السكانية، وبصـورة خاصـة لجهـة علاقـة الإنسان بالبيئة، وهنالك أيضاً العلوم الطبيعية وعلم الأحيـاء وما يوفرانه للتربيـة السكانية من معلومـات خاصة بالتناسل والتكاثر، إضافة لما يمكن أن تقدّمه علوم التغذية والاقتصاد المنزلي لتلـك المناهج من معلومات ومعارف هامة تتعلق على سبيل المثال بصحة الأمومة والطفولة والتغذية الصحية وغيرها.

أمّا عن المعلومـات الأساسية والرقمية الخاصـة بالتربية السكانيـة، فإنها تُؤخذ وبشـكل رئيس من علم الديموغرافيا، حيث يحدد هذا الأخير العوامـل الأساسية التي تؤثر على النمو السكاني من حيث:

أ - **حجـم وتغير السكان** ومـا يتعلق بذلك مـن معدل المواليد ومعـدل الوفيات والهجرة.

ب - **التكويـن السكاني**: وما يعنيه ذلك من اهتمام بالفئات العمرية والجنس وحجم الأسرة والحالـة الاجتماعيـة ودرجة تعلم أفراد الأسرة ودرجة الاعتماد على رب الأسرة ومتوسط عدد سنوات العمر المتوقعة..

ج - **توزيـع السكان**: والاهتمـام بنسب هـذا التوزيع بين المدن والريـف، والكثافة السكانية.

وبالطبـع فـكل هـذه الأمـور تضـم موضوعـات ذات أهمية كبـيرة تؤثر وتتأثر بالحيـاة الأسرية وبنوعيـة النشاطات التي تقـوم بها الأسر، والقـرارات الذي يتخذها الواحد مـن أفرادها من مثـل: متى يترك المدرسـة؟.. متى يتزوج؟.. متى يقرر أن يلد ابنه الأول؟.. أو الثاني؟.. الثالث؟.. ما المدة المتوقعـة بين ولادة طفل وآخر؟.. هل يتزوج زوجة أخرى؟.. هل يهاجر؟

وبالتأكيد فإنَّ مثل هذه القرارات في معظم المجتمعات يتخذها الشباب والشابات وحدهم، مع التذكير بأنَّ ثمة تأثيراً من الآباء والأمهات على مثل تلك القرارات، وهذا ما يعني بأنَّ المجتمع مسؤول وبجميع فئاته عن اتخاذ مثل هذه القرارات.

٥- نماذج تعليمية في إطار التربية السكانية خارج المدرسة:

إنَّ تنفيذ برامج تنموية متنوعة في مجال التربية السكانية بهدف تحسين نوعية الحياة للفرد والأسرة والمجتمع لابد أن يتم عن طريق إنتاج مواد تعليمية تعتمد أصلاً على علوم أساسية محددة سبق الإشارة لمثلها، والتي تهمل في الغالب العامل السكاني على الرغم من أهميته كعامل فاعل وهام من عوامل التغيير التنموي للسكان. وبالتالي يجب أن تُقسم المواد التعليمية في محتواها لتتكامل مع مفاهيم التربية السكانية بما يساعد الطلاب المتعلمين على إكسابهم القدرة الأكبر على الربط بين المفاهيم النظرية والممارسات العملية الحياتية، وبما يُمكنهم في النهاية من اتخاذ قرارات صحيحة بل ومسؤولة بشأن أسرهم، وهذا ما يشكل الجانب الأكثر أهمية في برنامج التربية الأسرية والأهداف التي تسعى لتحقيقها.

أمَّا عن أنواع المواد التعليمية التي تقدمها برامج التربية السكانية فهي متنوعة بحسب أشكالها وأهدافها. وللاختصار نسوق عنها النماذج التالية:

أ - المواد الدافعة: (حاثّة- محرضة- استقطابية). وتصَمم هذه المواد -سواءً النوع الورقي منها أو الإلكتروني- لخلق الوعي والدافعية لدى المتعلمين لإكسابهم مزيداً من المعلومات عن فكرة برنامج أو نشاط تعليمي يستهدفهم. تتّخذ هذه المواد أشكالاً مختلفة من مثل:

- **الملصقات:** ويمكن أن تتمثل بصور مختلفة مع رسائل مُختصرة أو محددة في التربية السكانية، كأن تكون الملصقات عن الصحة أو حجم الأسرة أو أطعمة الرضيع أو أوضاع الأم الحامل أو في نظافة البيئة أو عن الحد من هجرة الريف إلى المدينة أو ترشيد استهلاك المواد والطاقة... إلخ. وهنا يجب أن تكون الصورة واضحة في الملصق وجاذبة، كما يجب أن يكون التعليق الذي تحمله بسيطاً ومعبّراً بشكل واضح لما تريد رسالة الملصق إيصاله إلى أفراد المجتمع.

- **التقويم الموضح بالرسوم:** كأن يشمل على سبيل المثال طفلاً يوزن دورياً للتأكد من نموه البدني ووضعه الصحي، مع توضيح التواريخ المحددة لوزن الطفل، مما يجعل الأم على بيّنة من هذه الأمور...إلخ.

- **الخريطة التوضيحية:** وتضم مجموعة من الصور والرسومات والأشكال التوضيحية في أحد جوانب إطار الصورة أو الرسم، وفي الجانب الآخر يمكن كتابة الرسالة الضرورية أو التعليمات التي يمكن أن تُتّبع من أجل القراءة الصحيحة لتلك الخرائط.

مثال: بيان مراحل رضاعة الطفل وأساليب تغذيته حسب المراحل العمرية والنمو له.

- **المجلات الهزلية:** نظراً لكون أغلبية الناس يحبون هذا النوع من المجلات وخاصة الشباب خارج المدرسة والذين لم ينالوا حظاً من التعليم.

لذا يمكن أن تكون المجلات الهزلية ذات تأثير كبير في توصيل رسائل التربية السكانية، كما يجب أن تكون موضحة بالصور والرسومات وتحمل أفكاراً مكتوبة في شكل حوار.

ب - **المواد التوجيهية:** ويتم إنتاجها من أجل الربط بين المناهج ومحتوى المواد التي تستهدف بالدرجة الأولى شريحة معينة من السكان كالعمال والمهنيين أو فئات خاصة من المجتمع.

ومن نماذج هذه المواد: المطبّقات (المطويات) التي تضم أعمدة تحمل رسائل محددة عبر صفحات عدة يسهل فهمها وقراءتها، ويمكن تزيينها بالرسومات بشكل يجعلها أكثر تشويقاً وجذباً للمتعلم. كما يمكن أن تضم المطوية الواحدة موضوعات عدة من مثل (كيفية المحافظة على خصوبة الأرض- الوقاية من بعض الأمراض- كيفية تغذية الطفل - فوائد تحديد النسل في ظل محدودية الأجور.. إلخ).

وهناك الكتب والكراسات المزينة بالرسوم التوضيحية أو الكتب الخاصة بالتعلّم الذاتي، حيث تقدم جميعها معلومات كافية للمتعلمين عن الأهداف المراد تحقيقها كما تشتمل على مواد تقويمية مختلفة

ج - **مواد المتابعة:** التي تصمم أيضاً بهدف المساعدة على إحداث التغيير المرغوب فيه في اتجاهات المتعلمين وسلوكهم بما يخص أهداف التربية السكانية ومحتواها.

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أنّ ثمّة كثيراً من المواد التعليمية أضحت اليوم أكثر شيوعاً واستخداماً في العديد من الدول خاصة الآسيوية منها، كما في المواد الإذاعية والتلفزيونية وما يتعلق ببرامج المعلومات التي تقدمها الشبكة العنكبوتية عبر المواقع الإلكترونية المختلفة.

الهوامش

١- تقارير لصندوق الأمم المتحدة – مكتب السكان ٢٠٠٨م.

٢- زيتون عدنان- التربية السكانية إستراتيجية مستقبلية – وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١٠م.

٣- المصدر السابق.

٤- شملت أيضاً إستراتيجيات (الاتصال والمعلومات، التقنيات المتقدمة، التنمية المستديمة، الاقتصادية، التربية المستمرة).

5- Salas, 1978, UNEPA, 3

6- S.Viederman, 1981

٧- العمرانية، فريق التربية ١٩٨٤م: الدليل المنهجي في التربية السكانية – وزارة التربية – تونس.

٨- خوري توما جورج، المناهج التربوية- المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع- الطبعة الأولى ١٩٨٣م – بيروت.

9- UNESCO, (UNFPE), 1981,48

١٠- برنامج التربية السكانية- الدورة التدريبية (١٩٨٧م)- المكتب الإقليمي للتربية في الدول العربية- عمّان.

١١- زيتون عدنان (المصدر نفسه).

١٢- المصدر السابق.

١٣- الحلاق هشام- التربية السكانية خارج المدرسة- ورقة عمل للحلقة الدراسية الأولى للتربية السكانية- اليونسكو (UNFPA) دمشق- ١٩٨٧م.

١٤- المصدر السابق.

الآلهة وعبادة الأسلاف في المشرق القديم

د. بسام جاموس ✪



شاع في المشرق القديم فكرة تصوير الآلهة، لكن المجتمعات السورية أدركت أولى التنظيمات الاجتماعية والدينية والاقتصادية في عالم يحيط بها، وبينت أدوار الفرد والأسرة والمجتمع في هذه البيئة والكون حتى أصبح لهم رؤى وتصورات وذلك من أجل عقلنة القوى الطبيعية وما فوق الطبيعة التي تحيط بهم.

اتخذت التجليات الإلهية منذ البداية سمات بشرية، وأنثوية بشكل خاص لم تكن رمزيتها واضحة، إنّما تجلّت بطريقة التمثيل الحسي لهذه الأفكار المجردة المرتبطة بأولى أشكال

✪ باحث ومدير عام للآثار والمتاحف سابقاً، ومستشار وزيرة الثقافة لشؤون الآثار.

التعبير الفني[1]، واشتهرت المجتمعات السورية بتصوير الآلهة عبر العصور وجسدتها بالتماثيل خاصة في عصور البرونز (٣٠٠٠- ١٢٠٠ق.م)

والفترات الكلاسيكية اليونانية والرومانية والتي كانت توضح مدى العلاقة بين قوى الآلهة والبشر، وكانت تدور حول العالم الآخر.

كما ظهرت آلهة الربة الأم، وكبير الآلهة إيل، والإله بعل وحدد إلهي العاصفة والمطر والخصب، وكوثر إله الحرف، وعشتار وأفروديت وفينوس آلهة الحب، ومنيرفا إلهة الحرب وظهرت آلهة العدالة والفلسفة والتربية وتجلى ذلك في إنشاء المعابد لها، لممارسات الطقوس الشعائرية في أماكن العبادة هذه، وهذا ما ساهم في نشوء الديانات الكبرى التي كانت تتجسد في عدد من الآلهة وأحياناً في الإله الواحد ضمن منظومة ذات قيم روحية، وطقوس تجلت في الاحتفالات الدينية المتنوعة، وتقديم الأضاحي ضمن تقاليد طقسية تشبه بعض طقوس مجتمعات الريف السوري.

لقد برزت في منطقة بلاد الشام آلهة ذات سمات بشرية، ينسب أصلها الإلهي للظاهرات الطبيعية التي كانت تحيط بهم وفق هيئات إنسانية ذات تعابير مجردة مثل الخصب، الجمال، الحياة، الموت، وتجلى ذلك بعبادات متنوعة كتبجيل وتقديس الأسلاف الذي تطوّر وأصبح عبادة منظمة وفق سمات بشرية وحيوانية تجسدت في الديانات الكبرى الموحدة.

الربة الأم:

حظيت المرأة عبر العصور بمكانة اجتماعية ودينية وصلت إلى اعتبارها أولى الآلهة عند البشر وسُميت بالآلهة الأم كونها أوحت للتجدد والولادة والخصوبة والأمومة ثمّ العثور على الكثير من الدمى والتماثيل الأنثوية الطينية لها في مواقع المريبط (الفرات الأوسط)[2] وتل أسود (غوطة دمشق)[3] وتل كشكوك (محافظة الحسكة)[4].

لم يكن الدين في حضارات الشرق القديم يشكل بنياناً خالصاً منفصلاً، بل كان يخترق بآلهته وشياطينه وطقوسه المجتمع والثقافة في جميع المجالات بحيث لم يكن ثمة ركن خالياً من الدين وتأثيره[5].

وحظيت المرأة بمكانة مرموقة ضمن المعتقدات الشرقية القديمة التي كانت تستند إلى أديان تؤمن بتعدد الآلهة كنظام

تتفاعل عناصره بهدف المحافظة والحصول على مكانة ومرتبة إلوهية.

وتميزت سورية وعلى ضوء المكتشفات الأثرية بأنه لم يكن يوجد ديانة واحدة، بل هناك أشكال مختلفة لها، لكن تقديس الأجداد كان من أهم الممارسات الطقسية الدينية في ثقافات المشرق القديمة، وهذا ساهم في تعزيز الروابط الروحية والاجتماعية لأن هدفه العناية بأرواح الأموات عن طريق تقديم الأضحيات وأداء الطقوس والشعائر وخاصة أيام المناسبات والأعياد وقد تصل إلى مرحلة (تحضير الأرواح) أي التواصل المباشر معهم.

وأشارت إلى ذلك مكتشفات تل أسود (غوطة دمشق) حيث أكدت لنا عمليات دفن الجماجم المنظم في الموقع وأسلوب تجصيص الوجه، وتلوين الجبهة وهذا أكبر دليل على عبادة الأسلاف (الجماجم)، كون المخ والفكر يقع ضمنها[٦] وهذا ما ساهم جوهرياً في تثبيت الترتيب الهرمي الاجتماعي داخل الأسرة وهذا ما يدّل على ممارسة طقوس شعائرية رمزية اجتماعية، تعود إلى الألف الثامن قبل الميلاد، وهي تمثل أقدم صور لهذه العبادة في المشرق.

يمكننا من خلال دراساتنا وتحليلاتنا *القول: بأن بدايات تقديس الأجداد تعود* إلى أقدم مراحل التطور الثقافي في سورية، ويؤكد بيتر فلزنر مدير حفريات الجانب الألماني في موقع المشرفة: إن عبادة الأجداد ترمي إلى استمرار أماكن سكن العائلات وبقائها ثابتة بعدما استقرت نتيجة عملها في الزراعة، وبناءً على ذلك فإن تقديس الأجداد الذي يوصف أحياناً بأنه مهد الدين والمنشأ الأول لعبادة الآلهة، ويُعد من أقدم الممارسات الطقسية الدينية في (غوطة دمشق) سورية[٧] فعلاً وهذا ما أكدته المعطيات الأثرية الأخيرة في مواقع أثرية متعددة من سورية مثل تل أسود وتل خويرة الواقع شمال سورية حيث عُثر فيه على حرم لتقديس الأجداد وتمّ العثور على الكثير من ذلك في عصور البرونز وخاصة في ممالك ماري وإيبلا وإيمار وأوغاريت.

وبرزت دراسات كثيرة حول تصوير الآلهة وعبادتها ووظائفها وطقوسها الروحية والاجتماعية أمثال آلن ويلز في كتابه (معالم تاريخ الإنسانية، أ.ب تايلور في كتابه «الثقافة البدائية» ول ديورانت في مجموعته (قصة الحضارة) وأرنست رينان في كتابه (تاريخ ومعتقدات ما قبل التاريخ)، جاك كوفان في كتابه (الألوهية والزراعة)..

أكدت دراساتهم على فكرة استمرار وجود الروح وانبعاثها وهذا ما عزز عند المجتمعات القروية والمدنية الاهتمام بالموتى وتقديسهم وانتشار عبادتهم.

ظهرت عقائد دفن الموتى منذ العصر الحجري القديم الأوسط على يد إنسان النياندرتال واهتم بموتاه من خلال بعض الطقوس البدائية وابتداعه للقبور في شكلها البدائي[٨] ولاحظنا ذلك في اكتشاف البعثة الأثرية السورية- اليابانية العاملة في موقع كهف الديدرية[٩] حيث تمّ العثور على هيكل عظمي لطفل النياندرتال، وكانت توجد نصلة صوانية لها حيز جمالي متوضعة فوق منطقة القلب، وهذا يدل على اهتمام إنسان النياندرتال بدفن موتاه بطريقة شعائرية تدل على قدسية معينة للإنسان، كما تم العثور في كهف كراينيا في (كرواتيا) على جمجمة مدفونة بطريقة نظامية لها مدلولات طقسية تدل على الجمجمة في الرأس تكمن فيها قوة الفكر والروح عند الفرد[١٠] ولم يقتصر التقديس للبشر وإنما تمّ تقديس بعض الحيوانات لمكانتها وفائدتها وقوتها وفي مقدمتها الماموث والدب والكلب[١١].

ولقد أكدت معطيات مواقع ما قبل التاريخ في بلاد الشام تصوير الآلهة، وطقوس الدفن، وعبادة الأسلاف، حيث تمّ العثور على ذلك في مغارة الكبارا في فلسطين، وتل أسود في غوطة دمشق، وموقع هاشيلا، وشاتال هويوك في الأناضول وكذلك موقع (أم الماء) عند الساحل الشرقي لقطر، وفي بعض المواقع المصرية المتعددة[١٢] في عصور لاحقة، لكن عمليات فنون التصوير والدفن اختلفت وضعياتها وموادها من منطقة لأخرى، لكنها توحدت في احترام وتقديس المتوفى، والتركيز على مسألة العالم الآخر أي البعث والخلود، إضافة إلى مواقع كهوف السخول والطابون حيث تمّ العثور على بقايا عظمية لأحد عشر شخصاً من إنسان النياندرتال أو إنسان الكرمل الأرقى نوعاً، ولوحظ أن واحداً منها كان يمسك في ثنية ذراعه عظمة حيوان ربما كنوع من القرابين[١٣].

إنّ طفل النياندرتال الذي تمّ العثور عليه في مغارة الديدرية والذي كان لهذا الاكتشاف أهمية كبيرة[١٤]، كونه الأكمل من نوعه في العالم[١٥]، وأجاب على الكثير من التساؤلات التي تتعلق باستقراره في سورية، ومصيره، وعلاقته بالإنسان الحالي، إضافة، إلى الطقوس الشعائرية لعملية دفنه، كما أعطتنا مواقع الحضارة النطوفية (نسبة

لموقع وادي النطوف في فلسطين) الكثير من المعطيات الأثرية حول طقوس وعبادة الأسلاف وما احتوته مدافنهم من خرز وحلي عظيمة وساد ذلك في الألف الثاني عشر قبل الميلاد.

كانت عمليات الدفن للجماجم بأوضاع متباينة لها دلالات جنائزية خاصة(١٥) وهذا ما أكدته المعطيات الأثرية في مواقع بلاد الشام والرافدين.

في العصر الحجري الحديث (٨٠٠٠-٥٠٠٠ق.م) نرى بأن عملية تصوير الآلهة وعقائد الدفن وعبادة الأسلاف تتوحد في طقوسها وفنها مما يدل على علاقات حضارية أو وحدة حضارية بين المجتمعات القروية، وأكدته مكتشفات مواقع أريحا في فلسطين والمريبط، أبو هريرة، جعدة المغارة، حالولة، الرماد، وتل أسود في سورية ومنهاتا وعين غزال في الأردن وجبيل في لبنان وكهوف شانيدار- بردابلكا وزاوي شيمي وجرمو في العراق، وكهف بيهستون، وموقع حاج فيروز وعلي كوش في إيران وموقع شاتال هيوك في الأناضول ومواقع الصليبخات وكاظمة وطبقات موقع فيلكا في الكويت ومواقع حلوان- والهضبة الممتدة على طول وادي النيل(١٦).

في مطلع عصور البرونز أي مرحلة ظهور المدن والممالك الأولى، حدثت تطورات كبيرة على صعيد تصوير الآلهة والعبادات المتنوعة، حيث تأسست البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وخاصة فيما يتعلق بمجمع الأرباب، وأماكن العبادة ومراسم الدفن والأدوار الميثولوجية والطقوس المتنوعة أثناء المناسبات الهامة إضافة إلى التطورات التي جرت خلال العصور (أي الألف الثالث والثاني والأول قبل الميلاد) وفي مقدمتها استمرار تقاليد تصوير الأجداد بمواضيع مختلفة.

صنفت الآلهة وفق نظام اجتماعي تراتبي، كون الناس كانوا يعيشون مع آلهتهم، لأن التدين كان جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية ويشمل جميع جوانب الحياة، وكانت هناك آلهة مذكرة ومؤنثة تمّ تصويرها ووصفها وذكرتها النصوص المسمارية وخاصة ما ورد في نص من مملكة إيمار كتب بمناسبة عيد كبير، تمّ ذكر ما يزيد على (٨٠ إلهاً وإلهة) وقوائم طويلة بأسماء الآلهة متسلسلة وموزعة تراتبياً بانتظام، وهي شديدة التنوع في الأسلوب والشكل والمؤثرات الثقافية المختلفة(١٧).

تمّ العثور في بلاد الشام على الآلاف من

الصور التي تعبر عن الآلهة وتعددها، وكانت هناك آلهة منتشرة في كل مكان، فالإله إيل الأعلى في مجمع الأرباب السوري، وعشيرات إلهة عرش البلاط السماوي، والإله بعل المرتبط بالمطر والصواعق أي الزراعة والذي يسمى (السيد) ويحمل اسم حدد أو تيشوب.

لقد تحدثت النصوص عن رحلات الآلهة وزياراتهم لأماكن بعيدة توجد فيها آلهة آخرون وكانت تُقام لهم مواكب احتفالية مما يشير إلى وجود تعدد للآلهة، ووصفت النصوص، سكن الآلهة، وحياتهم في المعابد، وطقوس الاحتفالات ووظائف الأشخاص الموظفين في المعابد (كالكهنة والكاهنات) والمنجمين ومفسري الأحلام والسحرة والخبازين والطباخين والخمارين أي إنَّ المعبد كان مركزاً روحياً واجتماعياً تربطه علاقات وثيقة مع الملوك والسكان.

وفي الفترة الآرامية استمرت المجتمعات في تصوير الآلهة وعبادة الأسلاف وخير مثال على ذلك ما تمَّ العثور عليه في موقع تل حلف وهي عبارة عن تماثيل لأشخاص جالسين وتحمل في أيديها أوعية لاستقبال القرابين لكن ما يلفت الانتباه أن تماثيل الأجداد هذه كانت لشخصيات نسائية[١٨].

كما أعطتنا هذه التماثيل من خلال ما تحمله، وتصوره وخاصة شكلها وملابسها ومكانتها من خلال عمليات النحت التي تظهر التفاصيل الكثير من المعلومات عن الحياة الدينية، والروحية، والطقسية والتي يدلّ بعضها على مكانة الآلهة أو الملوك والملكات، فهناك الكثير من التماثيل عثر عليها في ماري تدل على التعبد بأشكاله المختلفة وكذلك في إيبلا وخاصة أيضاً في أوغاريت والتي تظهر نقوشاً للكواكب، والقرنين في القلنسوة والصولجان، وظهور إحدى الحيوانات القوية كالثيران والأسود فهذه رموز تشير إلى المكانة الاجتماعية الدينية لهم، ويعني ذلك بأن هناك تنوعاً في الأسلوب والخصائص والمضامين.

أمَّا فيما يتعلق بالمنحوتات الأنثوية فلقد أظهرت الجوانب المشتركة فيما بينهم وعلى سبيل المثال التشابه بين الربة المصرية هاتور والربة عشتار من ناحية التمثيل الواضح عن الحياة والخصوبة فكانت هناك إلهات للحب والخصب والعدالة والرب والحياة والموت.

كان الملك يعد ابن الإله الأكبر بصفته ممثله على الأرض لأن الملك يشكل الضمان والاستقرار والاستمرار لإرادة الإله، لذلك أثناء موت الملك كانت تقام له طقوس دفنية

تكريمية ملكية تحمل صفات إلهية، بحيث يصعد إلى سماء الآلهة ويحصل على حصة من الأضاحي[١٩] لأنَّ الملك كان صلة الوصل بين الآلهة والناس، ويعين الكهنة، ويقدم العبادات والشعائر أي يقوم بجميع الممارسات والطقوس الدينية الرسمية وخاصة أعياد تقديس الأجداد، أعياد الزراعة، ومن الأعياد الهامة عيد السنة الجديدة الذي يحتفل به في الخريف من كل عام بمناسبة عودة إله الطقس من العالم الأسفل وما يرتبط بذلك من عودة الحياة إلى الأرض وعالم النبات[٢٠].

مراسيم تقديس الدفن: تطورت مراسيم دفن الموتى والعناية بها في الألف الثاني قبل الميلاد، وعملية الموت تعني أن الروح غادرت الجسد، ثم تأتي مراسيم التقديس فيغسلون الميت ويُدهن بالزيت والمراهم لحفظ الجثمان حتى دفنه، وكانت توضع في القبر بقايا متنوعة مع المتوفى إيماناً بعالم آخر، ثم تقدم الأضاحي وتقام المآدب الاحتفالية وكانت هذه الطقوس تؤدى بالدرجة الأولى في العائلات المالكة، وأكبر شاهدٍ على ذلك ما تمّ العثور عليه في المدفن الملكي في موقع المشرفة -قطنة- حمص الذي أكّد مقر الحكام الأموات[٢١].

ومن أهم تماثيل تصوير الآلهة التمثالان الجالسان على كرسي منخفض وهما لحاكمين من قطنة عثر عليهما في الحجرة الأمامية من المدفن الملكي وهما من روائع فن النحت السوري في الألف الثاني قبل الميلاد، وكذلك كانت لهما وظائف متعددة ومنها القيام بدور الأجداد كونهما يمثلان الأجداد المتوفين من الحكام، وتمّ العثور في داخل المدفن على نفايات لا حصر لها من عظام الحيوانات ناجمة عن أضحيات وهذا يؤكد على تقديم الأضحيات لتماثيل الأجداد في قطنة والذين كانوا من أفراد الأسرة المالكة ذات النخبة الاجتماعية والسياسية، والدليل على ذلك أيضاً حلي الملوك والآلهة التي وجدت في المدفن (كؤوس ذهبية، عقود، مشابك أواني مرمر) وكلها مزخرفة وتدل على المكانة الاقتصادية للملكة، كما أشارت النتائج إلى طقوس دفن الملوك حيث أكدت المعطيات الأثرية داخل المدفن بأن الملك كان يدفن بلباسه وزينته، إضافة لطقوس شعائر التقديس التي كان يرافقها طقوس البكاء على الأموات وندبهم، لكن أهم طقوس العناية بالموتى وتقديس

الأجداد تقديم الطعام لهم بصورة منتظمة، ويتبين من النصوص أنها كانت تقدم مرة أو مرتين بالشهر[٢٢] ولقد أشارت مقتنيات المدفن وبصورة واضحة إلى أهم الشعائر الدينية في مملكة قطنة، كما شهد العصران الهلّينسي والروماني تصوير الآلهة

فالآلهة عشتار امتزجت مع أفروديت اليونانية وفينوس الرومانية وتمّ تصويرهما بمنحوتات عبارة عن تماثيل متنوعة النحت منها حجرية وبرونزية وتمثل هذه آلهة الخصب والجمال والعطاء، فيما يتعلق باستخدام مادة البخور المرتبطة بهذه الطقوس كونها كانت مادة طاهرة وتحمي من الشيطان ومازالت استخدامات هذه المادة البخور مستمرة في طقوس بعض القرى السورية.

وعن ظهور الديانات الكبرى اليهودية والمسيحية والإسلامية وكتبها المقدسة والتي تشترك جميعها بعبادة الإله الواحد خالق الكون، وفي هذه المراحل ظهرت الأديرة والكنائس والمساجد (بيوت الصلوات) وارتبطت هذه الأديان بطقوس متنوعة، كما أنّ ظاهرة تصوير الآلهة وتقديس الأجداد في الفترتين الفينيقية والكلاسيكية ظهرت واضحة ولدينا أمثلة هامة تدل على ذلك (مدافن عمريت، مدافن تدمر الملكية)[٢٣] وهي صروح جنائزية أشارت إلى الأهمية الكبرى التي كان يوليها التدمريون بشكل خاص للعناية بموتاهم وتقديس أجدادهم.

نستنتج من خلال دراساتنا على ضوء المعطيات الأثرية بأن تصوير الآلهة وعبادة الأجداد اختلفت طقوسها حسب كل عصر لكننا وصلنا إلى نتائج هامة منها بأن القبور في عصور ما قبل التاريخ كانت حفر بسيطة ثم تنوعت وتطورت فمنها كانت مدافن فردية وأخرى جماعية ومنها فصلت الجماجم عن الجسد وخاصة في العصر الحجري الحديث (الألف الثامن قبل الميلاد) وهنا ظهرت عبادة الأسلاف، ثم تطورت في العصور اللاحقة وأصبحت المدافن أوابد أثرية قائمة كما ذكرنا (مدافن عمريت، تدمر، مدافن الفراعنة..) كما تطورت فنون تصوير الآلهة والملوك وخير مثال (تماثيل ماري، تماثيل آلهة وملوك أوغاريت...) لذلك نستطيع القول: إن سورية كانت سباقة لنشأة الحضارات على أرضها بسبب عدة عوامل منها بيئية وطبيعية وبشرية فمنها انطلقت الثورة الزراعية وأصول الكتابة والفنون واعتبرت مهداً للديانات ومركز الثقل في انتقال التراث المتنوع إلى العالم.

الهوامش

١- ميشيل فورتان ٢٠١٢: تنظيم الفكر كتالوج معرض سورية أرض الحضارات -منشورات وزارة الثقافة- المديرية العامة للآثار والمتاحف- ترجمة موسى ديب الخوري ص٣٣٣- ٣٣٦.

٢- جاك كوفان ١٩٩٩م: الألوهية والزراعة، منشورات وزارة الثقافة، ترجمة موسى ديب الخوري.

٣- المرجع السابق.

٤- انطوان سليمان- مارك لوبو: تل كشكشوك (الحسكة)- منشورات وزارة الثقافة.

٥- هربرت نير ٢٠٠٩م: تعدد المعتقدات والأديان في سورية، كاتالوج معرض كنوز قطنة، توبنغن، ص٧٥.

٦- بسام جاموس- دانييل ستوردور ١٩٩٤ -١٩٩٩م:
نتائج تقارير الحفريات الأثرية في تل أسود (غوطة دمشق) محفوظة في مديرية التنقيب- المديرية العامة للآثار والمتاحف.

٧- بيتر فلزنز ٢٠٠٩م: تقديس الأجداد في سورية، كتالوج كنوز قطنة، ص:٨٥.

٨- أحمد سعيد ٢٠٠٠م: عقائد الدفن وعبادة الأسلاف في عصور ما قبل التاريخ، الملتقى الثالث لجمعية الآثاريين العرب (١٢-١٣ تشرين الثاني٢٠٠٠م).

٩- سلطان محيسن- تاكيرواكازوا ١٩٩٠-٢٠٠٠م:
نتائج تقارير البعثة المشتركة حول كهف الديدرية- محفوظة لدى مديرية التنقيب- المديرية العامة للآثار والمتاحف.

١٠- فزعل الاجدي ١٩٩٧م: أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، ص٣٩.

١١- أندريه لورا واجورن ١٩٩٧م: أديان ما قبل التاريخ، ترجمة سعاد حرب- بيروت، ص٤٨-٥٠.

١٢- ج.هـ. برستد ١٩٦١م: تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ترجمة زكي سوس- القاهرة. ص٨٥ -٨٦.

١٣- أحمد سعيد ٢٠٠٠م: عقائد الدفن وعبادة الأسلاف في عصور ما قبل التاريخ (مرجع سابق) ص٦.

١٤- سلطان محيسن ١٩٩٩م: حلب في عصور ما قبل التاريخ، الحوليات الأثرية العربية السورية- المجلد ٤٣ ص٤٩-٧٠.

١٥- جاك كوفان ١٩٨٨م: ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام، ترجمة سلطان محيسن دمشق.

١٦- أحمد سعيد ٢٠٠٠م: المرجع السابق، ص. ٢٤.

١٧- غلن ريم ٢٠٠٩م: تصوير الآلهة في سورية، كتالوج معرض كنوز قطنة- توبنغن ص:٨٩-٩٣

١٨- المرجع السابق- ص٨٧.

١٩- هربرت نير ٢٠٠٩م: تعدد المعتقدات- الأديان في سورية، كتالوج معرض كنوز قطنة توبنض، ص٧٦.

٢٠- المرجع السابق- ص٧٧.

٢١- بيتر فلزنر ٢٠٠٩: مقر الحكام الأموات- المدفن الملكي، كتالوج معرض كنوز قطنة توبنض، ص٢٠١

٢٢- المرجع السابق- ص٢٠٧.

٢٣- عدنان البني، خالد الأسعد ١٩٩٦م: تدمر تاريخياً وأثرياً-منشورات وزارة الثقافة- دمشق.

إلى ثانوية المأمون بحلَب

✿
سليمان العيسى

«أمضى فيها زهرة العمر مدرساً للغة والأدب من ١٩٤٧-١٩٥٨م.»

إذاَ تَلَقَّتكَ عند الصُّبحِ وَشْوَشَةٌ
عَطْشَى وتَعصِرُ في أعماقِكَ العِنَبا
إذا ثَنَى لك بابُ السُّور[١] ساعِدَهُ
ورحتَ تَقطِفُ من ساحاتِها الشُّهُبا
وضمَّك الشجرُ المطلولُ[٢] وانسكَبتْ
ضوضاءُ حولكَ أحلى ما الهوى سَكَبا
إذا رَمَى بكَ دربٌ بالصِّبا عَبِقٌ
إلى مَدارجَ صَلَّينا بها لَهَبا
إلى محارِيبَ قَدَّسْنا الفناءَ بها
ولا أقولُ الكفاحَ المرَّ والتَّعَبا

إذا انتَهيتَ إلى «غبراءَ»[٣] مُشرِقةٍ
بالقَهْقَهاتِ، ودارَ الشايُ[٤] واصطَخبا
وذابَ في «الفُرصَةِ»[٥] الزهراءِ ماصدحت
به الحناجرُ حتى قُطِّعَتْ نَصَبا[٦]
فاترُكْ على رشَفَاتِ الصَّحْبِ لي قَدَحاً
مُعَطَّراً بحنينِ العمرِ مُختَضِبا
قَطَّعْتُ مثلَهمو في الصفِّ حَنْجرَتي
في كل زاويةٍ لما أزلْ حَطَبا
يا مُوقِدَ النارِ.. من أسْآرِ جمرتِنا
ما تحمِلُ النارُ حتى تُطعمَ الحِقَبا

✿ ✿ ✿

✿ شاعر الطفولة والعروبة الكبير.

رَقرقْ على الحُجُراتِ السمرِ أُغنيتي
لحني على الحُجُراتِ السمرِ ما غَرِبا
يُضيءُ جيلٌ وراءَ الجيلِ مِلْءَ دمي
فيها وتُسكرُ حتى الشعرَ والقَصبا
أيُّ الطيوفِ التي نامت سأوقظُها
وأيُّ جذوةِ حبٍّ تأكلُ العَصَبا!
لم يتركِ الجرحُ بعد الجرحِ من وَتَرِ
إلا رَماداً على الصحراءِ مغتربا
رُدّي إليَّ -وحَسْبي ذاك- قَهْقهتي
مَعَ الرِّفاقِ، وإنجيلي الذي صُلِبا
يا واحةَ العمرِ.. أحلى العمرِ أزهقهُ
لكل لوحٍ عتيقٍ فيكِ قد وُهِبا

● ● ●

دعي غُبارَكِ في عيني، وفي رئتي
ألمّه في الحنايا كلما هَرِبا
ما مرّتِ الباحةُ السمراءُ في حُلُمي
إلا اشتهيتُ الضجيجَ الحُلْوَ واللَعِبا
ويذهبُ العمرُ أصداءً مُجرَّحةً
وتستردينَ للأجيالِ ما ذَهَبا
خمسٌ وسبعون..(٧) لي في صَرحِها حجرٌ
غَنّى، وحفنةُ نورٍ من دمي شربا
جسرٌ.. ويركضُ تاريخٌ برُمّتهِ
على الرُّواقِ، وتمضي أمةٌ خَبَبا

● ● ●

يا حاملاً ظمأ الصحراءِ في شَفَتي
نسيتُ في العَتَماتِ الرِّيَّ والسَّغَبا(٨)
نسيتُ طعمَ المساءِ الحُلْوِ في حَدَقي
نسيتُ في التيهِ لونَ الكأسِ والحبَبا
تَقَيَّلَ الصخرَ وارشُفْ نسمةً بَرَدتْ
على رُباها عرفتُ الشعرَ والعَرَبا
تباركتْ صخرةٌ بيضاءُ يابسةٌ
تُعطي العباقرَ.. سمّاها الهوى: حلَبا

الهوامش

١- سور المدرسة.
٢- المطلول: المندّى بالطل.
٣- إشارة إلى غرفة المدرسين.
٤- كأس الشاي التي كان المدرسون يرطّبون بها حناجرهم بعد الدرس.
٥- الفرصة القصيرة بين الحصص الدرسية.
٦- النَّصب: التعب.
٧- ألقيت القصيدة في ذكرى مرور خمس وسبعين سنة على تأسيس «ثانوية المأمون».
٨- السغب: الجوع.

الترّوبادور الشّرقيّ
(الشّاعر الجوّال)

د. شاكر مطلق ✪

أنا شاعرٌ من دون تاجٍ(✪)
دون سيّدةِ القصورِ
أرتّلُ الأشعارَ وحدي
للرّياحِ وللقَصَبْ..

أينَ الأميرةُ يا رياحُ؟
أين شُرفتُها المُضاءةُ؟
فالفوارسُ ينشدونَ
إلى الخريفِ بلا نديمٍ
أو حبيبٍ مُرتَقَبْ..

زمنُ البراءةِ يَقتَفينا
يَسألُ الفطريَّ فينا
لو نعودُ إلى المراعي
مثلَ قُطعانِ الوعولِ
نجولُ في ليلِ الخِصابِ
بدونِ خوفٍ أو تعبْ
وبدونِ قيثارِ الذّهبْ..

جابَ المغنّي في الجهاتِ
ولمْ يجدْ إلاّ قصوراً
فارغاتٍ، نائحاتٍ
مثلَ عيدانِ القَصَبْ..
راياتُنا صارتْ غباراً
كالتّراتيلِ العتيقةِ
في الهزائمِ راكعاتٍ
تحتَ خيلٍ من خشَبْ..
لِمَنْ القصائدُ في يدينا

✪ طبيب وشاعر سوري.

والأميرةُ في السَبايا
والمغنّي دونَ عودِ
مثل ثورٍ في غضَبْ؟..

سِربُ الإوزِّ يمرُّ ليلاً
صارخاً فوقَ المراعي
قاصداً أفقاً جديداً
بعْدَ أنْ مَلَّ البقاءَ
على مروجٍ مِن حَطبْ

فعلامَ تأسرُكَ الأميرةُ
في دهاليزِ الرِّغابِ
مع القوافي الذابلاتِ
بدونِ أوتارِ الغناءْ
هلْ صِرتَ عِجلاً من ذَهَبْ؟..

لوْحُ الوصايا في يديكَ
فحطِّمِ الألواحَ واكتُبْ

ما تبقّى فوقَ روحكَ
من أناشيدِ الصَحارى
في مزاميرِ التَعَبْ

فلربَّما تأتيكَ ليلاً
ربَّةُ الشعرِ العَصيِّ
بلا رداءٍ كالخيولِ
تعيدُ أمجادَ القَصيدْ
وتعيدُ ذاكرةَ الطَربْ..

أوّاهُ يا شعرَ العربْ
كمْ مرَّةٍ جِئنا عِطاشاً
دونَ أنْ تَروي العِطاشْ
الظَامئينَ إلى التَجلّي
في الكُشوفِ أو الحروفْ
هل أنتَ نبعٌ قد نَضَبْ
أمْ أنّنا صِرنا قَصَبْ؟!..

الهوامش

(✿) فكرةُ (البيت) الأول مأخوذة عن شاعر الـ«مينه» الجوال -(تروبادور) «هاينرش فون مورونغن- H.v.Morongen» الذي ولد حوالى العام ١١٧٠م وتوفي ما بين (١٢٢٨-١٢٣٠م): (من ترجمتي للمقطع الأول لقصيدة طويلة له، ذات مقاطع ثلاثة- مكتوبة بالألمانية نصف الفصيحة- يقول في مطلعها):
أنا قيصرٌ من دون تاجٍ وبلادِ

بائع الصحف يكرر النداء

صميم الشريف ۞



(موفق قطان) بائع صحف جوال، اعتاد أن لا يتأخر على زبائنه الذين يؤمون (مقهى البرازيل) فيحمل إليهم الصحف ويضع أمام كل زبون صحيفته المفضلة، ثم يعود إلى الطريق حيث يشترك مع أخيه في ترتيب الصحف والمجلات على رصيف المقهى البارز، ويختلس في الوقت نفسه نظرات سريعة إلى زحمة الناس المتجمعين حول

عناوين الصحف البارزة وهم يقرؤونها في بله مقرون بالفضول، ثم يسعى بخطوات بطيئة نحو مقهى (الهافانا) وهو يصرخ بملء فيه:

۞ أديب وباحث موسيقي رحل عن عالمنا في ٢٤/١٢/٢٠١٢، وتحية لروحه الطاهرة، اخترنا هذه القصة من مجموعته القصصية (عندما يجوع الأطفال) الصادرة عام ١٩٦٢م.

العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

-الرأي العام- الجمهور- استقالة الوزارة اليوم.. ويخترق الشارع المزدحم ويبيع بعض الصحف، ويعترضه جاره الحلاق ليستأجر منه مجلة «الإثنين»، ويستوقفه مار ليقرأ خبراً بارزاً اهتم له، ثم ما يلبث حتى يرد الصحيفة ويتابع سيره وهو يتمتم: كلام الجرائد.. كله كذب في كذب.

ويدخل مقهى (الهافانا) فيجول فيه جولته العادية، ويستسلم في أثناء ذلك لمداعبات النادل عدنان وهو يهمس كلما اقترب من بعض الرواد برنة مبحوحة: معنا بردى- والرأي العام-يا اللي تقرأ عن استقالة الوزارة اليوم..

ويتشاجر حين يغدو في الطريق مع بائع آخر للصحف يزاحمه على زبائن المقهى فلا يعبأ له ولايكترث لشتائمه ويلمح عدداً من طلبة المدارس متعلقين في مؤخرة إحدى الحافلات فيبتسم في سرور، فهو نفسه يتعلق مثلهم كلما كانت طريقه بعيدة، ويتلكأ قبل أن يتخذ وجهة معينة ويتناهى إليه صوت أخيه وهو ينادي بدوره على ما يحمل من الصحف، فيضيع نداؤه الملحاح بين ضجيج الحافلات ونفير السيارات، وحُمّى الطريق.

إنّ أخاه طيب من دون شك، وهو رب العمل، يشتري الصحف والمجلات، وكل أنواع المطبوعات من المتعهدين ثم يبيعها بدوره إلى القراء، وهو يقف طوال يومه عند زاوية الشارع الملاصقة للمقهى لا يغادرها إلا لماما. وعلت شفتيه بسمة حزينة، ونظر إلى يد أخيه المشلولة وهي تتأرجح إلى جانبه ثم همس بينه وبين نفسه: كله من الله..

وانحدر نحو (شارع فؤاد الأوّل) منادياً برتابة اعتادها:

أعظم انقلاب في روسيا -معنا-الجريدة والحياة.. الأيام اليوم.

ونظر إلى الغيوم السوداء، وتحسس كوفيته. إن أربعينية الشتاء مازالت في أولها وردد بحرارة: الله يبعث الخير.. وتوقف في سيره فجأة، وتناول صحيفة معينة، وأخذ يبحث بعينين أرقهما النعاس على خبر آخر غير استقالة الوزارة، وانقلاب روسيا، خبر يهمه وحده.. ماذا تعنيه استقالة الوزارة، إنّها لاتهمه في شيء.. وعلى كل حال فهو لن يصبح وزيراً.

لقد قصد إدارة الجريدة خصيصاً، وتوقع أن يتحقق ما وعده به صاحبها حين أم مكتبه ليلة أمس، وأراد أن يدفع له مبلغاً من المال لقاء نشر الخبر في مكان بارز، ولكن الأستاذ صاحب الجريدة وهو من زبائنه رفض أن يتقاضى شيئاً ووعده بأن ينشر له ما يريد. ومنذ الصباح يبحث عن الخبر حتى عثر عليه في ركن من الجريدة قلما تقع عليه العين. إنَّ أحداً من القرّاء لن ينتبه إليه أبداً.. هو نفسه بائع للصحف ويفهم في صنعته على قدر الإمكان، لم يستطع العثور عليه إلا بصعوبة، فكيف بأكثرية القرّاء الذين يتصفحون الصحف ويلقون بها؟ وانتابته رغبة شديدة في أن ينادي بملء صوته على الخبر وحده..

لقد هيأ نفسه من أجل ذلك طوال ليلة أمس، ووقفت نظراته عند الخبر المذكور تأبى تحوّلاً، وأخذ يقرأه على مهل، لقد حفظه

غيباً.. قرأه عشرات المرات.. وأطرق مفكراً، وهز رأسه عجباً: كيف يهتم الناس بأنباء الوزارة، ولا يهتمون لنبئه، وزفر في قنوط لم لم ينشره الأستاذ في مكان ظاهر كما وعده، لو فعل ذلك لحلت على الأقل مشكلته أو بالأحرى لساعدت في حلها.. لقد عرض عليه مبلغاً من المال عرض عليه أجرته الأسبوعية كلها التي جلبها من أخيه الناقم عليه.. ولكنه رفض أن يأخذ شيئاً.

وحملق أمامه في شرود كان هناك متسولان صغيران يحصيان في حذر ما معهما من نقود، والسيارات تتعاقب خلف بعضها في رتل طويل و(أبو سعيد) بائع اليانصيب ينادي بصوته الجهوري: السحب بعد يومين.. خمسين ألف ليرة.. يانصيب..

ويضحك ساخراً مردداً: خمسين ألف ليرة، إنه يريد فقط خمسين ليرة لا غير وتنحل مشاكله جميعاً ويعود وجه أخيه باسماً كما كان..

ووجم برهة، وتوقف قليلاً في سيره بعد أن قطع شوطاً لا بأس به.. كانت الفكرة تتبلور في رأسه وتلفت ينتظر قدوم الحافلة.. إن أجرته الأسبوعية لم تزل معه، سيذهب إلى إحدى الصحف التي تصدر في المساء، وسيطلب منها نشر النبأ، وسيدفع هذه المرة العشر ليرات شاء صاحبها أم أبى ، إنه لايريد أن ينخدع ثانية، ولايريد أن ينشر له بالمجان، سيروي القصة الكاملة، ويجب أن ينشروها له في مكان بارز.

إن أحداً لا يفهمه، والناس جميعاً حتى أصحاب الصحف لا يفهمونه، ولا يهتمون إلا باستقالة الوزارة، والمؤامرات الدولية، والأحلاف العسكرية، يجب أن يعرفوا بأنه يستحق الاهتمام أيضاً.. يستحق الاهتمام لأنه إنسان بسيط وصاحب قضية..

واشتدت رغبته وقويت في المناداة على الخبر الصغير المهمل، وهمَّ أن ينادي، ولكنه توقف قليلاً. إنَّ هذا شيئاً جديداً بالنسبة إليه وللناس، وقد لا يأبهون له وتساءل: ترى إلى أي حد يعنيهم الأمر، وهل يعنيهم حقاً؟! مادمت أنا واحداً من الناس فلا بد أن يعنيهم الأمر ولكن لم يعنيهم، هل أنا تشرشل؟

وضحك حين تخيل نفسه بأنه قد ينقلب فجأة إلى تشرشل، ولكنه ما عتم، أن قال لنفسه: يعني تشرشل أحسن مني، على الأقل أنا لست مكروهاً من أحد! من يدري؟!

وعاد إلى التفكير في مشكلته، لقد سبق له أن نادى على عناوين مختلفة الأخبار متنوعة.. نادى على قاتل أخته وعلى اختلاس المليون ليرة، لكن لم يسبق له أن جرب المناداة على هذا النوع من الأخبار، وبلع ريقه بصوت مسموع قبل أن يعود إلى قراءة الخبر الصغير مرة أخرى.

-إعلان-

«فقد من السيد موفق قطان مبلغ خمسين ليرة سورية من وجده فليرده إلى إدارة هذه الجريدة وله مكافأة ثمينة».

وضرب الصحيفة بظهر يده، وطواها وردها إلى الجعبة التي تحتوي على الصحف ونظر إلى شاب كان يصفر إعجاباً لجمع من

الفتيات الجميلات، وهرع نحو خط الحافلة التي كانت تقترب وما كادت تحاذيه حتى تعلق بمؤخرتها واستراح إلى ملمس حديدها البارد، الذي لم يصرفه عن التفكير.

لقد تكلم البارحة كثيراً.. تكلم أكثر من ساعة، واعتقد أن صاحب الجريدة سينشر القصة التي رواها له بأكملها ولو نشرها على حقيقتها، لحركت أكثر من قلب بالعطف عليه فالبلاد تعج بالطيبين، ولربما أعيد إليه المال المفقود أيضاً.

أما وقد نشر الخبر على تلك الصورة البشعة المجردة من كل شيء إلا من الناحية المادية فإن هذا يجعل النفس تنفر حتى من مجرد الشفقة عليه، هو نفسه لم يحب الخبر، ولا طريقة نشره بحد ذاتها، لقد قال البارحة لصاحب الجريدة:

- ساعدني يا (بك) فقدت خمسين ليرة.. تصور هذا المبلغ الكبير فقد مني، ضاع.. لا أعرف أين.. إنه ليس ملكي.. أقسم على ذلك.. أعطاني إياه أخي لأدفعه إلى المتعهد الذي يستورد من عنده البضاعة.

اتصدق يا أستاذ أن مبلغاً كبيراً كهذا يضيع هكذا مرة واحدة ؟! أقسم لك بأني لا أدري كيف فقدته؟! وكل ما أعرفه أني ذهبت إلى المتعهد. وتفقدت المال لأدفعه إليه، فلم أعثر على شيء..

انتابني وجل مفزع، فتشت جيوبي كلها، لم يكن فيها شيء، أحسست بألم يستولي على رأسي، ويكاد يفقدني الوعي، وكان لابدَّ لي من العودة فعدت أدراجي بين مكذب ومصدق، أعدو كالمعتوه، وأعترض سبيل كل شخص وأسأل أكثر الناس في الطريق كادت إحدى الحافلات تدهسني.. آه، ليتها فعلت يا أستاذ، لو حدث ذلك لاسترحت من العذاب الذي يأكل قلبي.

أتدري بأن هذا المبلغ ليس ملكي أو ملك أخي.. إنه للمتعهد.. إنه ثمن الصحف والمجلات المباعة، كدت أيأس، وتدافعت صور الأمكنة التي تنقلت بينها يزحم بعضها بعضاً، فذهبت إلى المسجد لم أنس المقهى، والأرصفة التي قطعتها عشرات المرات من دون جدوى فلم أعثر على شيء..

لو ترى يا سيدي إلى أخي كيف ثار وغضب، لمحت يده المشلولة تضطرب من الحزن وشعرت بأنه يود لو يسحقني ليروي غضبه ولكنه لم يفعل، لم يفعل لأنه طيب، وطيب جداً.. وانتظرت حتى هدأ ثم انسحبت لأفتش من جديد في الأمكنة التي سبق لي تفتيشها، وبحثت طويلاً وصدري يعمره الأمل من دون جدوى.

أرجوك ياأستاذ.. أرجوك أن تكتب عندك في الجريدة بأن هذا المبلغ ليس لي، قل للقرّاء بأني سأدفع مكافأة لمن يرده، صف لهم بؤسي ودموعي، أرو لهم أن أسرة كبيرة سيزداد بؤسها بسبب ذلك آه نسيت شيئاً هاماً.. هاك.. سأعطيك هذه العشر ليرات لقاء ذلك، أقسم لك بأنها أجرتي الأسبوعية، قل فقط للقرّاء بأني سأدفع مكافأة لمن يرد هذا المبلغ يا إلهي أكاد اقنط من كل شيء.

ووقفت الحافلة في تلك اللحظة فقفز منها

وأسرع في خطواته نحو إدارة الجريدة التي اختارها من بين صحف المساء.. سيروي الآن القصة كاملة، ولكنه سيدفع أولاً أجرة نشر ذلك في مكان ظاهر، ومن ثم سيحكي كيف فقد المبلغ، وعلى كل حال فإنّ مهمة الصحافة كما يعرف هي خدمة الجمهور قبل كل شيء، فهو واحد من هذا الجمهور، فيجب أن يعيروه بعض الاهتمام.. ووصل في تلك اللحظة إلى إدارة الجريدة، فمكث فيها بعض الوقت، ثم خرج والابتسامة تطفح على وجهه وأخذ ينادي بحماس: معنا الجمهور - الرأي العام - استقالة الوزارة اليوم - أعظم انقلاب في روسيا..

ومرّ الوقت بطيئاً قاتلاً وبدأت الأنوار تتلألأ في الطريق و«موفق» ينتظر بقلق صدور الصحف المسائية الأخيرة، وكانت تبدو عليه إمارات السعادة رغم الألم الذي سببه له ضياع هذا المبلغ وأخذ يحملق في وجه العمال الذين تكدسوا في الحافلات كما تكدس الأسماك في علب السردين، وبدت له وجوه زبائن مقهى (الهافانا) من خلف الزجاج متطاولة كأنها الأبالسة، وشع الفرح في عينيه حين ألقيت إليه رزمتين من الجريدة التي وعدته بنشر الخبر، فتناول عدداً منها ليقرأه قبل أن يحصي الأعداد التي وصلته، ونبهه أخوه إلى روّاد السينما الذين خرجوا في تلك اللحظة فلم يأبه لذلك.

كانت نظراته تلتهم العناوين بسرعة مخيفة فلم يعثر على شيء ونقب في الصفحة الثانية من دون أن يجد شيئاً، إلا أنه عثر في الثالثة على الخبر في زاوية مهملة، وكاد يطير صوابه.. لهذا السبب، إذن رفض صاحبها أن يتقاضى شيئاً هو الآخر، وقرأ الخبر مرتين وكان لا يختلف أبداً عمّا نشرته الصحيفة الأخرى في الصباح وأراد أن يفعل شيئاً هو الآخر، أراد أن يروي قصته لأي كان. لأي إنسان يمكنه أن يفهم آلامه، وهمّ أن ينادي على الخبر.. ونظر إليه طويلا، ثم هز رأسه.. إنّ الخبر لايستحق الاهتمام.. إنّ أحداً لا يحس بوجوده.. إنه بائع صحف جوال لا أكثر.. ماذا.. ماذا يهم الناس من أمره؟ أبداً لاشيء. وغامت الدنيا أمامه، وشعر بحمى الطريق تسري إليه وتضايق من شاب طويل وقف أمام الصحف يحملق ببلادة في العناوين البارزة، وحاول أن يغالب الدموع التي ترقرقت في مآقيه، فاخترق زحمة الناس وانطلق صوته فجأة يدوّي بكآبة: الصرخة، دمشق المساء، الجريدة بفرنك، استقالة الوزارة اليوم، أعظم انقلاب في روسيا، الجريدة بفرنك معنا الصرخة..

وشرق بدموعه وترك سائق سيارة مسرعة يسبه ويشتمه من دون أن يكترث له وسار بخطوات حثيثة نحو شارع بغداد وأهمل المقهى الذي مرّ بجواره وشعر بالراحة وهو يقتعد الرصيف، واستراح إلى ضوء الشارع وأخلد إلى السكينة فترة من الوقت وأنصت بعمق إلى باعة الصحف وهم يصيحون من بعيد، فنهض بدوره وعاد ينادي برتابة اعتادها: استقالة مالنكوف-أعظم انقلاب في روسيا.. الجريدة بفرنك.. معنا الصرخة..

ومضات من حياة رجل

مظهر الحكيم ✿

كلمة..

ما أكتبه ليس رواية. ولكنها ومضات مرت بي في حياتي.. قد أجمعها مستقبلاً وأعطيها حالة تسلسلية. ولكن الآن أقدم ما يجول في فكري من ومضات مرّت بي وما أذكره بدقة. وأتذكره كلما مرّت بي الأيام أذكره من دون أن أذكر ما قبله أو بعده أنا صادق في كل ما أكتب.

دعوني أعود بذاكرتي إلى أول ما مرَّ بي وبذاكرتي من وميض..

..الومضة الأولى..

ومضة برزت لذهني لا أدري كيف برزت ولكن توارد الأفكار تقفز في ذهن الإنسان من دون تحضير ومن دون استئذان.



أذكر طفلاً لا أدري ما عمره ثلاث سنوات، أربع، خمس. لا أدري. ولكن أذكر ذاك الصبي الصغير. بشعره المجعد الأسود. وكلابيته الحريرية. ونعله الصغير كان يلعب في حوش منزله وفجأة سمع أصواتاً غريبة أصواتاً رجت الأرض منها وفجأة نظر

✿ فنان وكاتب ومخرج ومنتج سوري.

حوله يبحث عن المصدر أذكره. كان يركض بسرعة باتجاه الباب الخارجي للبيت العربي القديم..

سمع هدير دبابات. أفرحه الصوت وركض إلى الباب الخشبي الكبير ذي البابين الكبير. والصغير لم يلتفت لصراخ أمه لقد لمحت تصرفه واندفاعه.. كانت تنادي خائفة عليه. كان يضحك سعيداً بما سمع ومبهوراً سلفاً بما سيرى.. أفلتت من قدمه فردة من نعله. تركها. واستمر يركض. الحوش كبير. من تراب يمتزج لونه بالبرتقالي والأحمر الفاتح.. وممّر من الحصى مرصوفة بدقة. لتكون معبراً من الباب إلى غرفة الضيافة..

مناداة والدته مستمر.. وابتسامته وفرحته واندفاعه مستمر. فتح الباب الصغير بعد أن وقف على طرفي أصابع قدميه. وشق الباب وطلّ منه ورأى شيئاً كبيراً ضخماً يمر أمامه.. دهش للوهلة الأولى ما هذا الشيء الضخم.. ولكنه استوعب. ونظر برهبة ودهشة..

إنها دبابة بلونها الزيتي الغامق. وجنازيرها التي كانت تدوس الأرض وتزلزل المكان.. ولكن لم يهمه هذا الزلزال. ولا ضخامة هذا الشيء الذي عرف فيما بعد أنها دبابة لعدو عدو احتلّ بلده الآمن وها هو اليوم يرحل عن بلاده لم يكن يعلم الإنكليز أم الفرنسيين.. ولكن فيما بعد أدرك أن الجيش الفرنسي كان يرحل عن بلاده.. ومن بلدته التي كان اسمها المزة.. ويمر من أمام داره التي بنيت جدرانها من لبن وطين مطعمة بأحجار كبيرة. وكانت الجدران سميكة وعالية نعم جدران هي سور البيت الذي يعيش فيه.. ولم يعد يسمع صراخ الأم التي تلاشى مع صوت هدير الدبابات.

وقف ينظر.. مندهشاً لما يرى.. وزادت ابتسامته عندما رأى جندياً يطل من فتحة الدبابة من رأسها.. ويشير له ويبتسم جمدت عيناه على عيني الجندي لماذا يبتسم له؟

لم يكن يعلم هل هذا عدو أم صديق؟. لكنه يبتسم له.. ومن خلال عينيه الصغيرتين التي لمعت ابتسم وضحك ولوح بيده.. لم يعلم وقتها أن الذي يلوح له كان يستعمر بلاده. ولكنه لوح وضحك وقفز.. هل قفز فرحاً لجلاء الفرنسيين عن بلده أم فرح وضحك وقفز لأن رجلاً أشقر ضخماً على رأسه خوذة خضراء يلوح له من فتحة الدبابة.. وكأنه قريبه. أو صديق والده.

لم يفهم وقتها شيئاً مما يجري.. ابتعدت الدبابة.. واقتربت أخرى.. وقفز ولوّح.. لمن يلوّح.. لو عرف وقتها لمن يلوّح ما كان فعل. ما كان قفز ما كان ضحك. ربما انهمرت لحظتها من عينيه دمعة ليس حزناً بل فرحاً.. صغيرٌ هو على فعل أي شيء.. لم

يكن يعلم ببراءته وجرأته وتحديه لأمه التي لم يلبِّ نداءها ويعود إلى الداخل.. لم يكن يعلم أنه كان يلوّح لعدو احتل بلاده، واستغل شعبه. وسلب حرياتهم.. هكذا هم الأطفال.. يولدون أبرياء. بكل ما في الكلمة من معنى لا يعون ما يجري. ويعبرون دائماً بابتسامة بريئة. ابتسامة لا تحمل أي حقد أو كره أو ضغينة والدبابات تبتعد في طريقها إلى الربوة. وبعدها إلى أين لا يعرف..

ولم يذكر إلا يداً جذبته من الخارج إلى الداخل. وأغلق الباب بقسوة.. لم يذكر إلا يداً انهالت على خده بصفعة قوية. تلاشت ضحكته وابتسامته واندفاعته وصدرت عنه صرخة وبكى.. نعم بكى من قوة الصفعة التي آلمته..

هذا ما أذكره الصفعة والبكاء.. وهدير الدبابات يغطي بكائي وألمي.. ويبتعد..

حاول أن يفهم ما تقوله والدته. صوتها أصبح صدى لا يفهم منه شيء..

واقترب والده. وأخوته.. وقفوا متفرجين.. لا يدرون لِمَ أخوهم الصغير يُضرب ويبعد عن باب البيت. لم يعد يسمع إلا صدى هدير.. هل هو هدير والدته أم هدير الدبابات..

هذه ومضة مرّت بذاكرتي فجأة من دون سابق إنذار.. وفعلاً لم أذكر شيئاً قبلها أو بعدها..

ومرّت الأيام أحاول أن أستعيد بذاكرتي إلى الطفولة. إلى الأيام القاسية التي عشتها مع أسرتي. والدي الذي كان يعمل ليلاً نهاراً لكسب أجرته. الأجرة التي لم تكن لتسد حاجتنا اليومية أو الشهرية.. حياة مليئة بالمفاجآت..

أذكر أخي الكبير الذي كان يدرس في المدرسة المحسنية. ويحاول أن يساعد والدي بتوزيع بعض الطلبات للجيران ليتقاضى نصف فرنك أو فرنك من أبي ياسين السمان. الذي كان يكن لوالدي كل حب كجار. والجار كما يقال للجار حتى سبعين دار.. ولأنه يشعر بظروف والدي. وضع أخي عنده بعد أن يعود من مدرسته..

ومن زاوية جديدة برزت هذه الومضة التي لم تكن لتخطر على بالي أو في ذهني يوماً من الأيام. ومضة تعود إلى ليلة باردة وشتا قارس..

ليلٌ بارد. غرفة دافئة. بيضاء. هكذا تحب أمي. أن تكون الجدران بيضاء. والفرش أبيض وكل شيء أبيض.. والأبيض يستعمل للكفن. هل تنوي أن نكون في كفننا ونحن أحياء. هل كانت تعني السلام. لأنَّ الراية البيضاء هي راية السلام والاستسلام.

ماذا كانت تحب من هذا البياض..؟

المدفأة. في زاوية الغرفة تحت النافذة والحطب حولها. ليس حطباً بمعنى الكلمة بل قطعاً من سحاحير قديمة. كنّا نلمها في النهار من البائعين الذين يدورون حول البيت يحملون الخضار لبيعها في حارتنا.. كان اسمها حارة اليهود.. لمَ سموها بحارة اليهود. لأنَّ اليهود كانوا يسكنون فيها.. وعند النزوح الفلسطيني عن فلسطين. وهروب العائلات من فلسطين ومجيئهم إلى دمشق. سكنوا في هذه البيوت التي تركها أصحابها اليهود وهاجروا إلى أرض الميعاد..

وكنّا نسكن في هذا البيت وكونه كان أصلاً لعائلة يهودية. فرض علينا أن نفرغ غرفاً للعائلات التي نزحت من فلسطين.. كي يقطنوا فيها.. ريثما تجد لهم الحكومة المكان اللازم لهم. وكأطفال كنا نلعب معاً في النهار. وكانت أجمل غرفة غرفتنا.

وفي تلك الليلة. غفوت بجانب المدفأة وأخذ مني النوم مأخذاً ممتعاً. ولكن يبدو أني تعرضت للبرد في الليل وصحوت وتسللت بهدوء وفتحت الباب. وكأي طفل. لم أجد الشجاعة للوصول إلى الحمام.. وفرت على نفسي الوصول للحمام الذي كان في نهاية فسحة الدار. والظلام يثير الكثير من الخوف في داخل أي طفل.. واقتربت من حافة البحرة التي تتوسط الدار. ونظرت حولي.

وبوّلت.. نعم بوّلت وارتحت ولملمت بنطال البيجاما.. وعدت إلى غرفتنا ونمت.. نعم نمت.. هذا كل ما أذكره عن تلك الليلة الباردة.. وحاولت أن أبحث في ثنايا ذاكرتي عمَّا حدث بالتفصيل الممل ولكن للأسف..

الشيء الغريب العجيب. أنني صحوت على صوت والدتي. والجارة القادمة من فلسطين التي تسكن مع زوجها وأولادها الغرفة المجاورة لنا.. الباب ملتصق بالباب واللون واحد ماأزال أذكره بني غامق ومن مكاني سمعت الصراخ.. كان الصراخ القادم من فسحة الدار. كان صراخ جارتنا ومن ثم صراخ والدتي.

«ابنك حرامي..»

- عيب ابني مو حرامي.

- إذا ما كان حرامي. ليش ليدخل إلى غرفتنا في منتصف الليل.

- وليش ليدخل إلى غرفتك..

- يريد أن يسرق عرانيس الذرة..

رنت الكلمة في أذني. رنين الصدى المرعب..

فعلاً كان جارنا يعمل في بيع عرانيس الذرة المسلوقة..

زوجته وأولاده يقشرون العرانيس في الغرفة ويحضرونها للسلق. ويضعونها في

الحلة. ويشعلون تحتها «بابور الكاز» الكبير.. وهكذا..

وهو في اليوم التالي يضعها على عربة صغيرة. ويدور بها في الحارات حول المنطقة يبيعها للأطفال.

وعلا صوت أمي..

- عيب يا جارة. نحنا ما ممكن نربي ولاد تسرق..

- لكن شو فوّتْ ابنك على الغرفة لعنّا بنصّ الليل.. إذا ما كان منشان يسرق الذرة.

- بيجوز أخدو النوم. وخربط بالباب وفات لعندكم..

- ولما عرف حاله غلطان ليش ما رجع؟. ليش عمل حاله نايم لما حسيت عليه؟.

- يا جارة عيب ابني مو خرج سرقة.. وبعدين العرنوس حقه نص فرنك مبخوش مو محرز..

- يعني ما بدك تعترفي..

- أعترف إنو ابني حرامي. لقيتي معو شي عرنوس مخبيه.. لما ناديتيلي وقلتيلي تعي شوفي ابنك..

- قلتلك لما حس علي عمل حاله نايم..

- يا جارة لما أخدته منك بالليل. فعلاً كان نايم على حاله. وليكه لهلاً نايم من رعبته

- من رعبته ولا من خوفه..

وسمعت صوت جوزها. جارنا.. جارنا كان طيب ودائماً عندما يراني بالحارة يقدّم لي عرنوساً..

- خلص يا بنت الحلال. الولد أنا بحبه. وما في فرق. حتى لو أخد كم عرنوس أنا مسامحه..

وأجابت زوجته بود بعض الشيء. مخففة من حدة صوتها..

- وأنا بحبه. بس ليش ليفوت يسرق..

- لسه بتقول يسرق.

أجابت أمي بشيء من العصبية..

وفعلاً لم أذكر وإلى الآن لا أذكر ما حدث معي. إلا أنني بولت على حافة البحرة وعدت إلى غرفتنا ونمت وإلى الآن لا أذكر إلا الحديث الذي دار بين أمي وجارتنا وجارنا والحمد لله أن والدي لم يكن موجوداً. كان يعمل منذ الفجر إلى ما بعد الظهر..»

وكان نهاية المطاف في هذه الومضة. صفعة قوية على وجهي. وبكائي بصمت وأنا أقول والله ما سرقت شيئاً. ولا دخلت لعندهم..

الدكتور عبد الرحمن الشهبندر
١٨٨٠-١٩٤٠م

أحمد سعيد هواش ✽



كان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر مؤمناً أشد الإيمان بقضية وطنه ساعياً لتحقيق سيادته، وكان رجلاً بأقصى معاني الرجولة، يضاف إلى ذلك علمه الغزير، وكفاءته النادرة، ومقدرته على مخاطبة الجماهير، والسيطرة على قلوبها وعقولها.

ولد عبد الرحمن بن صالح الشهبندر في دمشق - تلقى علومه الابتدائية في مدارس دمشق الحكومية، ثم انتقل إلى بيروت لمتابعة دراسته الإعدادية والثانوية التي حصل منها على شهادته عام

✽ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

١٩٠١م، وفي عام ١٩٠٢م التحق بالجامعة الأمريكية وواصل بعدها دراسة الطب مدة أربعة أعوام، نال على أثرها شهادة الإجازة في الطب بامتياز مما أهله ليكون أستاذاً في الجامعة الأمريكية وطبيباً لطلابها، وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م) رحل عن دمشق إلى العراق، ثم إلى مصر، فبقي فيها إلى ما بعد انتهاء الحرب، وفي عام (١٩١٩م) عاد إلى سورية ليعمل وزيراً للخارجية في وزارة الرئيس هاشم الأتاسي، ثم تركها إلى مصر بعد احتلال الفرنسيين لها عقب موقعة ميسلون (١٩٢٠م).

كان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر عضواً في جمعية الاتحاد والترقي، وعضواً عاملاً في الحلقة الإصلاحية التي كان يرأسها الشيخ طاهر الجزائري، وقد عرف بمواقفه المناهضة لسياسة الأتراك والفرنسيين في سورية، مما عرضه للملاحقة والتشريد.

يُعد الدكتور عبد الرحمن الشهبندر واحداً من المجاهدين القوميين الكبار في الوطن العربي والمنظرين للفكر القومي، ومشروع النهضة. اغتيل في عيادته وهو يمارس عمله الإنساني ودفن بدمشق قرب ضريح البطل صلاح الدين الأيوبي تكريماً لنضاله القومي.

وقد أقيم للفقيد الدكتور عبد الرحمن الشهبندر حفل تأبيني كبيرٌ جداً على مدرج جامعة دمشق في الثاني من شهر أيلول (١٩٤٠م) ألقيت فيه كلمات رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي وزعيم الثورة السورية الكبرى سلطان الأطرش، وعمر أبو ريشة، وفؤاد الخطيب، وعز الدين التنوخي، والشيخ بهجة البيطار، وغيرهم إضافة لكلمة أسرته ألقاها نجله فيصل الشهبندر ولعلَّ قصيدة الشاعر عمر أبي ريشة تصور الأسى والحزن الذي عمَّ الأمة العربية والوطن خير تعبير، إذ قال منها مخاطباً دمشق:

بنت قاسيون أي جرح أواسي في هواك وأي جرح أداري
بنت قاسيون.. أنت ستبقين على الدهر قبلة الأنظار
ضمدي، ضمدي الجراح وسيري سير لا خائف ولا خوّار
فمن المبكيات أن تقتلَ الأحرار في ملعب الأحرار

كان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر موهبة وعبقرية فريدة، كتب بالسياسة والعلوم، والأديان، والأدب، والتاريخ، والاجتماع وغيره من أنواع العلوم.. وهو طبيب بارع، وسياسي لامع وخطيب مفوه

ترك آثاراً أدبية عدة رغم قصر حياته ومشاغله الكثيرة.

وقد قامت وزارة الثقافة بالجمهورية العربية السورية - مشكورة - بجمع معظم آثار الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في عدد من المجلدات ليستفيد منها الباحثون ويفيدوا ممّا فيها من كنوز نادرة.

وكان الفقيد الشهبندر قد نشر مقالات مختلفة في الصحف المصرية أثناء وجوده في المنفى (١٩٢٧-١٩٣٧م) وخاصة في مجلة المقتطف، وقد جمعها في كتب فيما بعد وله:

١- الثورة السورية الوطنية (مذكرات) دمشق، مطبعة الفيحاء، الطبعة الأولى ١٩٣٣م.

٢- سلسلة السجون (ترجمة)، دمشق، مطبعة الترقي ١٩٤٣م.

٣- الرحلة العلمية، بيروت، المطبعة العلمية ١٩٣١م.

٤- القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي، القاهرة، مطبعة المقتطف ١٩٣٦م.

وقد قامت وزارة الثقافة بدمشق بإعادة طباعة الكتاب الأخير من كتب الدكتور الشهبندر: القضايا الاجتماعية الكبرى (تحت عنوان الأعمال الكاملة للدكتور عبد الرحمن الشهبندر في العالم العربي)، فصدر الجزء الأول منه عام ١٩٩٣م، وقد جاءت مقدمة الكتاب للأستاذ محمد كامل الخطيب إذ قال:

(القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي، هو كتاب برنامجي وضعه سياسي مفكر ليقدم من خلاله تصوره للمجتمع الذي يناضل في سبيله أو يدعو إليه، وربما كانت هي المرة الأولى، والوحيدة التي يتقدم فيها سياسي عربي ببرنامج أو تصور فكري لإطار وغاية عمله أو نضاله السياسي ولا نستثني قادة الأحزاب العقائدية أو التقدمية العربية في ذلك)).

وقد أهدى الدكتور عبد الرحمن الشهبندر كتابه هذا لذكرى الشهداء الذين سقطوا في ميادين الشرف في العالم العربي دفاعاً عن الحرية والاستقلال منذ سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩٣٥م.

من فصول الكتاب:

- المدنية المقدمة.

- المرأة والرجل - مصير الأسرة الشرقية

- الأسرة الشيوعية - الدولة والحكومة والرعية - بناء الدولة - معرض المذاهب السياسية (أفلاطون - أرسطو) الخلافة الإسلامية - ابن خلدون - في القرون الوسطى، ميكافيلي.. إلخ).

- النهضة التركية الكمالية - أصلح أشكال (الحكم في العالم العربي - حاجتنا إلى التجانس- الوطنية - عوامل التجانس - العوامل المعنوية ووحدة الأمم).

- الزعامة وصفات الزعيم، الثورة.. إلخ.

وعن الثورة يقول:

((إذا ضاق بك ثوبك وأصبح خَلِقاً أكلت جدَّته الأيام وذهبت برونقه الطبيعة فمزقته وخلعتهُ عن جسدك وألقيتهُ في الأرض فأنت في مشرعة الألبسة ثائر، ولك في عالم الحياة الطبيعية أشباه ونظائر، فإن بعض الحشرات تنمو في غطاء قرني قاس إلى أن يضيق بها فتمزقهُ بانتفاضة فجائية وتخلعه عن بدنها ثم تعود فتفرز غطاء آخر أوسع منه، ولكنها تنمو ثانية في هذا الثوب الجديد حتى يصير ضيقاً فتخلعه كالأول لتكتسي بأوسع منه، وهكذا تتبدل ثوباً من ثوب إلى أن تبلغ رشدها، وليس كابوس الأوضاع الاجتماعية السياسية والدينية والأخلاقية والاقتصادية متى ضاقت أو هرمت أقل إرهاقاً وإضناءً من هذا الثوب أو الغطاء)).

(القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي - وزارة الثقافة- دمشق الجزء الأول ١٩٩٣ ص١٢٨).

وقد نوه الدكتور عبد الرحمن الشهبندر بمقدمة الكتاب بأهمية المرأة ومكانتها في الدول فقال:

((..ولم نهمل شأن المرأة عندما عرضنا لقضيتها مع الرجل لاعتقادنا أن مسألتها من أمهات مسائلنا التي تتطلب العناية الخاصة، وذلك لأن نصف المجتمع قائم على المرأة سواء عند العرب أم عند غيرهم)).

ومن قراءة هذا الكتاب نرى مدى ما يتمتع به الدكتور عبد الرحمن الشهبندر من ثقافة واسعة تشمل آثار العقول القديمة والمعاصرة العربية والأجنبية، ونستطيع أن نطلق عليه ابن خلدون العصر الحديث بحق.

هذا إضافة لما نشره الدكتور عبد الرحمن الشهبندر من مقالات وقصائد في مجلات سورية فقد نشرت له مجلة (القبس) لصاحبها الرئيس محمد كرد علي

عـدداً مـن القصائد منهـا: ماهية الحياة (ج١) ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م) وتحيـة حبيب (ج٦) ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م)، والطـيران عنـد العرب - مجلة الرابطـة الأدبية - جمعية الرابطة الأدبية - دمشق (ج٤-س١) ١٩٢٦م.

وإذا ما ألقينا نظرة على شعره فتقول:

((ما أتيح من شعره قليل، قصيدة واحدة في الغـزل العفيف يعاني شدة الوجد، وتمنُّع الحبيب، ويسعى للوصال، ومقطوعة قصيرة في الفخر بسبق العرب وريادتهم على سواهم من الغـرب مذكراً في ذلك بفكرة عباس بن فرناس عن الطيران، ويبدو أن الشعر لم يكن يغلـب عليه، تتسم لغتـه باليسر مع رقة في العبارة ونشاط في الخيال)).

(معجـم البابطين لشعـراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين مج١٠).

وهذه بعض نماذج من شعره:

تحية حبيب

حيِّ بلادَ الشمالِ   خلاقَ تلك المناظرْ

يامنيُّ أين العهودْ؟

هلاّ ولاك يعودْ

قد طال منك الصدودْ

إني أسيرُ الغرامْ   صريعُ لطفِ الحرائرْ

باللهِ رقّي لضعفي

يا خيرَ محبوبٍ يشفي

سقامَ مضنًى بطرفِ

يخافُ وقعَ النبالِ   ممن تفوقُ الجآذرْ

إن جالَ يوماً بفكرِكْ

خيالُ مضنًى بذكرِكْ

أسقيه من مسك سُؤرِكْ

نفسي أنتِ في خيالي   زارت وعقلكِ ناكرْ

إن كنتِ تمشينَ صبحا

بالروضِ والزهرِ أوحى

إليكِ معنًى ونفحا

فذا شعوري وحالي   بدا بزيِّ الأزاهرْ

كم بتُّ أبكي لبعدي!

وما البكاءُ ليجدي

وكلما هاجَ وجْدي

من لطفِ أهلِ الدلالِ   خشيتُ فضحَ السرائرْ

كنّا وكان اللقاءُ

والشامُ فيها الداءُ

حتى دهانا القضاءُ

أيامَ صفوِ الليالي   بالبينِ والكلِّ ناكرْ

لكنْ بعدَ الحبائبْ

يهيجُ ما في الترائبْ

فالقلبُ يغدو يخاطبْ

قلب المحبّ الموالي على ربوع الخواطر
رودي مهبّ الجنوب
فيه سلام الحبيبِ
ولن يخفَ تحيبي
حتى أرى للوصالِ من الشمال البشائرْ

الطيران عند العرب

إن يركب الغرب متن الريح مبتدعاً
ما قصّرتْ عن مداه حيلة الناسِ
فإنّ للشرق فضل السبق نعرفه
للجوهريّ وعباس بن فرناس
قد مهّدا سبلاً للناس نسلكها
إلى السّماء بفضل العلم والباس

من أقوال الشهيد الدكتور عبد الرحمن الشهبندر:

- إن أعظم مواقفي، وأحبها إلي، وأرضاها عندي، وأبعثها للسكينة في جوانب نفسي، موقفي للصلاة بين يدي الله.

- رابطة العروبة أقوى من أن تصاب في موتها وروحها ما دام القرآن الكريم يجمعها.

- نحن عرب قبل أن نكون سوريين.

- أما إذا مات الشهبندر أو قتل في ميادين الشرف، ففي الأمة شهبندريون.

أما عن موهبته الخطابية فقد ذكر الأستاذ ظاهر القاسمي، وهو يتحدث عن خطب الشهبندر التي كان يلقيها في حفلات تكريمه، إثر عودته من مصر:

((.وتتابعت الحفلات للزعيم، وأخذ يلقي في كل يوم خطاباً، أو خطباً جديدة الموضوع، جديدة الألفاظ، حسبته وهو يتحدث، وكأنه يقرأ من كتاب..)).

تلك لمحات عن سير حياة زعيم نهضوي حمل مآسي أمته وهمومها في قلبه فعرف الداء والدواء فباشر باستخدام مبضعه ليداوي الجسد المريض، ولكن يد السوء والإجرام حولت المبضع إلى قلبه، وهذا حال العظماء والمصلحين لشعوبهم في كل زمان.

المصادر والمراجع

١- الأعلام - خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة عشرة - بيروت ١٩٩٩م.

٢- القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي ١٩٣٦م، الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، الأعمال الكاملة، الطبعة الثانية وزارة الثقافة - دمشق ١٩٩٣م تحقيق وتقديم الدكتور محمد كامل الخطيب.

٣- معجم البابطين لشعراء العربية في القرن التاسع عشر والعشرين، إعداد هيئة المعجم- المجلد العاشر- الكويت ٢٠٠٨م.

٤- عبقريات وأعلام، عبد الغني العطري- دار البشائر، دمشق- الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٥- عبد الرحمن الشهبندر- حياته وجهاده، حسن الحكيم - الدار المتحدة للنشر- بيروت١٩٨٥م.

إمبراطورية الكتاب

رحاب محمد ❁

إنَّ الإنتاج الفكري للبشرية الذي تداوله الناس على وسائط خارجية هو وحده الجانب العام من المعرفة الذي أمكن الانتفاع به من خلال حفظه وتداوله في الكتب وأمكن للإنسان أن ينتفع بما وصل إليه أقرانه المعاصرون أو السابقون له بقرون طويلة، أمَّا المعرفة الخاصة التي تنشأ في عقل الفرد وتموت بموته من دون أن تنتقل إلى الآخرين فهي صفحة لا تقبل التداول في فكر البشر لأنَّها لم تحفظ عبر وسائط التداول المعرفية الخارجية. ولو اقتصرت معرفة الإنسان على الجانب الخاص لاستحال وجود تفاعل فكري وتبادل الخبرات بين الناس وفقدت البشرية ما يعرف بالموروث الفكري.

إمبراطورية الكتاب

على الرغم من كثرة الإمبراطوريات التي مرَّت على هذه الأرض ودولها، عبر العصور الطويلة، إلا أنَّ أيًّا منها لم يكتب لها الاستمرارية حتى الآن، ولم تسيطر على بقاع الأرض كافة. أمَّا «إمبراطورية الكتاب» فقد امتدت منذ ما قبل الميلاد حتى الآن، وغطت كل دول العالم من دون استثناء. والجدير بالذكر أنَّ ما ينشر سنويًّا في العالم على الورق يكفي ليغلف سطح الأرض سبع مرات كاملة.

❁ باحثة سورية.

لقد حاولت كل حضارة من الحضارات القديمة تسجيل المعرفة على وسائل ومواد مختلفة، فقد استخدمت الألواح الطينية وكتب عليها بالمسمارية في بلاد ما بين النهرين قبل آلاف السنين، ثم جاءت لفائف البردي التي من خلالها استطاع المصريون القدماء تسجيل معارفهم، أمَّا الجلود فقد استخدمت للتسجيل أو للكتابة منذ القرن الثالث الميلادي ولكنها كانت غير عملية، ولهذا ظهر الورق الذي اخترعه الصينيون ليحل محل أدوات الكتابة التي كانت شائعة. وفي القرن الخامس عشر لم تعد الكتابة باليد (المخطوطات) كافية لسد حاجة الإنسان من المعرفة، لأنَّها تحتاج إلى جهود كبيرة وتكاليف باهظة، إضافة إلى أن النسخ اليدوي لا يستطيع إنتاج أعداد كبيرة ومتماثلة من الكتب، ولهذا اخترع الألماني «غوتنبرغ» الطباعة، لتنتشر الكتب بعد ذلك وتصبح واحدة من أهم مصادر المعرفة والمعلومات.

ومع أنَّ كلمة كتاب من أكثر الكلمات شيوعاً بين الناس، إلا أنه ليس لها تعريف محدد ومتفق عليه. ويمكن القول إن الكتاب عبارة عن إنتاج فكري معين مكتوب أو مطبوع على مجموعة من الأوراق، التي تثبت معا لتشكل وحدة واحدة.

وتعرف اليونسكو الكتاب بأنه «مطبوع غير دوري لا تقل عدد صفحاته عن تسع وأربعين صفحة، عدا صفحة الغلاف وصفحة العنوان». وإذا قلت عدد الصفحات عن ذلك يصبح اسمه «كتيباً». وقد تطور الكتاب عبر العصور المختلفة من حيث الشكل والمضمون والموضوع، كما ساهم في انفجار المعرفة والوصول إلى ثورة المعلومات، التي نعيشها حاليا بعد أن أصبح من أكثر وسائل نقل المعلومات شيوعا. ويمتاز الكتاب عن غيره من أوعية المعرفة بما يلي:

- قدرته على ضم العالم بكل أبعاده الزمانية والمكانية بين دفتيه.
- رخص ثمنه مقارنة مع غيره من مصادر المعلومات.
- سهولة حمله ونقله وتداوله.
- كونه في متناول اليد، وليس له مواعيد محددة كالتلفاز، ولا يحتاج إلى جهاز لتشغيله، كما هو الحال مع الأقراص المدمجة والمضغوطة وشبكة الإنترنت التي تحتاج إلى قارئ أقراص أو جهاز حاسوب.
- وللكتاب عدة أنواع أو أشكال أهمها:
- الكتب أحادية الموضوع، وهي التي تعالج بشكل أساس وشامل موضوعاً معيناً من جميع جوانبه.
- الكتب الشاملة أو التجميعية وتحوي بحوثا منفصلة لمؤلف واحد أو لعدد من المؤلفين في موضوع معين.

- الكتب الدراسية أو المقررة، وتضم الحقائق الأساسية والنظريات التي استقرت في المجال، وعادة ما توضع هذه الكتب لأغراض التدريس والتعليم.

- الكتب الصادرة عن الهيئات والمنظمات والدوائر الحكومية وغيرها، وتضم معلومات تتصل بأنشطتها وفعاليتها وأنظمتها وقوانينها، وغير ذلك.

- الكتب الدينية المختلفة.

ويتألف الكتاب عادة من مجموعة من الأجزاء وهي: صفحة الغلاف الخارجي، التي تكون مقواة عادة، وصفحة الغلاف الداخلي والمقدمة والإهداء وكلمة الشكر وقائمة المحتويات والفصول أو الأبواب المختلفة للكتاب، ثم قائمة المراجع والكشاف، وأيّة ملاحق أخرى تضاف إليه.

وتقسم الكتب بشكل عام إلى الكتب القصصية، والكتب غير القصصية (العلمية والأدبية والثقافية)، وكذلك تقسم الكتب إلى الكتب المرجعية (المراجع) والكتب غير المرجعية، ويعرف المرجع بأنه كتاب مطبوع يضم معلومات لا تقرأ من أولها إلى آخرها مرة واحدة، ولكن يرجع إليها عند الحاجة للحصول على معلومة مفيدة مطلوبة، وتتم العملية عادة بسرعة لأن المراجع عادة ما تكون مرتبة وفق نظام معين، كالترتيب الهجائي، أو الترتيب الموضوعي، أو الترتيب الزماني، الترتيب الجغرافي، وتضم المراجع الأنواع التالية من الكتب:

- الموسوعات أو دوائر المعارف، سواء أكانت عامة أم خاصة.

- القواميس والمعاجم، سواء أكانت لغوية أم متخصصة.

- الأدلة بكافة أشكالها (أدلة هاتف، أدلة الطرق- الأدلة السياحية.. إلخ).

- الأطالس والخرائط وغيرها من المراجع الجغرافية.

- معاجم التراجم والسير الذاتية وكتب الأعلام.

- المخطوطات والكتب الوطنية، والعامة، والمتخصصة، والتجارية (الببلوغرافيا) وغير ذلك.

- مراجع أخرى، كالكتب الإحصائية والكتب السنوية وغيرها.

وأمًّا بالنسبة لترتيب اللغات التي تنشر فيها الكتب، فتأتي اللغة الإنكليزية في المقدمة، حيث يصدر أكثر من ٦٠٪ من الكتب في العالم باللغة الإنكليزية، ثم تأتي بعدها اللغة الفرنسية، فاللغة الألمانية، فاللغة الإسبانية، فاللغة الروسية، وهذه اللغات الخمس ينشر بها أكثر من ٩٥ ٪ من الكتب في العالم، ويبقى هناك أكثر من ٤٠٠٠ لغة في العالم، ومن بينها اللغة العربية، وتنشر مجتمعة ٥ ٪ مما يصدر في العالم من كتب.

ملك المعرفة

لاشك أن وسائل حفظ المعرفة قديمة قدم المعرفة ذاتها منذ أن أدرك الإنسان البدائي أنَّ عقله على سعته لا يصلح لتخزين المعارف والتجارب بعد الموت، مما يجعله يبحث عن وسائط مثالية لاختزان المعرفة وتبادلها وحفظها ونقلها للأجيال القادمة.

ومنذ أن عرف الإنسان الورق كوسيلة للكتابة حسم صراع الوسائط لصالح الكتاب المقروء، فأصبح هذا الكتاب حامي حمى المعرفة وحافظ سرها الأمين. وازداد سلطان الكتاب بقوة باختراع الكتابة (غوتنبرغ عام ١٤٧٥م)، وبقي الكتاب وسيلة اختزان المعارف وحفظها طيلة هذه القرون المتطاولة من عمر البشرية.

والذي يبدو أنه مثلما الأيام دول متعاقبة، فإنَّ الوسائط أيضاً دول تحكمها سنن التغير والتدافع والمجتمعات، فها نحن نعيش سنوات القرن الواحد والعشرين وقد ظهرت وسائط جديدة كإفراز منطقي للتقدم العلمي الهائل في مجال تقنية المعرفة والاتصالات وتبادل المعلومات.

لقد اعتبر الورق لحظة اكتشافه نقلة نوعية في عالم الوسائط فضحت عيوب البردي وارتفعت الأصوات تطالب بترك البردي واستخدام الورق بدلا منه لتصبح المكتبات بصفوف الكتب المتراصة عنوان التقدم العلمي والمعرفي.

إنَّ كتاباً واحداً من الورق كان مضمونه يشغل حجرة كاملة من الألواح والحجارة والأكتاف والعساف واللخاف من وسائط ما قبل الورق، ويتضح ذلك من حجم المصحف قبل جمعه عندما كان يملأ حجرة في بيت حفصة رضى الله عنها. والكتاب الإلكتروني المعاصر قد يتسع مفهومه ليشمل كل الملفات المقروءة آليا ويحتوي بين دفتيه مكتبة جامعية كاملة أمكن بالتقنية المعاصرة ضغطها في قرص أو عدة أقراص لا تشغل في حجمها مقدار كتاب عادي واحد.

بين المطبوع والإلكتروني

إنَّ الكتاب المطبوع هو وحدة فكرية تعكس فكر شخص أو أشخاص قاموا بإعدادها وقولبتها ثم دلف هذا الكتاب إلى المطابع ليجد طريقه إلى مستفيد آخر يقرأ الكتاب وكأنه مطبوعة من مؤلف الكتاب وكان الناشر وسيطاً كساعي البريد. وهذا المعنى المتعارف عليه للكتاب ينطبق تماما على مصطلح جديد أفرزته التقنيات المعاصرة يعرف بـ«الكتاب الإلكتروني»، الذي قد يكون له نظير مطبوع أو يكون إلكتروني الأصل والمنشأ. إنَّ تصاعد التطورات المتسارعة في عالم الاتصالات والمعلومات والإلكترونيات أوجد تصوراً أو اعتقاداً بأنَّ الكتاب المطبوع

وأدوات ووسائل متعددة أخرى سوف تزول من حياتنا اليومية أو تتلاشى حاجتنا إليه في ظل الإنترنت والكمبيوتر. وقد بدا واضحاً من خلال العزلة والانكماش اللذين تعرض لهما الكتاب المطبوع أمام التفوق الكاسح للفضائيات والتقنيات المتطورة، وأصبح الكتاب الإلكتروني منافساً قوياً للكتاب المطبوع في معارض الكتب في جميع أنحاء العالم.

لقد تجاوزت التقنيات المتطورة آفاق خيالنا فرحنا نلهث خلف مهارات الآخرين وإبداعهم كي نمسك بآخر عريتهم المنطلقة بسرعة في مجال التفوق التقني الذي تجري فيه الدول المتقدمة، ففي كل يوم وربما في كل ساعة يبرز ابتكار علمي جديد يشكل لنا مفاجأة مدهشة لبعدنا عن ميدان السباق ومضماره الذي تجري في الدول المتقدمة.

والكتاب الإلكتروني واحد من إنجازات المعلوماتية المتطورة قدمته في عام ٢٠٠٠م شركة «جيمستار» الأمريكية ليحدث انقلابا في المفاهيم المتعلقة بدور النشر والكتاب التقليدي، فقد فتح الكتاب الإلكتروني عصر القراءة الآلية التي ستسيطر قريبا على كل ساحة المعرفة، لأننا في الطريق لتحويل كتبنا كلها إلى أشرطة إلكترونية. وصحيح أنَّ تكلفة الكتاب الإلكتروني قد تكون مرتفعة إذا ما قيست بالكتاب المطبوع، كما أنَّ الكتاب الإلكتروني لايزال في حوزة النخبة الذين يمكنهم الاتصال بشبكة الإنترنت، مما يجعله بعيد المنال عن أيدي عامة القراء.

إنَّ الكتاب الإلكتروني قد يتسع في مفهومه ليشمل كل الملفات المخزونة آليا والتي يمكن قراءتها، ولكن المقصود هنا هو كون الكتاب ذا أصل مطبوع رأى ناشروه إظهاره بشكل إلكتروني، وكما هو شأن الناس فقد انقسم البشر بين فريقين تمسك أحدهما بالكتاب التقليدي مهملاً دور الإلكترونيات في حفظ المعرفة وتداولها، بينما نادى الفريق الثاني بترك الرصيد المعرفي المطبوع وضرورة نسخه وحفظه على الوسائط الإلكترونية، وهذه الدعوى العريضة ترجع إلى أكثر من ستين سنة، فقد نادى بها الغرب عام ١٩٥٠م أحد أساتذة جامعة كاليفورنيا مأخوذا بالتقدم الهائل في الوسائل السمعية البصرية. وربما يتناسى هذا الفريق أن إلغاء الكتاب الورقي المطبوع وحصر المعرفة بالصورة الإلكترونية إنما إجهاض للذاكرة وقضاء على ما تبقى من العقل البشري الذي سلم نفسه لعالم الأقراص. لقد صمد الورق أمام عواصف متعددة ثارت في وجهه منذ ظهور المصغرات الفلمية وإمكانية تصوير المخطوطات حتى راح بعض الناس إلى القول بإمكانية التخلص من الورق نهائيا، وهذا من المحال أن يحدث لأن الورق موضوع الكتابة رافق

وجود الإنسان منذ أن احتاج الإنسان إلى الكتابة والتوثيق في حياته. كما إن هناك علاقة صداقة ومحبة ووئام بين الإنسان والكتاب الورقي وهي علاقة وجدانية، فالعقل البشري يكره الاضطراب ويضيق صدره بالزخم المعلوماتي الذي وصل إلى حد التفجر.

وحقيقة الأمر أن الصراع بين الكتاب الإلكتروني والمطبوع ما هو إلا صورة من الصراع الفلسفي بين القديم والحديث، وبين الأصالة والحداثة، وهو صراع لا يمكن التكهن بنتائجه في معظم الأحيان لتباين المعايير التي تحدد الفوز والهزيمة ولوجود تغذية راجعة لتغذية الفريقين وتدعم استمرارية الصراع، وحتى هذه اللحظة لم يقل أحد بفوز تيار الحداثة بملامحه وعتاده وأصواته العالية، كما لم يستطع أحد القول أن نعصب أعيننا عن مظاهر التقدم التزاما بالتقليدية المحضة.

والموقف الحق الذي يحفظ تشتت الجهود في رصدنا لا يجدي رصده هو إمكانية التوافق والتعايش والتصالح بين الطرفين المتخاصمين، فكليهما يخدم المعرفة البشرية في مجاله ولا حاجة بنا لترجيح أحد الجانبين على الآخر. إنَّ حياتنا تشهد عدة صور من التعايش بين متضادات، فلم تُلغ العدسات اللاصقة النظارات التقليدية، ولَم تلغ المصاعد الكهربائية الأدراج والسلالم التقليدية، إنها بدائل لا يغني وجود أحدها عن الآخر وقد كان أجدادنا يقولون «ما تحتاجه يومياً حافظ عليه دوماً». وهذه بطاقات الصراف الآلي التي نحملها في جيوبنا مع النقود التقليدية دون افتعال صراع بينهما، فالقضية محسومة لصالح كل البدائل ولو أنَّ الكتاب الإلكتروني ما يزال وليدا لم يقطع حبله السري.

إنَّ الكتاب الورقي المطبوع مازال متربعاً على عرش الوسائط المعرفية لأنه يعبر بمحتواه عن كل جوانب المعرفة، وهو سهل القراءة قابل للتنقل يملكه الغني والفقير ولا يحتاج إلى أجهزة أخرى للاستفادة من مضمونه، أمَّا الكتب الإلكترونية فمازالت محصورة في بعض القطاعات وفيها بعض الصعوبات في قراءتها وإمكانية نقلها وتبادلها وليست بمتناول عامة الناس، وإن كانت هذه أسرع في الوصول إلى المعلومة ولكن هذا يذهب لذة البحث والتنقيب.

ولذلك من الصعب جداً إلغاء الكتاب التقليدي من حياتنا في المستقبل المنظور، فما يزال هذا الكتاب أهم عناصر الثقافة عند بني البشر، وقد تبين لنا أن ما بشر به بعض المتفائلين في ثمانينيات القرن الماضي من شركات نشر بلا ورق وكتب بلا ورق ومكاتب بلا ورق غير صحيح، فما يزال الكتاب المطبوع متربعاً على عرش مملكة المعرفة.

النساء يسمعن نداء راوية قصة

ترجمة: أحمد العمري ●



شهرزاد وشهريار

إنها شهرزاد المرأة التي أبدعها الخيال والقاصّة المدهشة والمثال الذي لاينسى من العالم العربي والشـرق الأوسط، والصورة القوية الجديدة والرمز المدافع عن حقوق المرأة، والأنموذج لدور محرض ألهمت من خلاله النســاء الباحثات عن مكانة أقوى لهــن في مجتمعهن من دون أن يتخلين عن معتقداتهــن أو ثقافتهن. وهي أيضاً بطلة خياليــة تمكنت من تغيــير وإعادة تشكيل مملكــة وسلطان المملكة بالكلام ومن دون عنــف. وقد أثّرت هذه الشخصية الأدبية العامة في عدد وافر من النساء في الشرق

● مترجم من سورية.

العمل الفني: الفنانة منى النداف.

الأوسط ومن شمال أفريقيا إلى جنوب شرق آسيا فاستجبن لهذه الظاهرة بامتنان.

كما أظهرت هــذه الحسناء للعيان أن لا حاجــة للنسوة أن يعتنقــن سمات وثقافات الغــرب كــي يوسِّعــن حقوقهــن ويبسطن أدوارهن في مجتمعاتهن وأنَّ التاريخ الديني والأدبــي يمكــن أن يقدم لهن أكــثر الأدوار تأثيراً لمواجهة المتشددين والمتعصبين وأولئك الذين يبخسونهم حقهن.

اروِ لنا قصة أو تعدمي

تتحلى ألف ليلة وليلــة (أو ألف طريقة وطريقــة للإبقاء على حياتــك) بكل الأمور التــي ينبغــي أن تتحلى بهــا كل قصة مثل الوصال والموت والخيانة والانتقام والسحر والفكاهة والدفء والدهاء والمفاجأة والنهاية السعيدة.

وعلــى الرغم من أنَّها ضد النساء إلا أنَّ شهرزاد راوية تلــك الحكايات أذكى وأقوى بطلــة في كل الأدب العالمــي. فقد انتصرت في النهاية لحنكتها ورباطة جأشها ومعرفتها الواسعة وأخبارها المثيرة فسحرت بكل ذلك عقول الناس وسبت قلوبهم.

ويروي لنا الكتاب قصة الملك (شهريار) الذي خانته زوجته في ليلة مظلمة فيقرر أن يتزوج صبيــة كل ليلة وأن يعدمها في صباح اليوم التالي... إلى أن جاء دور شهرزاد ابنة الوزيــر التــي صرفت انتباه الملــك وأذهلته بقصصهــا التــي تستمر حتــى الفجر وهو الوقت الذي يتوجب على شهريار أن ينهض فيه وينصــرف لرعاية شــؤون ملكه. ولكن فضولــه يُثــار ورغبته في معرفــة الخاتمة تتعاظــم لذلــك يضطــر أن يؤجــل إعدام شهرزاد حتــى يسمع منها نتيجة سلسلة من أحداث ومكائــد متعاقبــة لا تنتهي فتنقذ بذلــك حياتها وحيــاة أخريــات. .. إلى أن عشقها فتزوجها فأنجبت له ثلاثة أطفال.

وشهرزاد مختلفة عن سندريلا ومثيلاتها اللواتي كن ينتظــرن أن يأتي فارس مرتدياً درعــه اللامع كي ينقذهــن. لذلك وُصفت شهرزاد بأنها أذكى بطلات النساء. والقصة أي قصة جزء من الطبيعــة البشرية شأنها شأن التنفس والدورة الدموية في الجسم.

بيــدَ أنَّ أدبــاء هــذا العصــر يحاولون تجاهلها والتخلص منها ويعتبرونها من ناحية عامــة خفيضة المستوى ويفضلون أن يكتبوا عــن الأمور التي يحس بها المــرء ويدركها. ويبدو أنهم لا يلاحظون أنَّ القصة جزء من الجســم الإنساني ولا يمكــن التخلص منه. والحياة تشبه العيش في سجن يؤخذ منه كل يوم أحد السجناء كــي يُعدم. ونحن جميعاً مثلنا مثل شهــرزاد معرضون للموت في أي لحظة. وحياتنا عبــارة عن قصة لها بداية

ونهاية. غيرَ أنَّ شهرزاد أبرزت ما هو مدهش ولم تتطــرق إلى ما هو اعتيادي وأبرزت ثمار الخيال وتفادت المنطق المضجر.

ألف ليلة وليلة (أو ليالي العرب كما تُدعى في أوروبـة Nights Arabian) من أشهر قصص الدنيــا ولها أصلٌ عربــي وآسيوي وباتت جــزءاً لا يُفك أو يُحل أو ينفصم عن إرث الثقافــة الغربيــة. فحكايــات الأميرة شهــرزاد وعلاء الديــن والفانوس السحري والسندباد البحري وعلي بابا.. قد ترسخت في الخيــال والإبداع الغربــي. إذ تروي لنا هذه الحكايات قصصاً عن أساطير وروايات وحوريات وحب شريــف ومغامرات فروسية ونوادر مبنية على تقاليد شعبية فيها أفكار وكلام علــى ألسنــة الحيوانات، وجميعها ذات صلة بمناطق جغرافية متنوعة وفترات تاريخية مختلفة.

وعندما وصلــت القصص إلى الجمهور الغربــي أصبحت من أبــرز مؤلفات الأدب العالمــي ووراء فيضٍ من المحــاكاة والتقليد والتعديــل والتغيير ومحل إجلال وتقدير من قبل كتَّاب أوروبة أمثال:

(غوتيه Goethe) الألماني (وورد سوورث Wordsworth) الإنكليــزي. ورسامــين مثل (دوريه Dore) الفرنسي (وكورساكــوف Korsakov) الموسيقار الروسي وحتى في أفلام هوليود السينمائية.

ومنــذُ القرن العشرين كانَ هذا العمل الفني موضع ثناء وعناية وترحيب من قبل الكثيرين وقد أجمع المثقفون في ثنائهم على الطريقة التي تجاوز بها هذا العمل الحدود الثقافية واخترق التخوم اللغوية وسما فوقها.

تطرح ألف ليلة وليلة عدة مسائل رئيسية ذات صلــة بحياة الإنســان وخبراته المتعلقة بالحب والفنــاء والسعادة والقــدر والخلود وفق أسلوب يثير العجب والإعجاب ويضاهي أي أشــكال أدبية. كما تبحث في أمور روحية وكيفية العيش في عالم فيه الخير والشر وتُلمح إلى شخصيــات متنوعة مثل سلطانٍ جائر أو حاكمٍ رؤوف أو إلى سحرة أو إلى مشعوذات أو عفاريت خيّرة أو شريرة. وتُعنى القصص أيضاً بالعلاقات بــين الجنسين والرغبات البشرية المتعــذر تجنبها والتماســ الكمال والتهذيب الروحي. وتقدم لنا شهرزاد على نحو مباشر قصصــاً مهمة عــن السلطــة والعلاقة بين الرجل والمــرأة والعدالــة والتسامح، وقدرة فنيــة تعيدُ من خلالها صناعــة أفكار أخلّت بتقدير المرأة ومركزها.

وتقدم لنا ألف ليلة وليلة عدداً كبيراً من المقــالات والمواضيع، وتــبرز مفهوم السلطة في كل مكان مــن الكتاب، وتلقي ضوءاً قوياً على سلطة الحكّام الرهيبة الذين في يدهم

نفوذٌ مطلق وعلى آثار هذا التحكم، وتركز على قوة النساء مع العلم أنَّ العديد منهن من الرقيق أو المحظيات وعليهن أن يسمعن ويطعن من يملكهن وعلى الرغم من ذلك يُبدين مقاومة لا تصدق للتغلب على محنتهن وحظهن العاثر. وشهرزاد أشهر مثال على ذلك. ويسبرُ الكتاب أيضاً مسائل العدالة والتسامح ويُهزم الشر في النهاية فالملكُ يتفهم قبيل الخاتمة المعنى الحقيقي للإنصاف والصفح والإنسانية بعد أن جمّلت زوجته هذه المسائل وزينتها له.

موقف نقدي

إنَّ ألف ليلة وليلة جزء له شأنه من الثقافة الشعبية في العالم العربي والشرق الأوسط وإنَّ تاريخها الطويل وانتشارها دليلٌ على جاذبيتها الباقية حتى الآن. وإذا كانت جزءاً لا يتجزأ من المشهد الثقافي في هذه المنطقة، فإنَّها لم تنعم دائماً بمنزلة الفن الرفيع. فعندما انتشرت في العالم الغربي في بداية القرن الثامن عشر لم يتقبلها النقاد بقبول حسنٍ وقالوا إنَّها تسليةٌ أو أفضلُ من التسلية بمقدارٍ قليل ولا تتسم إلا بمقدارٍ ضئيل من الميزات الأدبية. ورأى فيها مثقفون عرب أنَّها مجرد أدب شعبي وغير جديرة أن تصنف بين آثار الأدب العربي الكلاسيكي.

ولكن على الرغم من كل ما قيل استقبلها العديد من مثقفي وشعراء الغرب استقبالاً حسناً وخاصة في الفترة الرومنسية.

وفي القرن العشرين بدأت ألف ليلة وليلة تلفت انتباهاً نقدياً نظامياً وجدياً. فمع ظهور النقد المنضبط اكترث المثقفون بدراستها ومقارنتها بحقولٍ متنوعة مثل الأنثروبولوجيا (أصل الإنسان وعاداته وتطوره ومعتقداته) وعلم اللغات والفن الأدبي.

ونتيجة لذلك كله أطراها نقادٌ وأثنوا عليها ليس كفن سرد القصص والأخبار فقط ولكن أيضاً كعمل فني عميق التفكير ومثير للإعجاب، كما مجّد مثقفون معاصرون واشادوا بإفراط بقدرة تلك القصص على المخاطبة بصيغة سهلة مسائل عالمية بدءاً من الغرام والسعادة والقضاء والقدر والخلود والموت.

كما لاحظوا أهميتها في الحياة العصرية من خلال الحكمة التي تقدمها للفرد من أجل مقاومة قوى طاغية لا يُسبر غورها. وترى تحاليل القرن العشرين النفسية أنَّها تخاطب العقل الباطن والرغبات المكبوتة وتساعدُ الفرد على تحويل الدوافع الهدَّامة إلى خيالٍ غير مؤذٍ وتركز أكثر وأكثر على

تاريخ المخطوطة للقصص وبراعة البيئة الفنية وحسن سردها وتأثيرها على أدب الغرب وثقافته.

ولاتزالُ قصص ألف ليلة وليلة وأخبارها من بين الأنماط الأدبية المتميزة إلى أبعد الحدود ولا تزال تجذب الصغار والكبار بعد أن تزينت بثمرة من ثمرات الخيال المتراكم للثقافة التي نشأت منها أصلاً وأصبحت فائدة جمالية لشعوب الشرق الأوسط والعالم.

حكايات الحوريات فائقة الرقة والجمال

في العالم الغربي ومنذُ مئات السنين عبارة (كان يا مكان) كانت تأتي في بداية قصة الجنية الحسناء أو العملاق أو الحيوان القزم أو الغول أو الحورية البحرية أو القزم الذي يسكن الكهوف أو يقيم تحت سطح الأرض أو الشخص الخبيث. وهي قصص تجري فيها أحداث خارقة للطبيعة وأعمالُ سحر وشعوذة. ونشوء هذه الحكايات أو تاريخ انتشارها لا يزالُ موضوع جدلٍ ومناقشة. أمَّا شخصياتها فصفاتها الفردية غير محدودة وأماكنها غير معروفة. كما ليسَ لها أسماء في كثير من الأحيان وتدعى فقط بكلمة ملك أو ملكة أو أمير أو مزارع أو فقير أو جنية حسناء أو حورية جميلة. وقد تأخذ الشخصية شكل طيف أو شبح له قوة خارقة للطبيعة أو شكل جني لـه هيئة بشر يُعرف بقوى سحرية.

وهناكَ عشرات الأنماط من المكائد والحبكات القصصية التي تستخدم عدداً من الأفكار والألوان الفلكلورية وبعض التعابير الاعتيادية وملاحظات مألوفة كما يمكن أن تكشف عن شخصيات بليدة أو حمقاء كملك قاسٍ أو زوجة عنيفة أو أخت متعجرفة أو عروس بديلة حلت مكان عروس أخرى.

وتتطور المواضيع عبر تعاويذ تدفع الشر أو تجلبُ الحظ السعيد أو من خلال تغيير سحري للشكل أو إحياء وإعادة إلى وضع سابق وزيجات وولادات خارقة للطبيعة مثل حكاية "كيوبيد وسايكي Cupid and Syche" على الرغم من أنَّ خلفية القصة ومكانها وزمانها مثالية أو خيالية ويمكن أن يقع فيها حدث جبار فإنَّ القصة تتسم باتساق داخلي والعنصر الغريب في تلك المواقف سرعان ما يصبح مقبولاً كما يرى الملاحظ واقعيةً في عدة جوانب منها. فالخاتمةُ سعيدة والفضيلة تُكافأ.

أمَّا القصص على ألسنة الحيوانات فإنَّها تلمح إلى حسن السلوك والأخلاق. والشخصيات عادةً ما تكون حيوانات تتكلم مع الاحتفاظ بالميزات الحيوانية. وغالباً ما

تُذيِّل المناقب الأخلاقية بمثل يُحتذى.

وقد تجيب تلك الحكايات عن بعض الأسئلة مثل: لماذا يشتهرُ الثعلب بالخبث والدهاء؟ والأسدُ بالهيبة والوقار؟ ولماذا الغرابُ مصبوغٌ باللون الأسود الفاحم؟ وما هو سبب قولنا الشائع «عنب حامض»؟ وإذا ابتدأت القصة بعبارة (كان يا مكان في قديم الزمان وسالف العصور والأزمان) فقد اختتمت بعبارة سعيدة (وعاشوا في ثبات ونبات وخلفوا باقة من الأولاد والبنات).

المراجع

1- The Reader's Companion To World Literature
2- Narrate Or Die By A. S. Byatt
3- Women Hear The Call Of A Storyteller
4- Fairy Tales

الكتابة للأطفال.. الأهداف والتقنيات

د. حسين فاضل ●



الأمة الحكيمة هي التي تنظر إلى أطفالها نظرة يملؤها الرجاء والاهتمام والعناية بتثقيفهم وتحسين سلوكهم وتسعى لتوجيههم التوجيه الحسن حتى تضمن لنفسها حياة حرة كريمة ومستقبلاً سعيداً. فهذا المستقبل قد يكون سيئاً ومدمراً وقاضياً على ما تبقى من الأمة وأصولها وجوهرها إذا تركت فيه براعم الأمة من دون توجيه فبدلاً من أن تفتح أو تتفتح زهوراً وتعقد ثماراً ناضجة، تذبل هذه البراعم لتحل محلها أشواك

● أديب وناقد.

العمل الفني: الفنانة رناء كريدي.

جارحة قاتلة. إنَّ كل المهتمين بالأطفال اليوم وتوجيههم ودورهم في صياغة المستقبل الإيجابي الفاعل يدركون أثر التوجيه السليم الذي يقدم لهم، وهذا التوجيه له جوانب متعددة تكون الكتابة للأطفال جزءاً مهماً وأساسياً منه لما يترتب على هذه الكتابة من آثار كثيرة سأحيط ببعض جوانبها، فمثلاً:

١- إيصال المعارف والثقافات والعلوم إلى الأطفال: لأنَّ إثارة مشاعر السمو والرقي النفسي والأدبي لديهم يغني هؤلاء الأطفال بشكل كبير، ولما كان هؤلاء شريحة مهمة من شرائح المجتمع فإنَّ إغناء الأطفال وزيادة قدراتهم وخبراتهم ومعارفهم إنَّما هو في حقيقته إغناء للأمة حاضراً ومستقبلاً واستمرار لمستقبلها وتيارها الثقافي من دون انقطاع حيث تركز أو يرتكز الحاضر على الماضي وينجر للمستقبل، فلا تحس الأمة بأي غربة ثقافية وتبقى متمسكة بأصولها وجذورها، وتبقى لها أصالتها التي تحفظ لها وجودها، الأمة التي تفقد أصالتها أو تنظر إلى ماضيها نظرة الامتهان ستجد نفسها بناء من دون أساس وهي معرضة للانحراف أو الانهيار في كل لحظة، وأعداء الثقافة العربية يدركون هذا الأمر أشد الإدراك فترى اهتمامهم منصباً على الإساءة لماضي هذه الأمة، بل إنَّهم يحاولون دفع الناشئة للتبرؤ من ماضيهم والاحتقار له، والنظر بعين التقدير والاحترام إلى الثقافات الغربية الوافدة حتى تتم عملية التغريب الفكري في العالم العربي ككل، وتضمحل أو تذوب الشخصية الذاتية التي هي الحاجز الأوَّل في وجه الإذابة والسيطرة.

٢- الكتابة للأطفال إغناء لمعارفهم وزيادة لثقافتهم: إنَّ الكتابة للأطفال ودفعهم إلى القراءة والاطلاع هي إغناء لثقافتهم ومعارفهم كما أنَّها تنشئ الطفل على حب المعرفة والعلم والثقافة وتجعل الأطفال يرتبطون بعناصر الفكر ارتباطاً ذاتياً شخصياً، وحين يصبح الأطفال شباباً، ستجد الأمة نفسها أمة علم وليست أمة جهل وستكون قادرة على بناء مستقبلها السعيد.

٣- العلم والثقافة وحدهما لا يكفيان للأطفال: لا بد أن تكون من أهداف الكتابة توجيه العلم إلى سلوك لدى الأطفال والمعرفة إلى تطبيق، والثقافة إلى حياة فالقضية ليست تنظيراً وحكمة فحسب، بل هي تطبيق وسلوك، حيث يجب أن تكون الكتابة للأطفال متضمنة توجيههم إلى التمثل بما يقرؤون والتنفيذ لما يعتقدون والتطبيق لما قرؤوا. وحين تعلّم الأمة أطفالها، ستصبح أمة مهذبة نقية ذات سلوك حسن فعليها أن

تهيئ لأطفالها هذا التوجيه حتى يحفظوا في المستقبل القريب للأمة صفاءها، واستقامتها، واستمرار كمالها.

أهداف الكتابة للأطفال

والطفولة باعتبارها أهم المراحل في حياة الإنسان، والفترة ذات الأثر الأكثر تأثيراً في مجمل مسيرة حياته، حيث تتشكل فيها جميع السمات الأساسية للشخصية الإنسانية، وتتحدد معالمها، وكما أنَّ هذا الينبوع الإنساني هو أهم الثروات التي تملكها الشعوب، ومن أسمى الغايات التي تنهض بالمجتمعات إلى التطور والتقدم، كان من الطبيعي أن تحظى بأولى الاهتمامات.

ويعرِّف علماء الاجتماع الطفولة بأنَّها المرحلة العمرية الأولى التي يمرّ بها الإنسان في بواكير وجوده الذاتي والاجتماعي، والتي تحدد سماتها في أنماط من السلوك والميول، وأوجه النشاط المؤسسة على خصوصية في البناء الجسدي والتمثيل اللغوي، وأساليب اللعب والحركة، ووسائل التعبير عن المشاعر والأحاسيس، والحاجات وسبل إشباعها.

ولأنَّ الطفل يعيش في عالمه الخاص به، ويتميز بلغته وبقدراته المختلفة عمّا يملكه الكبار كان لابد من تهيئة العوامل والأسباب التي تعمل على بناء الشخصية المتكاملة، جسدياً وانفعالياً واجتماعياً، لهذا الكائن الصغير، فأصحاب الشخصيات المتكاملة هم الذين يفكرون بطريقة سوية، وهم الذين يبنون بشكل سليم.

وتشكل البيئة الاجتماعية المحيطة بالطفل العامل الأساسي في تحديد أنماط سلوكه وتكوين أفكاره، وفي صياغة نظرته الخاصة للحياة، فنمط السلوك وطريقة التفكير لا يتأتيان بالفطرة، وإنَّما يتكونان بالاكتساب، والتعلم بتأثير المحيط. وتمثل «الثقافة الطفلية» أهم الأساليب التربوية التي تستطيع أن تطور أفكار الطفل وتوقظ في أعماقه مكنوناتها الدفينة، وتفجر طاقاتها الكامنة، والثقافة الطفلية اليوم لم تعد مجرد معلومات ومعارف يتلقاها الطفل وكفى، بل تجاوزت تلك المفاهيم لتشمل مختلف الجوانب التي تمس حياة الطفل ليبقى الغاية الأسمى والثمرة المرجوة من كل الأساليب التربوية.

ويشكل أدب الأطفال بدوره الدعامة الأساسية للثقافة الطفلية الشاملة، حيث إنَّ مفهوم الثقافة أعمق وأشمل من مصطلح الأدب، ولتوضيح الفارق بين ثقافة الطفل وأدبه يمكننا القول: إنَّ الثقافة تمثل الإطار الذي يحكم مجمل أشكال العلوم والمعارف والفنون بمختلف أشكالها، الأدبية والتشكيلية والموسيقية، والعادات والقيم والمهارات

السلوكية التي يتلقاها الطفل ويكتسبها من محيطه، وتتعدد وسائل إيصالها من الكتاب وحتى شبكة الإنترنت، مروراً بالتلفاز والإذاعة والمتحف والمعرض.. إلخ، أي إنّ هناك وسائل مقروءة ومسموعة ومرئية، تلعب دور الوسيط في نقل ثقافة الطفل وتشمل أيضاً جميع ما يقوم الطفل بتشكيله وإبداعه من ألعاب وقصص وأغاني.

ويعرّف علماء الاجتماع ثقافة الطفل بأنها «خليط مما يرثه من أبويه وأسرته، وما يصله من عادات وتقاليد، وما يكتسبه من معرفة وعلم، وما يتأثر به من فنون وما يمارسه منها، وما يعتقد فيه ويؤمن به وما يوصف به من خلق، وما تتميز به شخصيته من ملامح، وكل ما يسود في مجتمعه من أفكار وآراء وقوانين وما يشيع فيه من ثقافة عامة». إذن تزداد الثقافة عند الطفل كلما استمر في اكتساب المهارات وتلقي المعارف.

أمّا أدب الأطفال فهو من الوسائل التربوية التي تعتمد على أشكال معينة، وتهدف لتحقيق غايات محددة، وتتخذ أساليب وقنوات وأشكالاً مختلفة، كالقصة التي تمثل أكثر الأنواع إقبالاً، وذلك لانسجامها مع طبيعة الطفل، وهناك أيضاً الشعر والمسرحية والرواية.. إلخ. ولابد أن تمتاز عناصر هذه الأنواع الأدبية بالحسية أي أن يسمعها أو يشاهدها ويدركها الطفل.

ولم يعد ينظر لأدب الأطفال كوسيلة ترفيهية لإشاعة البهجة والمرح فحسب، وإنّما بات مؤشراً دقيقاً للاهتمام الحقيقي بالمستقبل بكل أبعاده، ولم تعد أهدافه محصورة بمجرد تسلية وإمتاع الطفل، بل أصبح مساهماً فاعلاً في تقديم الخبرات له، وفي تنمية مقدرته على التفكير والتعبير السليمين، وفي زرع بذرة المهارات في نفسه، وغرس القيم التربوية والسلوكية الإيجابية، والمبادئ الإنسانية والقيم الفاضلة، التي لا ترتبط بمكان وزمان لديه، وتسهم في تكوين وجدانه وتنمية الاتجاهات التي تعزز مواجهته للمشكلات الحياتية.

كما أنّه يعمل على تنمية شخصية الطفل وتهذيب مكوناتها، وإشباع حاجاته الوجدانية والاجتماعية وإرواء ظمأ الطفولة في نفسه، في إطار بناء الشخصية المتكاملة، الخالية من العقد والقابلة للتطور، والقادرة على التفاعل الإيجابي مع العصر ومتغيراته، ليكون الطفل في النهاية فرداً صالحاً في محيطه، وعنصراً بنّاءً في مجتمعه، ويكون مُعَداً إعداداً جيداً لينهض بأعبائه، حيث يؤمن هذا الأدب للطفل القصص والحكايات الحافلة بالمشاهد والصور، فتغذي نفسه بالحوارات التي تتضمنها، وتتيح له الفرصة لتذوق رسومها

الجذابة، كما يتيح الاستمتاع بالقصائد الجميلة، ومشاهدة التمثيليات والمسرحيات، فيرتقي بسلوكه بالمحتوى الهادف، ويسمو بمشاعره بالأسلوب الجميل.

ويعدُّ الكتاب الحاضن الأكبر لمختلف أنواع أدب الأطفال، كالشعر والقصة والمسرحية والمقالة والرواية.. إلخ، والوسيلة المفضلة والأكثر جاذبية للطفل، وصاحب المقدرة الفاعلة في التأثير على مشاعره وسلوكه، ويتيح له الاستمتاع بما يحتويه، وينمي ثروته اللغوية، وبهذا لا يختلف أدب الأطفال عن أدب الكبار في أنواعه وخصائصه، وإنَّما يكمن الاختلاف في أساليبه وصوره، وفي مضمونه من حيث اللغة والأحداث، وفي أنه يخص الأطفال فحسب، معتمداً على أساليبه الخاصة في مخاطبتهم وإشباع حاجاتهم الأساسية ضمن مراحل النمو التي يمرون بها.

أمَّا أهم ما يمكن أن يتناوله هذا الأدب، فيشمل كل ما يتعلق بالطفل ومحيطه وجميع ما قد يثير تفكيره ومشاعره، ويمكن تقديم المادة للطفل ضمن إطار اجتماعي أو علمي أو تاريخي.

تقنيات الكتابة للأطفال

ولكي نتحدث عن تقنيات أدب الطفل ومميزاته لابد من إلقاء نظرة موجزة على خلفيته التاريخية عند الغرب وعند العرب.

فالبداية الأولى لهذا الأدب كانت في فرنسا في القرن السابع عشر حيث كانت السبَّاقة في إخراج كتب الأطفال فقد ألَّف بيرو أقاصيص وحكايات الزمن الماضي، وكتب بعده لبرنس دي بومون عدداً كبيراً من القصص، ونشر جان جاك روسو آراءه في تعليم الأطفال، وحدث الشيء نفسه في إنكلترا فظهر كُتَّاب أدب الأطفال في القرن السابع عشر فأنشأ نيوبيري مكتبة خاصة بالأطفال وألَّف توماس داي قصصاً للأطفال وظهر بعدهما ديفو مؤلف قصة روبنسون كروزو، وتتابعت قصص الأطفال في إنكلترا وفي غيرها من بلدان أوروبة وروسيا وأمريكا والشرق الأوسط.

وهذا الفن بشكله الأجنبي لم يكن موجوداً في الساحة العربية بل وصل متأخراً بعد الاحتكاك بالآداب الغربية شأنه في ذلك شأن القصة والمسرحية، وتأخر هذا الفن إلى بداية القرن التاسع عشر وظهرت أوَّل بادرة مترجمة على يد رفاعة الطهطاوي، وتبعه محمد عثمان جلال وأحمد شوقي والهراوي وكامل الكيلاني وسعيد العريان وظهرت العديد من المجلات وكتب خاصة بالأطفال، فقد كتب أحمد شوقي ديوان شعر للأطفال فيه حكايات عن (الصياد والعصفور)، وعن

(الديك الهندي والدجاج البلدي) و(الثعلب الواعظ) وغيرها فلأحمد شوقي فضل المحاولة الأولى وقد كان رائدا في الكتابة للطفل، غير أنه كما يقول سليمان العيسى أنه كتب للصغار بلغة الكبار ونسيجهم وتركيبهم، أمَّا كامل الكيلاني فقد اهتم بالكتابة للطفل في ميدان القصة فأغنى مكتبته بعشرات القصص المؤلفة والمترجمة والمقتبسة من شتى الآداب العالمية، وعني بشكل خاص بتبسيط بعض الكتب العربية للشباب والأطفال الناضجين مثل حي بن يقظان، ورحلة ابن جبير، وبعض قصص (ألف ليلة وليلة). وعني أيضاً بشخصية (جحا) لارتباطها بعالم الفكاهة، ولم تكن الكتابة عنده عملاً عشوائياً بل كانت تخضع لدراية تامة بمراحل نمو الطفل، فكان يؤلف للطفل الصغير والمتوسط والكبير ووصل إلى درجة من الكمال جعلته مثلاً للذين يكتبون للأطفال من بعده، وقد أخذ هذا الفن ينتزع اعتراف الهيئات العلمية والأدبية وبدأ الكثيرون سلوك طريقه فاهتم به الكثير من الكتّاب وخبراء التربية لدراسة قواعد تأليفه ورسم مناهجه وبيان أجناسه كما ظهرت العناية بدراسة قاموس الأطفال اللغوي، وحصرت الكلمات التي تناسبهم في مختلف مراحل العمر.

وهناك عددٌ من الكتّاب السوريين الذين كتبوا في الموضوع مثل سليمان العيسى الذي له مجلدات في القصص والأناشيد والأغاني والمسرحيات، وكذلك زكريا تامر وعادل أبو شنب الذين لهم آراء قيمة حول هذا الفن، فسليمان العيسى يقول: ثم تأتينا قصائد شوقي للأطفال فإذا هو يدق الباب الموصود ويدنو من العالم الذي أهمل حقباً طويلة ويلجه في كثير من المحبة والألفة، إنَّ له فضل الريادة، وفضل المحاولة الأولى، ولكن المحاولة تظل صلبة وعرة يسودها الجفاف في معظم الأحيان.

لقد كتب شوقي للصغار ولكن بلغة الكبار وتعبيرهم، ولكنه كان الرائد وتمضي الأيام ويأبى شعراؤنا المرموقون أن يترجلوا عن خيولهم الخشبية ليداعبوا طفلاً بأنشودة أو يضعوا على ثغره أغنية، ولابد من تسليح الأطفال بقيم جديدة منها الكلمة الحلوة والفكرة النبيلة والصورة الجميلة والموسيقى، ويحاول زكريا تامر أن تكون قصصه على مستوى فني يؤهلها لأن تصبح وسيلة تساعد الطفل على حب لغته العربية وتنمي قدراته على تذوق الأدب الذي يخاطب قلبه وعقله من دون ترفع إسفاف، وحاول عادل أبو شنب كتابة قصص ومسرحيات تحض على التعاون وتقاوم الاتكالية، وكلهم يريدون

توظيف الكلمة في خلق مناخات أخلاقية وقيم جديدة تبني الطفل العربي، ولعل الكلمة المأثورة «خاطبوا الناس بما يفهمون» خير ما ندخل به في الحديث عن لغة الطفل التي ينبغي أن تلائم عالمه ودرجة إدراكه ومحيط تخيله ودائرة معرفته، ومن هنا كانت الكتابة للطفل أصعب أنواع الكتابة لما تقتضيه من المعرفة الدقيقة لمعطيات التبليغ حتى يحصل التجاوب، ولعلّ الكاتب العربي لقصص الطفل يتوقف عند لغة أدب الطفل بسبب الانقسام الذي يعانيه المجتمع بين الفصحى والعامية.

ولابد في قصص الأطفال من عدد معيّن من الكلمات في الصفحة الواحدة حسب العمر، وتشكيل الكلمات وكتابتها بحروف بارزة حتى يركز عليها الطفل، وتعويد الطفل على خط ألفه في المدرسة يكتب به ويقرأه في المدرسة وفي القصص، وعن طريق تشكيل الكلمات يتعلم الطفل النطق السليم وتنمو ملكته اللغوية، فقد كان من المفروض أن لا تنشر القصص حتى تمر على مصححين لغويين وتمر على لجنة السلامة الفكرية حتى لا نبقى في مرحلة التردي اللغوي، فالكتابة للطفل تتطلب دراية واسعة وجلداً وصبراً، وإنّها محاولة لرصد الشخصية الإنسانية في مراحل نموها وتطورها وتكاملها. وهي تراعي مستويات الذكاء المختلفة، والأمر لايتوقف على كتابة الشعر والقصة للأطفال بل هناك في المجلات يلاحظ تنوع في الموضوعات والأركان وتعدد أساليب التعبير، وهي تنحو منحى تعليمياً وترفيهياً وتحاول إقرار بعض القيم كالأخلاق الحميدة والصدق وعمل الخير والتعاون والعطف على الضعيف وبإمكاننا أن نقف قليلاً مع بعض المجلات المخصصة للطفل والتي تنوع في مواضيعها، فمجلة أسامة للصفوف الابتدائية من المجلات الرائعة، وهي غنية وثرية فيها عدة أركان: القصة القصيرة المشوقة، التعرف على شخصيات تاريخية عربية وعالمية- التعرف على مستحدثات الحضارة- الرسم والتلوين- بريد الأطفال - والتعرف على الأصدقاء- ضحكة وابتسامة- سؤال وجواب- نادي الموهوبين - المسابقة، إلى غير ذلك.

ومن القصص المترجمة سلسلة عالم ديزني العجيب، وتتكون هذه المجموعة من مغامرات وقصص مثيرة، من أبطالها: ميكي وبطوط ودامبو وغيرهم من شخصيات والت ديزني العجيبة، صدر منها: كلوب وثعلوب- المطحنة السحرية، روبن هود وعيد ميلاد الأرنب إسكيبي، بندق راعي بقر، ميكي في بلاد الأقزام، وكذلك هو الأمر في مجلة

سلسلة ثورمان المترجمة، فالغلاف فيه لوحة ناطقة ومعبرة وجذابة ويتخلل قصة ثورمان المغامر الجبار استراحة بين كل اثنتين أو ثلاث صفحات تقدم فيها مثلاً ركن (أضف إلى معلوماتك- اختبارات الذكاء)، الإعلان عن قصص أخرى ومغامرات أكس ما وسبيدرمان مثلاً: كلام من ذهب (حكم)، نادي العلوم، حكايات عربية، كلمات متقاطعة. وهناك سلسلة دونالداك القصصية المترجمة منها: دونا الكسول- سارق البيتزا- مدينة البط- سباق الكلاب - الأميرة الذهبية.

فالتشخيص هو الأساس في هذه القصص فمثلاً (قصة دونا الكسول) الغلاف لوحة معبرة مرسومة بالألوان واللوحات الداخلية كثيرة في أعلى وأسفل الصفحات أو بجوار الكتابة، ويستطيع التلميذ أن يعيد سرد القصة من خلال هذه اللوحات، فهذه القصة تجعل البط بطلاً وتلك تجعل الذئب أو الثعلب أو السلحفاة، وأغلبها تؤكد على أن يكون الأبطال من عالم الحيوان، لأن قصص الأطفال فيها من الرمزية الشيء الكثير، ومشكلاتنا كالحرية والوحدة والتعاون تعالج على لسان الحيوان في قصص الأطفال ونادراً ما ترى قصة أبطالها من البشر فهي مناسبة للكاتب يقول ما يشاء، وما لا يستطيع قوله في الواقع، وهناك بعض القصص الصادرة في لبنان كقصة الحمامة والنملة التي تجسد فكرة الإحسان ورد الجميل مع تشخيص النملة التي اسمها وفاء والحمامة التي اسمها حنان حيث أنقذت الحمامة النملة من الغرق وأنقذت النملة الحمامة من الصياد.

وإذا كنت قد ركزت في حديثي عن القصص على اللغة والخط واللوحات المرسومة والموضوع فهذا عن قصد لأن الإخراج الفني للقصص وجمال الغلاف يجذب الطفل إلى الكتاب، فالغلاف لوحة فنية يحتاج إلى جهد ووقت وإبداع وهو أكثر فائدة للأطفال والأمر نفسه ينطبق على اللوحات الداخلية التي تقوم بمساعدة الطفل على القراءة لأنها تلخص جملة من المعاني عن طريق الخطوط والألوان وهذه ينبغي وضعها إلى جانب الرموز الكتابية وإلا فقدت تأثيرها في الطفل، وأحياناً يطغى التعبير بالرسم على التعبير بالكلمات بحيث تغدو اللوحة العامل الوحيد لفهم القصة وهذا النوع من اللوحات في الكثير من قصصنا مفقودة ومفقود أيضاً المضمون، الذي غالباً ما يكون بعيداً عن واقع الطفل، وصور الغلاف تساعد الطفل على الاحتفاظ بالقصة أو تبادلها أو إهدائها أو شرائها، فليس كل من هب ودب يكتب

قصة للأطفال فتكون هزيلة المحتوى بعيدة الموضوع عن واقعه وتطلعاته، ليس فيها ما يجذب به الطفل إليها، وما انصراف الطفل عن قراءتها إلا لهذه الأسباب.

وأخيراً، على من يتصدى للكتابة للأطفال أن يطلع على مقومات شخصية الطفل المعرفية، والوجدانية والسلوكية، قبل أن يكتب لهم لرغبة في نفسه فحسب، لئلا يكون ما يكتبه في واد، والأطفال في واد آخر، وعليه أن يعي خطورة دور كل كامة بل كل حرف يكتبه لهم، لأنَّ الطفل متلقٍ تنهمر عليه الرؤى و القيم كالمطر لا يستطيع دفعها غالباً، و لا بد أن يخرج ما تشربه عقله ووجدانه عاجلاً أو آجلاً، ومن هنا ندرك صعوبة الكتابة للأطفال ومتعتها.

«سيكولوجية» الذاكرة والنسيان

د. فايز حداد ✪

تمثل القدرة على حفظ المعلومات واسترجاعها وتذكرها هبة من الله سبحانه وتعالى للإنسان، كما أنها طبيعة من طبائعه الملازمة له طوال حياته. والناس كما هو معروف يتفاوتون في القدرة على التذكر تفاوتا واسعا، ومن الناس من يستطيع حفظ الأسماء والمعلومات والأشخاص والأحداث واسترجاع ذلك كله ولو بعد فترة طويلة من الزمن، كما أنَّ منهم من لا يتذكر بعض التفاصيل أو المعلومات ولو لم يمضِ على ذلك إلا فترة قصيرة. وفي مقابل التذكر، فإنَّ النسيان هو كذلك نعمة من نعم الله، وكما يقال إنَّ الإنسان سمي إنسانا لكثرة نسيانه، ولولا النسيان لظل الإنسان حبيس أحزانه وهمومه طوال حياته. والذاكرة كغيرها من قوى الإنسان وطبائعه معرضة للمرض والاختلال أو حتى التغير مع مرور الزمن والتقدم بالعمر، سواء عند استرجاع المعلومات القديمة، أو عند تعلم أشياء جديدة تمَّ استرجاعها فيما بعد. والنسيان قد يكون طبيعياً أو طارئاً نتيجة مرض يصيب مخ الإنسان.

أساس التذكر

يعرف التذكر: هو القدرة على استعادة فكرة ما واحدة أو أكثر، والتعلم فيعرف بأنه قدرة الجهاز العصبي على اختزان

✪ كاتب وناقد سوري.

الذكريات، وميكانـزم الذاكرة هو ميكانزم معقد مثل الفكر، فلكي يحدث التذكر ينبغي على الجهاز العصبي أن يخلق نمط التنبيه المكاني والزمـاني نفسه في الجهاز العصبي المركزي في وقت لاحق، ومع أننا لا نستطيع تفسـير ما هي الذاكـرة بالضبط إلا أننا على الأقـل نعرف بعض العمليات العصبية الأساسية التي يحتمـل أن تؤدي إلى عملية التذكـر. ولابد أن نشير هنـا إلى أن هناك نوعين من الذاكرة، إحداهما الذاكرة الوقتية أو قصيرة المـدى، والأخرى الذاكرة المطولة أو طويلة المدى. فالنمط الأول للذاكرة يشير إلى تلـك الاستثارة المطولـة نسبيا للخلايا العصبيـة، في حين يشـير النمط الثاني إلى تلـك الآثار العصبية التـي تستمر إلى ما لا نهاية.

موضع الذاكرة

الذاكرة هـي وظيفة الجهـاز العصبي كلـه وليسـت من وظائـف أجـزاء منفردة منـه، ومع هذا فإن الدرجـات المختلفة من الذاكرة قصيرة المدى والذاكرة طويلة المدى يمكـن أن تحـدث في مناطـق مختلفة من الجهـاز العصبي المركزي، وتشير الدراسات السيكولوجية إلى أن الفص قبل الجبهي ذو أهميـة في تنظيم وربط كثـير من الحقائق الراهنة، وعلى هـذا فمن المحتمل أن يكون هذا الفصـ قبل الجبهي أكـثر قدرة على القيام بمهمة الذاكرة الوقتية قصيرة المدى، وأقل قدرة فيما يتعلق بالذاكرة المطولة بعيدة المـدى، في حين نجد أن الفص الصدغي له بعض العلاقـة بعمليات التذكـر، وخاصة تلك المتصلـة بتسجيل الأحـداث القريبة، إلا أننـا لا نعرف بالضبـط أي تركيب من الفصـ الصدغي مرتبط بهـذه الظاهرة، وإن كانت معظم الدلائـل تشير إلى منطقة فرس البحر في المـخ باعتبار أن لها علاقة بذلك، فالفقدان المزدوج في نصفي كرة المخ للمنطقة الصدغية السفلى يجعل من التعلم أو الاحتفاظ المستمر بمعلومات جديدة أمرا غير ممكن في الأغلب، إذ يمكن للشخص أن يتذكـر الأصدقاء القدامـى والأسماء، إلا أنـه لا يستطيع تذكر ما هـو حديث. ومن جهـة أخرى هناك اعتقاد أيضا بأن مناطق معينة من الجهـاز العصبي المركزي تختزن آثار الذاكرة بقدر كبير من الصعوبة، فمثلا اختزان آثـار الذاكرة في الحبل الشوكي هو أمر ضئيـل بلاشك، الأمر الذي يدعونا إلى القـول أن الذاكرة يمكـن استقرارها -على الأقل- في بعض المراكز السفلى للمخ.

نماذج الذاكرة

اهتـم علمـاء النفس منذ فـترة طويلة بإجـراء البحـوث المختلفة لمعرفـة طبيعة الذاكـرة البشريـة. ويعـد العـالم «هرمان أبنغاوس» من أوائل العلمـاء الذين أجروا

بحوثا في هذا المجال، وقد نشر هذا العالم الأبحاث التي أجراها على نفسه في بدايات القرن الماضي، فقد قاس «أبنغاوس» مقدرته على حفظ سلسلة مكونة من أحرف، ولم تحمل هذه المقاطع معنى معيناً، كما قاس قدرته على إعادة حفظها بعد مضي فترة معينة بالإضافة إلى قياس قدرته على تذكر هذه المقاطع بعد مرور زمن معين.

وقد كرر باحثون آخرون تجارب «أبنغاوس» كما أجروا تجارب أخرى مشابهة ومنهم العالم «بترسون. و. بترسون» والذي أجرى تجارب على مجموعة من الأشخاص حيث طلب منهم حفظ ثلاثة أحرف، ثم طلب منهم تذكر هذه الأحرف بعد فترة زمنية مختلفة في خلال الثواني الثماني عشرة التي لحقت تعلم الحفظ، وقد منع الباحث هؤلاء الأشخاص من تكرار الأحرف عن طريق الطلب منهم بأن يعدوا بطريقة عكسية سلسلة من الأرقام بحيث يتخطون ثلاثة منها في كل مرة.

وقد بينت نتيجة هذه التجربة أن هناك فقداً كبيراً في المعلومات في بداية الثواني التسع الأولى، ثم بدأ هذا الفقدان في الثبات بين الثانية العاشرة والثانية الثامنة عشرة.

وبناءً على هذه التجارب وتجارب أخرى مماثلة، فقد اقترح عدة علماء نماذج للذاكرة من أشهرها نموذج «أتكنسون وشفرن»، وحسب هذا النموذج تتكون الذاكرة من السجل الحسي والذاكرة القصيرة الأمد والذاكرة الطويلة الأمد، حيث يتم استقبال المؤثرات في السجل الحسي عن طريق الحواس، بغض النظر عمّا إذا كان الشخص مدركا لهذه المؤثرات أو لا، فإن لم يكن الشخص مدركا لها فإنها سرعان ما تختفي، وأمّا إذا أدركها الإنسان فإنها سوف تنتقل إلى الذاكرة القصيرة الأمد.

ويمكن اعتبار الذاكرة القصيرة الأمد بأنها مخزن مؤقت للمعلومات وذات سعة محدودة. فإذا لم تكرر المعلومات في خلال (١٠- ١٥) ثانية فإنها سوف تنسى.

ونظراً لوجود هذين العاملين: التكرار والنسيان، فإنّه يمكن معالجة عدد محدود من المعلومات في الذاكرة القصيرة الأمد في أثناء زمن معين، وهذا العدد هو خمسة إلى تسعة وحدات (يعرف هذا العدد بسعة الذاكرة). وتنتقل المعلومات من الذاكرة القصيرة الأمد إلى الطويلة الأمد عن طريق التكرار والتدوين، وتبقى المعلومات مختزنة في الذاكرة الطويلة الأمد لأجل غير محدود، وأحياناً لا يمكن استرجاع هذه المعلومات بسهولة من الذاكرة الطويلة الأمد، إمَّا لأن طريقة الاسترجاع غير مناسبة، أو لأن معلومات مماثلة قد اختلطت معها. والتمييز بين الذاكرتين غير قاطع تماماً،

إذ يمكن أن تحتوي الذاكرة القصيرة الأمد على معلومات من الذاكرة الطويلة الأمد، ويعتقد أنّ الكلمات تدون لفظياً في الذاكرة القصيرة الأمد، ودلالياً في الذاكرة الطويلة الأمد، ويمكن اعتبار أن الذاكرة القصيرة الأمد تحتوي المعلومات في حالة غير مستقرة، في حين تحتوي الذاكرة الطويلة الأمد على معلومات مستقرة نسبياً.

ويقترح بعض علماء النفس وجود ما يعرف بالذاكرة العاملة، وهي الذاكرة الواعية التي يتم فيها استخلاص المعلومات من الذاكرة الطويلة الأمد لكي تنتظم وتصبح جاهزة للاستجابة للطلب، كما يتم فيها فحص المعلومات وملاحظة الثغرات والجوانب المبهمة وتصحيحها، وكما هو الحال في الذاكرة القصيرة الأمد. فللذاكرة العاملة سعة محدودة تقدر أيضاً بسبعة وحدات زائد أو ناقص وحدتان (٧ + ٢) أو (٧ - ٢)، وهذا يعني أن الذاكرة العاملة تحمل قدراً محدوداً من المعلومات، وقد وجد أن الإنسان لن يستطيع القيام بنشاط عقلي معين ما لم يتمكن من إبقاء المعلومات اللازمة لهذا النشاط في الذاكرة العاملة، ولهذا الأمر أهمية خاصة في التعلم وحل المسائل في العلوم والرياضيات وحل الأسئلة وحل المشكلات.

وحدات الذاكرة

تقاس سعة الذاكرة بوحدات تسمى «شونكس» (Chunks)، وهي وحدات ذاتية للمعرفة تعتمد على إدراك الشخص، فإذا استقبل الشخص مثيرات معينة فإنّ باستطاعة الذاكرة القصيرة الأمد الاحتفاظ بسبع وحدات (زائد أو ناقص وحدتين منها)، ويمكن أن تتكون هذه الوحدات من واحد أو أكثر من: الأرقام، أو الأحرف، أو الكلمات، أو الجمل... فسعة الذاكرة ليست محدودة الوحدات الموجودة في المثير (حروف، أو أرقام، أو كلمات)، بل بسعة المقادير ذات المعنى للشخص، وتعتمد سعة المقادير على خبرة الشخص، وقد بينت الأبحاث أنه يمكن زيادة سعة مقادير وحدات ذاكرة الإنسان عن طريق التدريب والتكرار.

وتعدّ نظرية «المخطط» (سكيما) وجمعها «مخططات» (سكيماتا) من النظريات الشائعة المعنية بتنظيم المعرفة في الذهن البشري، هي عبارة عن وحدات من المعرفة تحتوي على تجريد للمفاهيم المتعلقة بمجال معرفي وبطريقة استخدام هذه المعرفة، كما أنّها تحتوي على فراغات.

فإذا أتى مثير معين (حرف، رقم، كلمة) وتوفرت له سكيما مناسبة فسوف تقوم هذه السكيما بتنظيم المعلومات المتعلقة بهذا المثير، واستخلاص المناسب منها وملء الفراغات الموجودة بها، وأمّا إذا لم تكن

هناك سكيما مناسبة فسرعان ما تختفي هذه المعلومات من الذاكرة.

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن السكيما تحتوي على ما يشبه الصمغ الفكري الذي يساهم في ربط المعلومات الجديدة بالبنية المعرفية للشخص. وتشبه السكيما النظرية العلمية من حيث أنها غير نهائية، أي إنها قابلة للتطوير والتعديل إذا أثبتت الحقائق أنها غير صحيحة، إضافة إلى ذلك فقد تساهم السكيماتا المبنية على مفاهيم خاطئة في تشويه فهم المعلومات الجديدة، إذ إنها سوف تحور هذه المعلومات وتستخلص الأجزاء المناسبة منها والمناسبة لها، في أثناء محاولة الشخص دمج هذه المعلومات الجديدة بالسكيماتا المناسبة المتوافرة لديه.

وتتحد السكيماتا لتشكل بناء هرميا من المعارف، كما تتكون السكيماتا من تنظيمات أدنى للمعرفة تعرف بالنماذج والشبكات الدلالية، وتمثل الشبكات الدلالية العلاقة بين مفاهيم وأحداث في الذاكرة كالعلاقة بين مفهوم الإنسان ومفهوم الغذاء في العلاقة التالية: يحتاج الإنسان إلى الغذاء لكي يعيش. وأمَّا النماذج فهي تمثل الصفات العامة والشاملة لأمر شائع في هذا المجال المعرفي، كالمعلومات عن طائر معين مثل الكناري، بينما تمثل السكيما وحدة معرفية عن الطيور عموما.

جوانب عملية التذكر

وفي الحديث عن الذاكرة والتذكر لابد من الإشارة إلى عدد من النقاط الأساسية، ولا بدّ من أن نتفق على أن التذكر ليس فقط المعلومات وإنما هو تذكر المعلومات والمهارات الحركية، وإضافة إلى ذلك فإنَّ عملية التذكر تنطوي على أربعة جوانب: (التثبيت، الحفظ، الاستدعاء، التعرف)، وعند تعلمنا شيء لابد أن يكون هذا التعلم قد ترك نوعاً من الانطباع على القشرة الدماغية للمادة التي تعلمناها في فترة سابقة.

ولابد لنا لكي يحصل التذكر من أن نكون قد كررنا الأشياء التي تعلمناها من قبل، والواقع أننا نتعرض إلى عدد كبير من المؤثرات، أي إننا ندرك عدداً كبيراً من المؤثرات ولكن نكاد لا نتذكر إلا الشيء القليل منها بمعنى أن التأثير لم يكن كافياً للتثبيت، ولابد للإنسان من أن يكرر لتثبيت الانطباع لمؤثر معين حتى يترك أثراً على القشرة الدماغية، وفي عملية التذكر نحن نستدعي خبرة من الماضي -نستدعيها الآن في الحاضر- إننا نستدعي شيئاً من بين أشياء كثيرة معروضة الآن أمامنا كنَّا قد تعلمناها فيما سبق.

والواقع بأن دراسة التذكر عملية غير سهلة على الإطلاق، وفي السنوات الأخيرة

يلاقي هــذا الموضوع اهتماماً كبيراً من قبل علماء النفس وقد نشرت عدة دراسات حول هــذا الموضوع وكانت تطــرح عدة تساؤلات من أهمها: كيف تــترك دراسة التذكر آثاراً على دماغ الإنسان؟.. وكيف يتذكر الأشخاص هذه الأشياء في المستقبل؟

في الحقيقــة إن أي مؤثر يدخل إلى دماغ الإنسان يترك انطباعاً على القشرة الدماغية، فمثلاً ينتقل المؤثر (A) عبر عضو الحس إلى القشرة الدماغيــة، وهذا المؤثر يخلق نشاطاً كهربائياً فيزيائياً كيميائياً، وهذا المؤثر يترك أثراً على القشــرة الدماغية للإنسان، وهذا الأثر يجب لأن يستديم فترة طويلة من الزمن حتى يبقى الانطباع دائمــاً، وإذا لم يدم هذا الانطباع مدة طويلــة فإنَّ هذا الأثر يتلاشى بسرعة، وإذا تكرر حــدوث المؤثر نفسه فإنَّ أثــراً كهربائياً فيزيائياً يتكــرر، ونتيجة هذا التكــرار يثبت على القشرة الدماغية. وتدلنا التجارب المعاصــرة على أن هناك ارتباطات نتيجة التكــرار تحدث في الدمــاغ كما أنَّها تترك آثاراً كثيرة. ولكن هناك نقطة يجب أن تؤخــذ بعين الاعتبار وهي عملية الخلط بين التذكر والذكاء، فليس من الضروري أن يكون الذكي سريع التذكر، وليس من الضروري أن يكون الجيد التذكّر ذكياً.

وإن كان التذكــر مهمة من المهمات التي تشــكل الــذكاء، أي إنها شــرط من شروط الــذكاء ولكنهــا لا تكونه، ويمكــن أن يكون الإنسان جيد التذكــر ولكن ليس بالضرورة أن يكــون ذكيا في المهمــات الأخرى. ولنعد إلى جوانــب عملية التذكر الأربعة بشيء من التفصيل:

١ - التثبيت:

التعلم الأصلي أو الإدراك نعني به تكون الانطباعات أو الآثــار الأصلية على الدماغ والفاعليــات التي تنتــج انطباعات قصيرة أولاً تســتديم فترة كافية مــن الزمن تنتهي بتثبيــت ضعيف والعكــس صحيح، فمقدار التثبيت يعتمد علــى مقدار التعلم الأصلي، أي مع استدامة الأثر الكهربائي على القشرة الدماغية مدة كافية.

ونلاحــظ أن التذكر عند الأطفال وعند المرضــى عقلياً أضعف بشــكل ملموس منه عنــد الكبــار، وذلك لأنَّ الآثــار التي تترك على القشرة الدماغية في الأصل ليست قوية وربما يعود ذلك إلى تذبذب الانتباه السريع، وتشير التجــارب إلى أن التثبيت الناتج عن القراءة يكون أحســن ما يكون عندما يمزج القراءة بالتسميع.

٢ - الحفظ:

ونعني بالحفظ بقــاء الأثر على الدماغ مدة من الزمــن، ومن الواضح أنَّه كلَّما بقي الأثر فترة أطول من الزمن كلَّما كان تذكرنا للخــبرة التي تركت الأثر أحسن، والواقع أن هذا أثبت عدداً من المشكلات التي لها صلة بعملية القراءة وأثار عدداً من الأسئلة:

- مدى تأثير طول المهمة التي نريد حفظها على سرعة تعلمنا لها؟

- ما هي الصلة بين الحفظ وبين عدد مرات التكرار؟

- ما الذي يجري للحفظ بعد مدة من الزمن؟

- ما هي مكانة الاستعادة من آن لآخر؟

وبشكل مبدئي نستطيع أن نقول: إنَّ المواد الأطول تحتاج إلى وقت أطول في التعلم وعدداً أكبر من التكرار، وأمَّا من حيث النسيان الذي يصيب ما تعلمناه فإننا نلاحظ أن النسيان يصيب التعلم بعده مباشرة، وهذا يؤكد ضرورة التشجيع من آن لآخر بعد حدوث التعلم وبشكل خاص في اليومين الأولين.

وأمَّا من حيث مكانة الفواصل الزمنية في التعلم وعلاقة ذلك بالحفظ فقد أثبتت الدراسات التي أجريت في هذا الميدان أنَّ توزيع الحفظ أحسن من ناحية مقدار ما يحفظ ومن ناحية دقة تذكرنا لما يحفظ، كالتدريب على فترات أحسن، وكذلك تقسيم العمل على فترات يقضي على التعب والملل عموماً، ويجب مراعاة نقطتين مهمتين عند تفصيل الفواصل الزمنية:

١ - أن تكون الفواصل بمقدار معقول.

٢ - أن فصل الفواصل الزمنية يكون كبيراً حيث تكون المهمة المراد حفظها صعبة وطويلة.

وطريقة الحفظ الكلية أفضل من الجزئية من حيث أنها تسمح بتخطيط أفضل في عملية التعليم وإدراك أحسن العلاقات القائمة على الجزاء، وأمَّا إذا كانت المهمة المراد حفظها طويلة فربما الأكثر فائدة اللجوء إلى الطريقتين معا، وذلك عن طريق تقسيم المهمة إلى وحدات أصغر وتعلم هذه الوحدات ومن ثم ربطها مع المهمات الأخرى في الوحدة الكلية، وهناك نقطة أخرى يجب أن نركز عليها وهي مسألة التعلم الفعال والتعلم السلبي، حيث إن هذه المشكلة تشير إلى مقدار مشاركة الفرد في عملية التعلم، ويفهم من المشاركة أن يمتحن الفرد نفسه مرة تلوى الأخرى قبل وصوله إلى مهمة التعلم، وأثبتت التجارب أن التعلم الفعّال يعطي نتائج أحسن من التعلم السلبي، كما أن المزيد من التعلم والإعادة من آن لآخر والمزيد من التكرار يساعد على المزيد من الحفظ والتثبيت.

٣ - الاستدعاء:

تشير عمليات الاستدعاء إلى بقاء ما حفظناه مع الزمن وهي عبارة عن طريقة لقياس الحفظ، فبديهي جداً بأنَّ الاستدعاء يتوقف على مدى التثبيت في الأصل وعلى مقدار الحفظ (اختبارات مدى الذاكرة، أسئلة المعلمين) كلها عبارة عن استدعاء

واختبارات مدى الذاكرة وعن واحدة من اختبارات الذكاء المتعددة، وفي الحقيقة أن الاستدعاء يقيد التعلم من نواحي عديدة:

- فهو يساعد المتعلم على التعرف على مستواه الحقيقي، فيتخلص من الأخطاء ويحسن تعلمه.

- كما أن الاسترجاع يمثل موقف اختبار بالنسبة للمتعلم فيعرف أين هو من إتقان ما يحفظه.

- كما أن الاستدعاء يعتبر نوعا من الممارسة لموضوع التعلم أو تأكيداً للتعلم.

٤ - التعرف:

التعرف واحد من الوسائل التي بناء عليها تتعرف على مقدار التثبت والحفظ، والمثال الجيد عليه هو نماذج الاختيار من متعدد في الأسئلة الموضوعية. التعرف والاستدعاء عمليتان للتعرف على مقدار حفظ التلميذ ومقدار تثبيت ما تعلم هذا التلميذ، وبعد فترة من الزمن ما تعلمناه أو ما نتذكره يبدأ بالتناقص تدريجياً، ومقدار النسيان يحدث بشكل كبير في الساعات الأولى بعد التعلم.

ظاهرة النسيان

النسيان يعرف بأنه عملية عقلية تتم في مخ الإنسان، كما هو الحال في التذكر، وهو ظاهرة طبيعية لا إرادية تحدث لجميع البشر، ويعني عدم القدرة على تذكر المعلومات والمهارات والخبرات السابقة التي مرّ بها الفرد. وهناك نظريات متعددة تحاول أن تفسر لنا ظاهرة النسيان ومنها:

١ - نظرية الاستعمال والإهمال: وهذه النظرية تطورت إلى قانون التكرار، والذي يبين أنَّ النسيان عند توقف استعمال ما تعلمناه، وإننا نتذكر الأشياء التي نستعملها وننسى الأشياء التي لا نستعملها، ولكن إضعاف المؤثر بين الإثارة والاستجابة يوجد عليه العديد من علامات الاستفهام، حيث إنه يوجد العديد من خبرات الطفولة لم نستعملها ولكن لا ننساها على الإطلاق، كما أننا نلاحظ أنَّ عدداً كبيراً من المهارات الحركية لا ننساها على الرغم من عدم استعمالها كركوب الدرّاجة مثلاً.

٢ - نظرية النسيان المدفوع: أي إننا نتذكر ما نحب وننسى ما لا نحب، فنحن مدفوعون إلى تذكر الخبرات الجميلة ونميل إلى نسيان الخبرات المؤلمة، ولكن هذا القانون لا يستطيع أن يفسر لنا كل النسيان حيث يوجد حالات مؤلمة كثيرة ولكن يتذكرها التلميذ، وربما يكون عند الذي يحب مادة دراسية دافعية أكثر لتعلم هذه المادة، وبالتالي فإنَّ تعلمه لها أكثر وبذلك تكون المواد التي نحبها أسهل علينا في حفظها.

٣ - نظرية التداعي الحر: إنَّ ثمة نظريات تقول أنَّ ما من شيء ينسى، وأن

كل ما يتعلمه الإنسان يخزن في ذاكرته، وإنه لذلك يمكن تذكره إذا تمَّ التداعي المناسب أو أزيل العائق الذي يقف في سبيله.

وتستند هذه النظرية جزئياً إلى أن الإنسان حين يكون في حالة غيبوبة أو تحت تأثير تنويم مغناطيسي يتذكر خبرات كان يظن أنَّها منسية تماماً، ثم أن التحليل النفسي يستطيع من خلال التداعي الحر أن يستخرج من اللاشعور خبرات وأفكاراً كانت مكبوتة طوال أعوام، ولكن هذه الدلائل تشير إلى تذكر محدود وفي ظروف محدودة جداً، ولذلك فنحن لا نستطيع الاعتماد عليها لنفي النسيان.

وقد دلت الأبحاث التي أجريت على نطاق واسع أن لمجرى النسيان اتجاهاً عاماً محدداً، إنَّه يكون سريعاً في البداية ثم يتباطأ، كما دلت التجارب على أنَّ الاحتفاظ يكون أعلى بالنسبة للطلاب الأصغر سناً.

ولعلَّ من التفسيرات الممكنة لهذا الأمر أنَّ الصغار يحفظون حقائق أساسية تتكرر في الدروس المتلاحقة بينما دروس الكبار أكثر توسعاً وأقل تكراراً، على أنَّ الأمر الذي يجب تأكيده هنا هو وجود عدد من العوامل التي تتدخل في الأمر مثل طبيعة المادة واستعمالها المقبل وعمر المتعلم وكفاءته وتشويقه العام.

إن هذه العوامل وسواها تتداخل في الحفظ وفي تعيين مجرى النسيان، ولذلك فنحن لا نستطيع تحديد مجرى النسيان بدقة، وبدلاً من ذلك علينا أن نبحث عن عوامل تساعد على الحفظ.

٤ - نظرية الكف أو التداخل: حيث يحدد تداخل بين تعلم مادتين ويحدث هذا التداخل نوعاً من النسيان، وهناك نوعان من الكف:

أ - الكف الرجعي: وهو بشكل بسيط عبارة عن تداخل ما نتعلمه الآن بما تعلمناه سابقاً، بحيث يؤدي هذا التداخل إلى نسيان شيء مما تعلمناه سابقاً.

ب - الكف المستقبل: التعلم السابق يؤثر على تعلمنا الآن، حيث يحدث تداخل ينسينا بعض ما نتعلمه الآن، أي عكس الأوَّل.

٥ - نظرية انتقال أثر التعلم: والشيء الذي نقصده هنا هو كيفية تأثير تعلمنا لمهمة معينة على تعلمنا لمهمة أخرى لاحقة في المستقبل، ومشكلة الانتقال في التربية لها أهمية كبيرة، فكل التعلم في التربية الآن قائم على هذا الأساس، بحيث أننا نتعلم هذه الأشياء لأنها في اعتقادنا لها أثر على تعلم أشياء أخرى نحتاجها في المستقبل، وتأثير مادة معينة على مادة أخرى يمكن أن يكون إيجابياً ويمكن أن يكون سلبياً أيضاً ويمكن أن يكون من درجة صفر أيضاً.

الهندسة النفسية وإدارة الذات

ترجمة: وئام الجراد ✪

بدأت الهندسة النفسية وإدارة الذات في منتصف سبعينيات القرن الماضي على يد العالمين الأمريكيين جون غريندر وريتشارد باندلر اللذين قررا وضع أصولها أو مبادئها كعلم جديد أطلقا عليه اسم برمجة الأعصاب لغوياً. وكان ذلك في عام ١٩٧٣م، وبتشجيع من المفكر الإنكليزي والأستاذ في جامعة سانتا كروز (جريجوري باينسون)، كما وأسهم معهم في وضع هذه البحوث كل من جودث ديوليزبلز و لزلي كامرون باندلر.

وقد اهتمت بمبادئها كبرى الشركات العالمية، وكذلك الرياضيون والمدرسون وأهالي الأطفال بمختلف أعمارهم، إضافة إلى الآلاف من أطياف اجتماعية متنوعة ممن يلجؤون عادة لهذه التقنية لمساعدتهم في التفاوض والتعلم والتأهيل والتواصل والتبادل والاختيار والقيادة، والتمكن من إدراك الذات،وذلك من خلال أحدث الطرق المساعدة في تحسين ظروف الحياة.

ومن الجدير بالذكر أنَّ تقنية البرمجة اللغوية العصبية أو ما يدعى بالـ(programmatin neuro-linguistiaque) (PNL)، تعد من أهم التقنيات الحديثة للتوصل إلى الأهداف والغايات التالية:

١- **التواصل بطريقة واضحة وفعالة**، وزيادة تأثير المرء في علاقاته الاجتماعية من

✪ باحثة ومترجمة سورية.

خلال ممارسة التأثير الإيجابي في الوسط المحيط، إضافة إلى التمكين من عملية التفاوض وتبادل الأفكار مع الآخرين.

٢- تعزيز الثقة بالنفس: فتقنية البرمجة اللغوية العصبية تسمح باكتساب مجموعة من المهارات القادرة على تسهيل التفاعل الاجتماعي مما يساعد على تحديد الأهداف الذاتية والتوصل إليها بخطوات واثقة.

٣- تحسين العلاقات مع الآخرين: وذلك من خلال اكتساب مهارات التفاوض الناجح وتطوير العلاقات البناءة والمثمرة ضمن المحيط الاجتماعي.

٤- تغيير النظرة إلى العالم: إذ تساعد تقنية البرمجة اللغوية العصبية على إغناء نظرتنا للعالم وتطوير قدرتنا على التكيف.

٥- إدارة الحياة: إذ يمكن للمرء من خلالها اختيار وخلق الحياة التي يطمح إليها، وذلك بأن يصبح الفاعل والمنفعل في آن معاً.

٦- التطوير الشخصي: فأن تختار مشاعرك وعاداتك بنفسك هو أهم هدف من الأهداف التي تسعى إليها هذه التقنية.

إذن، فإن إعطاء تعريف واضح ومحدد للبرمجة اللغوية العصبية في كلمات مختصرة قد يبدو للوهلة الأولى ممكناً وسهلاً، إلا أنه في المقابل غامض ومحكم كذلك.

البرمجة اللغوية العصبية هي مجموعة من النماذج الوصفية لبناء التجربة الإنسانية.

في الواقع، هي مقاربة جديدة للتصرفات ولعلم النفس الإنساني، وهي نظرية براغماتية تصب فيها نظريات فكرية مختلفة وشائعة إلى حد ما.

يمكن القول إنها تقاطع لكل من علم النفس وعلم الأعصاب والأنثروبولوجيا (علم الأناسة) وعلم التحكم (السبرانية) وأخيراً الذكاء الاصطناعي.

تستند هذه النظرية على أنَّ الإنسان لا يتصرف على أساس خصائص موضوعية متعلقة بمحيطه الاجتماعي، وإنما بدءاً من التمثيل الذي يقوم به في هذا المحيط، كما أنَّ هناك جذوراً معرفية من الضرورة بمكان أن تكون واضحة ومعروفة مسبقاً.

أولها: المذهب التجريبي لـ(ديفيد هول):

والذي يستند إلى مقولة أنَّ التجارب الحسية والذاتية، هي المصادر الأولى للمعرفة.

ثانيها: الذرائعية - العملية (البراغماتية):

والتي قام بوضع مرتكزاتها في أمريكا تشارلز بيرس، وهي قريبة من التجريبية، إذ توضح أنَّ صحة العلم لا تتأكد إلا انطلاقاً من نتائجه.

ثالثها: المثالية:

إنَّ المثاليات والخيالات تنظم التصرفات الإنسانية على مر العصور.

رابعها: الدلائل العامة التي وضعها ألفريد كورسيبسكي والذي يعد اللغة كرمز وصفي لا متكامل للتجربة الإنسانية.

المذهب البنيوي:

هو تيار فكري ظهر حديثاً، يصف التواصل على أنه عملية عامة لتبادل المعلومات بين الكائنات الحية التي تخضع لقواعد الملاحظة، والذي ما يزال رمزه الأكبر هو (بالتسون).

إذن، البرمجة اللغوية العصبية هي مجموعة مؤلفة من نماذج مفتوحة ومتطورة وليست مجرد عملية تقوم على بناء المعتقدات، وبما أنها تعمل على الذاتية كجوهر أساسي لها، وتحرص على أن تكون مختلفة عن باقي المقاربات النفسية. فقد ركزت هذه التقنية – وماتزال- على تفعيل النقاط الآتية:

- مجموعة من الفرضيات البناءة حول الرجل وعلاقته مع الجنس الآخر.
- أنموذج وصفي ومتطور حول التصرفات الإنسانية.
- أدوات مفاهيمية قوية لتشخيص النشاطات الجسدية للإنسان.
- تقنيات وطرق محددة للعمل والتي تساعد على التعلم والتغيير الدائم.

وبما أننا لسنا على احتكاك مباشر مع الواقع، وبما أنَّ التمثيل الذي نقوم به على وجه العموم مشوه (غير مطابق تماماً للواقع)، فيمكننا تلخيص كل ذلك بالقول إن غاية البرمجة اللغوية العصبية ليست هي «الحقيقة»، والتي ندرك أننا غير قادرين على النطق بها في معظم الأحيان، وإنما كل ذلك ليس له أهمية طالما أن البرمجة اللغوية العصبية /PNL/ هي مجموعة من «الأكاذيب المفيدة» والتي لها مجال كبير ضمن واقعنا الحالي.

إلى أي فئة تتوجه هذه التقنية؟

- إلى كل من لديهم مهارات التواصل المحترف كالمديرين والموظفين والمؤلفين والتجار وغيرهم.
- إلى المدرسين والأهالي المهتمين بتعليم أطفالهم كيفية التعلم.
- إلى كل الأشخاص الذين يعلقون أهمية كبرى على تطويرهم الذاتي وعلى مهاراتهم وعلى مشاعرهم الداخلية.

البرمجة اللغوية العصبية والصحة:

روبيرت ديتس هو من أوائل المختصين الذين ربطوا بين ممارسة تقنية البرمجة اللغوية العصبية والصحة. إذ إنَّ كتابه الشهير (Croyence et santé) «الاعتقاد والصحة» مازال المرجع الأساسي في هذا المجال.

كما حاول العديد من المعالجين بالبرمجة اللغوية العصبية وضع أسسها من خلال التركيز على أهمية التفاعل بين كل من الجسد والروح.

التقنيات التيبتية الثلاث (نسبة إلى سكان هضبة التيبت):

عرفت تقنيات البرمجة اللغوية العصبية منذ القدم لدى سكان هضبة التيبت، وقد كان لها التأثير الإيجابي الملحوظ على ممارسيها، فمن خلالها يمكن للمرء أن يدخل عالم الماورائيات شيئاً فشيئاً.

يمكننا القول إنَّ تطبيق المبادئ الأولية لتلك التقنية فيه من السهولة التي تجعل كل من يريد تأهيل حياته مجدداً قادراً على ذلك. ويمكن أيضاً تلخيص هذه التقنيات الثلاث بمايلي:

١ - التقنية الأولى:

«عندما تمنحنا الحياة ثمرة البرتقال، فلنصنع منها العصير»

تدفعنا البرمجة اللغوية العصبية لرؤية المواقف السلبية (أو حتى الكارثية) بعين إيجابية.

فلتتخيل أنك تكتب حالياً مقالاً مهماً على حاسوبك الشخصي، عندما ينطفئ فجأة، وطبعاً لم تكن قد حفظت ما كنت قد كتبته منذ دقائق. أغلب الظن أن ما ستلجأ إليه حينها هو الغضب أو حتى تحطيم شيء ما من حولك.

هنا بالذات، ما يمكن للبرمجة اللغوية العصبية أن تقدمه لك وهو أن تتخذ تلك الحادثة بمثابة خبرة مكتسبة. فمن الآن وصاعداً، تعلمت جيداً أنه يتوجب عليك حفظ الملف من وقت لآخر على حاسوبك تجنباً لتكرار تلك المعضلة مرة أخرى.

٢ - التقنية الثانية:

«كل شيء في العالم يرتكز على السياق»

تقوم تلك التقنية على تعديل السياق العام الذي نفهم ضمنه الحدث، وعلى فهم كيفية جعل هذا الحدث مفيداً لك. فمثلاً: خسرت للتو وظيفتك! وبدلاً من اللجوء إلى التشاؤم والضيق والقلق حول ما قد يخبئه لك المستقبل، يمكنك رؤية هذا الحدث بطريقة مغايرة تماماً. وذلك من خلال التخيل لا بل التركيز الشديد على إمكانية إيجاد فرصة عمل ذات ظروف وأجور مادية أفضل بكثير.

٣ - التقنية الثالثة:

«المضمون نسبي دائماً»

تتعلق هذه التقنية بالـ(Perception) أي «النظرة» التي تحملها عن الأشياء والأشخاص من حولك، فكل شيء هو في الحقيقة ماتراه.

نعود إلى الخيال مرة ثانية، فنتصور أنَّ هناك أنثى، يتصف صديقها بالبخل الشديد لدرجة أنه لا يشتري لها وردة أو حتى قطعة شوكولاته، فبدلاً من أن ترى صديقها هذا على أنه شخص بخيل، ترى فيه ذلك الذي يعتقد أن الأشياء المادية ليست الطريقة المثلى لدخول قلب امرأة. فهو -بنظرها- يرى في الحياة أشياءً أكثر أهمية من مجرد وردة أو حتى قطعة من الشوكولاته.

إذن: فإن هذه التقنيات قد تغير لدينا الطريقة التي نرى فيها العالم إضافة إلى تغيير الطريقة التي يرانا فيها العالم أيضاً.

سرّ جون شيفرد- بارون:

(هناك حلول فعالة.. ولكن عليك اكتشافها)

في يوم من الأيام من عام ١٩٦٧م، كان جون يمشي في أحد شوارع لندن، فسلك طريق البنك ليسحب مبلغاً من المال يحتاج إليه بشدة، وقد كان يعلم مسبقاً أنه متأخر.

فما أن وصل، حتى رأى الباب مغلقاً. إذن، سيستحيل عليه الآن سحب المال الذي هو بأمسّ الحاجة إليه.

عاد إلى منزله، وهو مشغول الذهن بما قد يحل به، وقد فكر ملياً أنه لابدَّ من وجود حل ما، سواء فيما يتعلق به، أو بغيره من الأشخاص الذين يعانون من المعضلة ذاتها.

هنا، تخيل أنَّ الكوة التي تبيع الشوكولاته في الطريق العام توزع المال عن طريق رمز شخصي يمتلكه صاحب المال. في ما بعد، التقى جون أحد مدراء البنوك وطرح عليه تلك الفكرة.

لقد كانت المرة الأولى التي يتم فيها استخدام النافذة الإلكترونية لهذا الغرض بدلاً من البنك ذاته. اليوم، هناك ما يقارب المليونين منها في أرجاء العالم كافة.

إذن، هي قصة الشخص، الذي- بدلاً من أن يشتكي ويتأفف مما حصل له- استطاع تحويل تلك المشكلة البسيطة إلى فكرة مبتكرة.

نحن غالباً، في مجال الدراسة أو العمل أو الحب أو غيرها، لا نتقبل على الإطلاق فكرة عدم التوصل للنتائج المرجوة، وحتى لا نتوانى عن نعت أنفسنا بأسوأ الألقاب.

هنا، عندما نصل إلى تلك الحالة، ما علينا سوى أن نخلق من هذا الفشل فرصة، فرصة من أجل فعل ما هو أفضل، سواء من خلال التعلم أو التقدم. فالصعوبات ما هي في الحقيقة بصعوبات بل إنها فرص.

التنويم المغناطيسي والبرمجة اللغوية العصبية:

التنويم المغناطيسي هو حالة يكون فيها الشخص نصف نائم حيث يجد نفسه مسترخياً إلى حد كبير. فالتنويم المغناطيسي هو القدرة الطبيعية للجسد على الانفصال عن العالم الخارجي.

من أهم الأهداف التي تستند إليها المعالجة بالتنويم المغناطيسي، هو بلوغ مرحلة اللاوعي وبالتالي كشف الصدمات النفسية التي كانت قد حدثت من قبل مع الشخص.

التنويم المغناطيسي الإيحائي:

هناك عدة مدارس- كمدرسة فرويد- تحاول إعطاء مجموعة من الإيحاءات من خلال الأوامر اللفظية أو البصرية مثل: «اغمض عينيك»، «حاول أن تنام». لكن هذه الإيحاءات قد تتعارض في بعض الأحيان مع القدرات الجسدية للشخص.

مدرسة أريكسون:

إنَّ التنويم المغناطيسي- حسب نظرية أريكسون- ليس إيحائياً، على عكس المدرسة السابقة، فهذه التقنية تتطلب من المشارك فيها أن يكون بملء وعيه. إذ تنحصر هذه الجلسة على شكل محادثة بسيطة، يكون فيها الشخص مسترخياً ليدخل بعدها شيئاً فشيئاً في طور اللاوعي، حيث يمكن للمعالج إيجاد بعض الحلول الناجعة لمشكلاته.

تحترم هذه المدرسة قيم المريض، لذا فهي أكثر فاعلية من المدرسة السابقة.

دلالات التنويم المغناطيسي:

يستخدم العلاج بالتنويم المغناطيسي في مجال الاضطرابات النفسية، كالضيق والقلق والرهاب النفسي (الفوبيا). كما يستخدم أيضاً لعلاج الآلام الجسدية بفضل قدرته على حث إفراز الهرمونات العصبية.

في الواقع، من الممكن لجلسة التنويم المغناطيسي أن تسهل إنتاج الهرمونات تلك والتي لها خواص مسكنة للآلام. كما أن لها فوائد كبرى في علاج مرض الشقيقة والمفاصل وغيرها، وكذلك يلجأ إليها أطباء التخدير أحياناً في المداخلات الجراحية.

إضافة لذلك، فإنَّ تلك الجلسات قد تكون ناجعة في عملية الإقلاع عن التدخين، من خلال التعديلات البسيطة على التصرفات وعلى طريقة التفكير لدى المدخنين، فبدلاً من أن تكون المعادلة هي (التبغ = السعادة)، تكون كذلك (التبغ= الغثيان).

أخيراً: ما هي البرمجة اللغوية العصبية أو ما يدعى علمياً بالـ(la Programmation neuro linguistique)؟؟

إذا ما طلبنا من عشرة أشخاص إعطاءنا تعريفاً محدداً للبرمجة اللغوية العصبية (PNL)، فقد نحصل عندها على

عشر إجابات مختلفة، إذ إنَّ لكل منا تجاربه المختلفة، ويرى العالم بالتالي بصورة مغايرة.

تمَّ الإجماع على تعريف البرمجة اللغوية العصبية على أنها مجموعة من التقنيات التي تساعد المرء على العيش ضمن حياة أفضل، وعلى إحكام السيطرة على طريقة تفكيره، وعلى الشعور والتصرف حيال العوائق بفاعلية أكبر.

فهناك خمسة مبادئ ترتكز عليها تلك التقنية الحديثة وهي:

١- تعلم كيفية تحديد الأهداف: فقليل من الناس يفكرون بما يريدونه، والغالبية العظمى تمضي وقتها في التفكير بما لا تريده، لكن إذا ما رغبنا بالوصول إلى غاياتنا في أي مجال كان، ما علينا إلا أن تكون أهدافنا واضحة منذ البداية.

٢- اتخاذ الإجراءات: لا يهم كيف تم وضع تلك الأهداف بالطبع، إذا لم نقم بخطا فعلية لتحقيقها.

٣- البراعة الحسية: أن يكون لدينا البراعة الحسية لأمر في غاية الأهمية، بمعنى أنه يجب استخدام حواسنا الكاملة في سبيل ملاحظة ما يجري حولنا.

فملاحظة التفاصيل الدقيقة واكتشافها هي من أكثر الأمور أهمية في مجال بلوغ غاياتنا.

٤- المرونة عند التصرف: لابد لنا أن ندرك جيداً أنه إذا ما صعب علينا فعل شيء ما، فمن المهم أن نكون قادرين على تكييف إستراتيجياتنا بغية التوصل لذلك الهدف وإدراكه. فكم من الناس ما زالوا يرتكبون الأخطاء ذاتها في سبيل الحصول على نتائج مختلفة.

تقوم البرمجة اللغوية العصبية هنا بوضع تلك الإستراتيجية بين أيدينا لتتلاءم مع الظروف المحيطة ولزيادة قدرتنا على تعديلها وبلوغها عندئذ بنجاح.

٥- إقامة شبكة من العلاقات الاجتماعية:

إنَّ تحقيق الأهداف يتطلب حسن التعامل مع الآخرين، فإذا كانت لديك الرغبة بأن يكون لديك تلك الشبكة الاجتماعية القائمة على الثقة والتفاهم المتبادل، فإنَّ الطريقة المثلى لذلك، تتدرج في إقامة العلاقات الطيبة، إنَّها كفاءة ثمينة ما على البعض سوى العمل على تطويرها.

وفي الختام، يمكن القول: إنَّ تقنية البرمجة اللغوية العصبية هي علم قائم على التطبيق لا على التنظير، قادر بشكل أو بآخر على منحنا الحياة الأفضل التي يسعى كل شخص في العالم لبلوغها.

عن موقع: pnlarticles

الخلود عند
كارل جاسبرز وعلاقته بالدين

د. عمار سليمان علي *

بعد مرور أكثر من أربعين سنة على وفاته، ما يزال الفيلسوف والطبيب وعالم النفس الألماني كارل جاسبرز (١٨٨٣-١٩٦٩م) قادراً على التأثير وإثارة الجدل، وذلك على الرغم من أنه ليس مفهوماً بشكل واسع.

ولد كارل جاسبرز في مدينة أولدنبرغ الألمانية في ٢٣شباط ١٨٨٣م، ودرس القانون والطب وتخرج كطبيب بشري من جامعة هايدلبرغ، قبل أن ينتقل عام ١٩١٦م إلى صفوف المدرّسين في جامعة هايدلبرغ نفسها حيث درّس علم النفس، ثم تحول إلى الفلسفة، واحتفظ بكرسيه كأستاذ للفلسفة حتى عام ١٩٣٧م. ولأنه رفض مهادنة السلطة النازية آنذاك وتقديم أية تنازلات لها -وهو المتزوج من يهودية- فقد منع من التدريس الجامعي طيلة الحقبة النازية. ولكنه التحق في العام ١٩٤٨م بجامعة بازل في سويسرا كأستاذ للفلسفة.

ولم يقتصر تأثير جاسبرز على المجال الفلسفي، حيث يعتبر واحداً من مؤسسي الفلسفة الوجودية، بل إن كتبه وآراءه خلفت تأثيراً كبيراً في مجال علم النفس وعلم اللاهوت الحديثين وكذلك في مجال السياسة. ومن بين تلك الكتب: علم التشريح المرضي النفسي العام (طبع سنة ١٩١٣م، انتقد فيه

* كاتب وباحث سوري.

الادعاءات العلمية حول المعالجة النفسية كحتمية) -علم نفس الفلسفة الفردية (طبع سنة ١٩١٩م، قدَّم فيه تصنيفاً لمختلف التصرفات وردات الفعل المحتملة والممكنة من قبل البشر تجاه الحياة بكل ما فيها). مسألة الشعور بالذنب لدى الألمان (طبع سنة ١٩٤٦م). الفلسفة (طبع سنة ١٩٣٢م ثم ١٩٦٩م). الفلسفة الوجودية أو الفلسفة والوجود (طبع سنة ١٩٣٨م ثم ١٩٧١م) - الحرية والترويض (عن التهديد الواقع على الحرية البشرية الذي يشكله العلم الحديث والاقتصاد الحديث والمؤسسات السياسية) - مستقبل البشرية- مراسلات فلسفية مع حنة أرندت Hannah Arendt (الفيلسوفة الأمريكية المولودة في ألمانيا) وقد نشرت هذه المراسلات باللغة الإنكليزية سنة ١٩٩٢م أي بعد وفاة جاسبرز بثلاثة وعشرين عاماً (توفي في بازل في ٢٦شباط ١٩٦٩م).

وعلى الرغم من تنوع اهتماماته ومؤلفاته، كما يتضح من القائمة أعلاه، فلعل عمل جاسبرز الرئيسي هو مجلدات الفلسفة الثلاثة، التي أعطى من خلالها رأيه في تاريخ الفلسفة وقدم فيها أفكاره الرئيسية. فهو عرّف الفلسفة بأنَّها التفكير الفلسفي نفسه، وليست مجموعة محددة من الاستنتاجات، مهما كانت. وعلى العكس من مفكرين وجوديين آخرين مثل هيدجر Heidegger أو سارتر Sartre، لم يرغب جاسبرز في إقامة نظام ميتافيزيقي metaphysical للوجود، فهو رفض مثل هذه الأنظمة «العلم وجودية»، التي اعتبرها مثل الأقفاص الجامدة التي تحد من أبعاد الوجود وتجعلها تقتصر على الأشياء والسببيات، أو على المعرفة العقلية السببية للوجود في هذا العالم، وتتجاهل الأبعاد الغامضة (أو الأسمى، والتي لا توصف) لهذا الوجود.

وقد كان هدف جاسبرز في فلسفته الوجودية الخاصة، أن يحدد بإيجاز وبشكل غير مباشر ملامح الوجود الإنساني human Existenz. وهذا المصطلح (Existenz) أشار به بوضوح إلى الخبرة أو المعرفة القابلة للتحديد حول الحرية والإمكانية التي تشكل الوجود الحقيقي للأشخاص الذين يصبحون مدركين للشمول أو الإحاطة encompassing في مواجهة حالات معينة مثل: الحظ والمعاناة والصراع والشعور بالذنب والموت.

وهذا المصطلح (encompassing) أو مقابله (das Umgreifende) استخدمهما جاسبرز للإشارة إلى الحدود النهائية للوجود، أو الأفق العقلي غير القابل للتحديد الذي تكون فيه كل الخبرات الشخصية والموضوعية محتملة، ولكنه لا

يمكن مطلقاً أن يلتقط بشكل منطقي. وفي هذا الإطار يتحدث جاسبرز عن تجربة أن تكون إنساناً في حرية كاملة، كما يشجع كل شخص على إدراك وجوده (أو وجودها) الذاتي الحقيقي الخاص، بوساطة فعالية وجودية شخصية للتفكير، غير قابلة للوصف بشكل موضوعي. لكن عدم القدرة على وصف هذه الحالة الذاتية التي اعتبر جاسبرز أننا يجب أن نسعى إليها، يطرح مشاكل خطيرة في وجه أية محاولة لإعطاء تفسير ملائم أو كاف لمظاهر فلسفة جاسبرز الميتافيزيقية.

لكن ذلك كله، مع ما يشكله من صعوبات وتعقيدات، لم يمنع فيليز بيتش Filiz Peach من الخوض في غمار فلسفة جاسبرز من خلال كتاب أصدرته عام (٢٠٠٨م) تحت عنوان «الموت والخلود والوجود في فلسفة كارل جاسبرز» (مطبعة جامعة إدنبرغ، ٢٠٠٨م، ٢٢٤صفحة) وهي تقدم فيه عرضاً وتحليلاً عميقاً لفلسفة جاسبرز الوجودية، وتركز بشكل رئيسي على مفهومه للوجود وعلاقته بالغموض، وعلى الموت والخلود. كما أنَّها تشرح بوضوح وشفافية مبادئ جاسبرز الأنثروبولوجية والميتافيزيقية الأساسية: الحالة المحدودة the Boundary Situation، الوجود Existenz، الغموض Transcendence، التاريخية أو التاريخانية Historicity، التواصل الوجودي Existential Communication، الشمول أو الإحاطة Encompassing، الاتحاد Unity، الخلود Eternity .

ومع إشارتها إلى المحتوى الأوسع لفلسفته وإلى أفكار مشابهة في فلسفة بلوتينوس Plotinus وكانت Kant وكيركيغارد Kierkegaard، فهي تركز خصوصاً على سؤال: ما الذي يعنيه جاسبرز عندما يطرح فكرة أنَّ الكائن البشري يستطيع أن يجرب أو أن يختبر الخلود؟.

وفي محاولة منها للإجابة والشرح تبين بيتش بكل وضوح أنَّ هذا الطرح لا يستطيع أن يفعل شيئاً مع الأفكار الدينية المنهجية حول الخلود، بل على العكس من ذلك إنَّ الخلود هو أحد المظاهر الأساسية للتجارب أو الخبرات اللحظية، التي تسمى بالألمانية Augenblick (يعني حرفياً «في رمشة عين») وهي لحظة هامة حاسمة لكن سريعة الزوال تؤثر في الشخص بشكل عميق بحيث أنه يختبر/ أنها تختبر الخلود، خلال لحظة من الوقت المحسوس.

وتعرّف بيتش تجربة الخلود اللحظية كما يلي: «أن يختبر فرد ما تجربة خالدة وجودية آنية، يمكن أن تظهر نفسها كخلود في وقت محسوس في العالم».

إضافة إلى ذلك هي تفسر هذا «الخلود في وقت محدد» بـ (أن يقوم فرد ما باختبار وجودي أبدي للخلود، ويحدث ذلك عندما يختصر الخلود طريق الوقت في نقطة مفردة، بكلام آخر هو مستعرض للوقت المحسوس، وهذه النقطة الخالدة تمثل الحاضر «الآن»). لذلك يمكننا حتى أن نقول: إننا في خلود اللحظة نختبر الطبيعة الخالدة للحاضر.

ووفقاً لبيتش، تهتم الأطروحة الرئيسية لجاسبرز في هذا السياق بالواقعية الذاتية الوجودية أو «الأنانية الفردية»، حيث الكائن البشري يفهم ويحقق الحرية الكاملة لوجوده. كما أنَّ الشخص في هذه الواقعية الذاتية يواجه الغموض، مختبراً ذاته (أو ذاتها) الحقيقية كـ «هبة من الغموض». وبنظرة أكثر قرباً للنصوص المتنوعة التي يتكلم فيها جاسبرز عن الغموض، يتبين لبيتش بجلاء أنه يعني بهذا المصطلح المصدر الغامض لكل الوجود. مع إشارتها إلى أنَّ جاسبرز يستخدم كذلك تعبيرات أخرى لهذا المصدر الغامض نفسه، تتضمن: الوجود المطلق- الحقيقة المطلقة- الوجود كما هو- الوجود بذاته- المحيط بالكل-الرب -الإله.

هنا عند هذه النقطة، تعتبر بيتش أن من حق قارئ جاسبرز أو ناقده أن يتساءل: بعد كل ما سبق، هل يجوز القول إن جاسبرز ينطلق في مجمل طروحاته وآرائه من موقف ديني؟ وهل الدين هو دافع من دوافع جاسبرز؟ أو خلفية من خلفياته؟.

لا تتردد بيتش في الإجابة قائلة: بالنسبة لجاسبرز، الغموض هو الواقع الحقيقي الذي لا يمكن مراقبته أو رؤيته، والذي لا يمكن بحثه بطريقة علمية أو إثباته بمناقشة منطقية، لأنه لا يمكن أن يفهم أو يستوعب بأنماط تفكيرنا على اختلافها: إنه يقاوم الموضوعية والإدراك بوساطة أية عمليات إدراكية أو معرفية. ولا يمكن أن يكون الغموض لا طبيعياً ولا بشرياً، بمعنى أن يجسم صفات بشرية.

وكل محاولة لعقلنة أو تجسيد الغموض في مفهوم محدد ينبغي بالضرورة أن تفشل أو تفرق. لذلك -بالنسبة لجاسبرز-الغموض، أو الوجود المطلق أو الرب أو الإله، محتجب للأبد ولا يستطيع أن يتكلم إلينا عبر وسطاء بلغات مشيّأة ذات طبيعة محددة أو مقيدة، ولا بظاهرة الإلهام أو الوحي كما تفترض سلفاً أنظمة العقائد الدينية.

وتخلص بيتش إلى اعتبار هذا الكلام لجاسبرز، بمجمله، حجة مضادة قوية ضد اعتبار جاسبرز فيلسوفاً دينياً أو ذا خلفيات دينية. من دون أن تعتبر أن رأيها التحليلي هذا سيحسم الأمر وينهي الجدل الطويل حول هذه المسألة.

على كل حال، لقيت بيتش من خلال هذا الشرح والتوضيح بشكل خاص، ومن خلال

الكتاب بشكل عام، ترحيباً من كثير من مريدي جاسبرز ومتابعيه، فالبروفيسور كورت سالمن Kurt Salaman أستاذ الفلسفة الفخري في جامعة غراز، النمسا، على سبيل المثال، كتب قراءة نقدية لكتاب بيتش، نشرها في موقع الفلسفة الآن Philosophy now ويقول فيها: «إنّها ميزة لهذا الكتاب أن يظهر عبر العديد من الحجج الدقيقة والمعقدة أنّ فكرة جاسبرز عن الخلود يجب أن تفسر خارج الإطار الديني.

الميزة الأخرى هي الشرح المطول والدقيق للمبادئ الأساسية لفلسفة جاسبرز في نمط تحليلي. إنّ هذه المقاربة التحليلية لجاسبرز لا تناسب فقط الفلاسفة الوجوديين أو الأوروبيين، بل ينبغي أن يفضلها كذلك الفلاسفة التقليديون في البلاد الأنكلو. أمريكية». وفي الخلاصة عبّر سالمن عن ابتهاجه ورضاه لأن آراء جاسبرز عن الموت وتجربة الخلود ما تزال حية ومؤثرة.. ومثيرة للجدل!.

مختارات من أقوال جاسبرز:

• تاريخ الأمة -الدولة الألمانية هو على عتبة النهاية. وما يمكننا إنجازه كأمة عظيمة هو التبصر في وضع العالم: ذات يوم ستكون فكرة الأمة- الدولة كارثية لأوروبة ولكل القارات.

• ينسجم علماء النفس الناجحون، بالضرورة، وبطبيعتهم، مع حاجات ورغبات «المرضى العصبيين»، نظراً لأنّ الكتلة الكبرى من المرضى تقرر من الذي يكون معالجاً ناجحاً، وليس القيمة الفعلية للمعالجات النابعة من رأي الطبيب الخاص.

• إذا أردت معرفة ذاتي على حقيقتها فيجب علي أن أستكشف الوجود. ولكن هذا لا يعني أن أبدأ بالتفلسف إلى أن أفشل في البحث عن جوهر الوجود.

• الإرادة لا تختار بين الخير والشر. إنّه، على الأصح، خيارها الذي يجعل الأمر خيراً أو شراً.

• أنا أعلم أنني حر، ولذلك أعترف بأنني مذنب.

• الحرية هي أكثر الكلمات استخداماً في عصرنا. ولكن حتى الآن لا يوجد شيء أكثر منها غموضاً، وأكثر التباساً، وأكثر قساوة وأكثر إساءة للاستعمال.

الهوامش

١- موقع مجلة الفلسفة الآن www.philosophynow.org
٢- موسوعة ويكيبيديا Wikipedia
٣- موسوعة إنكارتا Encarta

تصنيف جديد لأمراض البشرية

د. ناصر ملوحي ✪

نحتنا مصطلح الطب العضوي- النفسي- الحضاري، لأننا نعتبر الإنسان وحدة نفسية- جسمية- ثقافية متكاملة متوازنة ومنسجمة مع صعود وإفلاس الحضارات ومتناغمة مع ظواهر الطبيعة وأحداث الكون، ولذلك قمنا بتصنيف حديث للأمراض التي تصيب البشرية أفراداً وجماعات وهو:

أ- **المرض العضوي:** وهو موضوع الطب التقليدي الشائع في بلادنا والدول الغربية والصناعية.

ب- **المرض النفسي:** موضوع الطب النفسي- التقليدي .

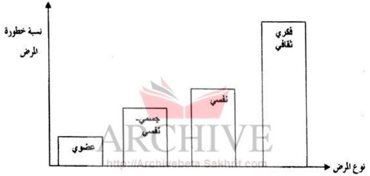
ج- **المرض الجسمي- النفسي:** موضوع الطب النفسي- الجسمي.

د- **المرض الفكري- الثقافي (المرض الحضاري):** ويبحثه الطب الفكري- الثقافي.

وهذا التصنيف الواسع الجديد للمرض (اعتلال الصحة) البشري في مجال الوقاية والعلاج يعتبر أن الأمراض الفكرية- الثقافية أخطر الأمراض التي تصيب الإنسان لعظمة نتائجها المدمرة والمخربة للبيئة والبشر والحياة وتفوق خطورتها كوارث الطبيعة من براكين وزلازل وفيضانات، فحرب واحدة كالحرب الغربية (العالمية) الثانية قتلت

✪ باحث علمي وطبيب أخصائي بأمراض الأنف والأذن والحنجرة وجراحتها.

أكثر من خمسين مليون شخص وشوهت عشرات الملايين ودمرت مئات المدن، فالمرض الحضاري مرتفع الدرجة الإمراضية ومتقدم المرحلة من ناحية الخطورة ونسبة الوفيات العالية ويفوق خباثة كل السرطانات، وله طيف واسع من الحالات الكارثية كإرهابية بوش ووحشية شارون وإجرامية بلير ولصوصية الدول الصناعية الأوروبية ونفعية الفلسفات الغربية وفلسفة شريعة الناب والغاب لتطبيقها في المجال البشري وظلم الشعوب والعبودية والعنصرية والاستبداد والاستغلال.



(إن هيمنة الغرب، منذ خمسة قرون، تكللت بإرادة مدمرة للكرة الأرضية، فالحفاظ، بعد إزالة الاستعمار على علاقات تبعية تفرض من خلال الاستعمار الجماعي المجسد في صندوق النقد الدولي وبالمصرف العالمي.. أدى إلى هذه النتيجة خمسين مليوناً من الموتى جوعاً أو بسبب سوء التغذية، وهكذا تفرض هيمنة الغرب الاقتصادية، هيروشيما يومية على العالم الثالث)[1].

ومن الحماقة أن يعالج الجوع وسوء التغذية في الدول النامية بالمساعدات الغذائية والدوائية والمالية الأوروبية والأمريكية التي تصور وتعرض كثيراً في الفضائيات ويفضل أن توضع هذه المساعدات في بطون الغربيين وجيوبهم لأن أسلوبهم الاستخرابي (الاستعماري) اللصوصي وشروط الشركات المتعددة الجنسيات الرأسمالية هما الداء، وهنا يجب أن يوجه العلاج، فالسكان الفقراء في بعض الدول الأفريقية يعجزون عن شرب الماء النقي وقضاء حاجتهم الطبيعية في دورة المياه لأنهم لا يملكون المال الزهيد

للدفـع، بينما يعيشون على جبال من فلزات الذهب والماس والمعادن الثمينة التي يسرقها الغرب بكل وقاحة ووحشية، ومع ذلك نقول أيضاً: إن الغرب ليس كله شراً ولا ضلالاً، فكم من علم نافع، وكم فيه من عمل صالح، وكم فيه من خلق كريم، وكم فيه من إنجازات هائلة وإمكانات ضخمـة في المجال العلمي والتقني، يمكـن توظيفها لصالـح الإنسان إيجابياً في مختلف المجتمعات والثقافات مع الحفـاظ على الهوية الوطنيـة المميزة لكل مجتمع وثقافة.

ونظـراً لأننا نعتبر أن العـدوان والظلم والحـروب والاستعباد والاستغلال.. حالات مرضيـة حضارية ناتجـة عن تبني نمط أو نسق فكري ثقافي فلسفي مُعتل، فهنا يجب التوجه إلى العلاج بالأسلوب الناجح بحيث نشفق على الظالم كما يشفق الطبيب على المريض العضوي، فإنَّ الطبيب رغم حنانه على المريض يشق بطنه لكي يستأصل المرض فنحن ينبغي علينـا علاج المعتدين الظالمين حضارياً ليس بقتلهـم وإنّما بابتكار وسائل حربية وقائية وعلاجية قادرة على أن تمنع الأذى وبالوقـت نفسه تقـوم بالقبض على المعتدين لكي نحولهم إلى المستشفيات الفكرية الثقافية لقبولهم ليقوم الكادر العلمي المؤلف من خـبراء في النفـس والاجتمـاع وعلماء في الدين والقانـون والاقتصاد وحكماء في العلاقات الدوليـة العامة ليقوموا بجلسات التحليـل الفكري والمجادلة بالحسنى واتباع أسلـوب الاقتنـاع والإقناع ضمـن جو من الحرية والمعاملة الجيدة، وهنا نكسب هؤلاء المجرمـين ونحولهـم تدريجيـا إلى أصحاء حضاريـاً، وبالتالي فإننا نحاول جاهدين أن لا نقتلهـم لأنه حتى الظـالم والكافر هو في تركيبه العضوي البيولوجي يسبِّح الله تعالى والأصل بالإنسان الفطرة السليمة الصحيحة بينما المرض الحضاري هو مكتسب من سوء التربية الاجتماعية وسلبية المفاهيم الفكرية وخطأ الفلسفات النظرية.

الهوامش

١- غـارودي، «الأصوليات المعاصرة، أسبابها ومظاهرها»، تعريـب: د.خليل أحمد خليل، ط١، باريس، دار عام ألفين، ١٩٩٢م، ص٦٤ .

السياسات الحكومية والصحافة والعلاقات العامة في عالمنا المعاصر

د. محمد البخاري ٭

انصب اهتمام الباحثين في مجالات الاتصالات الجماهيرية والعلاقات العامة في الآونة الأخيرة على الكيفية التي تراعي فيها العلاقات العامة ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية مبادئ الديمقراطية المعاصرة، وكيفية تشكيلها للرأي العام المعاصر. خاصة بعد أن لوحظ ضعف كبير باهتمام الشرائح الشبابية في المجتمعات بالسياسات الحكومية، ونقدها الدائم لما تقدمه وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية بشكل يومي، وطبعاً كان كل ذلك يحدث من خلال مدوناتهم الإلكترونية التي أتاحتها لهم الشبكة العنكبوتية العالمية «الإنترنت».

وأصبح من الواضح أن السياسات التي تتبعها الدول الديمقراطية أخذت بالتدريج تفقد دعم وتأييد الأوساط الاجتماعية، وانعكس ذلك رغم اتساع ونمو دور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية في المجتمعات الحديثة، ونمو تأثيرها على النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال عمليات الاتصال السياسية والعلاقات العامة الجارية. وهو ما أظهرته الدراسات الأخيرة عما يحدث داخل المجتمعات من تفاعلات، وأكدت تلك الدراسات على أن:

٭ باحث سوري مقيم في جمهورية أوزبكستان. دكتوراه في العلوم السياسية.

١- السياسات الحكومية بدأت تفقد دعم وتأييد الأوساط الاجتماعية:

حيث لوحظ في جميع الدول الديمقراطية الحديثة انخفاض درامي لدعم وتأييد المواطنين للمؤسسات السياسية والشخصيات السياسية الناشطة فيها. وعلى ما يبدو أنه هناك تناقض في الأوضاع السياسية، لماذا؟ لأننا نعيش اليوم في أوقات وفرت فيها ظروف الأمن والحرية والرفاهية لسكان الدول المعاصرة، ووفرت فيها الإمكانيات المادية اللازمة لأكثر السكان.

وكان من المنطقي أن يكون الناس راضين وداعمين لسياسات تلك الدول. ولكن على العكس من ذلك لوحظ أن نسبة الناخبين الذين يدلون بأصواتهم في الانتخابات أخذت تقل تدريجياً في تلك الدول، وعلى سبيل المثال: لوحظ أن نسبة الناخبين المشاركين بإدلاء أصواتهم فعلاً في الانتخابات البرلمانية الفيدرالية بألمانيا لم تتجاوز نسبة الـ ٥٠٪، وأن مشاركة الناخبين الشباب في تلك الانتخابات لم تتجاوز نسبة الـ٤٠٪.

وصعبت هذه النتائج على الباحثين مهمة تفسير تلك الظواهر بعد أن كانت نسبة المشاركين بإدلاء الأصوات في الانتخابات التي جرت في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية تتراوح ما بين الـ٧٠٪ و٨٠٪. معتبرين أن تلك الظاهرة تهديد للمبادئ الديمقراطية السائدة في ألمانيا. خاصة بعد ملاحظة التراجع في أعداد المشاركين في الانتخابات البرلمانية من المنتمين للأحزاب السياسية الألمانية، ولم تتجاوز نسبتهم الـ٤٠٪ فقط.

ولاحظ المحللون السياسيون أن تلك التبدلات آخذة بالانتشار حتى داخل العملية الديمقراطية الجارية في ألمانيا، وأنها تحول دون مشاركة المواطنين في العملية الديمقراطية مكتفين بأخذ دور المراقب فقط، وعللوا ذلك بطبيعة القوانين السياسية السائدة في ألمانيا، التي أدت إلى انخفاض الاهتمام بما يجري على الساحة الانتخابية، مما أدى بدوره إلى انخفاض أعداد المشاركين في التصويت حتى لصالح الأحزاب التي ينتمون إليها. وهو ما يطلق عليه في العلوم السياسية «تسرب الناخبين»، واعتبروا أن هذه الظاهرة ترافق التغييرات الحاصلة في الأفضليات السياسية للناخبين وما رافقه من فقدان بعض الأحزاب السياسية للدعم والتأييد الجماهيري المعهود.

وفسرت بعض المصادر تلك الظواهر بحدوث تغيير جذري في النظرة السياسية للمواطنين، ناتجة عن بعض التصرفات السياسية من قبل بعض القادة السياسيين والمرشحين على حد سواء. وفسر خبراء

العلوم السياسية ذلك بأنه يتعلق بخصوصية دعم وتأييد الأحزاب السياسية والشعارات التي تطرحها بغرض التسويق السياسي. خاصة وأن تلك الخصوصية تأتي من:

- **نوعية الدعم والتأييد الذي حصلت عليه الأحزاب السياسية والمتمثل:** بالثقة وتأييد النشاطات التي تقوم بها الأحزاب السياسية، وهذا يعني أنها مرتبطة بالسياسات التي تتبعها تلك الأحزاب.
- **وسعة الدعم الذي تحصل عليه الشعارات التي تطرحها الأحزاب السياسية تتمثل عادة:** بدعم المبادئ الديمقراطية، وتلعب الشعارات فيها دوراً كبيراً، وبقدر ما تلتزم تلك الأحزاب بشعاراتها للحفاظ على الديمقراطية في المجتمعات المعاصرة.

وأشارت بعض الدراسات إلى انخفاض كبير في مدى خصوصية تلك الشعارات المطروحة، رافقه ضعف ملحوظ في الدعم والتأييد المطلوب لتلك الشعارات، الأمر الذي أدى إلى فقدان دعم وتأييد الجماهير لتلك الشعارات. وهو ما قد يؤدي من دون أدنى شك إلى تهديد مستقبل الاتحاد الأوروبي، خاصة وأن الألمان بمعظمهم اليوم ضد الإتحاد الأوروبي، ويعزفون عن تقديم الدعم والتأييد له على جميع الأصعدة.

وأظهرت بعض الدراسات التي أجريت على مضامين القوانين الضابطة للنشاطات السياسية السائدة في معظم الدول الديمقراطية في العالم أن:

- أكثر المواطنين لا يعتبرون الشخصيات الحكومية مؤهلة سياسياً؛
- أكثر المواطنين لا يعتبرون معظم الشخصيات الحكومية مؤهلة وقادرة على المشاركة والتأثير في الفعل السياسي؛
- أكثر المواطنين يتم توريطهم عمداً للمشاركة في النشاطات السياسة.

وهو ما أدى وبشكل طبيعي إلى حدوث انهيار في نظم التأثير السياسي على الجماهير العريضة، وهو ما يعاني منه المواطنون وخاصة الشرائح الشابة في المجتمع. ومعروف أن الشريحة الشابة في المجتمع تتميز بالحركة الدائمة التي تجعلها دائماً في طليعة أي تجديد يطالب فيه المجتمع. وأن تعرض الجيل الشاب لأية حالة من القلق السياسي قد تؤدي إلى فقدان دعمهم وتأييدهم للسياسات المطروحة للسنوات القادمة.

وظاهرة فقدان السياسات الحكومية للدعم والتأييد المطلوب ليست جديدة، وقد حللها الباحثون الأمريكيون في العلوم السياسية خلال خمسينيات القرن الماضي وخرجوا بنتيجة أطلقوا عليها تسمية «الغربة السياسية». وفسروا الغربة السياسية بأنها من طبيعة المواطنين الذين يعانون من

مشاكل اقتصادية وليس لهم دخل ثابت يعتمدون عليه، وهو ما يؤدي إلى معاناتهم الحياتية بسبب انخفاض مستوى حياتهم المعيشية. واقترحوا لتصحيحها تحسين أوضاع الفقراء المادية والاقتصادية، ورفع مستوى التعليم في المدارس.

ولكنَّ الباحثين في مجالات العلوم السياسية الأمريكيين وجدوا خلال ستينيات وسبعينيات القرن الماضي أن الأوساط الرافضة شملت حتى شرائح اجتماعية عليا، وأنَّ الغربة السياسية كانت نتيجة لعشوائية تسويق علاقات سياسية سلبية داخل المجتمع، وبسبب التداخل الحاصل بين النشاطات السياسية والعلاقات العامة ونشاطات وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. وأن ما طرحته برامج الإذاعتين المسموعة والمرئية كان يخلط بين البرامج الإخبارية والترفيهية والتحليلية، مما أدى بالتالي إلى ابتعادها عن التحليلات الجدية للأحداث السياسية الجارية، على نقيض مواد وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية المطبوعة (الصحف والمجلات) التي تمكنت من عرضها وتحليلها أكثر.

وأظهرت بعض الدراسات انخفاضاً مستمراً في أعداد المواطنين المهتمين بالسياسة، وشكك الخبراء في صحة أو عدم صحة نتائج تلك الدراسات. وتوقعوا أن تكون صحيحة، لماذا؟ لأنَّ المواطنين أضحوا أقل اهتماماً بتصرفات الإدارة الحكومية، وتصرفات الأحزاب السياسية، وتصرفات البرلمانيين، وأقل اهتماماً حتى بشخصية القائمين بتلك التصرفات. ولكنهم كانوا مهتمين دائماً بأولئك القادرين على حل مشاكلهم الاجتماعية، إضافة لاهتمامهم بطرق معالجة مشاكلهم غير القابلة للتأجيل. وكان من الطبيعي في المجتمع المدني وفق التقاليد الأمريكية فرز أسماء القادة السياسيين في المجتمع إلى تقليديين أو محافظين أو غير تقليديين (مجددين). وسرعان ما انتشر هذا المفهوم لاحقاً في بلدان أخرى من عالمنا المعاصر.

ومنه يمكن أن نستنتج أن الغربة السياسية رافقها في الدول الديمقراطية الحديثة تطور اقتصادي الغاية منه تحقيق رفاهية عالية المستوى للسكان.

وعلى الرغم من ذلك شهدت علاقة السكان بالسياسات الحكومية تدهوراً ملحوظاً، وأصبحت تستدعي ضرورة بذل الجهود لتوفير الدعم والتأييد الاجتماعي للسياسة الحكومية، قبل أن يحدث انهيار كارثي للسياسات الحكومية التي يمكن أن تهز كيان دول بكاملها.

والنظم السياسية كما هو معروف تقوم بالرقابة على توزيع الخيرات المادية في

المجتمع، وتعمل على حل المشاكل التي تعترض توزيع تلك الخيرات، وتحتاج من أجل ذلك لدعم من الموارد الاجتماعية والمادية على حد سواء. وفي حال غياب الدعم اللازم يعجز النظام الاقتصادي القائم عن أداء وظائفه المحددة على المدى الطويل، ويكون عاجزاً عن أداء دوره الاجتماعي. وفي هذه الحالة يصبح النظام السياسي بحاجة لمستوى كافٍ من الدعم والتأييد الاجتماعي للقيام بدوره، وفي هذه الحالة لا بد من القيام بأعمال جدية ودؤوبة في مجالات الاتصالات الجماهيرية والعلاقات العامة.

٢- تغييرات نظم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية:

شهدت نظم الاتصال والإعلام الجماهيرية ووسائلها خلال العقود الأخيرة تغييرات هائلة، طالت حتى وظائف الاتصال السياسي والعلاقات العامة من خلال وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية في المجتمعات المعاصرة. لماذا؟ لأنَّ وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية تقدم للساحات الإعلامية حقائق ومواضيع كثيرة، وتضعها في متناول كل الشرائح الاجتماعية لمناقشتها وإبداء الرأي حولها، وتوفر الفرص للقيام بنشاطات اجتماعية مشتركة ناجحة. وقد يعترض البعض على هذا لأن وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية بالكامل تعتبر سوقاً اجتماعية لها مقاييسها الخاصة.

ووظائف وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية تعتمد على وجهات نظر معينة، وتستطيع تلبية حاجات ساحة إعلامية مستهدفة كبيرة، وتستطيع زيادة الطلب على منتجاتها المعلوماتية بغية الحصول على موارد مالية ضخمة. ولكن بعض الخبراء يعتبرون مثل هذا المدخل غير كاف ولا يمكن اعتباره حلاً نهائياً للمشاكل التي تواجه نشاطات وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. لماذا؟

لأن وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية تعمل على تحقيق تكامل في المجتمعات الحديثة، ومن أجل ذلك لا بد من تحليل نظم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، وبحث علاقتها المشتركة بالمجتمعات والنظم السياسية القائمة.

وتظهر بعض الدراسات أن الدول الحديثة تعاني فعلاً من تضخم شمل قطاع وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية بكامله. وحدث ذلك بعد أن كان تطورها التكنولوجي والاقتصادي يجري حتى ثمانينيات القرن الماضي على نطاق ضيق، ورافقه إغلاق الكثير من قنوات البث الإذاعي المسموع والمرئي أو اندماجها، ورافقه ارتفاع كبير في أسعار الورق ونفقات الطباعة.

وجاء التطور التكنولوجي لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية الذي أعقب تلك الفترة التاريخية ليوفر إمكانية زيادة وتوسيع إنتاجها. وعلى الرغم من ذلك شهدت قنوات البث الإذاعي المسموع والمرئي انخفاضاً ملحوظاً في البرامج الإخبارية السياسية، ليحل مكانها بالتدريج برامج ترفيهية بحتة.

وسرعان ما احتلت مكانها الشبكة العنكبوتية الدولية «الإنترنت» وأخذت تواجهه ظروف التزايد المتصاعد لكميات الأخبار السياسية والعلمية والثقافية على حد سواء، وهو ما لمسناه خلال العشرين سنة الأخيرة، ولكنها بقيت خارج التوسع المتزايد في وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، لماذا؟

لأنها شكلت تركيبة جديدة دخلت خلسة إلى عالم الاتصال والإعلام الجماهيري. وبدأت وسائل الاتصال والإعلام الجماهيري تفقد معها بالتدريج موقعها التقليدي في سوق المعلوماتية حتى في الدول المتقدمة. وحتى أن الاتحاد الأوروبي اعترف بأن المعلوماتية ما هي إلا جزء من بضائع يتداولها السوق المعاصر، ولا يجب تمويلها على حساب دافعي الضرائب، بل عليها الاعتماد على التمويل الذاتي كشركات تجارية قابلة للربح والخسارة. الأمر الذي فرض على وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية أعباءً إضافية لتجنب الإفلاس والإغلاق.

ورغم أنَّ التوسع الحاصل في مجال تطور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية إلا أنها واجهت عمليات تركيز واندماج، وجاءت في معظمها بدول العالم على شكل قيام شركات إعلامية كبيرة عابرة للقارات، قادرة على الصمود والاستمرار بالعمل. ورافق تلك العمليات انخفاض ملحوظ في أعداد الصحف والإذاعات المسموعة والمرئية.

وبدأ بظهور لاعبين دوليين جدد في قطاعات وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية بعيدين كل البعد عن الإعلام التقليدي الخاضع للأنظمة والقوانين والمصالح الوطنية.

وأول ما فعله اللاعبون الجدد هو حذف البرامج السياسية الوطنية، بانتظار إلغاء الرقابة الحكومية، الأمر الذي ينتظرونه من السياسيين المؤيدين لخططهم الجديد. وطبعاً هذا يمكن أن يحدث في حال عدم تفهم الشخصيات الحكومية لنتائج تجاوز السياسة الإعلامية الوطنية وإلغاء الرقابة الحكومية على وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، والتي لا بد أنها ستؤثر سلباً على مواطني الدولة والعاملين في مجالات الاتصال والإعلام الجماهيري الوطني على حد سواء.

وكمـا هو معـروف رافق توسـع تطور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية إلغاء السياسـات الإعلاميـة الوطنيـة، ورافقته تغيـيرات في تكنولوجيا وطـرق أداء العمل الصحافي بشكل كامـل، والأمثلة على ذلك كثـيرة. حتى إن أكـثر الباحثين العلميين في مجـالات الاتصـال والإعـلام الجماهيري والعلاقات العامة تحدثـوا عن تفشي نواح سلبيـة في الإعـلام الجمـاهـيري المعاصر، وتحدثوا عن تزايد النزعـات الفردية التي أضعفـت نوعيـة الإعلام المحـترف ليحل مكانـه إعـلام ترفيهـي، أدى إلى إغـراق الساحات الإعلامية بإعلام سطحي لصرف أنظـار المجتمعات عـن قضاياها الحياتية المصيرية.

واعتـبر الخـبراء أن كل ذلـك يمكـن تحليلـه من خلال نظريات القيم المعلوماتية (Theory of Information Value)، التـي أعدهـا جوهـان جالتونـغ Johan Galtung، ومـاري هوليـه روغ Mari Holmoe Ruge، الباحثـة النرويجية في مجـال مشاكل السلام. وأشـارا فيها إلى أن المعلوماتيـة تلبي مبـادئ السلبية والفردية والبساطة النسبيـة، والقصر، وهي جديدة ومفاجئة وتلقى اهتماماً كبيراً لدى الساحة الإعلامية.

وأضافوا أنه بقـدر ما يكون التركيز في سوق وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، بقـدر ما تتطور المبادئ المشـار إليها أعلاه بقوة. لماذا؟ لأنها تتمتع بتأثيرات سلبية أكثر مما هي إيجابية.

ومـن النظريـات السائـدة، أن وسائل الاتصـال والإعـلام الجماهيريـة أخذت تتقارب مع وسائـل الإعلام الفردية، وظهر هـذا في التقـارب الذي رافقتـه حالة من التقسيـم أدت إلى مفهوم أنه بقدر ما يكون هناك تنافس بين وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، والمشاركين الفرديين في ساحة الاتصـال والإعلام الجماهيريـة، بقدر ما يكون هناك تقـارب أكثر. ولاحظ مستهلكو المـادة الإعلامية أن التقـارب هو أكثر بين وسائل الإعـلام الجماهيرية والفردية، ومع ذلـك يدفعـون ضرائب لتمويـل الإذاعتين المسموعـة والمرئية الجماهيرية أكثر من ذي قبل.

ولوحظ في بعض دول أوروبة الغربية أن الإذاعتـين المسموعة والمرئية تحولتا بالفعل إلى شركات خاصة، مـن حيث مضامينهما وبرامجهمـا، حتـى إنهما أصبحتـا أقرب للقنوات الخاصة، ومع ذلك فهما تمولان من أموال الضرائب والتبرعات. وعلى الرغم من أن هذه الشركات غدت تملك ساحة إعلامية ضخمة، إلا أنها لم تستطع الصمود في السوق الإعلامية.

وعلى الرغم من أنَّ وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية اتجهت من خلال التطور الحاصل نحو تخفيض فترات إعادة بث الأفلام والبرامج، إلا أنَّ الأخبار التي تبثها أصبحت أقل جاذبية حيال الأخبار التي تنشرها الصحف أو قنوات الإذاعتين المسموعة والمرئية الخاصة. ورافقتها في الانتشار ظاهرة سرقة الأخبار التي يعدها صحفيون آخرون من دون الإشارة للمصدر. مما جعل من حقوق التأليف المشترك عديم الجدوى في الأوساط الصحفية. حتى إن أحداً لا يتقيد بها عند استخدامه لمعلومات حصل عليها وكتبها أشخاص آخرون.

ورافق هذا الوضع غير الطبيعي غياب النقد البناء، وغياب حب الاطلاع والاستقصاء، وغياب البحث الصحفي في النظم الإعلامية الحديثة. وعلى الرغم من ذلك فإننا لم نزل نصادف مواداً إعلامية تستحق الإعجاب لالتزامها بالمقاييس الصحفية المهنية عالية المستوى على صفحات الصحف والمجلات وحتى في مضامين البرامج الإذاعية المسموعة والمرئية.

والاستنتاج الذي يمكن أن نتوصل إليه من تحليل تطور وتوسع وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية خلال العشرين سنة الماضية، أنها أخذت تخفض كمية المعلومات السياسية التي تستخدمها، وأنها عززت أساليب غير مألوفة في تنظيم نشاطات وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، ورافقه تعزيز ظواهر سلبية وفردية القصد منها الإثارة، وهو ما خفض من مستوى نوعية المادة الإعلامية وحولها إلى مواد استهلاكية بعيدة عن الحقيقة والنقد، وعن حب المعرفة، وخلقت ظروفاً غير ملائمة لتطور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية الرصينة على المدى الطويل.

٣- العلاقة المتبادلة بين وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية والنظم السياسة والحكومية في الظروف المعاصرة:

من أجل فهم عملية ترشيد الاتصالات السياسية والعلاقات العامة التي تتمتع بأهمية كبيرة في الدول الحديثة بشكل صحيح، لابد من فهم طبيعة العلاقات المتبادلة بين نظم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية والنظم السياسية والعلاقات العامة القائمة بشكل عام.

ويمكن في هذا المجال الاعتماد على المبادئ الأساسية لنظرية النظم السياسية، التي أعدها ت. بارسونس. وفقاً لنظرية النظم السياسية يمكننا تصور نظاماً اجتماعياً يتضمن اتجاهات فردية، وتراكيب ثقافية، وكل منها يؤدي وظيفة معينة في النظام الاجتماعي العام، أي في المجتمع.

وبعد ذلك يمكننا النظر في النظم الاجتماعية المرتبطة بغيرها من النظم. وعلى سبيل المثال: النظام السياسي يرتبط بنظام وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. وكل نظام عليه القيام بترشيدات وتجديدات متنوعة، من أجل تحسين صلاته بغيره من النظم، ومن أجل ضمان أداء الوظيفة العامة للحياة المشتركة. لابد من دراسة:

– وظيفة النظم السياسية التي تقوم بإعداد الحلول؛

– وظيفة نظم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية التي تضع المسائل المطروحة للمناقشة على أوسع نطاق بغية توفير تكامل النظام الاجتماعي بكل أجزائه شرائحه المتنوعة.

والنظم السياسية عادة تواجه صعوبات كبيرة أثناء أدائها لمهامها. ناتج عن:

– فقدان الدعم والتأييد الاجتماعي لأسباب ناتجة عن صعوبة دراسة سير أية قضية وشيوعها داخل المجتمع؛

– ولأن وظائف وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية هامة جداً في المجتمعات المعاصرة.

وهو ما أوضحته الظروف التي سادت بعد انهيار النظم الاشتراكية في المجتمع الدولي. ورافقه بروز دور الأسواق العالمية في القضايا الدولية، الأمر الذي تطلب زيادة الحاجة إلى وسائل اتصال وإعلام جماهيرية يمكنها تلبية احتياجات عالم مشترك بكل مكوناته الثقافية والسياسية والاقتصادية. ومعها تصاعد دور الأفراد، ودور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، للمساعدة على فهم واستيعاب ما يجري في العالم المعاصر من أحداث.

ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية تساعد على بناء واقع محدد ومطلوب من قبل القائمين عليها. ولكننا بحاجة لوسائل اتصال وإعلام جماهيرية تساعدنا على العمل والمشاركة في عالمنا المعاصر والمتشابك والمعقد، ومتابعة ما يجري من مراحل في حركة النظم السياسية دائمة التطور، ونظم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية على المستويات الاجتماعية المحلية والدولية وحتى الفردية.

وبعض النظريات السياسية في عالمنا المعاصر تشير إلى أهمية وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية للسياسة الحكومية في الوقت الراهن، وتعتبرها مهمة للتفاعلات السياسية أكثر من السياسة نفسها. حتى إن وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية غدت قادرة على حل أية مشاكل واردة في جدول الأعمال قبل حدوثها، وقادرة على تحديد أية مشاكل يجب أن تحل قبل غيرها. وحتى إنها غدت قادرة على تحديد من سيكون

رئيس الجمهورية الجديد. الأمر الذي سمح للباحثين في المجالات السياسية والإعلامية والاتصالية والعلاقات العامة باستخدام مصطلح الـ(التليكراتيا - telecracy) بدلاً عن مصطلح الديمقراطية، ومصطلح (الانتخابات التلفزيونية - telections) بدلاً عن مصطلح (الانتخابات - elections).

وأشار الكثير من الباحثين إلى حصول جفاف مستمر في وظائف السياسة الحكومية، وأنها أخذت تدريجياً بالتحول إلى وظيفة إدارية بحتة ولكن بواقعية أكثر. وهناك قراءات نظرية أخرى تشير إلى أن السياسات الحكومية تعي مدى الانتصار الذي حققته وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية على الصعيد العملي، ومع ذلك أخذت الحكومات تبذل جهوداً حثيثة للحد من تأثيرها على المجتمع.

وتشير القراءات النظرية إلى أن السياسات الحكومية تتجه نحو فرض المزيد من الرقابة على وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. والدليل على ذلك مراعاتها حتى من قبل شبكات الاتصال الشخصية القائمة في العلاقات بين وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، والشخصيات السياسية.

ومن دراسات تأثير الحملات الإعلامية الجارية من خلال وجهة نظر معينة، ظهر أنها تخدم تطلعات الأحزاب السياسية.

ومن الأمثلة على ذلك على الساحة الإعلامية الأوروبية التقارب الحاصل بين رجل الإذاعة المرئية الأول مالك الشركات الألمانية الشهيرة CLT وRTL، مع الحزب الاجتماعي الديمقراطي، فالسيد كيرتش (Kirch) يملك أجزاء ضخمة حتى في غيرها من قنوات الإذاعة المرئية في ألمانيا، ومعروف بميوله المحافظة، وهو صديق للسيد كوليا، ولكننا في النهاية نلاحظ تأثير الحزب على الإذاعتين المسموعة والمرئية، حتى إن علاقتهما قيمت كوسيلة لفرض الرقابة الحكومية على وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. وحتى الصحفيين ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية لم يخفوا زيادة محاولات الشخصيات السياسية للتأثير على نشاطاتهم.

وهناك نظرية يطلق عليها تسمية نظرية «نظم السوبر»، وتشير هذه النظرية إلى أنّ تطور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية والنظم السياسية يجري ضمن نظام واحد، والهدف منه الرقابة على ما ينشر للمواطنين، وأنها تتضمن الأشخاص نفسهم ولها التركيبة الاجتماعية نفسها، ولو أنها غير ملموسة إلا أنها باقية ومستمرة.

وحتى لو كانت كل النظريات مناسبة

لنشاطات وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية والعلاقات العامة إلا أنها متفاوتة، لأن وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية والعلاقات العامة تعتبران عاملاً هاماً لحصول النظم السياسية على الدعم والتأييد الاجتماعي. وحتى إن الحجج المستخدمة لا تشرح الدور المناسب لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية وسلبيته في المجتمع، إلا أنها لم تزل بحاجة للدراسة والتحليل لتقديم حجج مقنعة.

٤- بنية المجتمع في الدول الحديثة:

في السابق وصف المجتمع بأنه عبارة عن جماعات بشرية محدودة تلتقي لبحث قضايا اجتماعية مشتركة بقصد خلق رأي عام موحد في المجتمع. وتشكل الكتل البشرية عادة الرأي العام، وكان المفكرون والمواطنون الواعون في الماضي يطالعون الصحف باهتمام. وهو ما اصطلح على تسميته في الكثير من دول العالم المتقدم بـ«المجتمع المدني»، ولكن خلف هذا المصطلح تقف جملة من النظريات، ومنها النظرية التي وضع أسسها يورغين هابيرمانس (Jurgen Habermas). وهابيرمانس عالم اجتماع مشهور أسس المدرسة الفرانكفونية (١٩٦٨م)، مع مجموعة من الباحثين الناقدين المتمسكين بالمبادئ الماركسية.

وأشار هابيرمانس في كتاباته إلى أن المجتمع المدني وجد قبل بداية الفترة المعاصرة التي نعيشها، وإلى أن تطور الديمقراطية أدى إلى توسع أعداد المشاركين في عملية تكوين الرأي العام.

وأصبح من الممكن القول: إن الفترة المعاصرة تتألف من اجتماع عام كبير، يشارك فيه كل أعضاء المجتمع. وأصبح ذلك ممكناً من خلال تحسين المقاييس التعليمية، وتطوير الصحافة، ورفع مستويات الأوضاع الاجتماعية. وأصبح من الممكن تسمية هذا التطور بالفردي، لأنه حرر الإنسان من التبعية، والفقر، والجوع، والأمية.

ولكن التصور الذي وضعه هابيرمانس عن الوسط الاجتماعي غير واقعي حتى الآن. لماذا؟ لأن المجتمع الحالي مقسم إلى أجزاء، وكل جزء منه مكوّن من مجموعة لها مصالحها الخاصة، ومفرداتها الخاصة، ووسائل اتصالها الخاصة. ولأن عدد هذه المجموعات آخذ بالازدياد نتيجة لتفشي الفردية في عالم الاتصال الجماهيري، وازدياد أعداد وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية.

ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية تقوم اليوم بإعداد مواد وبرامج بمقاييس جديدة، وتقوم بإعداد وثائق خاصة بها، القصد منها خلق تداخل في الأوساط الاجتماعية، والتجاوب مع الأحداث

والتطورات والتغيرات الطارئة، بحركة دائمة من دون توقف. وآخر الأبحاث أظهرت أن «الوسط الاجتماعي» الجديد يتجه نحو العزلة والتقوقع. مما يصعب من عملية تبادل المعلومات بين الجزر الاجتماعية المختلفة، ولكن الأصعب هو تنظيم عملية التغطية الكاملة لأي حدث بشكل متساوٍ للجميع.

وهنا يبرز سؤال كيف تؤثر هذه الظاهرة على السياسة الحكومية؟ والجواب يأتي جزئياً من أن السياسيين أصبحوا مجبرين على التأقلم مع إستراتيجية الاتصال والإعلام الجماهيرية الحديثة بشكل مضطرد مع تزايد أعداد جماعات الوسط الاجتماعي، خاصة وأنه لم يعد ممكناً عملياً في الدول الحديثة التعامل مع الأوساط الاجتماعية كطبقة واحدة.

وحتى اليوم طرحت مختلف التنبؤات حول تطور الأوساط الاجتماعية، ولكن الحقيقة تظهر أن القوة الرئيسية القادرة على خلق الرأي العام ما هي إلا مجموعة صغيرة من قادة الرأي الذين يتمتعون بعلاقات واسعة على مختلف الأصعدة في مجالات الحياة الاجتماعية. وهذه العلاقات ومع الأسف الشديد لا تتفق مع المبادئ الديمقراطية لأنها مفروضة من قبل الغير، ولكنها تتناسب طرداً مع كمية المعلومات المتداولة داخل المجتمع الواحد. وهي جزء من نظريات علوم الاتصال التي اصطلح على تسميتها بنظريات فصم المعرفة (Knowledge-gap-Theory).

٥- النظم السياسية وترشيد الاتصالات السياسية:

الاتصالات السياسية كفكرة لها اتجاهات متعددة والكثير من التفسيرات. ولكن الاتصالات السياسية بحد ذاتها تأتي كمضمون لعملية الاتصال في إطار النظم السياسية، وفي إطار المجتمع. ومن ضمن هذين الإطارين تتضمن أهدافاً من خلال كل العمليات الجارية لخلق رأي عام مؤثر في حال اتخاذ قرارات سياسية معينة، وتلعب العلاقات العامة دوراً هاماً فيها.

ويظهر الواقع الحالي تقهقراً متدرجاً لمجالات الاتصالات السياسية والعلاقات العامة المؤثرة في إطار النظم السياسية، في الوقت الذي يلعب المجتمع الدور الأكبر كما هو الحال في المجتمعات المعاصرة، فيما يتعلق بالنشاطات السياسية نفسها.

ويمكن القول: إن الأحزاب السياسية اتخذت حتى اليوم قرارات إستراتيجية تعتمد على مبدأ «من الأسفل إلى الأعلى» ولكن ظهر أنها غير هامة وليس لها مكانة هامة في عملية اتخاذ القرار السياسي النهائي.

ومن المتعارف عليه أن الاتصال السياسي والعلاقات العامة هما تعبير عن النوايا السياسية المراد تحقيقها من قبل الأحزاب السياسية وقادتها. وتتجه النوايا السياسية عبر الاتصال السياسي والعلاقات العامة نحو الحصول على أكبر كمية ممكنة من الدعم والتأييد الاجتماعي.

ويجري عادة الوصول للنوايا السياسية عن طريق الاتصال المباشر والمقصود بين القادة السياسيين والشرائح المستهدفة، أو عن طريق الاتصالات السياسية غير المقصودة أو العفوية عبر وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية.

وتعتبر العلوم السياسية أن الاتصالات غير المقصودة أكثر تأثيراً. لماذا؟ لأن وسائل **الاتصال والإعلام** الجماهيرية تعتبر وسيلة مضادة **لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية الإلكترونية** وأكثر تأثيراً منها، لأنها تعتمد على المقابلات الصحفية، والمواد والتعليقات التي يكتبها خبراء كبار متخصصون في الاتصال الجماهيري والشؤون السياسية والإعلامية والعلاقات العامة وغيرها من المجالات.

وهنا يجب أن نشير إلى أن النشاطات الصحفية تهدف دائماً إلى إيجاد مظاهر إيجابية لعملية الاتصال السياسي والعلاقات العامة، ولكنها في الواقع تضعفها وتختصرها في حدود النظم السياسية، من خلال جهود الاتصالات السياسية والعلاقات العامة الجارية داخل المجتمع الواحد. لأنه وكما هو معروف أن النظم السياسية تحاول الحد من عمليات الاتصالات السياسية الممارسة من خارج الأحزاب السياسية والأجهزة البرلمانية، والتي هي من أكثر الاتصالات السياسية المتبعة. ومن ضمنها تأتي نشاطات النظم السياسية الهادفة للحصول على الدعم والتأييد الاجتماعيين، وخاصة من خلال:

- الاتصالات السياسية؛
- الدعاية السياسية؛
- المشاركة السياسية؛
- التعليم السياسي.

وزادت هذه النشاطات بشكل كبير خلال العشرين سنة الأخيرة. حتى إنه أصبح من الممكن القول: إن عمليات الاتصال السياسي والعلاقات العامة الممارسة من خارج الأحزاب السياسية والأجهزة البرلمانية تعني وظيفياً زيادة كبيرة في أعداد المحترفين المشتغلين في مجالات: العلاقات العامة، والاتصالات السياسية، والتعليم، والمشاركة السياسية. والعملية ليست فقط في الكمية بل في النوعية، لأن العلوم الاجتماعية سارت بعيداً نحو الأمام وتنوعت معها خصائص المؤسسات السياسية والاجتماعية والإعلامية.

وفيما يتعلق بخصائص مؤسسات الاتصال السياسي والعلاقات العامة يمكن القول: إن السياسة غدت تستخدم تقنيات معينة، وتستخدم أساليب صحفية حديثة وقوية أكثر بكثير من الماضي. حتى إن الاتصال السياسي والعلاقات العامة أصبحتا في مجال السياسة الحكومية تقدمان المعلومات بشكل جزئي على الشكل المتعارف عليه في الصحافة.

وأصبح الاتصال السياسي يوجه بأساليب عالية الجودة في مجال المعلوماتية نحو الاختصار، مع الإقلال من النواحي السلبية، والإقلال من النواحي الفردية. وهو ما أطلق عليه مصطلح (الأمركة في الاتصال السياسي). التي تهدف الحصول على أقصى درجات الانتباه من قبل المواطنين والصحفيين على حد سواء. من خلال الخصائص التالية:

- **اختصار الوقت:** من حيث المبدأ هذا يعني أنه يجب ربط الخبر السياسي بشكل أقل مع الحوار العام، أو ربطه بأحداث متوسطة المدى. ويعني أيضاً أن المواضيع المطروحة للنقاش والقضايا المتكونة خلال فترة قصيرة، يتم إدراجها بسرعة في جدول الأعمال. ويجري اختيار المواضيع على هذا الشكل من أجل تكوين موقف سياسي خاص. وطبعاً كلها مرتبطة بالتقنيات، ومنها خلق «مسببات معلوماتية»، أو حدث مشابه، كان لا يمكن أن يحدث لو لم تتناوله وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. ويعتقد الباحثون أن أكثر الأحداث السياسية تجري واقعياً عن طريق خلق مسببات معلوماتية مصطنعة.

- **الفردية:** التي تركز الاهتمام على القادة السياسيين والمرشحين، وفي الوقت نفسه تعمل على تخفيض الاهتمام بالأيديولوجيات وبرامج الأحزاب السياسية. وأثناء تحديد الملامح الشخصية للمرشح يجري تقديمه للساحة الإعلامية وكأنه قادر على فعل كل شيء، وقادر على حل أي معضلة سياسية. وعلى هذا الشكل تتراجع الصراعات الدائرة حول برامج الأحزاب السياسية إلى الخط الثاني.

- **السلبية:** وتعني اتباع «إستراتيجية سلبية» في الحملة السياسية، عن طريق مختلف الوسائل المدروسة بدقة، وقبل كل شيء عن طريق نشر معلومات سلبية عن الخصوم السياسيين.

ويقوم بمثل هذه الأعمال متخصصون جدد في الاتصال والعلاقات العامة. وهم قادرون على تنظيم حملات إعلامية لحزب أو مرشح معين خلال فترة قصيرة، وقادرون على إعطاء اتجاه جديد لعملية الاتصال

السياسي والعلاقات العامة، مثل: تحويل سلبية المرشح «إلى اتجاه معاكس» تماماً.

ومن الأمثلة في الولايات المتحدة الأمريكية عن أولئك المتخصصين، الفيلم الهوليودي «الذنب يفرض على الكلب»، الذي تحدث عن أساليب نشر شائعات عن مغامرات الرئيس مع متدربة شابة قبل بضعة أيام من الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة الأمريكية.

حتى إن المتخصصين نجحوا بفرض حرب ضد ألبانيا، وكلها كانت أحداث جرت على صفحات الصحف فقط، ولم تكن أكثر من تعكير للمياه، من أجل صرف أنظار الجماهير عن الحقائق الموضوعية. والأمركة من جانب تنقل وباستمرار المستجد في الاتصالات السياسية، ولكننا من جانب آخر لا نشك في مدى تأثيرها السلبي على الأوساط الاجتماعية.

٦- تأثير الأمركة على الاتصالات السياسية:

تناولت دراسات الاتصالات السياسية الحديثة بالتحليل نتائج الحملات الانتخابية. لماذا؟ لأنّ الحملات الانتخابية هي الأكثر حداثة في الاتصالات السياسية، والأمركة تعتبر رمزاً لها. وعلى سبيل المثال، خلال المراحل القصيرة للحملات الانتخابية اكتشف أنّها تحظى باهتمامات إضافية في المجتمع. وأن الحملات الانتخابية لا يمكن أن تؤثر أبداً على جاذبية الأحزاب السياسية كأحزاب، بل على العكس تزيد من الانقسامات الحاصلة أثناء الحملات الانتخابية. حتى إنه يمكن اعتبار الحملات الانتخابية على المدى الطويل مدمرة، ولها أسبابها.

وقد أعدَّ خبراء العلوم السياسية الألمان ما يسمى **بنظرية المقص**، التي تتألف من:

- الطبيعة المتخصصة والمستمرة وبمستوى عالٍ للاتصالات السياسية والعلاقات العامة الحديثة لتلبية ما ينتظره المجتمع منها.
- إن المواطنين ينظرون إلى الشخصيات الحكومية، والسياسيين والمرشحين كمدراء من مستوى مهني عالٍ، وأنهم قادرون على التعامل مع أية قضية بسرعة وبنوعية جيدة.

ولكننا في الواقع نرى أن العملية السياسية تتميز بأنها قضايا طويلة المدى، ومتعددة الجوانب ولا توجد لها حلول واحدة، وتتصهر مع الحياة ببطء. ومن الممكن القول إن العملية السياسية في عالم العولمة الحديثة أصبحت أكثر صعوبة.

وهذين الوضعين يشكلان شفرتي المقص. ولكن من الممكن أن يكون هذا صعب الفهم عند المواطن الذي يعقد آمالاً كبيرة على

السياسيين، من خلال ما قدمته إليه وسائل الاتصال السياسي والعلاقات العامة، والتي سرعان ما يظهر عدم جدواها، ولتحصل بالنتيجة على نتائج سياسية غير هامة فقط. أي حدوث عزلة سياسية سببها هذا المقص.

والعزلة السياسية هي شكل من أشكال تقبل الجماهير للسياسة، وخاصة لدى الجماهير التي تحصل على المعلومات السياسية عن طريق الإذاعة المرئية فقط.

وللإذاعة المرئية تقنياتها المتخصصة، ومواقفها الثقافية والبرامجية، وتقدم تفصيلات أكثر من بدائل الاتصالات السياسية والعلاقات العامة الحديثة. وعادة يؤدي عدم الإطلاع على الأسس المبدئية والأسباب، إلى دفع المؤسسات السياسة للقيام بإجراءات، يمكن التعرف عليها من خلال الصحف، وتؤدي بالتالي إلى عزلة سياسية كبيرة، يتعرض لها الشباب وكبار السن أكثر من غيرهم.

٧- خلاصة:

ومن هذا يمكننا استنتاج أن النظم السياسية التي تفقد الدعم والتأييد الاجتماعيين تكون مضطرة لاستخدام الاتصال السياسي والعلاقات العامة بشكل أكثر فعالية.

ويعتبر الاتصال السياسي في العلاقات العامة فعالاً، في حال استخدام مواقف مركبة مستمدة من الثقافة التي أضحت تستخدمها نظم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية الحديثة، والتي يمكن وصفها بقمة صناعة الترفيه، لأنها تمتلك مقدرات فردية، وسلبية، مع قصر الفترة اللازمة لتحليل المعلومات السياسية على المدى الطويل.

وينتج عن استخدام هذين المبدأين عادة قضايا جديدة تواجه النظم السياسية. لأن المراحل قصيرة المدى تعطي نتائج مباشرة، ولكن مراحل المدى الطويل لمثل هذه النظم السياسية تخفض الدعم والتأييد الاجتماعيين إلى حد كبير، وهو ما يعتبر في الاتصالات السياسية والعلاقات العامة الحديثة بديلاً للديمقراطية وللتيليكراتيا.

المراجع

١- الإنترنت قادم على مرحلة جديدة // عالم الإنترنت، ١٩٩٨م، العدد ٥. (باللغة الروسية)
٢- الإنترنت للصحفيين (www.press.ru). (باللغة الروسية)
٣- بانارين ي.: التأمين السيكولوجي المعلوماتي للأمن القومي الروسي موسكو: ١٩٩٨م. (باللغة الروسية)

٤- بوفت غ.: لمن ستكون الحياة جيدة على الأرض.//موسكو: صحيفة سيفودنيا، ١٤/٧/١٩٩٩م. (باللغة الروسية)

٥- بيل غيتس: تكنولوجيا الحاسب الآلي، الطريق إلى القرن الـ٢١.// HARD'n'SOFT، ١٩٩٨، العدد ١٠. (باللغة الروسية)

٦- تأثير اقتصاد الإنترنت على أوروبا المعاصرة // Henley Centre، ١٩٩٩م. (باللغة الروسية)

٧- د.صابر فلحوط، د.محمد البخاري: الأمن الإعلامي العربي وهموم المجتمع المعلوماتي في عصر العولمة. دمشق: دار العيسى، ٢٠٠٢م. (باللغة العربية)

٨- فيكتور خارسين: هذا هو واقع الفضاء الإلكتروني// الخطر والأمن، ١٩٩٦، العدد ٦. (باللغة الروسية)

٩- كينيازيف أ.: الإنترنت ٢ فرع جديد للتطور؟// HARD'n'SOFT، ١٩٩٨م، العدد ٥. (باللغة الروسية)

١٠- أ.د.محمد البخاري: تقارب وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية // دمشق: مجلة المعرفة العدد ٥٥٤ كانون أول ٢٠٠٩م. ص ٢٦٦-٢٧٦.

١١- د.محمد البخاري: التبادل الإعلامي الدولي والعلاقات الدولية. مقرر جامعي. طشقند: معهد طشقند الحكومي العالي للدراسات الشرقية، ٢٠٠٦م. (باللغة الروسية).

١٢- د.محمد البخاري: التفاعلات السياسية في وسائل الإعلام الجماهيرية. مقرر جامعي. طشقند: معهد طشقند الحكومي العالي للدراسات الشرقية، ٢٠٠٦م. (باللغة الروسية).

١٣- د.ميخائيل ك.هيرمان: الإتصالات السياسية: تأثير وسائل الإعلام الجماهيرية على المجتمع في الدول الحديثة. جامعة فاينغارتين التربوية (Padagogische Hochschule Weingarten) // www.msps.ru. (باللغة الروسية)

١٤- وسائل الإعلام الجماهيرية الحرة. مدرسة العلوم السياسية بموسكو. // www.msps.ru. (باللغة الروسية)

15- http://www.academy-go.ru/Site/JournalPR/Publications/Herman.shtml.

جيوإستراتيجيات حربية عبر التاريخ

ترجمة: محمد الدنيا ❂

شكلت الكتلة الأوراسية، المحدودة في شمال آسيا الوسطى بغابات «التايغا»، والعالم المتوسطي في الجنوب، مسرح التاريخ العسكري لزمن طويل، منذ بدايات التاريخ وحتى فجر القرن الخامس عشر، أي طوال ما يقرب من ٤٥٠٠ سنة. ولم يمتد خارجها إلا باتجاه شمال أفريقيا.

الصين وإيران

كانت «الصين»، من القرن الرابع قبل الميلاد وحتى القرن السابع عشر الميلادي، محط أطماع رحّل الشمال باستمرار. وكانت الحضارة الصينية، التي ولدت حول «النهر الأصفر»،[1] إبان الألفية الثانية قبل الميلاد من دون شك، قبل أن تتوحد في ٢٢١ قبل الميلاد بزمن طويل، عرضة لحملات هؤلاء دائماً. كان مركز الثقافة الصينية، إبان حكم سلالة «هان» Han (٢٠٦ ق.م - ٢١٩م)، يقع شمال «الصين»، مع وادي نهر «يانغتسي» عند أطرافه. وامتدت «الصين» بالتدريج جنوباً مع حكم سلالة «تانغ» Tang (٦١٨ - ٩٠٦م)، ولم يتفوق وادي «يانغتسي» من حيث الثقل السكاني والأهمية الاقتصادية إلا مع سلالة «سونغ» Song (٩٦٠ - ١٢٧٩م). أما الحدود الشمالية، التي لم تكن منطقة توسع كالحدود الجنوبية، فكانت على العكس منطقة دفاعية، مثلما تظهره بدايات «سور

❂ باحث ومترجم سوري.

الصين»، الذي لم يكتمل بناؤه إلا في وقت متأخر، في عهد سلالة «مينغ» Ming (١٣٦٨ - ١٦٤٤م). مارس الصينيون في الشمال ضغوط الفتح مرتين؛ مرة في عهد سلالة «هان»، وأخرى في عهد سلالة «تانغ». وقد هدفوا من وراء هذا الفتح إلى السيطرة في الشمال الغربي على واحات الطريق المسمى «طريق الحرير» ودفع الرحّل بذلك باتجاه الشمال الأعلى. وإذا كان الصينيون قد وجدوا في الجنوب أراضي صالحة للزراعة تسكنها أقوام حضرية أقل تطوراً منهم، فإنهم لم يصادفوا في الشمال سوى سهوب صالحة لتربية المواشي ورُحَّل محاربين يقتنصون كل ما يسنح أمامهم. إلا أن عمليات التوسع الإقليمي الأقوى في التاريخ الصيني، باتجاه الشمال والشمال الغربي، قبل حكم السلالة المنشورية (المانشوية) mandchoue (١٦٤٤ - ١٩١١م)، تعود إلى سلالتي «هان» و«تانغ». ويعزى ذلك من دون شك إلى أن المحارب لم يكن حتى ذلك الحين يلقى تلك النظرة الدونية من جانب المثقف الكونفوشيوسي الذي أضحى النموذجَ للمجتمع الصيني.

لم يكفّ الرحّل منذ القرن الرابع قبل الميلاد عن مضايقة «الصين» الشمالية، وغالباً ما كانوا يحتلونها. كان احتلال هؤلاء الرحّل لشمال «الصين» ثابتةً في تاريخها. وكانت عمليات الاحتلال هذه تعقبها ظاهرة نوعية جدّاً بالتأكيد: تصيُّن sinisation المحتلّ لغةً وأسلوب حياة.. غير أن ذلك لم يكن يغير شيئاً في جيوإستراتيجيا «الإمبراطورية الصينية» التي ظلت خاصرتها الشمالية جرحاً نازفاً دائماً. من جانب آخر، تعرضت «الصين» مرتين للاحتلال الكامل من جانب سلالتين أجنبيتين تنحدران كلتاهما من الشمال: سلالة «يوان» Yuan[٢] (١٢٧٩ - ١٣٦٨)، وهي من «المنغول»، وسلالة «كينغ» Qing[٣] (١٦٤٤ - ١٩١١م)، وهي من «المنشوريين».

كان على الرحّل، من الناحية الجغرافية، من أجل الاحتفاظ بـ«الصين» الشمالية، أن يتحكموا بهضبة «الأوردوس» Ordos، حلقة «النهر الأصفر» هذه الغائرة في المنطقة السهبية. كان الرحّل يسيطرون على «الأوردوس» - ظلت تلك هي الحال طوال ١٥٠٠ من أصل ٢٥٠٠ سنة من التاريخ - كلما توافرت لهم قيادة مناسبة، مستغلين في الوقت نفسه ضعف السلالات الحاكمة، مما كان يمكّنهم من أن يصبحوا سادة «الصين» الشمالية بعد غزو ينتصرون فيه، وأن يستولوا احتمالاً على العاصمة القائمة آنذاك: «يان»، أو«تشانغ آن»، أو «لو- يانغ». وعلى العكس، كلما كان يتسنى لـ«الصين» وجود سلالة حاكمة قوية على رأسها، تبادر

هي إلى الهجوم للسيطرة على الشمال، وعلى سلسلة الواحات الممتدة على «طريق الحرير» غرباً حتى جبال «تيان شان»[٤] و«دزونغاري» Dzoungarie (غرب «الصين»، والذي يجتازه منخفض «ايلي» على نهر «ايلي» ويعرف بـ «باب دزونغاري») بشكل خاص. كانت تلك هي الحال في عهد سلالة «هان» (٢٠٢ق.م – ٢٢٠م) وسلالة «تانغ» (٦١٨ – ٩٠٢م) أو في بداية حكم سلالة «مينغ» (١٣٦٨ – ١٦٤٤م). كانت الهجمات الصينية تشن في بداية الربيع أو في الصيف، عندما تكون الخيول قد تغذت بشكل مناسب.

شهدت الإمبراطورية فترتين متمايزتين في عهد سلالة «مينغ»: كانت الأولى، وهي فترة هجومية، تطمح إلى استئناف سياسة «الصين» الإمبراطورية.

وقعت خلال هذه الفترة الحملات الصينية البحرية التي أوصلت الأسطول الإمبراطوري حتى شواطئ «أفريقيا» الشرقية، في الوقت الذي كان «البرتغاليون» قد اجتازوا بالكاد شواطئ «المغرب» الجنوبية. وكانت الفترة الثانية، بدءاً بالنصف الثاني من القرن الخامس عشر، فترة انغلاق، حيث انعزلت الإمبراطورية وتميزت بإستراتيجية دفاعية – تأسس «السور العظيم» فعلياً، وأهملت الشواطئ التي كان القراصنة «اليابانيون» يغيرون عليها.

كانت الثقافة والكثافة السكانية ميزتي «الصين» طوال التاريخ. في الواقع، تصيّنت ثقافياً جميعُ موجات الرحّل -كان عديدها قليلاً-، بما في ذلك تلك التي أفلحت في الاستيلاء على كامل الإقليم الصيني: حدث ذلك في غضون بضعة أجيال، واندمجت بالسكان المحليين، إذْ كانت «الصين» في كل الأزمان كثيرة السكان.

استأنفت السلالة المنشورية، بعد الغزو، سياسة «الصين» التقليدية. وبعد أن أصبحوا سادة «الصين» عام ١٦٤٤م، طارد «المنشوريون» جماعات الرحّل في «دزونغاري» وهزموها إبان حكم الإمبراطور «كانغ – هسي» K`ang - Hsi (١٦٦١ – ١٧٢٢م). وزال خطر الرحل تماماً في نهاية القرن الثامن عشر. وسيشكل التقدمُ الروسي، ومن ثم سياسة «الأوروبيين» الإمبريالية بعد ذلك، تهديداً خطيراً على نحو آخر في القرن التاسع عشر.

كان الهدف المميز الآخر لرحّل «آسيا الوسطى» هو «إيران». شهدت «الصين» و«إيران» بهذا الصدد أوضاعاً متشابهة نسبياً. كان شمال نهر «أوكسوس» – «آموداريا» اليوم[٥]- مكاناً لتركُّز جماعات الرحّل. كان هؤلاء في بادئ الأمر من «السكيزيين»[٦]. وقد روى «هيرودوت» أن «داريوس»[٧] أعدّ في القرن الخامس قبل الميلاد حملة

ضدهم من دون أن يُحسن ختامها، إذْ لما كانت هذه الأقوام الراحلة تمارس سياسة الأرض المحروقة قبل وصول جيوش العاهل الأخميني دائماً وتؤثر على معنويات جنده، فقد رأى أن من الحكمة أن يتراجع. ثم جاء الخطر بعد ذلك من الناطقين بالتركية، الذين حلوا بالتدريج محل الرحّل «الهندو - أوروبيين» الذين كانوا يشغلون مناطق شمال نهر «أوكسوس» وحتى «أوكرانيا»، من القرن السابع قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي. وكانت قوة الناطقين بالتركية (الذين امتد مجالهم من سور «الصين» حتى «البلقان») قد ظهرت منذ القرن السادس الميلادي في «آسيا الوسطى»، وفي «الغرب»، كانت «إيران» طوال تاريخها بعد سقوط «الأخمينيين»[8] (الذين حكموا بين ٥٥٠ و٣٣١ ق.م) في مواجهة قوى كبرى تصارعت معها من دون أن يستطيع أي طرف إحراز نصر نهائي: «الإمبراطورية الرومانية»، و«الإمبراطورية البيزنطية»، ثم «الإمبراطورية العثمانية»، بعد الفتح العربي (٦٤٢) ونهاية السلالة الساسانية.

لم تظهر «أفغانستان»، في «الشرق»، قوية بشكل كاف كي تسيطر على بلاد فارس. جاءت الغزوات على «إيران» من الشمال. ومنذ القرن العاشر، كان ضغط الناطقين بالتركية عليها مستمراً، وإذا كان «السامانيون» («الفرس») قد أدوا دوراً حضارياً هاماً في القرنين التاسع والعاشر، فإن «إيران» خضعت في وقت لاحق لسيطرة الناطقين بالتركية، مع «السلاجقة»، من منتصف القرن الحادي عشر حتى نهاية القرن الثاني عشر. مع ذلك، كان وزير السلاجقة هو «نظام الملك»[9] الكبير، الفارسي، الذي كان يتمتع بنفوذ قوي.

إنْ لم تكن «إيران» قد تميزت أبداً بالكثرة السكانية التي امتازت بها «الصين»، كي تتمكن من أن تتمثل غزاتها، فإنها قد تمتعت مع ذلك، دائماً، بالقدرة الثقافية التي تؤثر بالغزاة الجدد تأثيراً عميقاً. فيما مضى، كانت السلالة العباسية (٧٥٠ - ٩٤٥م) - التي تولت الخلافة في «بغداد» بعد «الأمويين» العرب في «دمشق» - قد تأثرت تأثراً بالغاً بالثقافة الفارسية. وكما لاحظ «رينيه غروسيه» R. Grousset، فإن «إيران» كانت «إمبراطورية الوسط» الحقيقية. لقد نزعت كل سلالة إيرانية قوية إلى السيطرة على المجال الممتد من «سمرقند» إلى نهر «الهندوس». تلك كانت حال «الإمبراطورية الأخمينية» (نحو ٥٠٠ - ٣٣١ ق.م) و«الساسانيين» (٢٢٤ - ٦٤٢م)، و«الصفويين» (١٥٠٢ - ١٧٢٢). وتعزَّز ذلك من حيث أن الفارسية كانت طوال ألف عام وحتى بداية القرن التاسع عشر اللغةَ المشتركة

للمجال الممتد من «سمرقند» - «بخارى» حتى «دلهي» - «أغره» في «الهند». ونلمس ذلك أيضاً في الميدان المعماري، وحتى في تصميم الحدائق والمطبخ، الشائع إلى حد كبير من «آسيا الوسطى» حتى «البنجاب».

الهند

كانت «الهند» في كل الأزمان، حتى مجيء الغزو الأوروبي، تُغزى من الشمال الغربي لأسباب جغرافية، حيث أن خاصرتها الشرقية محمية بحاجز جبال «الهملايا». في الواقع، «شبه القارة الهندية» معزولة جغرافياً. أسس اقتحام «الآريين»[١٠]، نحو ١٨٠٠ - ١٥٠٠ق. م، لنشوء الحضارة الهندية وابتدأت معه مداهماتٌ متتالية طويلة الأمد، كغزو «الهون الهفتليت» Huns Hephthalites[١١] في القرن الرابع قبل الميلاد، الذي تبعه غزو سلالة «موريا»[١٢] الهندية الكبيرة (نحو ٣٢٥ إلى ١٨٠ ق.م)، التي أعطت الشخصية العظيمة والاستثنائية جداً، الإمبراطور «آشوكا» Açoka (٢٧٤ أو ٢٧٣ إلى ٢٣٧ أو ٢٣٢ ق.م). امتدت الإمبراطورية في ذلك الزمن من جنوب هضبة «الدكن» (في الجنوب) حتى القسم الشرقي من «أفغانستان» الحالية. عرفت «الهند» بعد ذلك «إمبراطوريةَ غويتة»[١٣] (من القرن الرابع حتى نهاية القرن الخامس).

وبشكل عام، لم تشهد «الهند»، بكامل جغرافيتها، سوى فترة تاريخية واحدة كان الحكم فيها من خلال عاصمة، أي فترة «إمبراطورية موريا»، خصوصاً في عهد «آشوكا».

كانت وحدة «الهند» عبر تاريخها ثقافيةً أكثر منها سياسية. وكانت «الهند» في أغلب الأحيان مقسمة إلى ممالك عديدة، إلا حين تكون تحت هيمنة أجنبية. وتلك كانت حالها في القرن السابع، في زمن «سلطنة دلهي» Delhi في عهد السلطان «علاء الدين خلجي» (١٢٩٦ - ١٣١٦م) ومن خلفوه مباشرة، وإبان «إمبراطورية مغول الهند» في عهد «أورنغ زيب» (١٦٥٩ - ١٧١٧م)؛ وأخيراً تحت حكم «البريطانيين».

سيطر المسلمون منذ القرن العاشر على شمال «الهند»، ثم على كامل «الهند» بالتدريج، باستثناء أقصى جنوب «التامول». وفي العام ١٥٢٦، سعى «بابر»[١٤]، وهو من الناطقين بالتركية (جغطاي djagataï)، وكان قد طُرد من «سمرقند» إثر اقتحام شنه «الأوزبكيون»، إلى أن يغزو من جديد ما كان قد خسره، ولكن من دون نجاح، وانكفأ هو نفسه إلى «أفغانستان». وعندما ذهبت محاولاته سدى، قرر توجيه حملة باتجاه «الهند»، وانتصر، نظراً لتفوقه في سلاح المدفعية. وكجميع الفاتحين قبله تقريباً، شن

المعركة في سهل «دلهي» بعد أن اجتاز مناطق جبلية، ثم صحراوية. وانتصر في معركة «بنيبات» Panipat، رغم قلة عدد جيشه. ومن المهم أن نلاحظ أن سهل «دلهي» قد أدى بالنسبة لـ «الهند» الدور الذي أدته «أدرنة» (عاصمة «العثمانيين» على نهر «ماريتسا» قرب الحدود اليونانية) في تاريخ المعارك التي وقعت عند أطراف «القسطنطينية»: أحد تلك الأماكن التي غالباً ما التقت فيها الجغرافيا والتاريخ. وخلافاً لبلدان آسيوية أخرى كبيرة مثل «الصين»، لم يكن التأثير السياسي لـ «الهند» ملموساً خارج «الهند». لقد مارست تأثيرها على المستوى الثقافي. كانت هنالك «آسيا» صينية أو مصيَّنة: هيمنة صينية على «كوريا» حتى القرن الرابع، وعلى «فيتنام» حتى القرن العاشر، وتأثير غير مباشر على «اليابان»، من القرن الرابع حتى سقوط سلالة «تانغ»، عبر «كوريا».

كذلك الأمر، ولكن بوسائل سلمية، مارست البوذية، التي ولدت في «الهند» ولكن انتشرت خارجها، تأثيراً عظيماً على جنوب شرق «آسيا» و«آسيا» الشرقية: يمكن الحديث إذاً عن «آسيا» هندوسية. ونعني بها «سيلان»، و«بورما»، و«كمبوديا»، و«لاوس»، و«تايلاند»، و«إندونيسيا» التي دخلها الإسلام لاحقاً هي أيضاً، بطرق سلمية، من خلال التجار المسلمين.

رغم كل شيء، وصل تأثير البوذية من جهة إلى «أفغانستان» («قندهار»)، و«الصين»، و«كوريا»، و«اليابان»، و«التبت» نحو القرن السابع الميلادي، التي جعلت سلالة «يوان» المنغولية الأصل تعتنق البوذية، وبالنتيجة «منغوليا» في القرن الرابع عشر. يقاس تأثير «الهند» بعظمة الإنجازات التي تعود إليها بشكل غير مباشر على صعيد «آسيا» التي اعتنقت الهندوسية: معابد «باغان» في «بورما»، و«بوروبودور» في «جاوة»، و«أنغكور فات» في «كمبوديا». وعلى الرغم من خضوعها مرتين للمسلمين، ثم لـ «الأوروبيين» لفترات مديدة، تحصنت «الهند» بتراثها ولم تفقده، ونجحت فضلاً عن ذلك في التكيف. كان تأثير الإسلام مدينياً بشكل خاص، إلا في «البنغال» الشرقية وفي الشمال الغربي.

كان على جميع الغزوات الآسيوية، سواء كانت غزوات رحّل، كغزو «الهون البيض» Huns blancs، أم كان سببها أبناء السهوب («الغزنويين»، أو «بابر» مثلاً)، أن تعبر بعض الممرات الإجبارية، كممر «خيبر»[15] أو «بولان» Bolan، أي «بلوشستان»، قبل الوصول إلى المناطق الحدودية من السهل الغانجي الهندي. ليس مستغرباً أيضاً أن

تكون الجماعات السكانية الأشد ميلاً إلى القتال في شبه القارة الهندية هي جماعات «السيخ»، و«البنجابيين»، و«الماراثيين»، و«الراجستانيين»، مركزة في شمال غرب البلاد، من حيث تدفق الغزاة. بالمقابل، كانت «البنغال»، المحمية جيداً بالجغرافيا، والتي لم تتعرض مطلقاً تقريباً للغزو، معروفة بشكل خاص كمقاطعة شعراء وفنانين.

آسيا الصغرى ومصر

قليلاً جداً ما تغيرت الحدود بين «الأناضول» و«إيران»، خلال ما يقرب من ألفي عام، إلا حينما كان يمكن لإمبراطورية واسعة الامتداد أن تسيطر على مجمل «آسيا الأمامية» Asie antérieure و«آسيا الوسطى» شمال «الهند». كنا نجد الحدود نفسها تقريباً بين «الإمبراطورية الرومانية» و«البارتيين» Parthes[١٦]، و«الإمبراطورية البيزنطية» و«الساسانيين»، وبين «تركيا» و«إيران». وبقيت «أرمينيا»، في هذا التوازن، تشكل لزمن طويل جداً الدولة - الحاجز (الدولة التي تقع بين قوتين عظميين متنافستين أو متخاصمتين احتمالاً فتقلل بذلك من إمكانات الصدام والنزاع) التي كانت القوتان المتنافستان تتنازعان تحالفها أو ولاءها. وإذ كانت القوة التي تتحكم بـ «الأناضول» تجد نفسها بذلك محاصرة من الشرق، فقد كان منطقها الجيوإستراتيجي يحتم عليها التوغل باتجاه «البلقان» جنوب نهر «الدانوب». وكان المفتاح الإستراتيجي لهذا التوسع هو «أدرنة»، «أندرينوبولس» القديمة، أو «فيليبوبوليس». وشكل الممر السوري - الفلسطيني مجال التوسع الممكن الآخر. وعندما تكون الظروف مواتية وتجد الإمبراطورية نفسها على جانب من القوة، فإنه كان يمكن للمنطق الجيوإستراتيجي للإمبراطورية، التي تكون قد توطدت ابتداءً من «الأناضول»، أن يسعى إلى مدّ هيمنتها على مجمل حوض «البحر الأبيض المتوسط» الشرقي. تلك كانت حال «الإمبراطورية البيزنطية» و«الإمبراطورية العثمانية».

كانت مصر، «هبة النيل»، بحاجة إلى التحكم بمجرى «النيل» حتى الشلال الرابع. وقد ربط «البريطانيون» مصير «السودان» بمصير «مصر» إبان الفترة الاستعمارية. «مصر» محمية غرباً وشرقاً بالصحراء؛ كذلك الأمر جنوباً في جزء كبير منه.

عاشت «مصر»، لزمن طويل جداً أيام الدولة القديمة، والجزء الأكبر من الدولة الوسطى، أي طوال ما يقرب من ١٥٠٠ سنة، محميةً بالجغرافيا وعدم وجود قوى عظمى مجاورة. كان التهديد يأتي من الشمال الشرقي، حيث تؤدي «سيناء» دور الحاجز. وقد جاء «الهكسوس»[١٧] من الشمال الشرقي. كانت «مصر»، كلما

استطاعت ذلك أو كلما تشكل تهديدٌ ضدها، كتهديد «الحثيين»[١٨]، تسعى إلى الحصول في إطار إستراتيجية هجومية / دفاعية على عمق غستراتيجي من خلال تحكُّمها بقسم من الممر السوري - الفلسطيني، وعلى نحو مثالي حتى «الفرات». وقعت معركتا «مجدو»[١٩] و«قادش»[٢٠]، أقدم معركتين معروفتين، في هذا الممر تحديداً.

أما بالنسبة للدول الصغيرة، الموجودة في «الهلال الخصيب»، فلم تستطع أن تكون في أمان إلا في غياب وجود دولة عظمى زائدة القوة في «آسيا الصغرى» أو في «مصر».

تلك هي جيوإستراتيجيا بعض البلدان عبر التاريخ قبل أن يؤدي اقتحام «الأوروبيين»، المزوّدين بتسلح وتقانة أجدى بكثير، إبان القرنين الأخيرين، إلى تغيير أو قلب هذه المعطيات جزئياً. من البدهي أنه وُجدت جيوإستراتيجيات مألوفة أكثر، أقرب إلى الوقت الحاضر، كانت حاسمة، أو هي كذلك الآن. ولم تكفّ «بريطانيا»، القوة الجزيرية، عن التصدي للقوة القارية الأكثر تهديداً («إسبانيا»، و«فرنسا» مرتين، ثم «ألمانيا»)، بالتحالف مع أولئك الذين أقلقهم هذا التهديد بالهيمنة.

الهوامش

١- النهر الأصفر (هوانغ هو): يقع في شمال «الصين»، بطول ٤٨٥٠كم. ينبع من هضبة «التبت». يتعرض لفيضانات موسمية مدمرة ويجرف كميات كبيرة من الطمي الأصفر، ومن هنا اسمه.

٢- يوان (وَنّ) Yuan: غزا «جنكيز خان» شمال «الصين» عام ١٢١٥م وتلاه ابنه «قوبيلاي خان» فغزا «الصين» الجنوبية عام ١٢٧٩م حيث أنشأ سلالة منغولية تحكم «الصين» بهذا الاسم واتخذت من «بكين» عاصمة لها.

٣- كينغ Qing: سلالة منشورية (مانشووية) حكمت «الصين» من ١٦٤٤ إلى ١٩١١م.

٤- تيان شان Tian - shan: سلسلة جبال تمتد من إقليم «سين - كيانغ» في «الصين» إلى «قرغيزيا»، ٢٥٠٠كم.

٥- آمودريا: نهر في جنوب غرب «تركستان» عرفه العرب باسم «جيحون»، ينبع من جبال «بامير» في «آسيا الوسطى» ويمتد بطول ٢٦٢٠كم ويصب في بحيرة «آرال» التي تتقاسمها «أوزبكستان» و«كازاخستان».

٦- السكيزيون (السكوذيون، السقيثيون، السكيثيون) Scythes: من البدو الرحّل من أصول إيرانية استوطنوا غرب «آسيا» آتين من «روسيا» عبر «القوقاز». أطلق عليهم «هيرودوت» اسم «إسكوزا». شنوا غارات على «آسيا» الغربية إبان القرن الثامن قبل الميلاد. كانت بينهم قبائل محاربة، قاتلت لحساب «الآشوريين» حيناً و«الميديين» حيناً آخر مقابل الحصول على غنائم..

٧- داريوس الأول: ملك «فارس» ٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م أحد أكبر الملوك «الأخمينيين»، أخضع «بابل» و«ميديا»

و«أرمينيا» و«تراقيا» و«مقدونيا». هزمه «اليونانيون» في «ماراتون» عام ٤٩٠م وتوفي في «مصر».

٨- الأخمينيون: سلالة فارسية أسسها «قورش» الأول في القرن السابع قبل الميلاد. من أشهر ملوكها «قورش» الكبير و«قمبيز» الثاني و«داريوس» الأول و«أحشويرش». امتدت إمبراطوريتهم حتى بلاد «اليونان» و«فينيقيا» و«مصر». انقرضت بموت «داريوس» الثالث بعد أن تغلب عليه «الإسكندر» ٣٣٠ق.م. من آثارها الرفيعة «برسيبوليس» و«شوش».

٩- نظام الملك (١٠١٨ – ١٠٩٢م): أشهر وزراء «السلاجقة». وزير «ألب أرسلان» وابنه «ملكشاه». تفرد بالحكم. أقر الأمن في «العراق» و«فارس». له «سياستنامه».

١٠- الآريون: من الشعوب الهندو- أوروبية، استوطنت قبائلهم قديماً أنجاد «آسيا الوسطى» ثم انتشرت في «الهند» و«أوروبة».

١١- الهون: شعوب آسيوية من غزاة العالم القديم. أصلهم من «سيبيريا» و«منغوليا». دفعوا أمامهم شعوباً بربرية أخرى ووصلوا إلى «الدانوب» نحو ٤٠٥م. غزوا «الإمبراطورية الرومانية» واستقر بعضهم فيها واندمجوا بشعوبها.

١٢- إمبراطورية موريا (نحو ٣٢٢ – ١٨٥ ق.م): أول إمبراطورية هندية أسسها «جندرة كبتا موريا». ضمت كامل «الهند» و«كابول» و«قندهار». أشهر أباطرتها «آشوكا» العظيم نحو (٢٧٣ – ٢٣٢ ق.م) الذي نشر البوذية في «الهند».

١٣- غوبتة: سلالة هندية حكمت «الهند» وامتد نفوذها نحو العام ٤٠٠م إلى شمال «الهند» من دلتا نهر «الغانج» إلى نهر «الهندوس» و«بحر العرب». ويعتبر عهد هذه السلالة (٣٢٠ – ٥٥٠م) العصر الذهبي أو الكلاسيكي لـ «الهند» في ذلك الحين حيث ازدهرت فيها العلوم الدينية والفلسفة والفنون.

١٤- بابر هو «ظهير الدين محمد» مؤسس «سلالة مغول الهند» التي خلفت سلطنة «دهلي» (في «الهند»). ينتسب «بابر» بأبيه إلى «تيمورلنك» وبأمه إلى «جنكيز خان». خلف أباه «عمر شيخ» على «فرغانة» ١٤٩٤م، واحتل «كابل» ١٥٠٥م و«سمرقند» ١٥١١م و«قندهار» ١٥٢٢. ثم اتجه نحو «الهند» فاستولى على «لاهور» ١٥٢٤م و«دهلي» و«أغره» ١٥٢٦م ومملكتي «جونبور» و«راجهستان» ١٥٢٧م. وامتد سلطانه إلى «وادي الغانج» و«البنغال». كان شاعراً وكاتباً كبيراً، له ديوان شعر بالفارسية وقصة حياته «بابر نامه» بالتركية هي سيرة ذاتية من روائع النثر التركي.

١٥- خيبر: ممر شهير في «باكستان» اليوم غرب مدينة «بيشاور» المحصنة قرب حدود «أفغانستان» على الطريق إلى «كابول». يتوسط الممر مجاز ضيق على ارتفاع ١٠٦٧م محصور بين صخور شاهقة ترتفع عمودياً إلى ٤٠٠م. وكان معبراً تاريخياً شهيراً منذ القدم كمنفذ وحيد لغزاة «الهند» القادمين من الشمال الغربي.

١٦- البارتيون Parthes أو الفرثيون: من شعوب «السكيزيين» استقروا قديماً في «خراسان» وأسسوا سلالة «الفرثيين» أو «الأشكانيين» أو «الأرشكانيين» التي طردت «السلوقيين» من «إيران» وحكمت بين ٢٥٠ ق.م و٢٢٤ م. وكانت لها إمبراطورية واسعة امتدت من «الفرات» إلى «الهندوس» وسيطرت على البلدان المجاورة.

أسسها «أرشاك» ومن ملوكها «تيريدات»، «ميتريدات»، وآخرهم هو «أرطبان» الخامس.

١٧- الهكسوس: قبائل غزت «مصر» وحكمتها بين ١٦٥٠ و ١٥٦٠ق.م. أسست السلالتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة. ثار عليهم أمراء «طيبة» وطردهم «أحمس» الأول مؤسس السلالة الثامنة عشرة.
١٨- الحثيون: من شعوب «آسيا الصغرى» قديماً. كانت عاصمتهم في «حتوزا»/ «حتوشة» (آثارها في «بغازكوي» شرق «أنقرة» الحالية). ازدهرت حضارتهم إبان الألفية الثانية قبل الميلاد. أنشأوا إمبراطورية امتدت سيطرتها حتى «سورية» الشمالية في القرن الثالث عشر ق.م. من آلهتهم «حدد». قضى عليهم «الآشوريون» و«شعوب البحر» في أواخر القرن الثالث عشر.
١٩- مجدو «تل المسلّم»: موقع في «فلسطين» شرق «حيفا» فيه أنقاض مدينة «مجدو».
٢٠- قادش («تل نبي مند»): موقع في «سورية» على نهر «العاصي» تجابه فيه «رمسيس» الثاني مع «الحثيين».

المصدر:

Guerres et civilisations, Gérard Chaliand, Odile Jacob, Paris, 2005.

الزواج وتاريخه.. بين الدائم والمؤقت..!!

منيب هائل اليوسفي ✪

المقصود بالـزواج المؤقت هو ذلك الذي تحدد له منـذ انعقاده مـدة معلومة ينتهي بانتهائها، ولكن ذلـك الزواج بهذا المعنى لا وجود له إلى حد علمنا في المجتمعات القبلية، فقد أتيحت لنا فرصة الاطلاع على تقاليد عدد غير قليل من القبائل في أفريقيا وآسيا وغيرهـا، ولم نصادف قبيلـة واحدة يجري فيهـا العرف بعقد زيجـات مؤقتة، حقاً أن الرابطة الزوجية تبدو في بعض المجتمعات القبلية واهية بحيث يتتابع الزواج والطلاق بكثرة، لكن الزواج على كل حال لا يضرب له أجل ينقضي بحلوله، بل يفترض فيه الدوام وحقاً أن بعض المجتمعات القبلية يعرف مراسم معينة أو مناسبات خاصة يباح فيها لـلأزواج والزوجات الاتصال الجنسي بغـير أزواجهم، لكن مثل هـذه العلاقات لا تشـكل زيجات مؤقتة بل ينطـوي بالأحرى على تحلل مؤقت من قيد الزواج.

وعلـى العكس مـن ذلك، هنـاك من الشواهد ما يشـير إلى ممارسة هذا الزواج في أكـثر من مجتمع مـن المجتمعات المدنية القديمـة، والزواج المؤقـت كما تكشف عنه دراسـة قواعـده في هـذه المجتمعات يبدو لنـا في صورة زوجية أدنى مرتبة من الزواج العـادي فالـزواج المؤقت والـزواج العادي يشكلان نوعين متميزين من الزواج.

✪ محام وباحث في القانون العام.

والقاعدة أن شروط انعقاد الزواج المؤقت لا تبلغ في شدتها شروط الزواج العادي، والقاعدة أيضاً أن آثار الزواج المؤقت أدنى في أهميتها من آثار الزواج العادي، وقد نتساءل عن أسباب وجود هذا الزواج في المجتمعات المدنية القديمة، وفي اعتقادنا أن لظهوره فيها أكثر من سبب، ففي هذه المجتمعات تعطى للكفاءة في الزواج أهمية بالغة ففي بعضها يحرم القانون الزواج بين أفراد الطبقة العليا وأفراد الطبقة أو الطبقات الدنيا، والزواج الذي ينصب عليه التحريم هو الزواج المألوف الذي يفترض فيه الدوام والذي تتحقق بالنسبة له حكمة تحريم الزواج المختلط.

فإذا لم يقصد بالزواج أن يكون رابطة دائمة وإنما مجرد علاقة مؤقتة لم ينطبق التحريم، وحتى في الأحوال التي لا يحرم فيها القانون الزواج المختلط، فإنَّ أفراد الطبقة العليا لا يقبلون في الأعم الأغلب على الزواج بأفراد من الطبقة الأدنى، وإذا فعل أحدهم ذلك أسخط طبقته وألحق العار بنفسه وقرابته.

فإذا لم تكن الرابطة بين الرجل والمرأة زواجاً بالمعنى الصحيح بل مجرد علاقة مؤقتة لم يكن في شأنها أن تثير سخطاً أو تلحق عاراً، فأحد الأسباب الباعثة على وجود الزواج المؤقت، هو التفاوت الاجتماعي كمانع للزواج، سواء كان هذا المانع قانونياً أم مجرد مانع عرضي، فالزواج المؤقت يتيح للرجل أن يعاشر معاشرة الأزواج امرأة لا يسعه الزواج منها زواجاً دائماً، لأنَّ القانون يمنعه أو لأنَّ تقاليد طبقته تستنكره.

على أن التفاوت الاجتماعي ليس بالسبب الوحيد فهناك أيضاً السفر والاغتراب الذي يصبح في المجتمعات المدنية أكثر شيوعاً منه في المجتمعات القبلية.

فالتجارة التي تزدهر في المدن تدفع من يمارسها من الرجال إلى الانتقال لجهات بعيدة عن أوطانهم والإقامة فيها لفترات قد تطول والحروب التي تحدث في هذه المجتمعات تستتبع انتقال الجند إلى مناطق بعيدة عن مدنهم وقراهم وقد تمتد غيبتهم سنين.

كذلك طلب العلم قد يدفع بالرجل إلى الإقامة في مدينة غريبة وقتاً يطول أو يقصر، وفي مثل هذه الأحوال يشعر الرجل بالحاجة إلى امرأة تؤدي له ما تؤديه النساء من خدمات طوال بعده عن أهله ووطنه، ومن ثم تكون الظروف مهيأة لظهور نوع من الزواج لا يفرض عليه ما يفرضه الزواج العادي من اعتبار ولا تكون له ما لهذا الأخير من آثار.

ومن المجتمعات القديمة التي عرفت هذا النوع من الزواج مصر إبان العصر

البطلمي، وربما في العصور السابقة أيضاً، فوثائق الزواج التي ترجع إلى العصر البطلمي تشير إلى وجود نوعين من الزواج أحدهما تصفه النصوص الإغريقية بالزواج المكتوب أو المقترن بوثيقة (جاموس إنجرافوس Gamos engraphos) وثانيهما الزواج غير المكتوب أو غير المقترن بوثيقة.

ويتفق الباحثون في أن الزواج المقترن بوثيقة، هو الزواج الكامل الصحيح أو هو الزواج العادي، لكنهم في تحديد طبيعة الزواج الثاني يختلفون، فيرى فيه بعضهم زواجاً لا كالزواج العادي وإنما زواجٌ أدنى مرتبة.[1]

بينما لا يرى البعض الآخر فيه سوى رابطة من قبيل التسري[2].

ورغم قلة المعلومات التي لدينا عن الزواج غير المقترن بوثيقة فإنَّ باستطاعتنا أن نتعرف على جوهره، فهذا الزواج على خلاف الزواج العادي لا يقترن بوثيقة تنظم العلاقات المالية بين الزوجين، وإذا كان الغالب في هذا الزواج عدم تحديد أجل له، وإمكان انحلاله في أي وقت، ففي بعض الحالات يتفق الطرفان على تحديد مدة معينة له ينتهي بانتهائها، ففي إحدى البرديات نجد هذه المدة وقد حددت بخمسة شهور، وإذا كان المألوف عقد هذا الزواج لمدة قصيرة فإننا نصادف حالات استمر فيها الزواج مدة سبع سنين بل أكثر، وهناك حالة لزواج من هذا القبيل يلتزم فيها كل من الزوجين بأن يدفع للآخر تعويضاً إذا طلقه قبل انقضاء المدة المتفق عليها.

يتبين مما سبق أن الزواج الذي تصفه النصوص الإغريقية بأنه زواج غير مقترن بوثيقة هو في جوهره زواج مؤقت، يدل على ذلك ما تشير إليه بعض الوثائق من تحديد مدة معينة له، ويدل على ذلك أيضاً عدم تحرير وثيقة به، ففي الزواج العادي الذي يفترض فيه الدوام كان من اللازم تحرير وثيقة تتضمن بياناً لما ستكون عليه العلاقات المالية بين الزوجين من تقديم الزوجة بائنة لزوجها، أو إنشاء مجموعة مشتركة من الأموال بينهما أو الاعتراف لأولاد الزوجة بحقوق معينة على أموال زوجها، ومثل هذا التنظيم يكون له ما يبرره إذا كان المقصود للزواج أن يكون دائماً.. ولكن إذا قصد له منذ البداية أن يكون مؤقتاً لم يكن ثمة مبرر لهذا التنظيم أو داع إليه.

على أنَّ الوثائق الخاصة بهذا الزواج لم تفصح لنا عن جوانبه الأخرى، وخاصة مصير الأولاد المولودين منه ومع ذلك فإنَّ من الممكن القول بأن الأولاد الناتجين من هذا الزواج كانوا يبقون مع أمهاتهم، وتلك نتيجة نستخلصها من طبيعة الزواج المؤقتة

ومن كونه يعقد عادة بين نساء ورجال لا ينتمون إلى المدينة نفسها أو البلد.

وقد اختفى هذا النوع من الزواج في مصر إبان العصر اللاحق تحت تأثير القانون الروماني من جهة، وتحت تأثير الديانة المسيحية من جهة أخرى، فالقانون الروماني لم يعترف بمثل هذا الزواج وعندما منحت الجنسية الرومانية لرعايا الدولة من غير الروم، صار القانون الروماني واجب التطبيق عليهم، وكان من الطبيعي أن يؤدي تطبيق هذا القانون إلى اختفاء الزواج المؤقت كذلك لابد من انتشار المسيحية وهي ترى في الزواج رابطة دائمة لا انفصام لها قد أسهم في القضاء على هذا الزواج.

أمّا في العراق فهناك أيضاً من الدلائل ما يشير إلى أن هذا الزواج كان معروفاً فقانون حمورابي يفرق بين نوعين من الزوجات، الزوجة التي اقترن زواجها بوثيقة، والزوجة التي لم يقترن زواجها بعقد مكتوب، وهذه تعتبر امرأة متزوجة لكنها ليست زوجة.

فالزوجة بالمعنى الصحيح هي إذاً الزوجة التي بين يديها عقد زواج يقر لها بوضع الزوجة وينظم علاقاتها المالية بزوجها، أمّا المرأة التي ليس بيدها عقد زواج من هذا القبيل فهي امرأة متزوجة لكنها ليست زوجة بالمعنى الصحيح، ومن المحتمل أنّ هذا الوصف الأخير كان ينصرف إلى المرأة التي تكون طرفاً في زواج مؤقت.

كذلك الحال في بلاد الفرس، فهناك ما يفيد أن أهلها كانوا أيام الساسانين يمارسون الزواج المؤقت فقد وصف كريستنس في مؤلفه إيران في عهد الساسانين صورة من صور الزواج بقوله: (...وفي وسع الزوج أن ينزل عن زوجته أو إحدى زوجاته ولو زوجة ممتازة إلى رجل آخر قد وقع في الفاقة بغير تقصير منه وذلك ليستغني بعملها...) ولم يكن قبول الزوجة ضرورياً وفي هذه الحالة لا يستطيع الزوج الثاني أن يتصرف في أموال الزوجة، والأطفال الذين يولدون من هذا الزواج المؤقت ينسبون لأسرة الزوج الأوّل ويعتبرون أبناءه وهذا الاتفاق كان يتم بعقد قانوني يتعهد بمقتضاه الزوج المؤقت أن يقوم برعاية زوجه طوال هذا الزواج الثانوي وهذا العقد من قبيل الإحسان لأخ في الدين معوز (وألقاب الزوج والزوجة في البهلوية هي شوز وزن).

أمّا الزواج المؤقت والمرأة التي تعطى له كأنها مؤجرة، فإنَّ التعبير الفقهي قد أطلق عليهما اصطلاحين آخرين هما ميرك وزياك.(٣)

وإذا كان من الجائز للرجل أن يتزوج زواجاً مؤقتاً من امرأة هي زوج لآخر، فلابد أنه كان من الجائز أيضاً أن يتزوج

الرجل زواجاً مؤقتاً من امرأة ليست متزوجة أصلاً.

يتضح مما سبق أن الشرائع التي كانت قبل الإسلام سائدة في منطقة الشرق الأوسط لم تكن تقف من الزواج المؤقت موقفاً متماثلاً، ففي الأقاليم الخاضعة لدولة الروم لم يكن هذا الزواج ممارساً أو مسموحاً به بينما كان في فارس والأقاليم التابعة لها معروفاً وجائزاً.

ومن الثابت أنَّ الزواج المؤقت أو زواج المتعة كان معروفاً عند العرب زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد روى مسلم عن ابن مسعود أنه قال: كنَّا نغزو مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليس لنا نساء فقلنا (ألا نُستخصى فنهانا عن ذلك ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل.

وعن جابر بن عبد الله كنَّا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق لأيام على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعن سبر الجهني (أذن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمتعة فانطلقت أنا ورجل إلى امرأة من بني عامر كأنها بكرة خيطاء فعرضنا عليها أنفسنا، فقالت ما تعطى فقلت ردائي وقال صاحبي ردائي وكان رداء صاحبي أجود من ردائي، وكنت أشب منه فإذا نظرت إلى رداء صاحبي أعجبها وإذا نظرت إليّ أعجبتها ثم قالت أنت ورداؤك يكفيني فمكثت معها ثلاثاً.

وروى الترمذي عن ابن عباس أنَّه قال: إنَّما كانت المتعة في أوّل الإسلام كان الرجل يقدم البلدة ليس له بها معرفة فيتزوج المرأة بقدر ما يرى أنَّه مقيم فتحفظ له متاعه وتصلح له شأنه حتى نزلت الآية الكريمة **«إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ»**.

ومن الواضح أنَّ الزواج المؤقت كان زواجاً وتجري به عادة العرب قبل الإسلام وممارستهم إيَّاها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان حرياً منهم على هذه العادة وأغلب الظن أنَّ ممارسة هذا الزواج كانت مقصورة على الجهات المدنية في شبه الجزيرة العربية وخاصة مكة ويثرب وأغلب الظن أيضاً أنَّ وجوده بها جاء نتيجة تأثرها بالحضارة والتقاليد الفارسية.

واختلف الفقهاء المسلمون حول شرعية الزواج المؤقت أو زواج المتعة فذهب أهل السنة وفريق من الشيعة إلى تحريمه[4].

وبينما ذهب الفريق الآخر من الشيعة إلى إباحته ويدلي المحرمون والمحللون بحجج وأسانيد يبرر لها كل منهم رأيه ويؤيد مذهبه، وليس في نيتي أن أعرض هنا وفي هذه العجالة للموازنة بين حجج أولئك وهؤلاء لأعلن بعدها أحد الرأيين راجحاً والآخر

مرجوحاً، ولكن كل ما أريد أن أوجه النظر إليه هو الاعتبار التاريخي الذي جعل من المذهب الشيعي المنتشر في إيران والعراق بالذات مؤيداً لشرعية الزواج المؤقت.

وللزواج المؤقت عند المبيحين له أحكامه الخاصة وقد يختلف هؤلاء فيما بينهم حول هذا الحكم أو ذاك من أحكامه لكنهم يتفقون في خصائصه الجوهرية، ومقارنة أحكام الزواج المؤقت بأحكام الزواج العادي أو الدائم تكشف عن فروق أساسية بينهما وتعكس أحكام الزواج المؤقت طبيعته بوصفه رابطة زوجية أدنى مرتبة من الزواج العادي.

وسأستعرض فيما يلي بعضاً من أحكام الزواج المؤقت كما أوردها أحد كبار فقهاء الشيعة وهو أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (٣٨٥- ٤٦٠هـ) في كتابه (النهاية في مجرد الفقه والفتاوى)(٥).

يبدأ أبو جعفر بتقرير مشروعية الزواج المؤقت فيقول (نكاح المتعة مباح في شريعة الإسلام) ثم يعرف نكاح المتعة ويبين شروطه بقوله (هو عقد الرجل على امرأة مدة معلومة بمهر معلوم ولا بد من هذين الشرطين وبهما يتميز من نكاح الدوام، فإن عقد عليها متعة ولم يذكر الأجل كان التزويج دائماً، وإن ذكر الأجل ولم يذكر المهر لم يصح العقد، وأمّا الأشهاد والإعلان فليسا من شرائط المتعة على حال.. اللهم إلا أن يخاف الرجل التهمة بالزنا، فيستحب له حينئذ أن يشهد على العقد شاهدان، ولا بأس أن يتزوج الرجل متعة بكراً ليس لها أب من غير ولي ويدخل بها، وإذا أراد العقد فليذكر من المهر والأجل ما تراضيا عليه، وأقل ما يجزئ من المهر تمثال من سكر أو كف من طعام أو ما أشبه ذلك، فأمّا الأجل فما تراضيا عليه من شهر أو سنة أو يوم، وقد روي أنه يجوز أن يذكر المرة والمرتين والأحوط ما قدمناه من أنه يذكر يوماً معلوماً أو شهراً معيناً فإن ذكر المرة والمرتين جاز له ذلك إذا أسنده إلى يوم معلوم فإن ذكر المرة مبهمة ولم يقرنها بالوقت كان العقد دائماً لا يزول إلا بالطلاق أو ما يجري مجراه، ويجوز أن يشرط عليها أن يأتيها ليلاً أو نهاراً أو في أسبوع دفعة أو يوماً بعينه أي ذلك شاء فعل).

ثم يذكر بعض الآثار التي تترتب عليه فيقول (وليس في نكاح المتعة توارث شرط نفي الميراث أو لم يشترط اللهم إلا أن يشترط أن بينهما التوارث فإن شرط ذلك يثبت بينهما الموارثة، وإنما لا يحتاج نفي التوارث إلى شرط ويجوز للرجل العزل وإن لم يكن شرط ومتى جاءت بولد كان لاحقاً به سواء عزل أو لم يعزل).

ويحدد أبو جعفر حكم الزواج المؤقت بالنسبة لعدد الزوجات، فيقول ولا بأس أن يتزوج متعة ما شاء من النساء لأنهن بمنزلة

الإماء والأحوط له والأفضل أن لا يزيد على أربع منهن.

كذلك يبين العدة الواجبة على المرأة عند انتهاء الأجل المحدد للزواج بقوله: وعدة المتمتعة إذا انقضى أجلها أو وهب لها زوجها أيامها حيضتان أو خمسة وأربعون يوماً وإذا كانت لا تحيض وفي سنها من تحيض.

ذلك إذاً هو الزواج المؤقت وتلك هي الظروف التي مهدت السبيل لوجوده أو تبنيه في بعض المجتمعات المدنية القديمة، أمّا عن مصير هذا الزواج في الوقت الحاضر، ففي اعتقادي أنه سائر إلى الزوال والاضمحلال، فقد اختفت في المجتمعات الحديثة الاعتبارات التي كانت سبباً في وجوده فلم يعد اختلاف الطبقة يشكل مانعاً قانونياً للزواج، كما أنّ انتشار الأفكار الديمقراطية من شأنها أن تخفف من معارضة أسر ذات الثروة أو النفوذ للزواج غير المتكافئ، ولم يعد من الممكن الحديث أو التكلم عن الغربة والاغتراب على نحو ما كان الحال فيما مضى، فقد جعلت وسائل المواصلات الحديثة الانتقال من جهة إلى أخرى من العالم يتم بأسرع وقت وأقل مشقة.

ومن ناحية أخرى أصبح الزواج المؤقت يتصادم مع مفهوم الزواج الحديث، فالزواج في المجتمعات الحديثة لا يقصد به مجرد الحصول على خدمات امرأة سواء في ذلك خدماتها المنزلية أم الجنسية، وإنما أيضاً وقبل كل شيء توفير المناخ الملائم لتربية أولاد وإذا كان هناك ما يميز المجتمعات الحديثة في موقفها من الأولاد فهو شعورها المتزايد بالمسؤولية نحوهم وسعيها إلى ضمان كل الظروف المناسبة لنموهم في جو صحي سواء من الناحية الجسمية أم من الناحية النفسية والتاريخ يعلمنا أن الإبقاء على نظام اجتماعي فقد مبررات وجوده يفتح الباب واسعاً أمام إساءة استعماله، والانحراف به عن الغايات التي وجد في البدء لتحقيقها.

الهوامش

١- يصف فريزيه.. مثلاً الزواج غير المقترن بوثيقة بأنه زواج تجربة بينما يصف الزواج المقترن بوثيقة بأنه الزواج الكامل.

٢- من هؤلاء زايدل فمن رأيه أنه حيث تتحدث النصوص الإغريقية عن جاموس إجرافوس فليس المقصود بذلك زواجاً وإنّما مجرد تسري... أمّا جاموس إجرافوس فهو على العكس الزواج الصحيح المعترف به.

٣- ترجمة: يحيى الخشاب، القاهرة، صفحة ٢١٦.

٤- شرح قانون الأحوال الشخصية للدكتور مصطفى السباعي، ج١، صفحة ٨٧.

٥- نشر بطهران سنة ١٣٤٣ هـ.

مع الأديب الإعلامي إسماعيل مروة

إعداد وحوار: حسني هلال ٭



صفحات من البوح اجترحتها أسئلتنا من إجابات الدكتور إسماعيل مروة التي ابتدأها بازدواجية العلاقة بين الشام وأمه.. «.. فمن قداسة الأم وحنانها إلى طهارة الخصوبة عندها.. لكن أمي ربطت حبل سرّتي وتركتني لشام أسرح في شوارعها وعلى أرصفتها.. معها عرفت حارات دمشق.. وأحببت صوت درج الخشب.. وعلى كتفيها شممت رائحة الياسمين عندما صدمته بجبهتي.. ففاحت رائحته بروحي». ومن بوح مروة نستخلص عصارة تجربة أدبية بين الشعر والقصّ والدراسات النقدية يستبطنها الحوار في استلهامات مروة الانطباعية حتى نذهب مع

٭ أديب وصحافي سوري

بوجه الذي توزع بين أماكن رسخت بالذاكرة العربية، وبين قامات أكاديمية وأدبية تسرّ زائرها واقعياً أو على صفحات الذاكرة فكان للمعرفة حوار معه افتتحته بالسؤال التالي:

- تهدي كتابك «زجاج النوافذ» لأمك وحبيبتك «الشام». علماً بأنّ الأم والحبيبة لا أغلى في الدنيا ولا أعزّ. فهلا زدتنا؟

• ليس إهدائي هذا الكتاب هو الوحيد لأمي وللشام، فالعلاقة التي تربطني بالأم هي ذاتها التي تربطني بشام، فمن قداسة الأم، ومن حنان الأم إلى طهارة الخصوبة عندها، إلى حليب ينهله المرء ليبقى عمره يجوب الشوارع بفضله، من هذا كله لا تغادره الأم مادامت الحياة..

وأنا من الذين التصقوا بالأم طويلاً لأسباب صحية قاسية، فكانت إضافة إلى كل ذلك، الصدر الذي يستقبل السهام القاسية نيابة عني، واليد الحانية، والعين الساهرة، والذهن الراجفة كلما مررت بعارض صحي أو أخفقت في مرحلة دراسية، أو كلما نجحت وتجاوزت عقبة من العقبات..

وفوق ذاك فقد منحتني لونها، وضعف عاطفتها، وحاولت أن تزرع في الخير وحب الآخر، وعدم الإيذاء، ولا أدري إن استطاعت أن تفعل شيئاً من هذا..

أنا لست مدينياً من دمشق، لكن أمي ربطت حبل سرّتي، وتركتني لشام أسرح في شوارعها وعلى أرصفتها، فلم تترك مكاناً لم تجبه بي بحثاً عن طب أعجزنا في ستينيات القرن العشرين.

معها عرفت حارات دمشق القديمة، معها أحببت صوت درج الخشب يئن تحت أقدام مراجعي الطبيب في حي القنوات، ومعها عندما كانت تحملني على كتفيها شممت أول مرة رائحة الياسمين عندما صدمته بجبهتي ففاحت رائحته وانزرعت في روحي..

من أم إلى أم.. أنا لا تفارقني أمي - وكل إنسان أمه غالية عليه- لا تفارقني لأنها موجودة في كل حارات الشام، وأذكر عندما توفيت في ٢١ آذار، هرعت يوم ٢٢ آذار إلى شام لأتزود منها فيضاً من الأمومة، فأعطتني ما لم أكن أتصور أن يعوض أماً وحباً لأربعيني مثلي آنذاك.. حارات شام، مآذن شام، كنائس شام، ياسمين شام، ابن شام، كل ما في شام مختلف.

وحدها شام عندما ترويك بمائها تنسيك من أنت، وحدها شام تستخرج منك لوثة الانتماء إن أخلصت في حبها، ولكنها قد تعجز من يتخذها سكناً لا عشقاً، فلا يتخلص من عشائريته وانتمائه الضيق.. شام العبق.. شام الدين الواحد.

عشت في مدائن عدّة، كلها تشير إلى الغرباء، وحدها شام أم تحتوي الغرباء وتجعلهم من بنيها، لا تشير إلى غربتهم إلا إذا أرادوا واحتفظوا برمزها.. لست أدري كيف ذبت بهذه المدينة الإنسان، ولا أعرف كيف انصهرت فيها، ولا أذكر ساعة حملتني أو حملتها إلى فعل الأمومة والتماهي عشقاً وحباً وحياة!

قد استغرب كثيرون هذه العلاقة بشام، لكنني لا أسرّها، قاسية كانت معي، حنونة كانت، اعترضت سبيلي كثيراً، لاوعتني على أرصفتها وشوارعها، منعت عني غذاءها وحليبها، جادت ذات يوم من زمن غابر، فسكبت هواءها في رئتي، وزرعت أناشيد نزار قباني وسعيد عقل التي قيلت فيها في أذني، وكانت فيروز تصدح، حتى تحولت إلى النغم الذي أحفظه وأسمعه وأردده وأتعشقه..

شام علمتني أن الحياة تبدأ غداً..

شام علمتني ألا أنظر إلى الخلف..

شام قالت لي: مادمت قد أديت صلواتك العشقية من جامع شيخ محيي الدين إلى كنيسة الزيتون فلا تجزع.. أنت حر يا ولدي، ولا تكن عبداً أبداً.

أمي وشام كانتا حرية، حياة حرية وفعل حرية.

إليهما أهدي، وعنهما أكتب لأتعطر دوماً بما تجود به جبهتاهما الطاهرتان.

غيابه خسارة

- في عالم الصحافة كان لنا باع طويل وهام وكان رجال صحافتنا يتربعون على عرشها، وينتشرون في أنحاء الوطن العربي.. وفي يوم ما في زمان ما، علّقنا المشانق لصحافة رائدة، ووقفنا نبكي على الأطلال.

ذلك ما قاله الصحافي «شمس الدين العجلاني» في أحد أعداد جريدة «الوطن». التي ترأس حضرتك قسمها الثقافي. ويأخذ علينا «العجلاني» أنه لا يوجد لدينا في سورية سوى جريدة يومية خاصة واحدة، بعد أن تجاوز عدد ذلك النوع من الصحف عندنا العشر صحف في الخمسينيات. ما قراءتك لذلك؟

• إنَّ البكاء على الأطلال غير مجدٍ، ولا يحسن أن نتغنى بماض إعلامي مجيد، ونحن لا نملكه اليوم، فقد كانت سورية كذلك إعلامياً على وجه الحقيقة، ولكنني عندما أقف مع هذه الظاهرة، أناقشها من منظور التاريخ للصحافة في سورية وحسب.

أذكر أنَّ مئات المقالات، وعدداً من الكتب التي تحدثت عن تاريخ صحافة سورية في الماضي، ولكن كل هذه الدراسات لم تغير من واقع الحال شيئاً.

الإعلام وعدد الدوريات يخضعان لخطة سياسية عليا، وهذا يمنعنا من تفريع الإعلام والإعلاميين، وما جدوى الخروج عن التاريخية في استعراض الإعلام؟!

من المفترض أن تغص سورية بالجرائد والدوريات اليومية العامة والمتخصصة، ووجود الإعلام الكثيف والنشط يؤدي دوراً مهماً سياسياً وثقافياً واجتماعياً، هكذا أرى. وأعلم أن الطلبات كثيرة من أجل هذه الدوريات، وهي في طريقها للعودة، ولعل الأحزاب المشكلة تعمل على صحافة فاعلة وذات وزن.. ربما.

ثقافة مجتمع

- بصفتك عضو اتحاد الكتّاب العرب. ما رأيك بموقف الاتحاد من بعض أعضائه مثل حنا مينه وأدونيس والمرحومين «ونوس» و«عدوان»؟

• أقف دوماً مع الموقف وحريته، ولا أتفق مع مصادرة الرأي وإن خالفني، وحكاية الاتحاد مع أعضائه خضعت لظروف وأحكام كانت بنت وقتها، وأخذت بضجة كبيرة اختلط فيها الشخصي بالعام.

وقصص الاتحاد أنا على اطلاع بها، بل إنني نشرت شيئاً عنها في صفحات «الجريدة» الثقافية، وقد لا يكون من الحكمة أن أتحدث عن الاتحاد كمؤسسة، أو عن الأشخاص كأفراد، فما حصل هو ثقافة مجتمع، والثقافة ضمناً، قامت بما قامت به في وقت وجد الكثيرون من الذين وافقوا على هذا التصرف مع الأعضاء.

أعرف أن عدداً ممن ينادون اليوم ضد الاتحاد كانوا مع معاقبة الكتّاب، وفي مجالسهم الخاصة يفعلون عكس ما يصرحون به.

الأمور تعود إلى نصابها عندما يتم التعامل مع الاتحاد على أنه نقابة مستقلة ليست ذات تبعية مباشرة لمؤسسات الدولة، وبالمناسبة إن الكتّاب المشار إليهم ليسوا مكترثين لما حدث معهم، وقاموا بما قاموا به عن قناعة، وهم يعرفون أن آلية عمل الاتحاد لا تسمح بما صدر عنهم..

إضافة إلى ذلك فإنَّ الكثير من الأحكام تصدر عن فهم مختلف بين المبدع وصاحب القرار الاتحادي. وأذكر أنني تحدثت في ٢٠١٠/٩/١١م مع المبدع والصديق أدونيس في الموضوع، فعرض لي الموضوع كاملاً، وذكر أسماء ووقائع، وبيّن أنَّ القرار اتخذ ضده من دون سؤال وتقص، هو لم يكترث للموضوع.

وأظن أن غياب أدونيس عن مؤسسة الاتحاد خسارة للاتحاد والذي يكسب الكثير

من الدعم المعنوي بوجود قامة مثل أدونيس وغيره.. ومن منطلق أدبي وشخصي -بما أنني لست صاحب مكانة في الاتحاد- أشعر بخسارة كبيرة لوجود هذه الأسماء خارج الاتحاد.

قد لا أتفق مع أدونيس في الكثير من آرائه، لكن الذي أجزم القول فيه هو أنَّ أدونيس قامة كبيرة من العيب أن تكون خارج الاتحاد لسبب غير كافٍ وهو شبهة التطبيع، وأذكر مثالاً لذلك كتبه الدكتور عبد السلام العجيلي الأديب الراحل عندما دعي إلى مؤتمر أدبي، فتم زجه في مشكلات كبيرة إلى أن قام بتوضيحها وشرحها للسيدة الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة آنذاك.

النقابات والمؤسسات يجب أن تكون جامعاً حتى لمن يختلف عنا في الآراء والتوجهات، وأرى أنَّ الاتحاد مارس دوراً مختلفاً في كل الأوقات السابقة، وذلك وفق التوجهات والظروف التي أثرت في سورية..

أتمنى أن..

- لمَ لم تنتسب لاتحاد الصحفيين وأنت الذي تعمل بالصحافة منذ مدة طويلة؟

• لست عضواً في اتحاد الصحفيين بسبب الأنظمة والقوانين في اتحاد الصحفيين، فعندما أردت التقدم لعضوية الاتحاد، تبين أنني يجب أن أقضي فترة، بصفة عضو مشارك أو ما أشبه، وبعد مدة أصبح عضواً عاملاً، وأنا لم أشأ أن أتقدم لعضوية الاتحاد بهذه الشروط غير المتوازنة، فأن تكون متخرجاً من قسم الصحافة، أو عاملاً في أيّة مؤسسة رسمية تكتسب العضوية، بينما ذلك لا ينطبق على الإعلام الخاص!

تناقشت مع أعضاء المكتب التنفيذي وهم أصدقاء، قالوا: هناك تعديلات جديدة ستغير هذه الشروط، ونحن ننتظر، فأنا لا أقبل أن أكون عضواً عاملاً في غير سورية، وفي سورية أحتاج إلى مراحل من دون النظر إلى العمر المهني.. هذا الأمر ببساطة ومن دون أي انزعاج، أنا عضو في اتحاد الكتّاب العرب، وأتمنى أن أصبح عضواً في اتحاد الصحفيين وهذا شرف لكل صحفي..

فوق ما حلمت؟

- إلى كتابتك القصة القصيرة، فقد كتبت المقالة بأنواعها والدراسة والبحث والزاوية. هل تعتبر ذلك يعود لمجال الصحافة الذي تزاوله؟ أم لملكات متنوعة تتمتع بها؟

• بدأت حياتي الأدبية بدراسات نقدية في الجامعة بإشراف أستاذي الدكتور نعيم اليافي -رحمه الله-، وذلك من كتاب الأرض

والإنسان، وهو دراسة مسرحية في مسرحيات الكاتب والمخرج علي عقلة عرسان.

وفي الوقت نفسه كنت قد بدأت جمع قصصي القصيرة التي كتبتها والتي أكتب، فأعددت مجموعة (الأكفان تعلن انقلابها) وقد تأخر نشر هذه المجموعة لظروف خاصة قاسية، لأنها ضاعت عند قارئ اتحاد الكتّاب العرب، وقضيت وقتاً حتى جمعت مسوداتها وأعدت كتابتها مجدداً، وخرجت المجموعة الثانية كتابة (وكان حلماً) قبل الأولى كتابة.

طبيعة دراستي وتخصصي في الدراسات العليا في اللغة والنحو فرضت عليَّ دراسات وقراءات وجدت نفسي أميل إليها، وكنت كذلك على ارتباط وثيق بالإعلام والدوريات.

أقرأ كل ما تقع عليه يدي من دوريات، خاصة التي توزع في معرض دمشق الدولي، وقد قرأت في الإعلام العربي للكتّاب الكبار، وصرت أحاول تقليدهم..

وبقراءاتي بدأت أكتب ملاحظات حول الكتب ما لبثت أن بدأت نشرها في جريدة الثورة من خارج الملاك، إلى أن التقيت مصادفة بالأستاذ الراحل ياسر عبد ربه الذي أغراني وفتح أمامي آفاق مجلة المستقبل، وثم الكفاح العربي، وآفاق مجلة الشهر التي أسسها، فعلّمني ودربني وأعدّني للكتابة، وعلى يديه تعلمت كيفية الكتابة الصحفية المختلفة اختلافاً جذرياً عن الكتابة الأدبية واللغوية التي أعرفها..

أثناء عملي محاضراً في جامعة الإمارات العربية المتحدة كتبت في جريدة البيان وفي جريدة الخليج، إلى أن عدت إلى دمشق وعملت مجدداً مع الأستاذ وضاح عبد ربه في مجلة الشهر.

وبعد ذلك عملت مديراً لتحرير (أبيض وأسود) ومديراً لتحرير (جهينة) ومع تأسيس جريدة «الوطن» شرفني الأستاذ وضاح عبد ربه بالإشراف على القسم الثقافي ليس من باب التواضع أن أنفي وجود ملكات، وليس من الحكمة ان اترك الأمر لمجرد العمل.

القضية ببساطة تتعلق بميول وموهبة، ومن ثم بظروف تهيأت لي فأفدت منها كما يجب، والحقيقة أنني أعرف نفسي، فأنا قارئ نهم وأجتهد كثيراً، ولا أترك لحظة تمر من دون قراءة أو كتابة..

مجموعة الظروف تهيأت لتشكيلي كما أحب، بل أعترف أن ما وصلت إليه كان فوق ما حلمت به عندما كنت طفلاً يعبث في شوارع قريته (معربا) أقرب قرية إلى دمشق، وأبعد قرية عنها اليوم؟!

كونٌ من الإبداع

- أحلام مستغانمي، رجاء الصايغ، سلوى النعيمي، اعتدال رافع، عبد القادر الحصني، ابتسام صمادي.

ما الصفة الأبرز التي تراها كأديب وكقارئ في كل من الأسماء السابقة؟

• يلفت الانتباه أنَّ الأسماء المختارة هي لمبدعات، وبينها كاتب شاعر وهو الصديق عبد القادر الحصني.

مبدئياً أنا لست مع صفة تطلق على إبداع هذا الكاتب أو ذاك، إذ لا يمكن أن يختصر المبدع بصفة أو أكثر، لأنه كون من الإبداع، وكل واحد ممن ذكرت يستحق دراسة مستقلة من اعتدال رافع وذراياتها إلى الانتشار عند أحلام مستغانمي، والرواية الخاصة عند رجاء الصائغ وسلوى النعيمي، وقد أفردت لهما دراسة نشرت في أحد كتبي الصادرة عن وزارة الثقافة، إلى شعرية عبد القادر الحصني وابتسام الصمادي.

إضافة إلى الدراسة والتخصص فأنا أرى أنَّ المزاج في التلقي غاية في الأهمية، كما هو حال المتلقي النفسي، والاجتماعي والسياسي، فما يحمل صفة الآن قد يغادرها في ظرف آخر..

أهم ما أراه أن هؤلاء الذين ذكرت أسماءهم من المبدعين لهم تجربتهم ومكانتهم التي كانت رهن الظروف والأمكنة، وقد أغنوا المكتبة الأدبية العربية بنتاج قرائحهم وإبداعاتهم.

بين قبريهما؟!

- للأماكن ذاكرة ولها في قلوب ساكنيها ومحبيها ذكريات.. ما الذي تحمله من ذكريات لـ: بيروت، دمشق، ومعريا؟

• المكان يعنيني للغاية، ويمكن أن أضيف أماكن أخرى مثل «العين» في الإمارات العربية المتحدة التي أهديتها- مكاناً- كتاباً أنجزته عندما كنت مدرّساً في جامعة الإمارات العربية المتحدة في التسعينيات من القرن العشرين.

كذلك أضيف «القاهرة» العزيزة التي زرتها أكثر من عشر مرات أولها كان عام ١٩٩٦م، وهناك عقدت صداقات لا تذهب من الخاطر، فتحت آفاقاً غنية للغاية من أهمها في حياتي صداقتي مع الأستاذ أسامة أنور عكاشة الكاتب القاص والروائي والسيناريست المبدع، والذي بقيت أزور القاهرة كرمى لوجوده وصداقاته.

وقد دعاني مرة لافتتاح مسرحيته (الناس اللي في التالت) فذهبت وقضيت أياماً كانت

الأغنى مع صديقي العزيز قبل رحيله بوقت، حتى كان وداعنا الأخير في زيارته لدمشق في مهرجان دمشق السينمائي.

وفي القاهرة عرفت الأستاذ المبدع يوسف القعيد والمبدع إبراهيم عبد المجيد والسيدة سميحة أيوب والكاتبة الثائرة فتحية العسال، فالمكان عندي مرتبط بالشخص، كذلك هي «جبلة» التي لم أدخلها وأتجول فيها قبل توطد علاقتي بأدونيس فكانت مستراحاً ومكاناً للحب ومن أحب.

وأنا أنظر إلى الأشخاص والأماكن بقدر ما أحصل منهم من إضافة، فمعربا قريتي ومسقط رأسي وسكني، أهلي وحبي الأول والأخير، وإن كانت الأعمال والظروف قد جعلتني أقصّر في حقها، لكنني بغاية السعادة أنها تعرفني وتحبني، وتقبل استراحتي ومنامي فيها، ومنحتني منزلاً قرب قبر والديّ أزورهما كل يوم فجراً لآخذ رضاهما وتوجيهاتهما.

فأنا لا أقبل الحياة من دون توجيهات والدي إسماعيل وأمي خديجة.. وفي كثير من الأحيان أعدّ قهوتي وأذهب لأشربها معهما بين قبريهما المتجاورين..

ودمشق هي كل شيء، ففيها كانت طفولتي، وكان شبابي، وكانت دراستي، هي التي سلبت اسمها وأعطتني اسم شام المقدس الذي لا يفارقني.

في شام وقفت بالأموي والتقطت صورة لا تنسى فناجيت معاوية وأهله الأمويين، ودلفت إلى مقام الحسين، وإلى صلاح الدين فكنيسة الزيتون وحنانيا والطريق المستقيم..

في شام وحدها نصب العذراء على جدار بيت مسلم، وجار الجامع القديم مسيحي.. شام هي التي علمتني معنى الحياة، ومعنى الآخر، وأحزن على من عاش فيها ولم يكتشف هذه الدواخل الخفية!!

شام استوعبت عشقي وشيطناتي في شوارعها، أطعمتني ليمونها الجامد، وخبزها التنوري، وأهدتني صباحاتها التي لا تشبه غيرها.

وبيروت العلم والحرية، فعلى الرغم من أنني كنت رابع دفعتي من الخمسة الأوائل، إلا أنّ شروط عملي الذي كنت فيه في الثمانينيات من القرن العشرين لم تسمح لي بمتابعة الدراسة، فهرعت إلى بيروت التي احتوتني بحب لا مثيل له، ولم تمنع عني علمها فحصلت فيها على الماجستير في إعراب القرآن بإشراف أستاذي العلم الدكتور العميد أسعد ذبيان.

في بيروت تعرفت عن قرب إلى المترجم البارع عفيف دمشقية، وإلى أساتذتي الكبار الدكتور رفيق عطوي أستاذ الأدب المقارن، والدكتور أحمد أبو حاقة رحمه الله، وهو الأستاذ البارع الذي درست على يديه مادة المنهجية، فعرفت ما كان غائباً عني والدكتور محمود حلاوي المحقق والتراثي وغيرهم كثير.

وبعد عشرين عاماً عدت إلى بيروت بدعوة من أستاذي الدكتور رفيق عطوي حفظه الله الذي أصرَّ عليَّ متابعة الدكتوراه عنده على الرغم من حصولي عليها من جامعة أخرى.. ومع أستاذي وعطفه وعلمه بدأت خطوات الدراسة مجدداً، وهاأنذا أستنشق هواء شارع الحمرا المترع بالثقافة والأدب، وأشرف من بيت أستاذي الذي أحنّ إليه دوماً على الشارع العريق فأغني معه ومع السيدة أم فادي وسحر وربى أغنية المطربة صباح (بيته بشارع الحمرا).

ولا يمكن أن أغادر المكان قبل أن أشير إلى كازاخستان وعاصمتها (أستانا) التي حظيت منها بمنحة للدكتوراه فكانت لي زيارة على أسبوعين لا تُنسى حفاوة وكرماً، ومناقشة، ومحاضرات، وشهادة أعتز بها قدمها رئيس الجامعة البروفسور «بخيتجان رحيموف».. فالمكان والشخص واحد لديّ، ولاقيمة للمكان إن لم يكن لك فيه من يحبك وتحبه.

نهضوية النخبة

- ما تعريفك للنخبة؟ وكيف ترى تأثير النخبة العربية على تقدم مجتمعاتها؟

• النخبة مصطلح لابد من الإقرار به، ولكنني أرى النخبة هي التي قرأت فأجادت وخبرت ثم صارت نخبة المجتمع العليا، ولا أؤمن بمن انخرط بالنخبوية من تلقاء ذاته، وبمن لايجيد قراءة ما يكتب ليصف ذاته بالنخبوية.

والنخبة، بالمعنى الذي أفهمه، ضرورية للمجتمع، وهي رائدة لكل عملية نهضوية ينتظرها المجتمع، وعليها تقوم الحركة الدائبة، ولكن عندما تكون النخبة غير جديرة، أو من تصنيع السلطات، تفقد قيمتها، ودورها، وعلى السلطات أن تعطي المجال واسعاً للنخبة حتى لا تتحول إلى مرض.

وما يشهده المجتمع العربي اليوم من تحركات محقة وفوضى أسهمت النخبة فيها بشكل سلبي، إذ انخرطت النخب بوعي منها وبغير وعي في تكريس مفهومات الانقسام الحادة، فلم تشأ النخبة أن تتحول إلى رائد،

بـل تحولـت إلى طرف مشـارك في تهديم المجتمـع، وكل متابع يدرك الـدور السلبي لهـذه النخبة التـي باعتنا الأفـكار نصف قرن ثـم تحولت إلى طرف في صـراع دام، كان المعول عليها أن تنقذ المجتمع منه، وقد قدمت في ذلك دراسات عديدة.

قارئ فحسب

- هل تعـد نفسك ناقـداً انطباعيـاً أم قارئاً ذوّاقة؟

• أنـا لا أعـدو أن أكون قارئـاً، وبحكم دراستي تعرفت إلى المدارس النقدية العربية والغربيـة، واستوعبتهـا بشـكل مقبول، ثم وجدت نفسي أقارب النص بحب وحميمية وتقدير.

فإن شئت أن تصفني بالانطباعية لابأس، فهي مدرسة نقدية قادرة على الوصول، وإن شئت أن تقتنع معـي بأنني مجرد قارئ نهم يضع حواشيـه وانطباعاته لا بأس في ذلك أيضاً.

وأنا أمجّ صفة ناقد، لأنّ النقد هو عملية إبداعيـة على عملية إبداعيـة، وأظن أنني لاأستحق هذا اللقب، وقد أشار إلى أسلوبي في الدراسـة صديقي الرائع الدكتور رياض عصمـت في تقديمه لكتابي (الشمس تشرق غداً) الصادر عن وزارة الثقافة هذا العام.. لم أصدّر نفسي ناقداً، ولا أحبذ هذه الصفة، حتى بطاقتي العلميـة لا أضع لها إلا صفة (قارئ).

صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين *

قمر كيلاني في ندوة تكريمية:

بمناسبة مرور عام على رحيلها، أقامت وزارة الثقافة في مكتبة الأسد الوطنية ندوة تكريمية للأديبة قمر كيلاني شارك فيها كل من الناقدين خليل موسى وإسماعيل مروة، وعدد من الأدباء والباحثين.

وأشار الدكتور علي القيم معاون وزيرة الثقافة في كلمته إلى أنَّ الأديبة كيلاني في جميع كتاباتها الصحفية والروائية والقصصية كانت تجيد الإلمام بالجوهر والقدرة على الانتقال من موضوع إلى آخر ومن وصف إلى آخر مع الاحتفاظ بحيوية النص وروعة الوصف وجمال اللغة موضحاً أنَّ أعمالها لا تدور في فراغ لأنَّ الهم الوطني شاغلها كما أنَّها تعيش التجربة وتجيد التعامل معها وتتحدى الجدران والأسوار.

وأضاف القيم: إن الأديبة كانت في جميع كتاباتها وإبداعاتها تعبر عمَّا تحس به نفسها وعمَّا يتضح أمامها من معاني الجمال كاشفة لنا جوانب من أسراره وخباياه الزاخرة بالمعاني الوجدانية السامية والإحساسات التي تنقب عن كل معنى يكمن وراء الموجودات التي نلمح أطيافها في ثنايا أدبها من مقالة وقصة ورواية وخواطر ودراسات صادقة رقيقة.

وبيّن الدكتور القيم أنَّ كتابات الأديبة تتداخل بين الموضوعات الاجتماعية وتحرر المرأة والتقاليد والعادات والعلاقات العاطفية والأسرية ومشكلات الزواج والطلاق لكن

---

* أديب وباحث في التراث العربي من (سورية).

الهم الوطنـي والقومي هو الناظم الرئيسي لرواياتها.

بدورهـا قالت الأديبـة لينا كيلاني ابنة الراحلة: إنَّ سورية عرفت الأديبة قمر منذ الخمسينيات مـن القرن الماضي فهي تعمل على تطابق القـول بالفعل وذلك من خلال أغلب الأجناس الأدبيـة التي تكتبها إذ إنَّها مثقفـة من الطراز الرفيع فقد قرأت مكتبة بيتنـا الزاخرة بآلاف الكتـب تلك هي أمي التي ما خبـا شعاعها حتى اللحظة الأخيرة وهي قريبـة من كل الأجيـال لافتة إلى أن والدتهـا كانت من أهـم أهدافها المحافظة علـى اللغة العربية في سلوكها وكتاباتها وفي أعمالها التدريسية.

وأشـارت كيـلاني إلى أنَّهـا وجدت في مكتبة والدتها عشرات القصص والروايات غـير المنشورة إضافـة إلى كثير من المقالات والخواطر كما عثرت على عشرات الأبحاث في الفكـر والأدب التـي ستشق طريقها إلى النور موضحة أنَّ أمها كانت تركز على النشر في الصحف المحلية والرسمية منها وخاصة البعث والثورة والأسبـوع الأدبي كما نشرت في كل أنحاء الوطن العربي.

أمَّا الناقد الدكتـور خليل موسى فقال: إنَّ الأديبـة كيـلاني حاولـت في كتاباتهـا تقديم رسالة تصل فيها إلى المجتمع قوامها النظـرة العروبية والقوميـة والوطنية كما أنَّها لا تحمـل كتاباتها مشكلـة تفرق فيها بين الذكورة والأنوثـة فإذا قرأنا مجموعتها «عـالم بلا حدود» يخيل إلينا أننا أمام امرأة فلسطينية خالصة كما أنَّها امتدت إلى لبنان ثم إلى مصـر وتحدثت عن سليمان المصري الذي قتل سبعة صهاينة واستشهد.

وأضاف موسى: إن كتابات كيلاني تنتمي إلى الواقعيـة الاشتراكيـة فاتجاهها قومي واضح تستخدم فنيّـا أساليب معاصرة كما نجـد في قصصهـا الشاعريـة والمونولوج والقصة الحوارية وقصة الرمز فهي كاتبة لم تأخذ حقها من الدراسات النقدية.

ورأى الناقد إسماعيل مـروة أنَّ المقالة عنـد كيلاني تمثل بالنسبة لها حياة وتجربة واستشـراف، وهي مفعمـة بجوانب الحياة الاجتماعية والقضايا والهموم العامة، فهي لم تكن إنشائية ومن يقرأها يجد أنَّها صدى للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية تقدم صورة متكاملة لا تختلف عن الرواية، وقد تكـون أهم لأنها صرخـة والصرخة لا تحتمل التأجيل حتى الاختمار.

ولفت الشاعر الدكتور «نزار بني المرجة» عضـو المكتب التنفيـذي لاتحـاد الكتاب العرب إلى أنَّ تكريم الأديبة الكبيرة الراحلة قمر كيلاني يمثل وقفة وفاء لمبدعة متعددة أعطـت الكثير من وقتهـا وعمرها في شتى مجالات وحقول الإبـداع الأدبي في القصة

والرواية والدراسات والبحوث الأدبية مثلما أعطت في ميادين المسؤولية تاركة بصماتها في كل زاوية من زوايا المكان والزمان فكانت نموذجاً للأديبة الدمشقية العربية السورية التي أعطت بلا حدود فاستحقت منّا جميعاً التكريم والوقوف في ذكراها العطرة على دروب الخلود.

وحول مسيرة حياة الأديبة الراحلة قمر كيلاني ودورها ومساهماتها الثقافية والاجتماعية قال الدكتور «حسين جمعة» رئيس اتحاد الكتّاب العرب: إنَّ قمر كيلاني تعدّ واحدة من الأدباء المبدعين الذين استطاعوا أن يسجلوا أسماءهم في سجل الخالدين بخيوط من ذهب فحينما ننظر إلى دراساتها ندرك أنها منذ كتابها التصوف الإسلامي تعدّ مبدعة في بابه وكذا كان حديثها عن أسامة بن منقذ وامرئ القيس وإذا كانت لم تعرف باحثة وناقدة فقد عرفت قاصة وروائية منذ إصدارها أوّل مجموعة قصصية بعنوان «امرأة من خزف» ثم توالت المجموعات والروايات لتثبت أنها كانت تتطور تطوراً ملحوظاً في التقنيات الفنية على مستوى اللغة الشعرية ولغة السرد.

وأضاف إن كيلاني حرصت على تأطير العمل الثقافي في نقابات مهنية فكانت من مؤسسي اتحاد الكتاب العرب والاتحاد النسائي واتحاد الصحفيين ثم غدت عضواً في المكتب التنفيذي لاتحاد الكتّاب لأكثر من عشر سنوات.. إنها قمر كيلاني التي غادرتنا جسداً وستبقى في ذاكرتنا وثقافتنا لتستلهم منها الأجيال طريق الخلاص.

ونذكر من بين مؤلفات قمر كيلاني في مجال القصة القصيرة والرواية والدراسات والأبحاث الأدبية:

١- التصوف الإسلامي- دراسة- بيروت - دار شعر -١٩٦٢م.

٢- أيام مغربية- رواية- بيروت - دار الكاتب العربي-١٩٦٥م.

٣- عالم بلا حدود- قصص- بغداد- وزارة الإعلام- ١٩٧٢م.

٤- بستان الكرز- رواية- دمشق - اتحاد الكتّاب العرب-١٩٧٧م.

٥- الصيادون ولعبة الموت- قصص- دمشق - اتحاد الكتّاب العرب-١٩٧٨م.

٦- الهودج- رواية- دمشق - اتحاد الكتّاب العرب-١٩٧٩م.

٧- حب وحرب- رواية- الإدارة السياسية- سورية-١٩٨٢م.

٨- امرأة من خزف- قصص- دار الأنوار- سورية-١٩٨٠م.

٩- اعترافات امرأة صغيرة- قصص- وزارة الثقافة - سورية-١٩٨٠م.

١٠- طائر النار- رواية- اتحاد الكتّاب العرب-١٩٨١م.

١١- الأشباح- رواية- المنشأة الشعبية للنشر- ليبيا-١٩٨١م.

١٢- الدوامة- رواية- وزارة الثقافة- سورية-١٩٨١م.

١٣- المحطة- قصص- اتحاد الكتّاب العرب- ١٩٨٧م.

١٤- حلم على جدران السجون (مجموعة قصصية) - الدار العربية للكتاب- تونس- ١٩٨٥م.

١٥- أوراق مسافرة- دار الجليل- سورية- ١٩٨٧م.

١٦- أسامة بن منقذ (دراسة)- دار النوري- سورية- ١٩٨٥م.

١٧- امرؤ القيس (دراسة)- دار طلاس- سورية- ١٩٨٦م.

وذلك عدا مقالاتها المنشورة في الصحف والمجلات والدوريات المحلية والعربية، وقد ترجمت بعض أعمالها إلى اللغات الروسية، والفرنسية، والإنكليزية، والفارسية، والهولندية، وشاركت في العديد من الندوات والمؤتمرات العربية والدولية، وأدرج اسمها في عدد كبير من الموسوعات العالمية والعربية، وموسوعة أعلام القرن العشرين.[1]

نشاطات بمناسبة يوم اللغة العربية:

عقدت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «إيسيسكو» يومًا دراسيًا حول قضايا اللغة العربية، بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية، الذي قررت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة «يونسكو» الاحتفال به سنويًا.

وتضمّن برنامج اليوم الدراسي الذي نظم في المقر الدائم للإيسيسكو في الرباط، عروضاً علمية تتناول قضايا متنوعة ذات صلة بواقع اللغة العربية ومستقبلها، قدّمها الدكتور عبد الهادي التازي، ومحمد العربي المساري والدكتور عبد القادر الفاسي الفهري، والشاعر فاروق شوشة، والدكتور محمد الأوراغي والدكتور موسى الشامي.

وبهذه المناسبة كرم الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، المدير العام للإيسيسكو، خلال الجلسة الافتتاحية لليوم الدراسي، كل من الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري، رئيس جمعية اللسانيات بالمغرب، والشاعر فاروق شوشة، الأمين العام لمجمع اللغة العربية في القاهرة، تقديرًا من الإيسيسكو لجهودهما في خدمة اللغة العربية. كما تمّ في إطار اليوم الدراسي تنظيم معرض لإصدارات الإيسيسكو، ومعرض للخط العربي للخطاط المغربي محمد قرماد.

وجاء تنظيم اليوم الدراسي تعزيزاً لجهود الإيسيسكو على مدى أكثر من ثلاثين سنة في سبيل الارتقاء بمكانة اللغة العربية في العالم الإسلامي، ودعم انتشارها وتحديث

طرائق تعليمها ووسائله، وتيسيرها للناطقين بغيرها داخل العالم الإسلامي وخارجه.

وفي سورية عبر عدد من الأدباء والباحثين عن أهمية ودلالة الاحتفال باليوم العالمي للغة العربية حيث قال الدكتور محمود السيد رئيس لجنة تمكين اللغة العربية: إن الاحتفال باليوم العالمي للغة العربية يبين أهمية الموقع الذي تتبوؤه لغتنا بين لغات العالم إلى جانب إظهار مكانتها وإسهاماتها في مسيرة الحضارة البشرية.

وأضاف السيد.. أنه كما للوطن حدود ينبغي أن نحافظ عليها كذلك للغة حدود ينبغي أن نحافظ عليها.. من هنا كانت لجنة تمكين اللغة العربية التي صدرت بقرار جمهوري عام ٢٠٠٧م ولجنة تمكين اللغة العربية التي أنيطت بها مهمة وضع خطة عمل وطنية لتمكين اللغة العربية على جميع الأصعدة ومتابعة تنفيذ هذه الخطة وذلك عبر لجان للغة العربية في كل وزارة من الوزارات المعنية كوزارات الثقافة والتربية والتعليم العالي والأوقاف والإعلام وفي جميع المحافظات.

وأوضح السيد أنّ هناك ثلاث مناسبات للاحتفال باللغة العربية فإلى جانب الاحتفال باليوم العالمي للغة العربية هناك الاحتفال باللغة الأم الذي حددته منظمة اليونسكو في الواحد والعشرين من شهر شباط من كل عام وهنالك الاحتفال بيوم اللغة العربية الذي حددته المنظمة العربية للتربية والعلوم في الأوّل من آذار من كل عام.

من جانبه قال الدكتور غسان غنيم مقرر جمعية النقد الأدبي في اتحاد الكتّاب العرب في تقديم مماثل.. إنّنا فرحون بانضمام اللغة العربية لتكون واحدة من أهم اللغات الحية في العالم التي تشارك في إقامة الحضارة العالمية ما يؤكد أنّ لغتنا العربية ذات الأصالة والتاريخ العريق قادرة على أن تكون لغة معاصرة أيضاً تستجيب للعصر ولما يراد منها في التعبير عن المستجدات العلمية والثقافية والإنسانية على الرغم من أنّ اللغة العربية واحدة من أقدم اللغات في العالم.

وأضاف غنيم: إن الكشوف الأثرية الحديثة في مدينة ماري تل الحرير والتي ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد دلت على أنّ الرموز فيها كانت مكتوبة بلغة قريبة جداً من اللغة العربية وبهذا تعدّ اللغة العربية من أقدم اللغات الحية على الإطلاق ما يؤهلها لتكون واحدة من اللغات الأكثر قدرة لتأدية الأغراض العلمية والمعرفية والحضارية فهي لغة غنية بالأصول والمشتقات الناتجة عن تلك الأصول والقادرة أن تحور معاني هذه المشتقات وفق صياغتها في الجملة ما يعطي اللغة مرونة وقدرة على الاستيعاب بأن هذه اللغة التي تشكل هويتنا

القوميـة والرابط الحقيقـي بين الناطقين بهـا هي أهـم صلة بين الماضـي والحاضر والمستقبل.(٢)

السياب يظهر من جديد:

صدر عـن المجلس الأعلى للثقافة كتاب «بدر شاكر السيـاب.. أزهار ذابلة وقصائد مجهولة وروائع»، قام بتقديم الكتاب الشاعر حسـن توفيق الـذي قـدّم دراسـة مهمة مستفيضة عن شعر بدر شاكر السياب.

يتكون الكتاب من قسمين، القسم الأول ويضم الديـوان الأوّل الذي أصدره الشاعر في مصـر عـام ١٩٤٧م وهـو ديوان «أزهار ذابلة»، أمّـا القسم الثاني فهو يضم قصائد لم تنشر في دواوينه، وهي عشر قصائد تمثل مرحلـة الرومانسيـة المبكرة التـي مرَّ بها الشاعر في مقتبل حياته الفنية والمعاشة في الوقت نفسه. بينما تمثل القصيدة التاسعة منها مرحلة الالتزام الماركسي، وهي قصيدة تحمل طابع النبوءة بأحداث انتفاضة تشرين ١٩٥٢م في العـراق، أمّـا القصيدة العاشرة والأخـيرة فإنّها تمثل مرحلـة الارتداد إلى الرومانسيـة خلال فـترة مرض الشاعر في أواخر أيامه، إلى جانـب هذا، هناك ثلاث قصائد لم تنشر في دواوين هي الأخرى، وقد خصصها لمـدح الزعيم الأوحد عبد الكريم قاسم.

ويشتمـل الكتاب كذلك علـى نصوص عدد آخر من القصائـد، يبلغ ١٢ قصيدة، منها سبع قصائد تمثل المرحلة الرومانسية المبكـرة، بينما تمثل بقيـة القصائد مرحلة الالتزام الماركسي والقومي.

تجدر الإشارة إلى أن لبدر شاكر السيّاب ديوان في جزءيـن نشرته دار العودة ببيروت سنـة ١٩٧١، وجمعت فيه عـدة دواوين أو قصائـد طويلة صـدرت للشاعر في فترات مختلفـة: أزهار ذابلـة (١٩٤٧م)، وأساطير (١٩٥٠م)، والمومـس العميـاء (١٩٥٤م)، والأسلحـة والأطفـال (١٩٥٥م)، وحفّـار القبـور، وأنشودة المطـر (١٩٦٠م)، والمعبد الغريق (١٩٦٢م)، ومنزل الأقنان (١٩٦٣م)، وشناشيـل ابنة الجلبـي (١٩٦٤م)، وإقبال (١٩٦٥م).(٣)

توزيع جوائز مسابقة نازك الملائكة:

أعلـن في بغداد عـن أسمـاء الأديبات الفائـزات بجائـزة نازك الملائكـة للإبداع الأدبي النسوي في دورتها الخامسة، وأقيمت بهـذه المناسبة احتفالية كبيرة في قاعة تموز في فندق عشتار حضرها الشعراء المشاركون بملتقى بغداد الشعري وحشد من الإعلاميين والأدباء.

وقـد فـازت بالمركـز الأوّل في مجـال الشعـر نجاة جبار من العراق عن قصيدتها (انعتاق)، وفازت بالمركز الثاني مناصفة كل من هبة السيد من مصر عن نصها (مفتتح)

وشروق حمود من سورية عن نصها (من وجهة قلبي).

أمّا المركز الثالث فكان مناصفة أيضاً بين لمياء حسين من العراق عن نصها (خنف)، وسميحة شفرور من الجزائر عن نصها (شيء كالحلم)

في مجال القصة القصيرة: نالت المركز الأول (مناصفة) إيمان البياتي من العراق عن قصتها (مدينة الجدار)، وإيناس محمد من الأردن عن قصتها (القمر).

وحلت ثانية آية عبد الله من الأردن عن قصتها (غربة)، وسعداء الدعاس من الكويت عن قصتها (أيقونة العباس). بينما كان المركز الثالث من نصيب كل من خديجة أدري من العراق عن قصتها (القشة)، وحنان بيروتي من سورية عن قصتها (نقطة الصفر).

وتمَّ حجب الجائزة الأولى في مجال النقد الأدبي، وبذلك ذهبت الجائزة الثانية إلى فاتن شوقي من مصر لبحثها (نازك الملائكة والصعود إلى سماء الشعر).، وكانت الجائزة الثالثة من نصيب زهور كرام من المغرب عن بحثها (نازك الملائكة ونظم الاختلاف).

وقد تألفت لجنة التحكيم من الدكتور علاء جبر الموسوي (عميد كلية الآداب/ الجامعة المستنصرية)، والدكتور طارق عوني الجنابي (كلية التربية/ الجامعة المستنصرية)، والدكتور عبد المنعم جبار عبيد الشويلي (كلية التربية/ ابن رشد/ جامعة بغداد)، والدكتورة فاطمة ناظم مطشر العتابي (أديبة وقاصة/ وزارة التربية/ المديرية العامة للمناهج).(٤)

اليونسكو توافق على توثيق مواقع الآثار والتراث العربية:

وافقت اليونسكو خلال اجتماع منسقيها الإقليميين على مقترح قدمته وزارة الآثار المصرية بشأن وضع آلية خاصة لنظام معلوماتي جغرافي أثري موحد «GIS» لكل مواقع التراث والآثار في الدول العربية المسجلة على قائمة التراث العالمي، صرح بذلك د.محمد إبراهيم وزير الآثار.

وأشار وزير الآثار المصري إلى أن هذا النظام يهدف إلى التوثيق الإلكتروني الكامل لمواقع الآثار والتراث ويشتمل على المعلومات الأثرية والتاريخية والجغرافية والإدارية والقانونية كافة كإحدى آليات الحفاظ على التراث، وإتاحة هذه المعلومات لصانعي القرار فيما يختص بأعمال التنمية العمرانية والبشرية في هذه المواقع ومحيطها بما يكفل الحفاظ عليها ووضعها في الاعتبار أثناء أعمال التنمية، كما يمكن إتاحة هذه المعلومات للدارسين والباحثين في علم الآثار والتاريخ.

وفي السياق ذاته أوضح د. أسامة النحاس مدير إدارة المنظمات الدولية بوزارة الدولة لشؤون الآثار أنَّ الاجتماع ناقش أيضاً المقترح المصري بإنشاء مركز إقليمي للتراث العالمي خاص بأفريقيا ليكون مقره القاهرة وطالب الحاضرون اتخاذ المسؤولين المصريين الإجراءات اللازمة لتنفيذ هذا المقترح.

كما تمَّ الاتفاق على قيام مصر بعقد دورات تدريبية للعاملين في مجال الآثار والتراث في الوطن العربي على التوثيق والمسح الأثري والرفع المعماري واستخدام تقنيات الفوتو جرامتري وتطبيقات GPS ونظم المعلومات الجغرافية GIS وذلك بالتعاون مع المركز الإقليمي للتراث العالمي بالبحرين.(٥)

الدورة الخامسة عشرة لمهرجان الفنون الإسلامية:

احتضنت الشارقة انطلاقة مهرجان الفنون الإسلامية في دورته الخامسة عشرة، برعاية ودعم من الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة.

نظمت المهرجان إدارة الفنون بدائرة الثقافة والإعلام في الشارقة، في كل من مدينة الشارقة، مدن المنطقة الشرقية (خورفكان، كلباء، دبا الحصن)، إضافة لمدينة الذيد بالمنطقة الوسطى، وتنوعت المشاركات المحلية والدولية لتصل الأعمال المعروضة إلى ١٧٠٠ عمل فني تتنوع بين اللوحة، الفيديو، المجسمات، الأعمال التركيبية، وكذلك أعمال تنتمي للفنون التطبيقية، الجرافيك، الخزف، الحلي، السجاد. كما يبلغ عدد المعارض ٤٥ معرضاً محلياً ودولياً، تعود لـ١٨ دولة، من بينها الإمارات، السعودية، قطر، بريطانيا، أمريكا، فرنسا، تركيا، أذربيجان، مصر، فلسطين، لبنان، العراق، السودان، والهند.

وحول فلسفة هذه الدورة صرح هشام المظلوم مدير إدارة الفنون: أنَّ المهرجان يتجه لتحقيق التوازن بين فنون راسخة أكدت جدارتها من خلال الطرح الأصيل المستند في جانبه الأكبر على أسس وجماليات ضابطة، وفنون أخرى تبدو في هيئة معاصرة كونها تطرح جملة من المفاهيم الآنية اعتماداً على قدراتها في استلهام معطيات الفنون الإسلامية، بإعادة صوغها عبر تقنيات ووسائط تمتاز بالابتكارية والروح العصرية، التي تتسيدها تكنولوجيا رقمية، أتاحت لكثير من الفنانين مساحات شاسعة لتقديم أعمال بصرية ناجزة وقادرة على إثارة الدهشة وشحذ المخيلة الجمعية.

وقد تضمنت فعاليات هذه الدورة إقامة العديد من الندوات الفكرية التي تمحورت موضوعاتها حول الفنون في الحضارة

الإسلامية ومن بينها ندوة بعنوان (الصيغ المتجددة في الفن الإسلامي المعاصر) تناولت مجموعة من المحاور الهامة كمفهوم المعاصرة بالتطبيق على نتاجات الفن الإسلامي في العقدين الأخيرين، تحولات الفنون الإسلامية في الزمان والمكان، أبرز الفنانين المشتغلين بالفن الإسلامي المعاصر، الفلسفات والفكر المرتبط بالمنجز المعاصر للفن الإسلامي.[٦]

غامونيدا يفوز بجائزة الأركانة العالمية:

فاز الشاعر الإسباني «أنطونيو غامونيدا» بجائزة الأركانة العالمية التي تُمنح سنويا من قبل بيت الشعر في المغرب.

وجاء في تقرير لجنة تحكيم الجائزة التي تكونت من الكاتب والباحث محمد العربي المساري «رئيسا» والناقد عبد الرحمن طنكول، والشعراء حسن نجمي، ونجيب خداري، وخالد الريسوني، أن اللجنة ارتأت أن تتوج هذه السنة الشاعر الإسباني أنطونيو غامونيدا «من مواليد أوبييدو سنة ١٩٣١م» تقديراً منها لتجربة شعرية عميقة تحتفي بالتخوم وبتأمل الموت من مشارف الحياة، ولشاعر إنساني نسج مع الشعر علاقة مصاحبة وتأمل وود.

وذكر تقرير اللجنة أنَّ بيت الشعر في المغرب، وهو يمنح جائزة الأركانة العالمية للشعر، لأنطونيو غامونيدا، «إنّما يتوج فيه الشاعر الكوني المحتفي بشعر الحدود والتخوم، باعتباره يسكن عمق نظرة كونية تتشكل من مادة الوجود والحياة وهما يتأرجحان في مسارهما بين لاوجودين: (العدم والموت). كما يتوج فيه الصوت الشعري المتفرد المقيم في خلوته المتأملة للذات وللوجود وللحياة وللموت، في تلك الضفة الشعرية الأخرى التي تسكن وجداننا العربي».

ولذلك فإنَّ تتويج غامونيدا بجائزة الأركانة يعدّ تتويجا لكل الشعر الإسباني، كما هو تتويج «للصوت الذي استطاع بشعريته المتدفقة أن ينبثق من الهامش، وأن يتمرد بصمت على التجاهل والنسيان بسلطة كلمة الشعر المتألقة، وأن ينال ما يستحقه من مكانة وتشريف في عالم الشعر والأدب لأنَّه -ببساطة- ظل وفيّاً للعمق الإنساني الذي يمثله الشعر».

وبعدّ، أنطونيو غامونيدا، عضو الهيئة الشرفية لبيت الشعر، شاعراً كونياً، وقد نال الاعتراف والتتويج ابتداء من سنة ١٩٨٧م حين صدرت أعماله الشعرية تحت عنوان «عمر»، فاجتمعت آراء النقاد والقراء في إسبانيا وخارجها على اعتبار مساره الشعري مساراً متفرداً وتجربته في الكتابة الشعرية تجربة متميزة لا توازي ما كان سائداً من

تجارب، ولا تتناظر مع أي من التيارات أو التقليعات الشعرية المتعايشة فيما بينها داخل خريطة الشعر الإسباني.

وأنطونيو غامونيدا هو ابن الشاعر الإسباني أنطونيو الذي كان ينتمي إلى تيار الحداثة وقام بنشر عمله الشعريّ الوحيد «حياة أخرى أرقى» عام ١٩١٩م. وفي الثالثة من عمره انتقل أنطونيو غامونيدا مع والدته أميليا لوبون إلى ليون بعد وفاة والده عام ١٩٣٤م، وكانت والدته بمثابة درع الأمان له ضد حالة الرعب وحياة البؤس أثناء الحرب الأهلية الإسبانية وفترة ما بعد الحرب. وقد تعلم غامونيدا القراءة في سن الخامسة بفضل قراءته لكتاب والده، وذلك بعد إغلاق المدارس أبوابها عام ١٩٣٦م.

ينتمي غامونيدا إلى ما يسمى بجيل الخمسينات الذي تُطلق عليه تسمية «أطفال الحرب». وقد أصدر عدة دواوين منها «الأرض والشفاه»، «ثورة ثابتة»، «فرائد»، «بلوز قشتالي»، «وصف الأكذوبة»، «لوحات حجرية»، «كتاب البرد»، «يشتعل الخسران»، «ثيثيليا» و«أغنية خاطئة».

ونال أنطونيو غامونيدا عدة جوائز أهمها: جائزة قشتالة ليون للآداب ١٩٨٥م، والجائزة الوطنية للشعر ١٩٨٨م، والجائزة الأوروبية للآداب ١٩٩٣م، وجائزة الثقافة لمنطقة مدريد في الآداب ٢٠٠٤م، وجائزة الملكة صوفيا للشعر الإيبيرو- أميركي ٢٠٠٦م، ثم جائزة سيربانطيس للآداب ٢٠٠٦م.(٧)

رمسيس الثالث ربما قتل ذبحاً:

كشف تحليل جديد أن الملك المصري رمسيس الثالث ربما قتل ذبحا في إطار مؤامرة، وفق فحص إلكتروني بالأشعة المقطعية للمومياء الخاصة بالملك أظهر وجود جرح عميق بالرقبة يكفي لإحداث الوفاة، ما ينهي سراً خافياً لقرون، وجدلاً دائراً حول كيفية مقتل رمسيس الثالث، حيث أشارت «بردية تورين القضائية»، أنه في عام ١١٥٥ قبل الميلاد حاول بعض حريم الملك قتله في إطار خطة للانقلاب عليه من داخل القصر.

وتروي هذه البردية قصة أربع محاكمات منفصلة، وتتحدث عن العقوبات التي طبقت على المتورطين في المؤامرة، ومن بينهم إحدى زوجتي الملك، والمعروفة باسم تاي، وابنها الأمير بنتاؤر، الذي كان وريثاً محتملاً للعرش.

وتقول البردية: إن بنتاؤر، وهو الابن الوحيد من عدة أبناء للملك رمسيس الثالث الذي ثار ضد والده وشارك في هذه المؤامرة، قد تمت إدانته في المحاكمة ثم انتحر.

وقد قام عدد من الخبراء بمحاولات علمية لكشف هذا السر، من بينهم: ألبرت

زنك المتخصص في علم الباثولوجيا بمعهد المومياوات ورجل الثلج ومقره إيطاليا، الذي فحص مومياء رمسيس الثالث وبقايا مومياء أخرى مجهولة تم العثور عليها في مقبرة ملكية بالقرب من وادي الملوك في مصر والتي يعتقد أنها تعود للأمير بنتاؤر.

وقام فريق البحث بإجراء أشعة مقطعية إلكترونية لهاتين المومياءتين بالإضافة إلى اختبارات الحمض النووي «دي أن إي» وذلك في المتحف المصري بالقاهرة حيث يقبعان الآن، حيث كشفت هذه الأشعة والاختبارات أنّ رمسيس الثالث أصيب بجرح عميق بالرقبة يبلغ اتساعه ٢,٧ بوصة، ويقول الخبراء إنّ هذا الجرح ربما كان سببه شفرة حادة وقد يكون تسبب في وفاة فورية.

وقال ألبرت زنك، في ضوء هذه النتائج: «كنّا قبل ذلك لا نعرف إلا القليل حول مصير رمسيس الثالث، وتمّ قبل ذلك فحص جسده، وأجرى خبراء فحوصاً بالأشعة أيضاً عليه لكنهم لم يلاحظوا أية آثار مختلفة، فلم يكن لديهم وسائل الأشعة المقطعية بالكمبيوتر التي لدينا الآن».

وأضاف: «لقد اندهشنا كثيراً بما توصلنا إليه، ولسنا على يقين كامل حتى الآن بأنه قتل بسبب هذا الجرح، لكننا نعتقد أنه كان السبب» في مقتله.

واستطاع الخبراء أن يروا تميمة فرعونية عبارة عن عين حورس داخل منطقة الجرح، ويعتقد أنها وضعت بواسطة المحنطين أثناء قيامهم بتحنيط الجثة وذلك اعتقادا منهم بأنها تساعد على الشفاء.(٨)

روسي يشتري بثمن قياسي رسائل آخر قياصرة روسيا:

اشترى جامع تحف روسي يعيش في إمارة موناكو، بثمن قياسي بلغ ١٢٠ ألف فرنك سويسري أربعة رسائل كتبها آخر قياصرة روسيا نيقولا الثاني خلال الحرب العالمية الأولى، حسبما قالت صالة مزاد سويسرية.

وباع الرسائل نيكولاس رومانوف (٩٠ عاماً)، قريب القيصر عضو الأسرة الإمبراطورية الروسية السابقة الذي يعيش في سويسرا، الذي قال في بيان «سعدت بالغ السعادة حين علمت أن الذي اشترى هذه الوثائق هو شخص واحد غيور على التاريخ. وكونه روسيّاً ضاعف من سعادتي».

وأضاف رومانوف «بالطبع أنا آسف لفراقي لها (الرسائل) لكن أنا في التسعين، وقد اتخذت قراراً يعني أنه قبل احتفالات الذكرى المئوية (التي تحل ٢٠١٣م) لتأسيس العائلة، ربما تصل هذه الرسائل إلى يد مؤرخ أو كاتب سيرة أو أي شخص يكتب شيئاً، وأضاف لست قادراً على هذا ولا أملك الوقت وكان علي أن أبدأ منذ زمن بعيد».

يشار إلى أن أسرة رومانوف كانت الأسرة المالكة الثانية والأخيرة التي تحكم روسيا، وتأسست عام ١٦١٣م وانتهت بقيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧م، وقالت صالة المزاد السويسرية التي أقامت المزاد في جنيف، إنّ الرسائل غير المنشورة الممهورة بإمضاء القيصر، تتحدث عن قلقه على جيشه الذي خاض الحرب العالمية الأولى.[٩]

إحالات

١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا» WWW. SANA. ORG.

٢- موقع ميدل إيست أن لاين WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO.

٣- موقع ألف ياء WWW. ALEFYAA.COM

٤- موقع إيلاف WWW. ELAPH.COM

٥- شبكة المعلومات العربية المحيط WWW.MOHEET.COM

٦- وكالة أنباء الخليج WWW.JAMAHIRIYANEWS.NET

٧- وكالة المغرب العربي للأنباء WWW. MAP. CO. MA.

٨- موقع بي بي سي WWW.BBC.CO.UK/ARABIC

٩- أنباء موسكو/ نوفوش AR.RIAN.RU

قطرات الشاعر الكبير سليمان العيسى

عبد اللطيف الأرناؤوط ✿



«قطرات» ديوان شعـر يدفع به الشاعر سليمان العيسى إلى القارئ العربيّ متحدّياً متاعب الشيخوخة ومنغّصاتها الجسدية من عجـز وسكون حركة، ولسان حاله يقول: لن أتخلّى عن هذا العطش الأبدي لنشر الكلمة الجميلة بين النـاس: أضاميم زهر وأجنحة فراشـات تجمّـل حياتهم مـا دام في عرق ينبض، وطاقة شعريـة خلاقة لم ينفذ إليها الوهن أو الرهق:

قطراتٌ رَشَحت عنها يدي
ويـدي مـن كِـبَرٍ ترتعشُ
عطشٌ فيه بدأنا عمرنا
يرحل العمرُ ويبقى العطشُ

✿ ✿ ✿

عنـوان الديوان «قطرات» يشرح بوضوح مضمونه ونهجه، فقد كان شاعرنا الكبير في مراحل طفولته ويفاعته وشبابه يملك طاقة شعريـة متدفقـة. كانت قصائـده القومية الطوال تنثـال في دواوينه كالسيول الجارفة أو كالأعاصـير والزوابع، حتى نسي ذاته في

✿ أديب وكاتب.

غمرة حماسته، فلن تجد في هذه الدواوين صورة سليمان العيسى إنسان اللحم والدم، لأن أناه ذابت في أنا الجماعة، حتى إذا داهمته الشيخوخة، وبرّدت جمرة اندفاعه، عاد إلى نفسه يتأملها، وإلى عالمه الذاتي يستقرئه إنساناً يعيش في وسط اجتماعي، ووسط طبيعي، ويقيم علاقات مع الناس، أو يصادق البشر والشجر والحجر. ويقرأ سِفر الطبيعة والحياة، وثيّبت لحظات الزمن الهاربة، فديوانه «قطرات» هو ثمالة الثمالة إن شئت، أو هو خلاصة عمر مديد من التجربة الإنسانية والإبداعية. اختار فيه الشاعر خلاصة ما يمكن أن تتركه الشمس الغاربة من آثار وملامح بعد غروبها، يظل الناس يتذكرونها ويسترجعون صورتها من الآثار التي تركتها بعد الرحيل، لتشرق مجدداً في حياتهم:

وهذه قطراتي
وكنّ قبلُ سيولا
أهدهدُ العمر فيها
أمدّ ظلي قليلا
أحاورُ المتنبي
أرتدّ عنه كليلا
لقد عصاني يراعٌ
غزا بي المستحيلا
سكتُّ، لملمتُ جرحي
تمتمتُ: صبراً جميلا
ما دام في العرق نبضٌ
فلن أكون بخيلا
يا جمرةً حملتني
إلى النشيد رسولا
زال الزوالُ وعاشت
لم تستطع أن تزولا

● ● ●

وإشارة الشاعر هنا توحي أنه استعار نَفَسه الشعري من المتنبي للسير على نهجه في قصائده الطوال، ثم أدركه العجز فاكتفى بالمقطوعات القصيرة التي لا تتجاوز أبياتاً معدودة ارتضى بها مُدارياً عجزه على مضض.

في المقدمة التي كتبتها رفيقة دربه الدكتورة ملكة أبيض، تعزو اختياره عنوان الديوان «قطرات» إلى قلة إنتاجه في مرحلة الشيخوخة قياساً إلى إنتاجه الغزير في المراحل السابقة، وتردّ معظم قصائد الديوان التي كتبها خلال ما لا يزيد عن عام إلى أحداث طارئة مرّت بالشاعر خاصة وعامة، ما جعل حياته حافلة بالعلاقات الإنسانية، والأثر البالغ لمحيطه القلق الذي يمدّه بالمعاناة والتأملات الواقعية، فقد تقلّص

الحلم.. حلمه القومي أمام صخرة الواقع المرّ والعجز الجسدي:

تقلصت بانزياح العمر مملكتي

حتى غدتْ عشّ عصفورٍ ومتكأ

وكنت أطلق خيلي في أعنّتها

والآن، لا غُلّةً أروي ولا ظمأ

● ● ●

ومع أن الشاعر لم يتحوّل عن حلمه القومي، فظلّ يتبنّاه بإصرار تارة مفصحاً، وتارة صامتاً، فسكوته ليس تخلياً عنه، لأنَّ الصمت لغة مفصحة، كما يقول في «ظمأ»:

أنا ما أزالُ على ركود مجامري

ظمأً إلى اللهب القديم يتمتمُ

أتظنني حطباً؟

كفتني جذوةٌ

صمتت بأعماقي، وبوحٌ ملجمُ..!

● ● ●

ولم يتخلّ عن اندفاع الشباب، فهو دائب التحسر على ذهاب مرحلة شبابه «وجنونها» الأثير لديه، فهي أفضل في نظره من حكمة الشيخوخة الواقعية، ولو كانت عقلانية:

وكنت أغوصُ في كوبي طويلا

وأنهل ما يشاء لي الجنونُ

وها أنا قد هدأتُ

فلا شراعٌ

يعربدُ في العُباب، ولا سفينُ

● ● ●

ويتمنى لو يعود إليه الشباب ومعه «جنونه» الجميل، يقول تحت عنوان «لنعرف»:

جنونَ الشباب، شبابَ الجنون

ألا ليتَ أيامَك الخالية

تُعربد في دمنا مرّةً

لنعرفَ طعم الصبا ثانية

● ● ●

ولكن على الرغم من حنينه الدائب إلى شعره المجلجل الهادر في مرحلة الشباب، فإنَّ سرّ هذا التحوّل لدى الشاعر، من الشعر الحماسي الخطابي إلى الشعر الهامس المعبّر عن الذات في قطرات، لم يكن مردّه -في تقديري- إلى ظروف عجزه فحسب، وإنّما بدا من خلال استعراض دواوينه في مرحلة الشيخوخة منذ الثمالات. بل قبلها، أنه نهج تجديدي اختاره الشاعر أسلوباً بعد أن احتدمت المعركة بين أنصار التجديد الشعري ودعاة التقليد، فلم يجد الشاعر «سليمان» لدى المحدثين من الشعراء الذين اتخذوا من الشعر الغربي مثالاً لهم ما يحقق رغبته في نقلة شعرية تحرر الشعر

التقليدي من خطابيتـه، واسترساله أحياناً وراء تفاصيل شعرية متسطحة تفقد تأثيره.

وهـو في الوقت ذاتـه كان يطمح إلى لون من الشعر يحتفـظ بقدر من الوضوح، مـع تكثيـف الخطـاب الشعـري القديم الطويـل النَّفَـس، من غـير أن يفقد الشعر جماهيريتـه وهويته، إضافة إلى ذلك اطلاع الشاعر على محـاولات التجديد الحقيقية في الشعـر الغربـي، حيث فرض العصر اختزال الخطاب الشعري المعاصر، وتكثيفه في «قطـرات» تغنـي عـن سيـول جارفة، وتؤدي التأثير ذاته، فأكـثر دواوين الشعراء المعاصرين في الغرب تحتفي بالفكرة المركزة والمكثفة، ومعظم كتّاب القصة اليوم يتبنون في عصر السرعة ما عرف بالقصة القصيرة جـداً، وأكثر النتاج الشعـري المعاصر يميل إلى الاستبطـان الذاتـي، والتأمل الداخلي، وينأى عـن الضجة التـي تشوّش القصيدة حـين يصرفها التعبير عـن العالم الخارجي عـن عالم النفـس وأعماقها. وقـد توافرت للشاعر سليمان العيسـى كل مقومات هذا اللون الجديد من الشعر الهامس، فهو شاعر رومانسي حالم بمقـدار ما هو صاحب حلم واقعي وموضوعي. فاهتمامه بالأطفال ليس حلماً خيالياً، ونحن نشهد في عالمنا المعاصر احتفـاء الساسة العالميين بالتربية، وما تبني عليهـا الأمم من أمـل منشـود. والشاعر «سليمـان» يؤمن بدور الكلمـة الشعرية في حياة الجماهير العربية إلى الآن، وما تحمل مـن أبعاد وقيم مادية وروحية، فيقول تحت عنوان «كلُّهم حولي»:

لم يزلْ في بلدي للكلمةْ
سِحْرُها
كانت حياتي كَلِمةْ
الصبايا والشبابْ
والحكاياتُ العذابْ
كلهم حولي.. لأجل الكلمةْ
وأغني.. وأنا بعضُ حُطامْ
إنما الشعرُ كلامْ
هو بين الله والأرض نداءْ
يصل الأرضَ بأسرار السماء

• • •

فإيمانه بالشعـر أسْلَمَه إلى رومانسية لم تكن متشائمـة، أو فردية ناقمة، فهو إنسان منفتـح علـى الآخـر، منسجم مـع الحياة والواقع، ودود ومسعـف ومتكيّف، لا يحمل قلبـه الحقد والأذى لمخلوق أو جنس. لم يَهْجُ إنساناً في شعره وهو صديق للطبيعة يسحره جمالهـا. صديق للمـكان ومعالمـه وآثاره، وبعيد عن العنصرية، له في كل مكان حلّ به أصدقاء ومعارف وصحبة دائمة، هذا البعد

الإنساني لرؤيته الشعرية هو ما أراد تثبيته في ديوانه «قطرات» فمن خلاله نلمح عبر هذه الخواطر أو القطرات اتجاهه الشعري التجريدي الذي بدأ مبكراً في دواوينه السابقة على صورة أبيات محدودة يوجهها إلى صديق وفيّ، أو لوحة طبيعية مشهدية يرسم من خلالها مشاعره، أو صورة إنسانية تنبض بالحياة لشخصية شعبية مغمورة جمعته بها أحوال الحياة في فندق أو مقهى أو مجلس. وعلى مرّ الزمن رسخ هذا الاتجاه الذي يسمّيه النقّاد خطأ شعر المناسبات، والأجدر أن يطلق عليه: شعر الحياة أو الشعر الإنساني النبيل. وخاصة إذا كان صادقاً، مجرداً من المصلحة والمبالغات. لقد رثى سليمان العيسى الشاعر نزار قباني بقصيدة جميلة مطوّلة، ورثى الكاتب المناضل غسان كنفاني بكلمة مؤثرة، ورثى الشاعر السعودي غازي القصيبي فحرّر الرثاء التقليدي من المبالغات المقيتة، ولم يقل في المرثي إلا ما يحدّده حقاً، فالراحل القصيبي:

زرع الرمل أقحواناً ووردا
ومشى في الهجير ظلاً وبَرْدا
شاعرٌ من عَرار نجد سقتهُ
نفحات العرار عطراً ونَدّا
ذاتَ يوم قرأته فرماني
في تخوم من نشوة، تتحدى
كان في صوته امرؤ القيس والأعشى
ونجدٌ حلوٌ يغازل نجدا
هكذا تُنْبِتُ الرمال قوافيها
فتخضوضرُ القفار وتندى

• • •

وما يلفت النظر في «قطرات» الشاعر أنه لا يُقدِّم من الخواطر واللوحات والذكريات إلا ما يبهجه ويسرّه، ويجعله يغرق بفرح الحياة وسعادتها، ولا يتناول أي وجه عابس من الحياة يزيد هموم القارئ ومتاعبه سواداً ويعكر صفوه. ومع أنّ الشاعر سليمان العيسى مرّت في حياته مواقف وظروف قاسية جديرة بالتسجيل، منها سجنه مراراً، وتشرّده، لكنه آثر أن ينأى عن إشراك قارئه في جهامة تلك الذكريات وعبوسها. والجانب السلبي الوحيد الذي يثيره في خواطره ما يراه من فساد ذوق أو تشويه متعمد وتضليل فكري مقصود، فيما يقرأ من الوقائع والنصوص والمرويات، فيردّ على ذلك بعنف.. يكتب تحت عنوان (احتجاج شديد اللهجة) معلقاً على بيت منحول نسب إلى «ولّادة بنت المستكفي» ورد فيه:

أمكّن عاشقي من صحن خدي
وأعطي قبلتي من يشتهيها

فيعترض على هذا النحل، ويربأ أن تكون الشاعرة الأندلسية الأميرة في هذا المستوى من الانحدار والسخف، فيعلق عليه:

كلامٌ من سخيف القول، فجّ
أضيفَ إليَّ ممجوجاً كريها
أحبُّ فأجعل الدنيا نشيدا
على وتر، أجل، وأتيه تيها
وأعشق، حين أعشق، عبقرياً
يجوب بيَ المجرّة لا سفيها

• • •

وتحت عنوان «الشاعر والخيال» يُبدي رأيه في خيال الشاعر، فيرى فيه جناح الشعر للتحليق والرؤى، لكن ضمن الحدود التي يقرّها منطق الفن وجمال التخييل:

الخيالُ المجنّحُ
فرسُ الجن يسبحُ
في غيوبٍ من الرؤى تنداحُ
ما يشاء الجنون والانسياحُ
غير أني أحدّهُ
عن جنوني أردّهُ
بالبيان الذي يُفيدُ
عبثَ القول لا أريدُ

وفي بعض هذه القطرات المنتقاة من البيان وروعة التشبيه ما يشهد للشاعر بالتميز الفني، يقول تحت عنوان «من أجل حمص»، وقد عاتبه رفيقته لأنه لم يكتب عن مدينة «حمص» شيئاً، وهي بلد الشعراء، وحاضنة العاصي والميماس:

لم تقل في «حمص» شيئاً إنّها
بلدُ الشعر وبيتُ الشعراءْ
لمَ لا تنشدها أغنية
بروًى الميماس والعاصي تضاءْ

فيعلّق على عتابها قائلاً:

أطرق الشاعرُ والشعرُ فقد
ألجم العتبُ ينابيعَ الغناءْ
إنه السرُّ الذي يجعلنا
نكتمُ الأغلى ونهوى في الخفاءْ

• • •

ومن أمثال ذلك، تلك الصورة الشعرية الحالمة التي جسّد فيها النبوغ وشروطه، تحت عنوان «ريشة أو ريشتان»:

ريشةٌ.. ريشتانِ
لا تكفيانِ
لتُعدَّ الجناحَ للطيرانِ
نفضت ريشَها العقابُ.. فكانت
ملءَ سمعِ الفضاءِ..
ملءَ الزمانِ

• • •

أو هذه الخاطرة بعنوان «تاريخ» التي تختزل تحت كلماتها مجلدات:

اشتعلت
نارٌ
في بلدي
في منتصف
القرنِ
الفائتْ
ما زالَ
العالمُ
مشغولاً
في إخمادِ
اللهبِ
الصامتْ

• • •

نلاحظ في هذه الخاطرة تشكيلاً جديداً لكلمات النص على الورق فهو يعبّر عن نزعة تجديدية معاصرة لدى الشاعر تتعلق بشكل الشعر وتأثيره، فكل كلمة تستقل في سطر منفرد. وكأن كل مفردة تحمل من العبء ما يستغرق علاجه زمناً، يمثله التدرج الطويل البطيء لترتيبها على مساحة البياض. فإذا أضفنا إلى ملامح تجديد الشاعر وحدة المضمون في دواوينه الأخيرة، وإعادة النظر في توزيع ديوانه الكبير إلى وحدات مضمونية، تبيّن أن الشاعر سليمان العيسى يتبنّى رؤية عصرية تجديدية للشعر العربي. فالأحداث الكبرى في حياة الأمة ليست إلا مناسبات يطويها الزمن، ويبهت ما قيل فيها بعد غيابها من ساحة التاريخ، أمَّا الذي يبقى فيها ويخلّده فهو قيم الإنسان، لأنَّها تدعونا إلى أن نسعف عالمنا القلق، وندعوه لأن يسعفنا في تقبّل الحياة، فهو يداوي جراحنا، ويهب وجودنا معنى..

مثل هذا الشعر الإنساني الذي تقدمه (قطرات) فيه من الدفء الإنساني وجمال الروح ما يشدّنا إلى أن نقرأه ونعيد قراءته مراراً، لأنه الخالد السرمديّ، يغنّي فيه الشاعر لجمال الحياة، وللناس من حوله، ولمن يجيء بعدهم.. يغنّي والمرارة في حلقه، قال ذلك معبّراً عن شقاء حرفة الشعر في مقدمة شعرية لكلمة نثرية وجَّهها إلى صديق شاعر بعنوان «صديقي زاهر»:

هو شاعرٌ..
لندعهُ والخَطَرَ الذي أسرى له واختارهُ
خَطَرَ الغناءْ..
أنا لستُ أعرفُ مهنةً
أشقى وأمتعَ..

لست أعرفُ..

إنها في عُرفِهِ، في عُرفِنا سرُّ البقاء

لندَعْهما..

هو واللَّهيبُ الحلوُ

يصطرعانِ..

ما جدوى الوجودِ بلا وترْ؟

يغني بدندنةٍ..

ليَمْسَحَ بعضَ أوجاعِ البشرْ..

أجل.. إذا شئتَ أن تبحث عن الشاعر سليمان العيسى لسان الأمة المعبّر، فالتمسه في شعر شبابه؛ وإذا أردت صورة «سليمان» الإنسان.. إنسان الحب والصداقة والحكمة وكل ما هو جميل يمتّع القلب ويفرحه فالتمسه في شعر كهولته، ومن خلال قطراته المنتقاة، فإنّها ستكون زاداً لك لتجدد إيمانك بالحياة والمثل العليا، وواحة تفيء إليها إذا أتعبتك الحياة..

آخر الكلام

رئيس التحرير

النوادر السلطانية

ترك لنا بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢هـ ت ١٢٣٤م) في كتابه الشهير «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» شواهد رائعة عن عصر حافل بالأحداث وعن قائد مرحلة مضيئة في تاريخ أمتنا العربية، هو صلاح الدين الأيوبي.. لقد كان ابن شداد شاهد عيان يسجل ما يشاهد، بل وما يعاني، فكان كتابه بحق أفضل ماكتب، وأروع ما سطّر في سيرة هذا البطل الخالد في تاريخنا العربي.

روى ابن شداد في «نوادره السلطانية» العبر والأحداث والقصص التي تحمل مضامين، وتنير جوانب من التاريخ، في ذكر بعضها عظة ودروس ومتعة وفائدة.. يقول ابن شداد:

لقد كان السلطان كثير المروءة، نديّ الوجه، كثير الحياء، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده، ولا يخاطبه في شيء إلا وينجزه...

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، وكان يوصينا بأن لا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده، وينالهم من إحسانه.

ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير إفرنجي وقد هابه، بحيث ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع، فقال له الترجمان: من أي شيء تخاف؟ فأجرى الله على لسانه أن قال: كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه، أيقنت أني ما أرى إلا الخير، فرقّ له، ومنّ عليه، وأطلقه.

❁ ❁ ❁

عن جهاد السلطان صلاح الدين الأيوبي، يقول ابن شداد: لقد كان الجهاد وحبّه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه، استيلاء عظيماً، بحيث ماكان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحثه عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريح على مرج عكا، فلو لم يكن في البرج لقتلته، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً.

عندما يُذكر صلاح الدين، تُذكر حطين، وتُذكر قصة تلك المرأة الصليبية التي فقدت ابنتها يقول ابن شداد:

لقد كنت راكباً في خدمته في بعض الأيام قبالة الإفرنج وقد وصل بعض اليزكيّة (لفظ فارسي معناه: طلائع الجيش) ومعه امرأة شديدة التحرّق، كثيرة البكاء، متواترة الدق على صدرها، فقال اليزكي: إن هذه خرجت من عند الفرنج، وسألت الحضور بين يديك، وقد أتينا بها، فأمر الترجمان أن يسألها عن قضيتها، فقالت: إنّ اللصوص، دخلوا البارحة إلى خيمتي، وسرقوا ابنتي، وبتّ البارحة أستغيث إلى بكرة

النهار، فقيل لي: الملك هو رحيم، ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك، فأخرجوني، وما أعرف ابنتي إلا منك. فرقّ لها ودمعت عينه، وحركته مروءته، وأمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة: من اشتراها، ويدفع له ثمنها، ويحضرها، وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه، فما كان إلا أن وقع نظرها عليها، فخرّت إلى الأرض تعفّر وجهها في التراب، والناس يبكون على ما نالها، وترفع طرفها إلى السماء، ولا نعلم ما تقول، فسلّمت ابنتها إليها، وحُملت حتى أعيدت إلى عسكرهم.